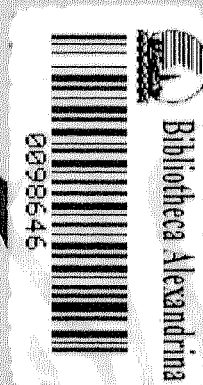


دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد II

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

رسالة





الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد الحادي عشر

دوستوفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. ساي الدروني

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ٣٧ ٥٥ / ١٤ - هاتف: ٢٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

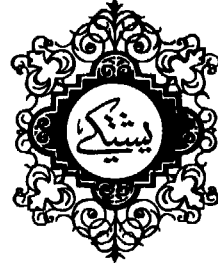
لا اله الا الله
٢

جميع الحقوق محفوظة

الأبلة (Idiote) ، كتبت هذه
الرواية بين سنتي ١٨٦٧ ، ١٨٦٩ ونشرت
مسلسلة في مجلة « الرسول الروسى »

الجزء الثالث

الفصل الأول



عندنا دائماً من أننا يعوزنا أناس عمليون • فيقال مثلاً ان هناك وفرة في رجال السياسة ، وان هناك كثيراً من الجترالات ، واتنا اذا احتجنا الى رؤساء للمشروعات ، أيّاً كان العدد الذي نريده منهم ، فسوف نجد ضالّتنا من جميع أنواعهم فوراً • أما الناس العمليون فلا تقع عليهم ، أو قل على الأقل ان جميع الملاء يتشكون من أنهم لا يقعون عليهم • حتى ليقال ان بعض الخطوط الحديدية لا وجود فيها لموظفين يحسنون القيام بأعمالهم البتة ؛ ويزعم بعضهم انه يستحيل كل الاستحالة على شركة من شركات الملاحة أن يتوفر لها موظفون فينون ولو على درجة متوسطة من الكفاءة • فتارةً يصل الى علمنا أن عربات الركاب ، على خط جديد من خطوط السكك الحديدية ، قد تصادمت أو تهاوت مع جسر من الجسور • وتارةً نقرأ أن قطاراً بقي متعطلاً وسط حقل من الثلج حتى أوشك أن يعجز عن استئناف المسير طوال فصل الشتاء فاذا بالمسافرين الذين كانوا يظنون أنهم لن يغيبوا الا بضعة ساعات ، يلبثون في الثلج خمسة أيام • وتارةً يُروى أن ألوفاً كثيرة من أرطال البضائع قد فسدت لبقتها في مكانها شهرين أو ثلاثة أشهر بانتظار نقلها • وتارةً يُذكر (وهذا شيء لا يكاد يُصدّق) أن واحداً من موظفي الادارة ، هو مراقب من المراقبين مثلاً ، لم يجد ما يردُّ به على طلب مندوب أحد التجار ، الذي

كان يستعجله شحن البضاعة ، الا أن يصفعه على وجهه ، فلما سئل عن فعلته لم يزد على أن صرَّح بأنه « غضب » • والمكاتب تبلغ من الكثرة في دوائر الدولة أن المرء يرتعش حين يفكّر فيها • ان جميع الناس عملوا موظفين في الحكومة ، أو يعملون موظفين أو يأملون أن يعملوا موظفين • هل يصدّق العقل أن لا نستطيع أن نعثر بين هذه الوفرة الهائلة من الناس على قلة قليلة تصلح لأن تعمل في شركة ملاحه ؟

هذا سؤال يجب عنه بعضهم اجابة مسرفة في البساطة ، حتى لتبلغ من اسرافها في البساطة أن المرء يصعب عليه أن يقبلها • يقول هؤلاء : ان جميع الناس في بلادنا قد عملوا موظفين أو ما يزالون يعملون موظفين ، فهذا يدوم في الواقع منذ مائتي عام ، يتوارثه الناس أحفاداً عن أجداد ، على غرار خير قدوة أخذناها عن الألمان • والذين يعملون في الوظائف هم بأعينهم أبعد الناس عن الروح العملية ؛ حتى ان الفكر التجريدي وفقدان المعرفة العملية كانا ما يزالان الى عهد قريب يُعدّان بين الموظفين أنفسهم فضيلةً بارزة ولقباً رفيعاً •

ولكن علام تكلم عن الموظفين بينما كان غرضنا في الواقع أن نتحدث عن الناس العمليين عامة ؟ هنا نستطيع أن نقول في غير شبهة ان الوجل وفقدان المبادرة الشخصية كانا يُعدّان دائماً في بلادنا خير علامة أساسية يُعرف بها الانسان العملي • وحتى في زماننا هذا ما يزال الناس يرون هذا الرأي • ولكن لماذا تنهم أنفسنا ، هذا اذا صحّ أن في هذا الرأي اتهاماً ؟ ان فقدان التفرد والأصالة قد عُدّ في جميع البلاد وفي جميع الأزمان ميزة أولى ومدخلاً مضموناً لشخص قادر على النجاح في الأعمال وعلى امتلاكه الحس العملي ، أو قل ان تسعة وتسعين في المائة من الناس

(على الأقل) كانوا يرون هذا الرأى دائماً ، وان واحداً فى المائة منهم
(على الأكثر) كان دائماً وما يزال لا يرى ذلك الرأى •

ان المخترعين والعباقرة قد نظر اليهم المجتمع فى جميع الأزمان تقريباً
نظرته الى أناس حمقى ، وذلك فى بداية حياتهم (والى آخرها فى كثير
جداً من الأحيان) • هذه ملاحظة معروفة شائعة حتى لتكاد تكون مبذولة •
فطوال عشرات السنين مثلاً ظل الناس يودعون أموالهم فى مصرف
لومبارد * مختزين المليارات بفائدة ٤٪ ، فلما توقف مصرف لومبارد عن
العمل ، فصار كل انسان متروكاً لمبادرته الشخصية ، كان لا بد أن نرى
أكثر تلك الملايين تتبحر بين أيدي محتالين فى غمرة حى من المضاربات ،
فلتلك هى النهاية المنطقية للأداب الاجتماعية والأخلاق الحسنة ، وانما أقول
« الأخلاق الحسنة » ، لأنه اذا كان الحجل المناسب والابتعاد المحتشم عن
التفرد والأصالة قد عدّهما مجتمعنا فى رأى جميع الناس ميزة ملازمة
لكل انسان جاد محترم ، فان تغيير المرء طريقة سلوكه وأسلوب حياته
فجأة لا بد أن يشتمل ، اذا هو حدث ، على تناقض قوى واضطراب
شديد وتفكك كبير ، بل لا بد أن يكون فيه شىء من مجافاة اللياقة
وقلة الأدب •

من هى ، على سبيل المثال ، الأم التى لا يجعلها حبها لأولادها
وخانها عليهم تخاف خوفاً قد يهوى بها الى المرض اذا هى رأت ابنها
أو بنتها يتعدان ولو قليلاً عن السكة المرسومة والطريق المهدد ؟ انها
تقول لنفسها : « لا ، لا ، لا نريد تفرداً وأصالة ! انى لأوثر له السعادة
وأن يعيش فى يسر » • ان كل أم تفكر هذا التفكير وهى تدلل ولدها •
أما المربيات عندنا فانهن من قديم الزمان يهددن أولادنا فى مهودهم
بأغنيتهن الأبدية : « الذهب سيحوطك ، وجزرالا سوف تصبح » • هكذا
نرى أن مربيات أولادنا أنفسهن قد نظرن دائماً الى لقب الجنرال على أنه

المقياس الأسمى للسعادة الروسية • معنى ذلك أن هذه الرتبة تعد هي
 المثل الأعلى الذى يحظى باحترام الناس كافة ، وتعد الرمز الى هناة
 فاتنة هادئة • وفى الواقع ، أى رجل فى روسيا لم يكن متأكدًا من
 أنه بالغ رتبة جنرال فى يوم من الأيام ، وصائر الى اختزان مبلغ من المال
 فى مصرف لومبارد ، متى استطاع أن ينجح فى الامتحانات المطلوبة ،
 بعضاً وراء بعض ، ومتى خدم الدولة خمسة وثلاثين عاماً ؟ على هذا النحو
 انما كان الروسى يصل آخر الأمر ، دون جهد تقريباً ، على سمعة أنه
 رجل قادر عملي • والواقع أنه ليس فى روسيا الا افراد فئة واحدة
 لا يستطيعون أن يصلوا الى رتبة جنرال : أولئك هم ذوو الأفكار المتفردة
 الأصلية ، أعنى أهل القلق الذين لا يستقرون على حال • قد يشتمل
 كلامى هذا على سوء فهم • ولكن هذه الملاحظة تبدو صحيحة صادقة ،
 ولقد كان المجتمع الروسى مبنياً على تعريف مثله الأعلى فى الانسان
 العملي هذا النحو من التعريف •

ولكن ها نحن اولاء قد نأينا كثيراً عن موضوعنا ، وهو أن نقدم
 بضع ايضاحات عن أسرة ايباتشين •

ان أفراد أسرة ايباتشين أو ان المياليين منهم الى التأمل أكثر
 من الباقين ، يعانون من خصلة مشتركة بينهم جميعاً هي نقىض تلك
 الميزات التى تحدثنا عنها منذ قليل • ولقد كانوا يشبهون أحياناً فى أن
 الأمور عندهم لا تجرى كما تجرى عند سائر الناس ، دون أن يدركوا
 ذلك ادراكاً تاماً (وهو أمر صعب إدراكه على كل حال) • ان الطريق
 المستوية الممهدة بالنسبة الى الآخرين هي بالنسبة اليهم وعرة ملأى
 بالحجارة • الناس ينزلقون على السكة انزلاقاً سهلاً ليناً ، أما هم
 فينزلقون عنها فى كل لحظة • لدى الآخرين يسيطر وجل شديد وخوف
 حصيف ، أما لديهم فلا شيء من ذلك • صحيح أن اليزابت بروكوفينا

كانت تتأبها مخاوف فيها غلو ، ولكن تلك المخاوف لا تشبه فى شىء ذلك
الوجل اللائق وذلك الحجل المفيد للذين كان يُحزن أفراد أسرة
ايباتشين حرمائهم منهما . ولعل اليزابت بروكوفينا كانت الوحيدة التى
يحزنها ذلك على كل حال . لقد كانت الأمسات ، رغم صغر سنهن ، ينعمن
منذ الآن بفكر نقاد ساخر فيه تحد ، وفيه ذكاء وفطنة ونباهة . أما الجنرال
فكان ينفذ الى غور الأشياء (ولو بشىء من البطء) ، لكنه فى الحالات
المربكة لا يزيد على أن يههم قائلاً « هم » ، ثم ينتهى به الأمر الى
الاعتماد على اليزابت بروكوفينا اعتماداً كاملاً بحيث تقع التبعة كلها عليها
وتكون وحدها المسؤولة .

لا يمكن أن نقول مع ذلك ان هذه الأسرة تتميز الى درجة بعيدة
بروح المبادرة الخاصة ولا انها تتيح لنفسها أن تنقاد ليل واع الى التفرّد
والأصالة ، والا كان ذلك شذوذاً غير لائق . لا ، لا ، لم يكن ثمة شىء
من هذا فى حقيقة الأمر ، لم يكن ثمة شىء يشتمل من جهتها على سابق
قصد وعمد . ومع هذا لم تكن هذه الأسرة ، مهما نقل انها أسرة
محترمة ، لم تكن فى الحساب الأخير ما ينبغى لها أن تكون على وجه الدقة
والتمام حتى يصدق عليها التعريف الشائع للأسرة المحترمة . وقد اعتقدت
اليزابت بروكوفينا فى الآونة الأخيرة أنها وحدها ، بما تتصف به من
طبع « شقى » ، هى سبب هذا الشذوذ فى الأسرة ، فما كان من هذا
الاعتقاد الا أن زاد آلامها وضاعف تباريحها . فكانت تؤاخذ نفسها فى كل
لحظة على « جموحها الطائش غير اللائق » ، حتى لقد أخذت تفقد صوابها
مغمومةً مهمومة خائفة مرتابة . فلا تجد مخرجاً من أيسر التعقيدات
ولا تجد حلاً لأبسط المشكلات، وماتفك تمضى بالأمور من سىء الى أسوأ .

لقد قلنا منذ بداية قصتنا ان أسرة ايباتشين كانت تحظى بتقديرٍ
ينعقد عليه اجماع الناس حقاً . فالجنرال ايفان فيدوروفتش نفسه ، رغم

انه مغمور الأصل ، كان يُستقبل في كل مكان بتعظيم لا مرأ فيه • ولقد كان يستحق هذا التعظيم على كل حال ، أولاً لأنه ليس « أى شخص » ، ولأنه رجل طائل الثراء ؛ وثانياً لأنه رفيع التهذيب رقيق الحاشية ، فليس يضيره أن يكون محدود المواهب • غير أن شيئاً من ثقل الفكر وكثافة الذهن ميزة تكاد تكون ضرورية فيما يظهر ، فان لم تكن ضرورية لكل رجل منخرط في الأعمال ، فهي ضرورية على الأقل لكل رجل حريص على الارتفاع ساعٍ الى الفائدة • ثم انه كان راقى الآداب والسلوك • كان متواضعاً ، وكان يعرف كيف يصمت ، دون أن يشج لأحد مع ذلك أن يدوس على قدميه ، لا بسبب رتبته فحسب ، بل لأنه رجل يحترم نفسه ويحترمه غيره • وهو فوق ذلك كله رجل له سند قوى يحيمه •

أما الزبات بروكوفينا فهي تنحدر من أسرة طيبة كما سبق أن قلنا • والمحدد لا يكون له وزن كبير في بلادنا ان لم تشفعه علاقات وصلات لا بد منها • وقد حصلت الزبات بروكوفينا هذه العلاقات والصلات آخر الأمر ، فكانت تُحترم وتُقدر ، حتى لقد ظفرت بمودة أناس كان لا بد للجميع أن يقتدوا بهم فيعظموها ويستقبلوها • ومما لا شك فيه أن أحزانها العائلية لم يكن لها أسباب تسوِّغها ، أو هي ترجع الى أسباب تافهة يضخمها خيالها تضخيماً مضحكاً • ولكن يكفي أن يكون للمرء ثؤلول في أنفه أو جبينه حتى يتخيل أن جميع الناس لا يفكرون الا في النظر الى هذا الثؤلول ، وفي الضحك منه ، وفي نقد صاحبه ، ولو كان صاحبه هذا هو مكتشف أمريكا • ومما لا شك فيه أيضاً أن الزبات بروكوفينا كانت تُعدُّ في المجتمع « شاذة » بعض الشذوذ ، دون أن يقتل هذا من الاحترام الذي كانت تُحاط به • لكنها أصبحت تشك في هذا الاحترام آخر الأمر ، فكان هذا هو شقاءها كله • فهي حين تنظر الى بناتها تتخيل متألة أن طبعها المضحك ، غير اللائق ، الذي لا يُطاق ،

يؤذى حالة بناتها ويسىء الى مستقبلهن ، ومع ذلك كان هذا نفسه هو ما تتهم به بناتها وتأخذهن عليهن وتأخذه علي ايفان فيدوروفتش ، فهي تشاجرهن وتشاجره أياماً بكاملها ، دون أن تكف رغم ذلك عن أن تحبهم جميعاً حباً يمضى الى حد التضحية بالنفس ، ويبلغ درجة الهوى العارم .

وكان يعتبها خاصة أن تتصور أن بناتها قد أخذن يصبحن « شاذات » مثلها هن أيضاً ، وأنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد على وجه الأرض فتيات من نوعهن . كانت ماثفك تردد على نفسها قولها : « لسوف يصبحن من أنصار المذهب العدمي » . وقد أخذت هذه الفكرة الحزينة ترسخ في ذهنها مزيداً من الترسخ العميق منذ سنة . وكانت تسأل : « فأولاً : لماذا لا يتزوجن ؟ انهن وُجِدن لتعذيب أمهن . ذلك هو هدف وجودهن . و لاغربة في هذا على كل حال . فهو ثمرة الأفكار الجديدة ، وهو خاصة ثمرة تلك القضية اللعينة ، قضية المرأة ! ألم تتخيل آجلاليا منذ ستة أشهر أن تقص شعرها الرائع ؟ يا رب ! ألا ان شعري أنا لم يكن جميلاً هذا الجمال في غضارة صباى ! لقد أمسكت المقص بيدها ، وأوشكت أن تفعل فعلتها لولا أن تضرعت اليها جاثية على ركبتى . . . ولنسلم أن آجلاليا انما تظاهرت تظاهراً بأنها تريد أن تقص شعرها ، لا لشيء الا أن تثير حنق أمها ، فهي فتاة شريرة ، طاغية ، مدللة ، شريرة خاصة ، نعم شريرة ! . . . ولكن ما قولنا ألكسندرا الكبيرة ؟ ألم توشك أن تقلدها فتقص شعرها ؟ لم يكن الأمر عند ألكسندرا مكرراً أو نزوة ، بل كان عن بساطة تامة . لقد أدخلت آجلاليا في روع تلك الحمقاء أنها اذا حلقت رأسها فسوف تنام نوماً هادئاً وسوف تتخلص من الصداغ الذى يلم بها ! وما أكثر الرجال اللاتقين الذى تقدموا يخطبونها منذ خمس سنين الى الآن ! ان بينهم رجالاً كانوا ممتازين حقاً ، بل رائعين ! وماذا

ينتظرون ؟ لماذا لا يتزوجن اذا لم يكن هدفهن الا أن يفضبن امهن ؟
لا شك أن السبب الوحيد هو هذا ! » •

ولكن هذا يوم جميل يسطع أخيراً أمام قلبها ، قلب الأم • ان احدى بناتها ، أديلثيد على الأقل ، تهم أن تتزوج • « هذه واحدة تنزل عن ذراعى ! » كذلك قالت الأم حين أتيح لها أن تعبّر عن ذات نفسها بصوت عال (ولكنها كانت فى قرارة قلبها تجد ألفاظاً أملأً بال عاطفة والحنو) :
« ولقد تمّ الأمر على أحسن نحو ، وأليق صورة ! فحتى فى المجتمع الراقى تحدث الناس عن الخطوبة بتقدير واحترام • ان الخطيب رجل معروف • انه أمير • وهو ثرى • وهو حسن الطبع • وقد حظى فوق ذلك باستلطافها • هل يرغب المرء فى أكثر من ذلك ؟ على أن مستقبل أديلثيد كان دائماً لا يثير فى نفس الأم من المخاوف مثل الذى يثيره مستقبل أختيها ، رغم أن الميول الفنية لدى هذه البنت الوسطى قد ألقت اضطراباً عميقاً فى قلب الأم الذى كان يعذبّه شك متصل لا ينقطع » ، ولكن الأم قد انتهت الى القول من باب تعزية نفسها : « ان للفتاة طبعاً مرحاً فى مقابل ذلك ، وان لها فوق هذا كثيراً من سداد الرأى وسلامة الحس » •

وكانت الأم تخاف على آجلها خاصة • أما عن الكسندرا فكانت الأم لا تدرى هى نفسها فى حقيقة الأمر أئبغى لها أن تقلق عليها أم لا • كان يخيّل اليها أحياناً أن هذه البنت « لم يبق لها مستقبل » • انها فى الخامسة والعشرين من عمرها • فأغلب الظن أنها ستبقى عانساً • « وما أجملها مع ذلك ! » • وكانت الأم تبلغ من الحزن عندئذ أنها تأخذ تبكى ليلالى بكاملها مفكّرةً فى الكسندرا ، بينما تكون الكسندرا فى تلك الليالى نفسها غارقة فى نوم هادى • هادى • « ما حقيقة أمر هذه البنت ؟ أهى من أنصار المذهب العدمى ، أم هى غيبة حمقاء لا أكثر من ذلك ؟ » • اما انها ليست غيبة حمقاء ، فذلك أمر كانت تعرفه الزايت بروكوفينسا

حق المعرفة ، حتى لقد كانت تحترم آراء ألكسندرا احتراماً كبيراً ، وكان يسرها أن تستشيرها . ولكن لا شك في أن ألكسندرا « دجاجة مبتلة » : « انها تبلغ من فرط الهدوء أن لا سبيل الى تعزيز صفوها . آه !... انهن يفقدن صوابي ! » كانت تحس نحو الكسندرا بحب رقيق وحنان شديد لعله أقوى من شعور الحنان الذي تحسه نحو أجلايا ، مع أن أجلايا هي معبودتها . غير أن تلك الاندفاعات الغاضبة (التي كانت المظهر الرئيسي لما يضطرم في نفسها من عطف الأم وحنونها وحدها) وكذلك تلك الاستفزات وتلك الألقاب ، كقولها « دجاجة مبتلة » لم تكن تزيد على أن تثير في الكسندرا الابتسام .

وكانت أتفه الأمور تخرجها في بعض الأحيان عن طورها . من ذلك ، على سبيل المثال ، أن ألكسندرا كانت تحت أن تنام مدةً طويلة ، وكانت ترى في العبادة أحلاماً كثيرة . ولكن تلك الأحلام كانت تتميز دائماً بتفاهة نادرة ، وكانت بريئة براءة أحلام طفل في السابعة من عمره . فكانت هذه البراءة نفسها تغيظ الأم وتحققها ، لا يدرى أحد لماذا . من ذلك أن الفتاة رأت في حلمها ذات ليلة تسع دجاجات ، فما كان أعنف الشجار الذي قام بينها وبين أمها بسبب ذلك الحلم ! لماذا ؟ انه يصعب على المرء أن يجيب عن هذا السؤال . وفي مرة من المرات ، في مرة واحدة ، اتفق لها أن رأت حلماً فيه شيء من الطرافة : رأت راهباً معتكفاً في نوع من غرفة مظلمة خافت أن تدخلها . فلما قصّت حلمها على أختها انفجرتا تضحكان ، وأسرعتا الى الزاوية بروكوفينا منتصرتين تقصان عليها ذلك الحلم . ففضبت الأم من جديد ووصفتهم جميعاً بأنهن « بلهاوات » . وقالت تحدث نفسها « هم » ... انها متبلدة الاحساس كبهيمة . هي « دجاجة مبتلة » تماماً . لا سبيل الى اخراجها من تخدر الشعور . ثم انها حزينة . ان نظرتها تتجلى أحياناً بأسى وكآبة .

ما مصدر حزنها ؟ » • وكانت اليزابت بروكوفينا تلقي هذا السؤال أحياناً على ايفان فيدوروفتش ، تلقيه متجهمة الهيئة بلهجة مهددة تطلب جواباً على الفور • فكان الجنرال يجمعهم ويهمهم « هم ••• هم ••• » ويقطّب حاجبيه ، ويرفع كتفيه ، ثم يعلن أخيراً وهو يباعد ذراعيه :
- هي في حاجة الى زوج !

فاذا باليزابت بروكوفينا تنفجر انفجار قنبلة ، وتصرخ قائلة :
- أسأل الله ، على الأقل ، أن لا يكون ذلك الزوج مثلك • اننى
أمل أن لا يشبهك لا فى آرائك ولا فى أحكامك يا ايفان فيدوروفتش !
أمل أن لا يكون فقط غليظ القلب مثلك يا ايفان فيدوروفتش !•••

فكان الجنرال يولى هارباً ، ثم تهدأ اليزابت بروكوفينا بعد « انفجارها » • ثم لا يفوتها ، طبعاً ، فى مساء ذلك اليوم نفسه أن تبدي بشاشة عظيمة ولطافة غير معهودة ، فهي تظهر رقة وعذوبة ولطفاً وتجياً واحتراماً وتوقيراً لزوجها « الفظ الغليظ القلب » ايفان فيدوروفتش ، لزوجها الطيب العزيز الحبيب المعبود ايفان فيدوروفتش • ذلك أنها قد أحبه طوال حياتها ، أحبه حباً قوياً صادقاً ، وذلك ما كان ايفان فيدوروفتش نفسه يعمل على حق العلم ، ويكافى عليه اليزابت بروكوفينا بتقدير لا حدود له •

ولكن العذاب الأساسى ، العذاب الدائم المقيم فى قلب اليزابت بروكوفينا انما كان بنتها آجلايا • كانت الأم تقول لنفسها : « انها مثلى تماماً • هي صورتى من جميع النواحي : شيطان مستبد صغير ! عديمة ، شاذة ، طائشة ، شريرة ، شريرة ! آه ••• يا رب ! ما أكثر ما ستلقى فى حياتها من شقاء ! ••• » .

غير أن الشمس كانت قد طلعت فأنارت ولطّفت كل شيء • فترة قصيرة على الأقل • لقد عاشت اليزابت بروكوفينا قرابة شهر ، متحررة

من جميع أنواع القلق والغم التي كانت تستبد بها • أخذ الناس في المجتمع الراقى ، بمناسبة زواج آديلايد القريب ، يتكلمون أيضاً عن آجلآيا • وكانت آجلآيا تتصرف في كل مكان تصرفاً لطيفاً كيّساً ! كانت لبقة السلوك متوقدة الذهن في آن واحد • وكانت هيئتها الأسرة ، التي يمازجها شيء من كبرياء ، تناسبها كثيراً ! وهي منذ شهر كامل تعامل أمها معاملة فيها أكبر الملاطفة وأعظم البشاشة ! (« صحيح أنه ما يزال ينبغي أن يُدرس أوجين بافلوفتش هذا دراسةً جيدة » وأن تُعرف حقيقته معرفةً صحيحة • ثم ان آجلآيا نفسها لا تظهر له من المودة أكثر مما تظهر للآخرين على كل حال ») • ولكن آجلآيا قد أصبحت فتاةً بارعة الفتنة رائعة الجمال على حين فجأة ! رباه رباه ! ما أجملها ! وانها لتزداد جمالاً في كل يوم !

ولكن ...

ولكن ما ان ظهر هذا الأمير الصغير الوغد ، ما ان ظهر هذا الأبله المعنوه ، حتى انقلب كل شيء رأساً على عقب من جديد ، وانقلب البيت عالية سافله ! فماذا حدث ؟

الحق أنه لم يحدث شيء الا في نظر اليزابت بروكوفينا • ولكن اليزابت بروكوفينا انما كانت تتميز بأن ترابط وتسلسل حوادث عادية جداً كانا يحدثان في نفسها القلقة مخاوف أليمة ينفذها الخيال ولا يمكن أن يفسرها عقل ، حتى لقد كانت تسقط بسبب ذلك مريضةً في بعض الأحيان • ففي وسعكم أن تصورا ما لا بد أن تكون قد عانت من ألم حين انبثق في وسط عدد كبير من الهواجس السخيفة الوهمية حادث بدا أن له خطورة حقيقية فكأنه يسوّغ القلق والاضطراب والشك والريب • قالت اليزابت بروكوفينا محدثةً نفسها طوال الطريق بينما كانت

تقود الأمير ، ثم فى دارها حين أجلسته الى المائدة المستديرة التى كانت تتحلق حولها الأسرة كلها : « كيف تجرأوا أن يكتبوا الى تلك الرسالة المنحوسة الغفل التى تدعى أن لهذا « المخلوق » علاقات بأجلايا ؟ .. بل كيف أمكن أن تخطر هذه الفكرة على بال انسان ؟ لسوف أموت من شعورى بالعار لو صدقت كلمة واحدة منها ، أو أظهرت أجلايا على الرسالة ! أيسخرون هذا السخر منا نحن آل ايباتشين ! وذلك كله بسبب ايفان فيدوروفتش . ذلك كله بسببك أنت يا ايفان فيدوروفتش ! آه .. لماذا لم نذهب الى جزيرة يا لاجين فنبسكن الفيلا التى نملكها هناك * ؟ لقد قلت ان علينا أن نذهب الى يالاجين ! ربما كانت فاريا هى التى كتبت تلك الرسالة ! نعم ، أنا أعلم ذلك ؛ أو ربما كان .. آه .. ذلك كله ذنب ايفان فيدوروفتش ! لقد تخيلت تلك المخلوقة أن تدبر له مثل هذه المكيدة تذكرى بعلاقات قديمة لتجعله فى وضع مضحك . هذا يذكر بالزمان الذى كان يحمل اليها فيه لآلىء بينما كانت هى تضحك عليه وتشده من طرف أنفه كمعتوه ! .. ولكن ها نحن أولاء قد تعرضت سمعنا للسوء نحن أيضاً . نعم يا ايفان فيدوروفتش ، لقد تعرضت سمعة بناتك للسوء ، بناتك اللواتى هن أوانس أرقى مجتمع ، وفتيات على أهبة الزواج . لقد كن حاضرات ؛ بقين هناك ، فسمعنا كل شئ ، حتى لقد أقمنا فى تلك الأمور السيئة . هل سررت الآن ؟ هناك أيضاً كن حاضرات وسمعنا الكلام . لن أغفر لهذا الأمير الصغير الشقى فى يوم من الأيام . لا ، لن أغفر له فى يوم من الأيام ! ولماذا أرى أجلايا مهتاجة الأعصاب الى هذا الحد منذ ثلاثة أيام ؟ لماذا أراها فيما يشبه الشجار مع أختها ، حتى مع الكسندرا التى كانت من شدة احترامها لها تقبل يدها كأم ؟ ما بالها تلقى على جميع الناس ألغازاً وأحاجى ؟ وما مجيء جبريل ايفولجين الى هنا ؟ لماذا أخذت تكيل له المديح أمس واليوم ، ثم انفجرت

باكية متحبة ؟ لماذا تتكلم تلك الرسالة اللعينة عن هذا « الفارس الفقير »
 بينما لم تطلع آجلايا أختها على رسالة الأمير ؟ ولماذا ... أسرعت إليه
 كالجنونة واقدته بنفسى الى هنا ؟ يا الهى ! لقد فقدت صوابى . ما هذا
 الذى صنعته ؟ كيف أمكنتى أن أتكلم مع شاب عن أسرار بنتى ، لا سيما
 ... حين تكون هذه الأسرار متعلقة به أو تكاد ؟ رباه ! الحمد لله على
 أنه أبله ... وأنه ... وأنه .. صديق الأسرة . ولكن هل يمكن أن
 تفتن آجلايا بمثل هذا الطرح ؟ ما هذا الذى أقوله ؟ آه ... اننا
 شاذون ... يحسن أن نوضع فى قفص ليتفرج الناس علينا بعشرة
 كوبكات ... ولا سيما أنا ! لن أغفر لك هذا يوماً يا ايفان فيدوروفتش ،
 لن أغفره لك فى يوم من الأيام ! ولماذا لا تسىء هى معاملته ؟ لقد وعدت
 بأن تسىء معاملته . ثم هى لا تفعل من ذلك شيئاً ! انظروا ! انها تلتهمه
 بعينها التهاماً ، وتبقى صامته ولا تعزم أمرها على الابتعاد . وهى التى
 حظرت عليه مع ذلك أن يعود ! ... أما هو فانه شاحب الوجه شحوباً
 شديداً ! وما القول فى هذا الثرائر أوجين بافلوفتش الذى يحتكر الحديث
 كله ؟ ما من أحد يستطيع ، ازاء هذا السيل المتدفق من ثروته ، أن
 يدس كلمة واحدة . فى وسعى أن أخرج كل شىء الى النور لو أمكنتى
 أن أدير دفة الحديث ... »

كان الأمير جالساً الى المائدة المستديرة ، شاحب الوجه حقاً . كان
 يلوح عليه أن هلمأ شديداً يسيطر عليه ، هلمأ يخالطه فى بعض اللحظات
 نوع من تشوة يفزو قلبه ولا يستطيع هو نفسه أن يفهمه . لشد
 ما كان يخشى أن يختلس نظرة موارد الى ذلك الركن الذى تحدق اليه
 منه عيان سوداوان يعرفهما حق المعرفة ! ومع ذلك ما كان أعظم السعادة
 التى كانت تغمره حين يتصور أنه يجد نفسه مرة أخرى فى هذه الأسرة ،
 ويسمع ذلك الصوت المألوف ، وذلك بعد الذى كتبه اليه ! ...

« ما عساها تقول الآن يا رب ! » • لم يكن قد فتح فاه بعد ، وكان يصيح بسمعه الى أحاديث أوجين بافلوفتش الذى كان « يتدفق فى الكلام تدفقاً غزيراً » ، وكان يعانى فى ذلك المساء نوبة قوية من الرضى عن النفس والرغبة فى الكلام • أصاخ اليه الأمير بسمعه دون أن يفهم شيئاً مما كان يقوله • وكانت الأسرة كلها حاضرة ، الا ايفان فيدوروفتش الذى لم يكن قد رجع من بطرسبرج بعد • وكان الأمير « شتد • • • » أحد الحضور ، وكان واضحاً أن هؤلاء كانوا ينتوون أن ينصرفوا بعد قليل ، قبل موعد الشاي ، ليزهوا الى سماع الموسيقى * •

كان الحديث يدور على موضوع يبدو أنه طُرح على مائدة البحث قبل وصول الأمير • ولم يلبث أن ظهر كوليا على الشرفة ، لا يدرى أحد من أين انبجس ! قال الأمير يحدث نفسه : « عجيب ! ما زال يُستقبل اذن كما كان يُستقبل فى الماضى ! » •

ان مسكن آل ايباتشين فيلا فخمة مبنية على طراز الشاليهات السويسرية ، قد أُحسنَت العناية بها ، وأُحيطت بأزهار وخضرة تتألف منها مربعات ان كانت صغيرة الابعاد فانها رائعة الجمال • وكان الحفل كله مجتمعاً على الشرفة ، كما فى بيت الأمير ، لكن الشرفة هنا أفسح قليلاً وألطف ترتيباً •

ولم يكن يبدو أن موضوع الحديث يناسب ذوق جميع الحضور ، ويلقى من نفوسهم كلهم هوى • وأغلب الظن أنه بدأ بمناقشة حامية ، وكان يمكن حتماً أن ينحرف الى شىء آخر لولا أن أوجين بافلوفتش قد تظاهر بالعناد حول المسألة التى دارت عليها المناقشة ، دون أن يحفل بالأثر الذى يحدثه فى النفوس • وكأن ظهور الأمير أثناءه مزيداً من الالاعة وحرّضه مزيداً من التحريض • وقد عبست اليزابت بروكوفينا وتجهمت سخنتها واربد وجهها دون أن تفهم كل ما كان يُقال • ولم

تتصرف آجلايا بل ظلت فى مكانها ، متحبة ، تصنى الى الكلام وتلتزم صمتاً عنيداً فلا تفتح فيها بكلمة واحدة •

أجاب أوجين بافلوفتش قائلاً بحرارة :

– اسمح لى ، أنا لا أعترض على اللبرالية أى اعتراض • ليست اللبرالية شراً • انها جزء متمم من مجموع كلى لا بد أن يتحلل وأن يزول اذا هى لم توجد • ان حق اللبرالية فى الوجود لا يختلف عن حق أى مذهب من المذاهب المتطرفة فى المحافظة • لكننى أعتقد اللبرالية الروسية • وأعود فأكرر لكم أننى اذا كنت أحاربها فلأن اللبرالى الروسى لبرالى ليس « روسياً » فى شىء • أرونى لبرالياً روسياً ، فأعاقه أمامكم على الفور •

قالت الكسندرا ايفانوفنا التى كانت نائرة الأعصاب ، وكانت خداهما أشد احمراراً منهما فى العادة :

– هذا اذا رضى هو أن يعانقك !

فحدثت الزابت نفسها تقول : « هذه واحدة لا يهزها شىء ولا يحركها شىء ، ولا تفكر الا فى النوم والطعام ، ثم اذا هى تندفع – مرة كل عام – اندفاعات تحريك ! » •

ولاحظ الأمير عرضاً أن ألكسندرا ايفانوفنا كانت تبدو مستاءة من أن ترى أوجين بافلوفتش يتكلم بلهجة تبلغ هذا المبلغ من التفاهة فى معالجة موضوع يبلغ هذا المبلغ من الجدة ، ويصطنع الاندفاع والمزاح فى آن واحد •

تابع أوجين بافلوفتش كلامه قائلاً :

– كنت أقول قبل وصولك يا أمير اتنا لم نعرف حتى الآن فى روسيا

الا فريقيين من اللبراليين تحدر بعضهم من طبقة مالكي الأبطال القدامى (وهذه طبقة أُلغيت) وتحدر بعضهم الآخر من طبقة طلاب اللاهوت . واذ أن هاتين الطبقتين قد استحالتا في النهاية الى فئتين منزلتين انزالاً تاماً عن الأمة ، واذ أن انزالهما يشدد ويقوى جيلاً بعد جيل ، فانه ينتج عن ذلك أن جميع ما فعله أو يفعله هؤلاء اللبراليون لا يمثل أى طابع قومى ***

ردّ الأمير « شتت » يقول :

– كيف هذا ؟ هل كل ما فعلوه ليس فيه شيء روسى ؟

– ليس فيه شيء قومى على كل حال . فحتى لو كان عملهم روسياً فانه ليس قومياً . على أن اللبراليين عندنا ليس فيهم شيء روسى ، اطلاقاً *** أبداً *** تستطيع أن تكون على يقين من أن الأمة لن تتعرف لا الآن ولا في المستقبل ما يكون قد فعله هؤلاء الناس من قدامى مالكي الأبطال وطلاب اللاهوت ***

قال الأمير « شتت » محتجاً بحرارة :

– عجيب ! كيف يمكنك أن ترى مثل هذا الرأى الغريب المفارق ، اذا كنت جاداً فيما تقول ؟ لا أستطيع أن أسمع بمثل هذا التهجم على قدامى مالكي الأبطال الروس . ألسنت أنت نفسك واحداً من قدامى مالكي الأبطال الروس ؟ ***

ألقى عليه الأمير « شتت » هذا السؤال وقد ازداد حماساً واندفاعاً . فأجاب أوجين بافلوفتش قائلاً :

– ولكننى لا أتكلم عن مالك الأبطال الروسى القديم بالمعنى الذى يبدو أنك تفهمه . هذه طبقة محترمة مجيدة ، على الأقل لأننى واحد من أبنائها ، ولا سيما الآن ، بعد أن لم يبق لها وجود ***

قاطعته ألكسندرا ايفانوفنا سائلة :

- هل صحيح أننا ، حتى في الأدب ، لم يكن لدينا أى شيء قومي ؟
 - لست متبحراً في الأدب ، ولكنني أعتقد أن الأدب الروسي نفسه
 ليس فيه شيء روسي ، ربما باستثناء لومونوسوف ، وبوشكين ، وجوجل .
 قالت آديلايد ضاحكة :

- طيب . هذا وحده كاف . ثم اذا كان أحد هؤلاء من أبناء الشعب
 فان الاثنين الآخرين هما من طبقة مالكي الأفيان القدماء .

- صحيح . ومع ذلك لا تتعجلي الفوز والاتصار . ان هؤلاء الثلاثة
 هم حتى الآن الوحيدون الذين استطاعوا أن يقولوا شيئاً لم يكن مستعاراً
 بل كان مستمداً من نفوسهم * . ان الروسي الذي يقول أو يكتب أو يفعل
 شيئاً متصفاً بأنه روسي حقاً ، شيئاً مستمداً من ذاته فليس هو بالمحاكاة
 أو الاستعارة ، ان هذا الروسي يصبح قومياً بالضرورة ، حتى ولو كانت
 لغته الروسية رديئة . تلك عندي من المسلّمات البديهية . على أن ما بدأنا
 الحديث عنه والكلام عليه ليس هو الأدب بل هو الاشتراكيون . فبصدد
 الاشتراكيين انما انخرطنا في المناقشة . وقد زعمت أنه لم يوجد عندنا
 ولا يوجد عندنا اشتراكي واحد روسي . لماذا ؟ لأن جميع الاشتراكيين
 عندنا انما اتحدوا هم أيضاً من طبقة قدامى مالكي الأفيان أو من طبقة
 طلاب اللاهوت . ان جميع اشتراكيينا وجميع أولئك الذين يعلنون عن
 أنفسهم أنهم اشتراكيون ، سواء في داخل البلاد أو في الخارج ،
 ليسوا الا لبرالين خرجوا من صفوف قدامى مالكي الأفيان في عهد
 القنائة . لماذا تضحكين ؟ أريني كتبهم ، أريني مذاهبهم ورسائلهم ،
 فأنهّد لك ، دون أن أكون ناقداً محترفاً ، بأن أكتب أصدق الآراء

الأدبية مبنياً بوضوح كوضوح النهار ان كل صفحة من صفحات كتبهم وكراساتهم ورسائلهم انما هي قبل كل شيء من صنع مالك سابق من قدامى مالكي الأطيان الروس . ان غضبهم ، واستيائهم ، وحتى سخرهم الفكه ، ان ذلك كله تفوح منه رائحة مالك الأطيان القديم (حتى أن مالك الأطيان القديم هذا هو من نموذج عتيق بال كنموذج فاموسوف *) . قد تكون صادقة ، ولكنها حماسيات ودموع رجل من قدامى مالكي الأطيان ، أو طلاب اللاهوت . أما تزالين تضحكين ؟ أنتضحك أنت أيضاً يا أمير ؟ ألسنت توافقني اذن على رأيي ؟

الحق أن الضحك كان عاماً شاملاً . وكان الأمير نفسه يتسم . قال الأمير وقد انقطع عن الابتسام بغتة ، وانتفض انتفاضة تلميذ فوجي مذبذباً :

– لا أستطيع بعد أن أقول جازماً أننا أوافقك على رأيك أم لا ، ولكنني أؤكد لك أنني أجد في الاصغاء الى كلامك لذة قصوى

نطق الأمير بهذه الكلمات وكأنه يخشع احتشاقاً . وكان عرق بارد يغشى جبينه كحبات اللؤلؤ . هذه هي الكلمات الأولى التي نطق بها منذ وصوله . وأغراء أن يلقي نظرة حوالية ، لكنه لم يجسر ، ولاحظ أوجين بافلوفتش حركته فابتسم ، ثم تابع كلامه قائلاً بتلك اللهجة نفسها من الاندفاع المفتعل والحرارة المصطنعة التي يستشف المرء فيها رغبته في الضحك حتى من أقواله :

– سأذكر لكم واقعة أيها السادة ، واقعة أعتقد أن قد كان لي فضل اكتشافها وملاحظتها ، فما من أحد ، على الأقل ، سبق أن تكلم عليها أو كتب عنها حتى الآن . ان هذه الواقعة تحدث كل ماهية الليبرالية الروسية التي أوضّحها . وما هي الليبرالية على وجه العموم أولاً ؟ أليست هي

الميل الى تسفيه نظام الأمور القائم ؟ (خطأً أو صواباً ، تلك مسألة أخرى) أليست الليبرالية هي هذا ؟ فاليكم الآن الواقعة التي لاحظتها : ان الليبرالية الروسية لا تهاجم نظاماً للأمور قائماً • ان ما تستهدفه هو جوهر الحياة القومية ، هو هذه الحياة نفسها لا المؤسسات ، هو روسيا لا التنظيم الروسي • ان الليبرالي الذي أحدثكم عنه يمضي الى حد جحود روسيا نفسها ، اي انه يبغض ويضرب أمه التي ولدته • ان كل شقاء يلم بروسيا ، وكل اخفاق تمنى به روسيا ، يحمله على الضحك ويبعث في نفسه الفرح أو ما يشبه الفرح • انه يشعثر من العادات الشعبية ويكره تاريخ روسيا ويبغض كل شيء • وعذره الوحيد ، اذا كان له عذر ، هو أنه لا يدرك ما يفعل ، ويظن أن هذا الكره الذي يحمله لروسيا هو الليبرالية الخسبة • ما أكثر الليبراليين الذين نصادفهم في بلادنا ويصفق لهم الناس ، وهم في حقيقة أمرهم وربما على غير علم منهم ، أشد المحافظين غباء وأكثهم عتواً ! لقد كان كره روسيا هو الحب الحقيقي للوطن في نظر بعض الليبراليين الذين كانوا يفاخرون بأنهم يدركون حقيقة حب الوطن ادراكاً أوضح من ادراك غيرهم له • ثم صارت الأمور مع الزمن أصرح ، فاذا نحن نرى أن تعبير « حب الوطن » أصبح يعدّ غير لائق ، واذا بالفكرة التي تقابل هذا التعبير أصبحت توهم بأنها ضارة ، وتوصف بأنها جوفاء خالية من المعنى • تلكم واقعة أكيدة محققة • ينبغي أن نعزم أمرنا على ذكر الحقيقة بكل بساطة وصدق • نحن ههنا ازاء ظاهرة لم يسبق لها مثيل في أي زمان ولا في أي مكان • ما من قرن من القرون ، وما من شعب من الشعوب ، بدت فيه هذه الظاهرة • وهذا يدل على أنها عارضة وأنها قد تكون زائلة • ذلك أمر لا أنفيه • ولكن المرء لا يستطيع أن يرى في أي مكان غير روسيا لبرالياً يكره وطنه • فكيف نفسّر ظهور هذه الحالة في بلادنا ان لم نفسرها بالسبب الذي ذكرته منذ قليل وهو أن

البرالى الروسى ليس روسياً فى شىء ؟ اننى لا أرى تعليلاً أصلح من هذا التعليل •

ردَّ الأمير « شتت ••• » قائلاً برصانة :

– اننى أعد كل ما قتلته الآن مزاحاً يا أوجين بافلوفتش •••

قالت الكسندرا ايفانوفنا :

– أنا لم أرَ جميع اللبرالين ، ولكننى استأثت أثناء سماعى كلامك • فانك قد بدأت من حالة خاصة فعممتها فوقعت فى التجنبى •

أجاب أوجين بافلوفتش :

– حالة خاصة ؟ آ ••• هذه بعينها الكلمة التى كنت أنتظرها ! أهى

حالة خاصة أم لا ؟

وأضاف يسأل الأمير :

ما رأيك يا أمير ؟ أهذه حالة خاصة أم لا ؟

قال الأمير :

– يجب أن أعترف أنا أيضاً أن خبرتى ضئيلة واننى لم أعاشر •• اللبرالين كثيراً • ولكن يبدو لى أنك قد تكون على صواب ، وأن تلك اللبرالية الروسية التى تحدثت عنها ميسّالة فى الواقع الى ابغاض روسيا لنفسها لا للنظام السائد فيها • طبعاً ، ليس هذا صادقاً الا بعض الصدق ، فنحن لا نستطيع أن نأخذ هذا المأخذ على جميع اللبرالين بغير استثناء اذا نحن أردنا الانصاف •••

وقطع الأمير كلامه فجأة • وكان رغم انفجالة كله قد تابع الحديث باهتمام شديد • ان من سماته المميّزة أن وجهه يكتسى هيئة السذاجة العميقة فى اصغائه الى الحديث عن الموضوعات التى تثير انتباهه • وهذه السذاجة تلاحظ فى أجوبته التى يجيب بها أولئك الذين يسألونه عن

هذه الموضوعات نفسها ؟ وهى تظهر فى سحنه وتظهر حتى فى اشاراته ، وتكشف فى هذه وتلك عن ايمان هو فى حمى من اصابات السخرية والتهكم • ولقد اعتاد أوجين بافلوفتش منذ زمن طويل أن لا يخاطبه الا وعلى شفثيه ابتسامة صغيرة خاصة ، أما الآن فانه حين سمع اجابته نظر اليه مبهوراً ، بكثير من الجذ والرصانة ، ثم ججهم يقول :

— هكذا !... انك لتدهشنى حقاً • هل كنت فى اجابتك جاداً يا أمير ؟

فسأله الأمير مستغرباً :

— ألم يكن سؤالك أنت جاداً ؟

فاستقبل الحضور هذه الكلمات بضحك شامل •

قالت آديلايد :

— ألا امحضوه ثقتكم ! ان أوجين بافلوفتش لا يجب شيئاً كما يجب التضليل والمخادعة ! ليتكم تعرفون ما يستطيع أن يفتعله من مناقشات، متظاهراً بأكبر الجذ !

وقالت الكسندرا بلهجة قاطعة :

— فى رأى أن هذا الحديث شاق متعب ، وأنه كان من الأفضل أن لا نتخبط فيه • لقد كنا نتتوى القيام بنزهة ...

فهتفت أوجين بافلوفتش يقول :

— هلموا بنا ! الأمسية رائعة ! لكننى أحرص على أن أبرهن اننى ، فى هذه المرة ، قد تكلمت جاداً كل الجذ • أريد خاصة أن أبين هذا للأمير • (لقد أثرت اهتمامى اثاره قوية يا أمير ، وانى لأحلف لك صادقاً اننى أقل عبثاً وخفةً مما يبدو على ، رغم أن العبث والحفة من عيوبى فى

حقيقة الأمر) • لذلك سألقى على الأمير ، بعد استئذان الحضور ، سؤالاً
أخيراً لاشباع حب الاطلاع فى نفسى شخصياً ، ثم أقف عند هذا الحد
مكتفياً به فلا أتعداه • أن هذا السؤال قد خطر ببالى ، بمصادفة تشبه
العمد ، منذ ساعتين (هانت ذا ترى يا أمير أنه يتفق لى أيضاً أن أفكر فى
أمور جدية) • ولقد اهتديت الى حل لذلك السؤال ، لكننى أريد أن
أعرف رأى الأمير • لقد كنا نتحدث منذ لحظة عمّا يسمى «حالة خاصة» •
ان هذا التعبير دوراً كبيراً فى مجتمعنا ، وان مجتمعنا يجب استعمال
هذا التعبير • فى الآونة الأخيرة وقعت حادثة اغتيال رهينة أثارت اهتمام
الصحافة والرأى العام ، هى حادثة مصرع ستة أشخاص بيد شاب قتلهم
جميعاً • ولقد تحدث الناس عندئذ كثيراً عن تلك المرافعة الغريبة التى قام
بها المحامى ، اذ أعلن أن فكرة قتل هؤلاء الأشخاص الستة كان «طبيعياً»
ان تخطر ببال القاتل لأنه كان فى حالة فقر شديد • ليست هذه هى
الكلمات التى استعملت ، ولكننى أعتقد أن المعنى هو هذا • وأحسب أن
المحامى حين أصدر ذلك الرأى الغريب وصاغ تلك الفكرة العجيبة انما
كان يؤمن صادقاً بأنه يستلهم أسمى مفاهيم عصرنا فيما يتصل بالبرالية
والانسانية والتقدم • فما رأيكم ؟ أيجب أن نرى فى مثل هذا الفساد
الذى أصاب العقل والضمير ، وفى مثل هذا الانحراف والانحطاط اللذين
صار اليهما الرأى ، أيجب أن نرى ههنا حالة خاصة أم ظاهرة عامة ؟
انفجر الجميع يضحكون •

قالت ألكسندرا واديلائيد ضاحكتين :

— بل هذه حالة خاصة طبعاً •

وقال الأمير « شئت ••• » :

— اسمح لى أن أذكرك يا أوجين بافلوفتش أن مزاحاتك قد أخذت

تفقد طرافتها !

لم يسمع أوجين بأفلوفتش هذه الملاحظة ، وكان يحس بثقل نظرة الأمير ليون نيقولايفتش الرصينة المتفحصة ، فتابع كلامه سائلاً :

— ما رأيك يا أمير ؟ ماذا تعتقد ؟ أهى حالة خاصة أم ظاهرة عامة ؟
اعترف لك باننى وضعت هذا السؤال لالقاءه عليك أنت ♦
قال الأمير برفق وهدهوء ، ولكن ببنات وصلابة :

— لا ، ما هذه حالة خاصة ♦

صاح الأمير « شئت ♦ ♦ ♦ » قائلاً فى شىء من غضب :

— هيه يا ليون نيقولايفتش ، ألا ترى أنه يمد لك شباكاً ، ألا ترى أنه ينصب لك فخاً ؟ واضح أنه يسخر ، وأنه أراد أن تكون أنت مدار مسخريته ♦

قال الأمير وقد احمر وجهه :

— كنت أظن أنه يتكلم جاداً ♦

وخفض عينيه ♦

واستأنف الأمير « شئت ♦ ♦ ♦ » كلامه فقال :

— يا عزيزى الأمير ، هلاً تذكرت الحديث الذى جرى بيننا منذ ثلاثة أشهر ! لقد لاحظنا ، بحق ، أن محاكمنا القنية ، رغم أن نشوءها حديث ، قد أبرزت محامين ممتازين يملكون أعظم المواهب ♦ وما أكثر الأحكام التى صدرت عن محاكم الجنايات والتى تستحق أكبر الثناء والمديح ! لقد أسعدنى كثيراً حينذاك أن أراك تغتبط بهذا التقدم ♦ ♦ ♦ واتفقنا على أن من حقنا أن نعتز وأن نفخر ♦ ♦ ♦ فما تلك المرافعة الحمقاء وتلك الحجة العجيبة اذن الا حادث عارض ، الا حالة من ألف ♦

فَكَرَّ الأمير ليون نيقولا يفتش لحظةً ، ثم أجاب بلمهجة تدل على أكبر الاقتناع ، ولكن دون أن يرفع نبرته ، حتى لقد كان في صوته شيء من خجل :

ـ كل ما أردت أن أقوله هو أن هذا الفساد والتدهور في الأفكار والعقل (إذا نحن شئنا أن نستعمل تعبير أوجين بافلوفتش) يصادفان في أحيان كثيرة جداً ، فهما ـ وا أسفاه ـ أقرب الى أن يكونا ظاهرة عامة منهما الى أن يُعدَّ حالة خاصة . فلولا أنهما شائمان هذا الشيوع كله فلعلنا كنا لا نرى جرائم كهذه الجرائم التي لا يتصورها الخيال

ـ جرائم لا يتصورها الخيال ؟ أؤكد لك أن الجرائم في الماضي كانت لا تقل فظاعة وشناعة ، ولعلها كانت أقسى وأبشع . هذه الجرائم قد عرفتها جميع الأزمان ، لا في بلادنا وحدها بل في كل مكان ، وأعتمد أنها ستظل تُرتكب زمناً طويلاً . كل ما هنالك من فرق هو أننا لم نكن نملك في الماضي أدوات لنشر الأخبار واسعة هذا الاتساع كله في حين أن الصحافة والجمهور سرعان ما يلعبان بأبنائهما في هذا الزمان . فذلك هو مصدر شعورنا بأننا ازاء ظاهرة جديدة . هذا هو خطؤك يا أمير ، هذا هو خطؤك الساذج البريء . صدقني .

بهذا ختم الأمير « شتت . . . » كلامه وهو يتسم ابتسامة ساخرة .
قال الأمير :

ـ أعرف تماماً أن الجرائم كانت في الماضي لا تقل عدداً ولا تقل هولاً . لقد زرت سجوناً منذ زمن غير طويل ، فأتيت لي أن أعرف عدداً من المحكوم عليهم . ان بينهم مجرمين أقطع من أولئك الذين جرى عليهم حديثنا . ان منهم أناساً لا يشعر أحدهم بشيء من عذاب الضمير بعد أن يكون قد قتل «دسته» أشخاص . ولكن اليك ملاحظته : ان أعني أولئك المجرمين وأكثرهم خلواً من عذاب الضمير يحس مع ذلك أنه «مجرم» ،

أى انه فى شعوره ووعيه يدرك أنه أذنب وان كان لا يحس بأى ندم • تلك كانت حالة جميع أولئك السجناء • لكن المجرمين الذين يتكلم عنهم أوجين بافلوفتش أصبحوا لا يريدون أن يعدوا أنفسهم مجرمين • فهم فى قرارة أنفسهم يعتقدون أنهم على حق وأنهم أحسنوا صنعا ، أو يعتقدون بشىء من هذا القليل • هذا فى رأى فارق كبير • ولاحظ أن هؤلاء جميعا شبان ، أى أن سنهم هى السن التى يكون فيها الانسان أعجز ما يكون عن مقاومة تأثير الأفكار المنحرفة •

كان الأمير « شتش • • • » قد كف عن الضحك فهو يصغى الى الأمير وقد لاح فى وجهه الارتباك • وكانت الكسندرا ايفانوفنا تريد منذ مدة طويلة أن تبدى ملاحظة لكنها لزمّت الصمت كأن سببا معينا صدّها عن ذلك • أما أوجين بافلوفتش فكان ينظر الى الأمير بدهشة واضحة ، وبدون أية سخرية فى هذه المرة •

وتدخلت اليزابت بروكوفيتنا فجأة تقول :

— ما بالك ، أيها السيد العزيز ، تحدّق الىه هذا التحديق ، مشدوه الهيئة ؟ أكنت تظنه أغبى منك ، وعاجزا عن التفكير على غرارك ؟

قال أوجين بافلوفتش :

— لا يا سيدتى ، لم أكن أظن ذلك ، غير أن هناك شيئا يثير دهشتى يا أمير (اغفر لى سؤالى) : اذا كنت ترى الأمور هذه الرؤية الواضحة ، فكيف أمكنك (معذرة مرة أخرى) • • • كيف أمكنك • • • فى تلك القضية الغريبة • • • القضية التى حدثت ذلك اليوم • • • بشأن ذلك الرجل • • • بوردوفسكى فيما أظن • • • كيف أمكنك أن لا تلاحظ هذا الفساد نفسه وهذا التردى نفسه فى الأفكار والأخلاق ؟ لقد كان الأمر أمر هذا الفساد نفسه وذلك التردى ذاته مع ذلك • لقد تراءى لى حينذاك أنك لم تدرك هذا البتة •

انبرت اليزابت بروكوفينا تقول متحمسة :

- أيها السيد العزيز ، اذا كنا نحن ، جميع الحاضرين هنا ، قد أدركنا ذلك واستنتجنا من سداد رأينا وبراعة ادراكنا شعوراً بالتفوق على الأمير، فان الأمير هو الذى تلقى اليوم رسالةً من أحد رفاق بوردوفسكى، من أبرزهم ، من ذلك الذى كان مبثور الوجه، هل تتذكرينه يا ألكسندرا؟ وفى هذه الرسالة يستغفر الشاب الأمير - بطريقته طبعاً - ويعلن له أنه قطع صلته بالرفيق الذى حرّضه فى ذلك اليوم . هل تتذكرين يا ألكسندرا ؟ وهو يضيف الى هذا أنه بعد الآن لا يثق بأحد كما يثق بالأمير . ما من أحد منا تلقى رسالة كهذه الرسالة حتى الآن ، وان كنا قد ألفنا أن نعامل الشخص الذى وصلته هذه الرسالة معاملة تعال .

صاح كوليا قائلاً :

- وهيبوليت أيضاً ترك بيته وجاء يقيم عندنا .

فقال الأمير سائلاً بشئ من القلق :

- كيف ؟ أهو هنا الآن ؟

- وصل فور انصرافك مع اليزابت بروكوفينا . أنا أحضرته

بعربة .

فما ان سمعت اليزابت بروكوفينا هذا الكلام حتى غلت وفارت ، ناسيةً أنها قد مدحت الأمير منذ هنيهة ، وقالت :

- أراهن على أنه قد مضى أمس الى المسكن الحقيق الذى يقيم فيه هذا الولد الفاسد ، فركع امامه طالباً غفرانه ، راجياً منه أن يجيء فيقيم هنا . لقد اعترفت أنت نفسك بذلك منذ قليل . أذهبت اليه أم لا ؟ أركمت امامه أم لا ؟

هتف كوليا يقول :

— انه لم يركع • بالعكس تماماً • هيبوليت هو الذى تناول بالأمس يدَ الأمير فقبلها مرتين • رأيت المشهد بعينى • على هذا اقتصر العتاب بينهما • واذ أضاف الأمير أن صحة هيبوليت ستتحسن فى القليلة ، أجاب هيبوليت فوراً أنه سيجيء للاقامة بها متى شعر ببعض التخفف من آلامه •

قال الأمير وهو ينهض ويتناول قبعته :

— أخطأت يا كوليا • لماذا تقص هذا ؟ اننى ...

فسألته اليزابت بروكوفينا وهى تستوقفه :

— الى أين تذهب ؟

واستأنف كوليا كلامه فقال بحرارة :

— لا تعذب نفسك يا أمير • لا تذهب اليه فتفسد عليه راحته • لقد نام بعد متاعب الرحلة • وهو مقتبط سعيد • أوكد لك بصراحة يا أمير اننى أعتقد بأن من الأفضل كثيراً أن لا تلتقيا اليوم • أرجىء لقاءه الى غد حتى لا تخرجه مرةً أخرى • لقد قال فى هذا الصباح انه منذ ستة أشهر لم يشعر بمثل ما يشعر به اليوم من ارتياح وقوة • حتى ان سعاله قلَّ الى الثلث •

لاحظ الأمير أن آجلانيا قد غيّرت مكانها فجأة لتقترب من المائدة • كان لا يجزؤ أن ينظر اليها ، لكنه كان بكل كيانه يشعر أن عيني الفتاة السوداوين كانتا فى تلك اللحظة تحدقان اليه وتفرسان فيه • لا شك أن هاتين العينين كانتا تعبران عن الاستياء ، وربما كانتا تعبران عن تهديد • لا شك أن وجه آجلانيا قد تخضب بحمرة شديدة •

قال أوجين بافلوفتش :

- يخيل الىّ يا نيقولا آرداليونوفتش انك قد اسأت صنعا اذ جئت به الى هنا ، اذا كان هو ذلك الفتى المصدور الذى انفجر فى ذلك اليوم باكياً بدموع غريزة ، ودعا الحضور الى الاحتفال بدفنه • لقد تكلم عن الجدار الذى ينتصب أمام بيته ، تكلم عنه ببلاغة تبلغ من القوة أنه سيندم على فراق ذلك الجدار • صدّقنى •

- لا أصدق من هذا الكلام • لسوف يشارك ، وسوف يصل به الأمر الى حد الاقتتال معك ، ثم ينصرف • هذا أكيد •

قالت اليزابت بروكوفينا ذلك ، ثم شدت اليها سلّة حياكتها بحركة تتم على الاستياء ، ناسية أن الجميع كانوا قد نهضوا عن أماكنهم قاصدين القيام بنزهة •

واستأنف أوجين بافلوفتش كلامه فقال :

- اننى أتذكر حماسه فى الكلام على ذلك الجدار • لقد قال انه بدون ذلك الجدار لن يستطيع أن يموت ميتة فيها بلاغة • وهو يحرص على أن يموت ميتة فيها بلاغة •
دمدم الأمير قائلاً :

- وماذا بعد ذلك ؟ اذا لم تشأ أن تغفر له فسوف يستغنى عن غفرانك ويموت على كل حال ••• انه من أجل الأشجار انما جاء يقيم هنا •

- هه ! أنا من جهتى أغفر له كل شيء • تستطيع أن تبلغه هذا •
قال الأمير برفق وكأنه يتكلم على مضض ، وما زالت عيناه مطرقتين الى نقطة ثابتة فى الأرض :

- ما هكذا يجب أن يفهم الأمر • يجب أن توافق أنت على قبول غفرانه لك •

– لماذا ؟ أى ذنب جنيت فى حقه ؟

– اذا كنت لا تفهم ، فلن ألح ... ولكنك تفهم حق الفهم • لقد كانت رغبته حينذاك ... هى أن يباركنا جميعاً وأن يتلقى مباركتنا له • ذلك هو الأمر كله •

تبادل الأمير « شئت ... » نظرة سريعة مع بعض الحضور • ثم قال بشئ من الحرارة ، ولكنه كان يزن كلماته :

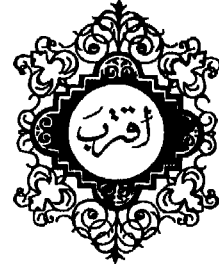
– يا عزيزى الأمير الطيب ، ليست اقامة الجنة على الأرض بالأمر السهل كثيراً ؛ وما تسعى اليه أنت انما هو الجنة • الأمر صعب يا أمير ، أصعب كثيراً مما يصوّر لك قلبك الطيب • وحسبنا هذا ، صدّقنى • والا اضطرب أمرنا من جديد ، وعندئذ ...

قالت اليزابت بروكوفينا بلهجة آمرة :

– هيا نمض الى سماع الموسيقى •

ثم نهضت عن مكانها بحركة فيها غضب • وحاكها الجميع •

الفصل الثاني



الأمير من أوجين بافلوفتش فجأة وأمسك يده ،
وقال له بلهجة فيها حمياً غريبة :
- أوجين بافلوفتش ، ثق أنني أقدرك واعتبرك
رغم كل شيء ، لأنني أعدك رجلاً نبيل القلب
وأعدك أحسن الناس . أحلف لك على هذا .

دُهِش أوجين بافلوفتش ، وبلغ من الدهشة أنه تراجع خطوة الى
وراء . وخلال لحظة من الوقت ، كظم رغبةً عنيفة قوية في الضحك .
لكنه حين أنعم النظر في الأمير تبسّن له أن الأمير ليس في حالة طبيعية أو
هو على الأقل في حالة غير مألوفة . وهتف يقول :

- أراهن يا أمير أن هذا ليس ما كنت تتوى أن تقوله لي ، بل ربما
كنت تريد أن توجه هذه الكلمات الى غيري لا الى أنا !... ولكن ماذا
بك ؟ أتراك مريضاً ؟

- جائر ، جائر جداً . لقد برهنت على أنك تملك كثيراً من دقة
الملاحظة ولطافة الادراك اذ قلت انني ربما كنت أريد أن أوجه أقوالى
تلك الى غيرك لا اليك أنت .

قال الأمير ذلك وابتسم ابتسامة خاصة يمكن أن توصف بأنها
مضحكة . ثم بدت عليه الحماسة والحرارة فجأة فقال صائحاً :

– لا تذكرنى بسلوكى الذى سلكته قبل ثلاثة أيام •• اننى ما برحت أشعر بالحجل والحزى والعار منذ ذلك الوقت ••• أنا أعلم أننى أخطأت •
– ولكن ••• ما هو الشيء الرهيب الذى فعلته ، ما هو الذنب الهائل الذى اقترفته ؟

– أرى أنك ربما كنت تشعر بالحجل لى أكثر من الآخرين جميعاً •
ان وجهك يحمر ، وهذه علامة نبل القلب • سأصرف فوراً • ثق بهذا •
اتجهت إليزابت بروكوفينا بالكلام الى كولا فسألته مروعة الهيئة:
– ماذا دهاه ؟ هل نوباته تبدأ هكذا ؟

– لا تذكرنى يا إليزابت بروكوفينا • ليست لى نوبة ، وسأصرف
بعد قليل • أنا أعلم أننى ••• اسان حرمة الطبيعة • لقد لبثت مريضاً
طوال أربع وعشرين سنة ، أو قولوا الى السنة الرابعة والعشرين من
عمرى • فاحسبوا اننى ما أزال مريضاً • سأصرف فوراً ، فوراً ، ثقى
بهذا • ليس يحمر وجهى خجلاً ، فانه ليكون شيئاً غريباً – أليس
كذلك ؟ – أن يحمر وجهى خجلاً من مرضى هذا • لكن وجودى فى
المجتمع زيادة • لا أبدى هذه الملاحظة من باب الشعور بالكرامة • لقد
فكرت ملياً خلال هذه الأيام الثلاثة فانتهت الى أن من واجبى أن أنبئكم
بذلك صادقاً عند أول مناسبة • نمة أفكار معينة ، أفكار رفيعة سوف
أمسك عن الكلام عنها حتى لا أضحك جميع الناس ••• لقد ألع الأمير
« شتش ••• » الى هذا منذ قليل • ما من حركة من حركاتى تخلو من
شدوذ • اننى لا أعرف القصد والاعتدال • لغتى لا تناسب المعانى التى
فى ذهنى ، فهى لذلك تفض من قيمتها وتفسدها • لذلك لا يحق لى أن
••• ثم اننى شديد الاشتباه والارتباب • صحيح أننى ••• أننى مقتنع بأن
أحدًا لا يمكن أن يهيننى فى هذا المنزل ، وأننى محبوب فيه أكثر مما

استحق • ولكنى أعلم (علماً لا مجال للشك فيه) أن أربعة وعشرين عاماً من المرض لا يمكن الا أن تخلّف آثاراً ، وأن من المستحيل أن لا يسخر الناس منى ويتهموا على ••• من حين الى حين ••• أليس هذا صحيحاً ؟

قال الأمير ذلك وأدار بصره على الحضور كأنه ينتظر جواباً أو قراراً • كان الجميع قد دهشوا من هذه الاندفاع المرضية التي لم يتوقعها أحد ، والتي لم يكن ثمة ما يدعو اليها ويبعث عليها ، فكانت سبباً لوقوع حادث غريب هو أن آجلانيا صاحت فجأة تسأل الأمير :

— لماذا تقول هذا هنا ؟ لماذا تقول هذا لهم « هم » ••• لهؤلاء الناس ؟

كانت تبدو فى ذروة الاستياء والامتناع • وكانت عيناها تسطمان • لبث الأمير أمامها صامتاً كالأخرس ، واجتاحت وجهه صفرة مفاجئة • وانفجرت آجلانيا تقول :

— ليس هنا شخص واحد يستحق أن يسمع هذه الكلمات ! انهم جميعاً لا يساوون خنصر يدك ، لا فكراً ولا قلباً ! أنت أشرف منهم قاطبة • أنت تفوقهم نبلاً وطيباً وذكاءً ! هنا أناس لا يستحقون أن يشيلوا المنديل الذى سقط من يدك الآن على الأرض ••• فلماذا تُذل كبرياءك وتضع نفسك تحتهم ؟ لماذا قلبت كل شيء فى نفسك رأساً على عقب ؟ لماذا لا تكون لك عزة وأنفة ؟

قالت الزبابت بروكوفينا وهى تضم يديها احدهما الى الأخرى :

— رباه ! من كان يمكن أن يصدّق هذا ؟

وصاح كوليا يقول متحمساً :

- مرحى ! الفارس الفقير !+++

فقالت له آجلايا :

- امكت !

وأضافت تقول لأمها وقد استبد بها انفجار من انفجارات الالتهاب
التي لا تعرف حدوداً ولا عقبات ، قالت بقسوة وخشونة :

- كيف يجروُ أحد أن يهيننى هنا فى دارك ؟ لماذا يضطهدوننى هنا
جميعاً من أولهم الى آخرهم ؟ لماذا يرهقوننى منذ ثلاثة أيام بسبيك يا أمير؟
لن أتزوجك فى يوم من الأيام بحال من الأحوال ! اعلمْ انتى لن أفعل
هذا فى يوم من الأيام بحال من الأحوال ! ضعْ هذا فى رأسك ! هل
تتزوج فتاة انساناً مضحكاً مثلك ! أنظر الى وجهك فى المراة لترى كيف
هو فى هذه اللحظة ! لماذا يناكدوننى زاعمين أنتى سأتزوجك ؟ يجب
عليك أن تعرف هذا ! لا شك أنك متواطىء معهم ! لا شك أنك شريكهم
فى المؤامرة !

تمتت آديلايد تقول مذعورة :

- لم يناكدها أحد فى وقت من الأوقات !

وهتفت الكسندرا ايفانوفنا تضيف قائلة :

- لم يخطر ببال أحد أن يناكدها فى لحظة من اللحظات !
وقالت اليزابت بروكوفينا تسأل جميع الحضور وهى ترتعش
غضباً :

- من ناكدها ؟ متى ناكدها أحد ؟ من ذا تجرأ أن يقول لها كلاماً
كذلك الكلام ؟ أهى تهذى أم هى مالكة رشدها محتفظة بعقلها ؟
فأجابت آجلايا بلهجة تمزق القلب ألماً :

- هم جميعاً قالوا هذا الكلام ! هم جميعاً صدّعوا أذنى به خلال
هذه الأيام الثلاثة ! لا أستنى منهم أحداً •

ثم انفجرت تبكى بدموع غزيرة ، وأخفت وجهها بمنديلها وتهاكت
على كرسى •

- ولكنه حتى الآن لم يخطب •••

قال الأمير كمن يتكلم بغير ارادة :

- أنا لم أخطبك يا آجلايا ايغانوفنا •

فصاحت اليزابت بروكوفينا تقول بلهجة تميز فيها الدهشة
بالاستياء بالهلع :

- ماذا ؟ ما معنى هذا ؟

كانت لا تستطيع أن تصدق أذنيها ، فأخذ الأمير يقول بكلمات
متقطعة :

- قصدت ••• قصدت •••• أردت أن أقول ••• أردت أن
أشرح لآجلايا ايغانوفنا •• بل أردت أن أتشرف بأن أشرح لها اننى لم
أتو ••• أن أتشرف بخطبتها ••• وحتى فى المستقبل ! ••• ليس لى
فى هذا الأمر أى ذنب أؤاخذ عليه يا آجلايا ايغانوفنا ، الله يشهد اننى
ليس لى أى ذنب أؤاخذ عليه ! أنا لم أتو أن أخطبك فى يوم من الأيام ،
حتى ان هذه الفكرة لم تخطر على بالى قط ، ولن تخطر على بالى أبداً ؛
لسوف ترين هذا ! لا تشككى فى صدق ما أقول ! لا بد أن شخصاً شريراً
سبىء النية وشى بى اليك متجنياً • ولكن فى وسعك أن تهدئى نفسك وأن
تطمئنى بالآ !

كان وهو يتكلم قد اقترب من آجلايا • فأزاحت المنديل الذى كان
يغطى وجهها وألقت على الأمير نظرة سريعة • فرأت سحته المنقلبة

وهيئة المروعة ، فأدركت معنى أقواله ، فانفجرت ضاحكة مقهقهة أمام أنفه . وقد بلغت ضحكاتها من قوة الصراخ وشدّة السخرية أنها انتقلت الى آديلايد ، فاحتضنت آديلايد أختها بكلتا يديها وانطلقت تضحك معها ذلك الضحك نفسه ، ذلك الضحك الطفولي الذي لا يقاوم ولا يغالب . فلما رآهما الأمير على هذه الحال أخذ يتسّم هو نفسه ، وراح يقول معبراً عن الفرح والسعادة :

— آه ... الحمد لله ... الحمد لله ... !

ولم تستطع الكسندرا نفسها عندئذ أن تقاوم ، فأخذت تضحك هي أيضاً من أعماق قلبها . وطال ضحك الأخوات الثلاث حتى لكانه لا يريد أن ينتهى .

قالت اليزابت بروكوفينا مدممة :

— انهن لمجنونات ، فتارةً يروّعنك ، وتارةً ...

ولكن عدوى الضحك كانت قد سرّت الى الأمير « شتد ... » ، والى أوجين بافلوفتش ، وحتى الى كوليا الذى أصبح لا يسيطر على نفسه ، وراح ينقلّ بصره بين هؤلاء وأولئك . فأخذ الأمير يضحك مثلما يضحكون !

هفت آديلايد تقول :

— هلموا تنزه ! هلموا ! ليأت الجميع ، ولينضم إلينا الأمير ! ليس هناك أى سبب يدعو الى استحبابك يا أمير وأنت على ما أنت عليه من لطف وتهذيب . أليس لطيفاً مهذباً يا أجلايا ؟ أليس هذا صحيحاً يا ماما ؟ وفوق ذلك ، يجب علىّ حتماً أن أقبله ... تقديراً للتوضيح الذى قدّمه بين يدي أجلايا . يجب علىّ أن أقبله . ماما ، عزيزتى ماما ، هل تأذنين لى أن أقبله ؟ وأنت يا أجلايا ، اسمحى لى أن أقبل «أميرك» !

بهذا هتفت الفتاة الماكرة ...

وقرنت القول بالعمل فاندفعت الى الأمير وقبلته على جبينه • فتناول الأمير يديها ، وشدَّ عليها شداً بلغ من القوة أن آديلايد كادت تصرخ من الألم ؛ ونظر اليها بفرح لا نهاية له ، ثم حمل يد الفتاة الى شفتيه فجأة فقبلها ثلاث مرات •

قالت أجلايا :

— هلموا ، فلنمش ! يا أمير ، ستكون أنت مرافقي • هل تأذنين يا ماما ؟ أليس الأمير خطيباً رفض خطبتي منذ هنيهة ؟ ألم تعدل عني الى الأبد يا أمير ؟ ولكن ما هكذا يمد رجل ذراعه الى سيدة لتناولها ؟ ألا تعرف كيف 'تمد' الذراع لتناولها سيدة ؟ حسن ، الآن مددها مدأً صحيحاً • هلمَّ سر ، ولكن في المقدمة • هل تقبل أن نسير في طليمة السائرين ، وأن نكون « وحيدين » ؟ *

كانت تتكلم دون توقف وما تبرح تضحك فجأة من حين الى حين • وكانت اليزابت بروكوفينا تقول مرددةً ، دون أن تعرف على وجه الدقة ما الذي كان يبهجها وممَّ كانت تغتبط :

— الحمد لله ! الحمد لله !

وحدث الأمير « شتت ... » نفسه قائلاً : « هؤلاء أناس عجيب أمرهم • • لقد قال هذه العبارة ربما للمرة المائة منذ أن أصبح يختلف اليهم ، ولكنه ... كان يحب هؤلاء الناس الذين يرى أن أمرهم عجيب ! لعله كان لا يحس هذا الشعور نفسه تماماً تجاه الأمير • وحين خرجوا للنزهة اربد وجهه واكتست هيئته معنى الهم •

ان أوجين بافلوفتش هو الذي كان يبدو أكثرهم ارتياحاً • ولقد ظل طوال الطريق الى الفوكسهول يسلي الكسندرا وآديلايد • فكانت

هاتان تضحكان ضحكاً فيه من المجاملة والمسايرة لمزاحه أنه انتهى الى الاشتباه في أنهما ربما كانتا لا تصنيان الى كلامه ، فاذا هو ، دون أن يستطيع تفسير ذلك لنفسه ، ينفجر ضاحكاً ضحكاً فيه من الصراحة مثل ما فيه من الانطلاق الذى لا تكلف فيه ولا اصطناع (ذلك كان طبعه !) . كانت الأختان مشرقتى المزاج ، لا تبرحان تنظران الى أختهما الصغرى التى كانت تسير مع الأمير فى طليعة السائرين . كان واضحاً أن وضع آجلایا يبدو لهما لغزاً لا تفهمانه ، أو أحجية لا سبيل الى حلها . وكان الأمير « شتت » . ما ينفك يجهد فى التحدث الى اليزابث بروكوفينا عن أمور لا قيمة لها ، فلعله كان يريد أن يصرفها عن أفكارها وخواطرها ، لكنه لم يستطع الا أن يثبت فى نفسها سأمًا شديداً وضجراً رهيباً . كان يبدو أنها فى حالة غير طبيعية . فهى تجيب فى كلامها خبط عشواء ، أو هى لا تجيب البتة .

على أن آجلایا ايفانوفنا لم تكن قد فرغت من بث الحيرة فى نفوس من كانوا حولها ذلك المساء . وقد احتفظت للأمير بأخر لغز تحييره به دون سواء . فحين أصبحت على مسافة مائة خطوة من الفيللا أسرعت تهمس فى اذن مرافقها الذى ما برح صامتاً صمتاً عنيداً ، فتقول له :

- انظر يمنة .

فأطاعها الأمير ونظر يمنة .

- انظر بمزيد من الانتباه ، هل ترى دكة ، فى الحديقة ، هناك ، قرب تلك الشجرات الثلاث . . . دكة خضراء ؟

فأجاب الأمير بأنه يرى الدكة . فسألته :

- هل يعجبك ذلك المكان ؟ اننى فى بعض الأحيان أجيء مبكرة ،

فى نحو الساعة السابعة ، حين يكون الجميع ما يزالون نائمين ، فأجلس هناك وحيدة .

وافقها الأمير متمماً على أن المكان رائع .

قالت له :

— والآن ابتعد ! لا أريد الآن أن أسير متأبطة ذراعىك ؟ بل هات ذراعىك ، ولكن لا تقل لى الآن كلمة واحدة . أريد أن أدخلو الى أفكارى ...

الحق أن هذا الطلب كان نافلاً . فان الأمير ما كان له أن ينطق بكلمة واحدة أثناء النزعة ولو لم تأمره هى بالصمت . حقق قلبه خفقاناً شديداً عنيماً حين سمع كلامها المتعلق بالدكة . ولكنه غير رأيه بعد دقيقة ، وخجل من نفسه طارداً الفكرة التى خطرت بباله .

يعرف الناس ، أو يؤكد جميع الناس ، أن الجمهور الذى يرتاد الفوكسهول بمدينة بافلوفسك هو فى غير أيام الأحد « أرقى » منه فى أيام الأحد أو فى أيام الأعياد ، أى الأيام التى يتوافد فيها اليه من بطرسبرج « أنواع شتى » من الناس . ولئن لم تكن الثياب التى يرتديها الجمهور فى تلك الأيام هى ثياب يوم الأحد ، فانها أكثر أناقة وأرفع ذوقاً من الثياب التى يرتديها جمهور يوم الأحد . ان من العادات الراقية أن تأتى الصفوة الى هذا المكان تسمع الموسيقى . ولعل الأوركسترا هنا أن يكون أحسن من جميع الأوركسترات التى تعزف فى الحدائق العامة عندنا ، ومن المعروف أن معزوفاتها تتضمن طرائف جديدة . وان ما يسيطر على هذه الاجتماعات من جو عائلى بل ومن تصارف حميم لا ينفى أن يلتزم أصحابها أعلى آداب اللباقة وأقصى أصول التعامل . ولأن الجمهور يكاد يخلو الا من الأسر المصطافة فى بافلوفسك ، فان الجميع يجيئون الى هذا

المكان ليلتقي بعضهم ببعض • ان اناساً كثيرين يجدون متعةً كبرى في هذا النوع من تزجية الوقت لا يدفعهم الى المعجى الا هذا الباعث وحده ، غير أن هناك أناساً آخرين انما يجيئون من أجل الموسيقى وفي سبيلها • والفصائح نادرة هنا أشد الندرة ، ولكن لا يخلو أن تقع فضيحة من حين الى حين ، حتى في غير أيام الأحد • ذلك أمر لا يمكن تحاشيه •

كان المساء في ذلك اليوم رائماً ، وكان الجمهور كبيراً • ان جميع الأماكن المجاورة للأوركسترا مشغولة ، فجلس أفراد جماعتنا على كراسي بعيدة بعض البعد ، قرب باب الخروج الأيسر • ان جمهرة الناس وألحان الموسيقى قد سرّت عن اليزابت بروكوفينا قليلاً ، وروّحت عن بناتها وسلّتهن • وقد تبادلت البنات بعض النظرات مع عدد من معارفهن ، وهززن رموسهن بتحيات صغيرة لطيفة أرسلنها الى آخرين • وقد اتسع وقتهن كذلك لأن يدققن النظر في ثياب الحضور وزيناتهن وأن يلاحظ بعض أنواع الشدوذ والأغراب فيها فعلنقن عليها باتسمات ساخرة • وقد أغدق أوجين بافلوفتش تحيات كثيرة هو أيضاً • كما لوحظ أن آجلايا والأمير كانا معاً • وسرعان ما اقترب من الأم والبنات شباب من معارفهن • وبقي منهم اثنان أو ثلاثة يترثرون • انهم أصدقاء أوجين بافلوفتش • احدهما ضابط شاب هو فتى وسيم جميل زاهر نشاطاً وحماسة ، سرعان ما عقد حديثاً بينه وبين آجلايا ، وبذل كل جهوده ليأسر انتباه الفتاة التي أظهرت له كثيراً من اللطف والمرح • وقد طلب أوجين بافلوفتش من الأمير أن يأذن له بتعريفه بهذا الصديق ، فلم يدرك الأمير ما طُلب منه الا نصف ادراك ، ولكن التعارف تم ، فحيا الرجلان كل منهما الآخر وتصافحا • وألقى صديق أوجين بافلوفتش على الأمير سؤالاً لم يجب عنه الأمير ، أو قل انه أجاب عنه بجمجمة بلغت من الغرابة أن الضابط حدّق الى عينيه ثم نظر الى أوجين بافلوفتش • فلما أدرك عندئذ لماذا

عرفه صاحبه بالأمر ابتسم ابتسامة خفيفة لا تكاد تلاحظ والتفت نحو آجلایا من جديد • فكان أوجین بافلوفتش الشخص الوحيد الذى لاحظ عندئذ أن آجلایا احمرت فى تلك اللحظة فجأة •

أما الأمير فانه لم يلاحظ حتى وجود آخرين يتحدثون آجلایا ويلاطفونها ويتوددون اليها • أكثر من ذلك أن هناك لحظات كان يبدو عليه أثناءها أنه ناس وجود آجلایا الى جانبه • وفى بعض الأحيان كانت تستولى عليه رغبة فى أن ينصرف ذاهباً الى أى مكان ، وأن يغيب غيباً تاماً وأن يختفى اختفاءً كاملاً • كان يتمنى أن يلجأ الى ملاذ مظلم معتم يخلو فيه الى أفكاره ولا يستطيع أحد أن يهتدى اليه • أو كان على الأقل يتمنى أن يكون فى داره ، على الشرفة ، شريطة أن لا يكون الى جانبه أحد ، لا ليديف ولا أولاد • كان يتمنى أن يجد نفسه هناك ، فيرمى على الديوان دافئاً رأسه فى الوسادة ، فلو أتيح له هذا اذن لبقى على تلك الحال يوماً قليلةً فيوماً آخر • وكان فى لحظات أخرى يحلم بالجبال ، ولا سيما بموقع على جبال الألب كان يحب كثيراً أن يستحضر ذكره ، وهو المكان الذى كان يقوم فيه بنزهته المفضلة عنده الأثيرة لديه حين كان يعيش هناك • فمن ذلك المكان يرى المرء القرية فى حضن الوادى ، ويستشف تساقط مياه الشلال الصغير التى تمازجها الثلوج ، ويبصر السحب البيضاء ، ويلمح قصرأ قديماً مهجوراً • لشد ما يتمنى أن يجد نفسه الآن هناك ، وأن يكون رأسه خالياً الا من فكرة واحدة • • • فكرة واحدة طوال حياته ، ولو دامت حياته ألف سنة ! لا يهمه فى الواقع أن يُنسَى هنا نسياناً تاماً • بل ان هذا لضرورى • ولعله كان من الأفضل أن لا يُعرف هنا قط ، وأن لا تكون جميع الصور التى مرت أمام عينيه الا حلماً ! ومهما يكن من أمر ، ألم يكن الحلم والواقع شيئاً واحداً ؟

ثم أخذ الأمير يلاحظ آجلایا على حين فجأة ، ولبت خمس دقائق

لا يحوّل بصره عن وجه الفتاة ، لكن نظرتنه كانت غريبة غير مألوفة :
فكأنه كان يحدق الى شيء يقع منه على مسافة فرسخين ، أو كأنه كان ينظر
الى صورة لا الى الشخص نفسه .

قالت آجلایا تسأله وقد توقفت عن الكلام والضحك مع من حولها
فجأة :

— ما بالك تتفرس فيّ هكذا يا أمير ؟ انك لتخيفني . يترامى لى فى
كل لحظة أنك تريد أن تمد يدك لتلمس وجهى وتحسه . ما رأيك
يا أوجين بافلوفتش ؟ أليس هذا ما يحسه المرء حين يرى نظرتنه ؟

أصغى الأمير الى كلماتها ، وكأنما أدهشه أن يراها تخاطبه هو .
بدا عليه أنه أدرك معنى أقوالها ، ولو ادراكاً ناقصاً فى أغلب الظن . ولم
يجب بحرف واحد ، لكنه اذ لاحظ أن آجلایا تضحك وأن الجميع
يضحكون معها ، انفرج فمه وأخذ يفعل مثلهم . وتضاعف الضحك من
حوله حينذاك . أما الضابط الذى كان بطبعه شديد المرح فيما يبدو فقد
أخذ يقهقه قهقهة شديدة . ودمدت آجلایا تقول لنفسها وقد استبد بها
غضب شديد مفاجئ :

— أبله !

فدمدت اليزابت بروكوفينا تقول حاتقة :

— كيف يمكن ، يا رب ، أن تختار مثل هذا ال . . . أثراها فقدت
عقلها تماماً ؟

فقالت الكسندرا تهمس فى اذن أمها واثقة مطمئنة :

— هذه مزحة . هذا تكرار لمزحتها فى ذلك اليوم مع « الفارس
الفقير » ، لا أكثر من ذلك . لقد عادت تناكده بطريقتها . ولكن هذه

المرحة تفوق وتتجاوز حدود القصد • فيجب أن نضع لها نهاية يا أمي !
منذ قليل أخذت تتلاعب بحركات وجهها كمثلة ، فارتعنا من ذلك أشد
الارتعاع •

دمدمت اليزابت بروكوفينا تقول وقد خفت عنها ملاحظة ابنتها
رغم كل شيء :

- من حسن الحظ أن من تعامله هذه المعاملة أبله كهذا الأبله •
وكان الأمير قد سمع أنه يوصف بأنه أبله ، وما هو ذا يرتعش ،
لكنه لم يرتعش بسبب هذا الثعت الذي سرعان ما نسيه فوراً • وإنما
ارتعش لأنه لمح بين الجمهور ، غير بعيد من المكان الذي كان جالساً فيه ،
لمح من جانب (وهو لا يستطيع أن يحدد على وجه الدقة لا الموضع
ولا الاتجاه) ، لمح وجهاً شاحباً ، له شعر أدكن مضفور ، وله ابتسامة
ونظرة يعرفها حق المعرفة • ان هذا الوجه لم يزد على أن ظهر ظهوراً
خاطفياً • ربما كانت هذه الرؤية ثمرة خياله • لم يبق من هذه الرؤية
في ذاكرته الا ابتسامة مصعرة ، وعينان ، ورباط عنق أخضر فاتح يدل
على طموح الى الأباقة لدى الشخص الذي ظهر ذلك الظهور الخاطف •
تُرى هل اندس الشخص في الجمهور فغاب فيه أم هو تسلل في
الفوكسهول ؟ ذلك ما لا يستطيع الأمير أن يحدده •

لكنه أخذ يتفحص الأمكنة القريبة ، قلقاً مهموماً مغموماً ، بعد
لحظة ، على حين فجأة • ان ظهور ذلك الشخص الأول يمكن أن ينذر أو
أن ينبئ بظهور شخص آخر • بل ان هذا لاكيد لا شك فيه • كيف
نسى امكان حدوث مثل هذا اللقاء حين ساروا متجهين الى الفوكسهول ؟
صحيح أنه لم يدرك عندئذ الى أين كان ذاهباً ، وذلك بسبب ما كان عليه
من حالة نفسية خاصة • ولو استطاع أن يكون أكثر انتباهاً ويقظة للاحت
أن أجلايا كانت منذ أكثر من ربع ساعة تتلفت قلقة من حين الى حين

وكانها تبحث بعينها عن شيء ما حولها • أما وقد أصبح هو نفسه متوتر الأعصاب مزيداً من التوتر ، فإن انفعال آجلايا واضطرابها قد اشتدا وتفاقما ، فكلما نظر هو الى وراء أسرع تقوم هى بهذه الحركة نفسها • وما لبثت هذه المخاوف أن وجدت ما يبررها •

فهذه عصبة يبلغ عدد أفرادها عشرة أشخاص على الأقل تلج المدخل الجانبي الذي كان الأمير وآل ايباتشين قد اتخذوا أماكنهم على مقربة منه ؛ وفى مقدمة هذه العصبة تسير ثلاث نساء كانت اثنتان منهن جميلتين جمالاً ساحراً لا يستغرب المرء أن يجرّ وراءه هذا العدد الكبير كله من العباد • ولكن هؤلاء العباد ، وشأنهم فى ذلك شأن أولئك النساء أنفسهن ، كانت لهم هيئة خاصة تميزهم تمييزاً عن الجمهور المتجمع حول الموسيقى • وقد لاحظهم جميع الحضور تقريباً منذ دخلوا ، ولكن أكثر الناس تظاهروا بأنهم لم يحسوا بحضورهم ، الا عدداً من الشباب ابتسموا وتبادلوا بعض الملاحظات بصوت خافت • وكان من المستحيل على كل حال أن لا يرى المرء هؤلاء القادمين ، لأنهم دخلوا يعرضون أنفسهم ويتكلمون فى صخب ، ويضحكون ضحكاً مجلجلاً • من الجائز أن يكون بينهم أفراد سكارى ، رغم أن كثيرين منهم كانوا يرتدون ثياباً فيها كثير من الأناقة والذوق • ولكن الناظر اليهم يلاحظ بينهم كذلك أفراداً يلفتون الانتباه بغرابة سلوكهم وثيابهم معاً ، كما أن وجوههم تبدو ملتعبة التهاّباً شديداً • وكان بين أفراد هذه العصبة أخيراً بضعة عسكريين ، بل كان بينهم أيضاً أناس متقدمون فى السن • كان بعضهم يرتدى ملابس متأقّة فضفاضة على آخر زى ، ويضعون فى أصابعهم خواتم ، ويزينون عرى أكمامهم بأزرار فضة ؛ وعلى رءوسهم ووجائهم شعر مستعار فاحم السواد • وهم يصطنعون مظهر النبالة ، ولكن هيئاتهم تعبر عن التالى المقتل • انهم من أولئك الناس الذين يفر منهم الآخرون ، فى المجتمع

الراقي ، فرارهم من الطاعون • طبعى أن في مراكز التجمع التى تقع قرب المدن بلادنا ، محلات تتميز بحرص شديد على حسن المعاملة ، وتمتع بشهرة طيبة وسمعة عطرة • ولكن أشد الناس حذراً وأكثرهم حيطة لا يضمن أن لا تسقط على رأسه فى أى لحظة من لحظات حياته قريمة من سطح المنزل المجاور • ان هذه القريمة هى التى ستقع على رأس الجمهور المصطفى المتجمع حول الموسيقى •

للانتقال من الكازينو الى الأرض الممهدة التى يستقر فيها الأوركستر ، يجب هبوط درجات ثلاث • وقد وقفت العصابة أمام هذه الدرجات مترددة أن تهبط • غير أن إحدى السيدات تقدمت ، فلم يجرؤ أن يتبعها من صاحبها الا رجلان • فأما الأول فهو رجل متوسط العمر متواضع الهيئة حسن المظهر من جميع النواحي ، ولكن الناظر اليه يدرك أنه من أولئك الناس الذين ليس لهم جذور ، فلا يعرفون أحداً ولا يعرفهم أحد • وأما الثانى فهو رجل سىء الهمد نام مشبوه الهيئة • ولم يصحب السيدة الغربية الأطوار أحد غير هذين الرجلين • ثم ان السيدة ، حين هبطت الدرجات الثلاث ، لم تشأ حتى أن تلتفت الى وراء ، فهمى لا تبالى أن يتبعها أحد أو أن لا يتبعها أحد • وما برحت تضحك ضحكاً صاخباً مجلجلاً • ان عيب أناقتها القصوى وثيابها الفاخرة وزينتها الثرية أنها مسرقة فى خطف الأبصار وشد الانتباه • ومررت أمام الأوركسترا لتنتقل الى الجهة الأخرى من الأرض الممهدة التى يستقر عليها العازفون ، حيث توجد مركبة فخمة ترابط عند حافة الطريق ويبدو أنها تنتظر أحداً •

ان الأمير لم يرها منذ أكثر من ثلاثة أشهر • انه منذ أن عاد الى بطرسبرج لم ينقض عليه يوم واحد الا اتوى أن يزورها • لكن لعل توجساً خفياً كان يصده عن ذلك • وهو لم يستطع ، على الأقل ، أن

يدرك الشعور الذى يمكن أن يحسه اذا هو لقيها ، رغم أنه حاول ، مع غير قليل من الخوف ، أن يتصور بخياله ذلك اللقاء . ان الشيء الوحيد الذى كان يبدو له واضحاً هو أن اللقاء سيكون شاقاً أليماً . لقد استحضّر عدة مرات خلال هذه الأشهر الستة الاحساس الأول الذى أيقظه فى نفسه وجه هذه المرأة . فحتى حين لم يكن تحت بصره الا صورة ذلك الوجه ، كان احساسه احساساً موجعاً جداً . انه يتذكر هذا . وان الشهر الذى قضاه بالأقاليم وكان يلقاها أثناءه كل يوم تقريباً ، قد أحدث فى نفسه من المخاوف ما جعله يطرد من ذهنه فى بعض الأحيان حتى ذكرى ذلك الماضى القريب . لقد كان فى وجه تلك المرأة دائماً شيء يعذب نفسه عذاباً مبرحاً . انه فى حديث جرى بينه وبين روجويين قد وصف شعوره بأنه « عاطفة شفقة لا نهاية لها » . وهذه هى الحقيقة : ان مجرد النظر الى صورة هذه المرأة الشابة يوقظ فى نفسه جميع آلام الشفقة . ان عاطفة الشفقة هذه التى بلغت حدّ الألم لم تبارحه فى يوم من الأيام ، وما تزال مستبدة به الى الآن ، بل انها لتشتد مزيداً من الاشتداد يوماً بعد يوم . ومع ذلك كان التفسير الذى قدّمه لروجويين لا يكفيه . فالآن فقط يكشف له ظهورها المباغت ، بحدس مباشر ، عن نقص ذلك التفسير ، وهو نقص لا يمكن أن تملأه الا كلمات يمكن أن تعبّر عن ذعره ، نعم عن ذعره ! لقد كانت هنالك أسباب تدعوه الى الاقتناع الكامل المطلق بأنها مجنونة . تصوروا رجلاً يحب امرأة أكثر مما يحب أى شيء فى هذا العالم ، أو يحس ، بما يشبه النبوة ، أنه يحبها هذا الحب ، ثم اذا هو يتصور هذه المرأة مكبلةً بالسلاسل وراء قضبان حديدية على حين فجأة ، يشهر عليها الصاع حارس يهيم أن يهوى بها فوقها : تلكم هى على وجه التقريب طبيعة الانفعال الذى تشب فى نفس الأمير .

همست أجلايا تسأله بسرعة وهى تنظر اليه وتشد من يده بسداجة :

— ماذا بك ؟

فالتفت إليها وتفرس فيها ورأى فى عينيها السوداوين التماع شمعة لم يفهمها حينذاك • وجهد أن يتسم للفتاة ، لكنه لم يلبث أن نسيها وحوّل عنها بصره يمنةً وقد بهرته رؤية خارقة من جديد •

ففى تلك اللحظة كانت ناستاسيا فيليوفنا تمر قرب الكراسى التى تشغلها الآنسات • وكان أوجين بافلوفتش يقص على الكسندرا ايفانوفنا حكاية لا بد أنها كانت شائعة ومضحكة جداً فلقد كان يرويها بكثير من الحرارة والنشاط • لقد تذكر الأمير فيما بعد أن أجلايا قالت عندئذ بصوت خافت : « آآآ ما أروع ••• » ثم أمسكت فجأة عن الكلام ولم تكمل جملتها • غير أن ما قالته كان كافياً • وكانت ناستاسيا فيليوفنا تمر مرور من لا ترى أحداً ، ثم اذا هى تلتفت نحوهما فجأة ، وتظاهر بأنها تكتشف وجود أوجين بافلوفتش على غير توقع ، فصيح وهى تتوقف عن السير حالاً :

— ها ••• تارةً يعجز المرء عن لقائه بأية طريقة من الطرق ، ولو بعث اليه الرسل ، وتارةً يعثر به حين لا يتوقع أن يراه ••• كنت أظن هناك ••• عند عمك !•••

احمر وجه أوجين بافلوفتش احمراراً شديداً ، ورشق ناستاسيا فيليوفنا بنظرة زاخرة بالغضب والحق ، ثم أشاح بوجهه الى جهة أخرى •

— ماذا ؟ ألا تعلم ؟ انه لم يعرف شيئاً بعد ! هل تصدقون هذا ؟ لقد انتحر عمك ! أطلق فى رأسه رصاصةً هذا الصباح ! علمت بذلك منذ قليل ، فى الساعة الثانية • ونصف سكان المدينة يعرفون النبأ الآن • لقد اختلس ثلاثمائة وخمسين ألف روبل من خزينة الدولة • بعضهم يقول

انه اختلس خمسمائة ألف • هه ! وأنا كنت أعوّل على أنه سيورثك ثروة طائلة ! لقد أكل كل شيء ، ذلك الشيخ الفاجر الداعر • الخلاصة : وداعاً ، « أتمنى لك التوفيق » * ! ألن تذهب حقاً ؟ لقد عرفت كيف تقدم استقالتك في الوقت المناسب • انك لماكر صاحب حيلة ! ولكن ما هذا الذي أقوله ؟ لا شك أنك كنت تعرف كل شيء ، لا شك أنك كنت تعرف كل شيء سلفاً • ربما كنت على علم بالأمر منذ أمس •••

واضح أن ناستاسيا فيليوفنا ، اذ اتخذت لهجة الاستفزاز الوقحة هذه ، واذا أعلنت بهذا الأسلوب عن وجود صلة حميمة وهمية بينها وبين من تخاطبه ، انما كانت ترمى الى غاية وتسعى الى هدف • لم يكن في الامكان أن يبقى ثمة ظل من شك • وقد ظن أوجين بافلوفتش أن في وسعه أن يخرج من المأزق دون فضيحة اذا هو تظاهر بأنه لا يولى المرأة المستفزة أى انتباه • لكن أقوال ناستاسيا فيليوفنا سقطت على رأسه ؛ فحين ذكرت أن عمه مات صار وجهه كالأبيض من فرط اصفراره ، والتفت نحو المرأة الوقحة • فما كان من الزابت بروكوفينا الا أن أسرعته تنهض وتنصرف بما يشبه الركض ، مقتادة كل عالمها ، الا ليون نيقولاييفتش وأوجين بافلوفتش اللذين تلبسا برهة : فأما الأول فكان يبدو مرتبكاً متحيراً ، وأما الثانى فكان ما يزال منفعلاً مضطرباً • ولكن ما كاد آل ايباتشين يقطعون عشرين خطوة حتى وقعت فضيحة رهيبة •

فان الضابط الذى كان يحدث آجلايا ، وهو صديق أوجين بافلوفتش الحميم ، قد استاء استياءً شديداً وامتعص امتعاضاً قوياً ، فها هو ذا يقول بصوت يكاد يكون عالياً :

— انما نحن فى حاجة هنا الى سوط • فما من وسيلة أخرى يمكن أن تهدئ هذه المخلوقة !

(واضح أن أوجين بافلوفتش كان يطلعه على شئونه ، ويوح له بأموره) •

فما ان سمعت ناستاسيا فيليوفنا هذا الكلام من الضابط حتى أسرع اليه متقدة العينين • ثم انتزعت من يدي شاب كان جالساً على مسافة خطوتين وكانت هي لا تعرفه ، انتزعت من يديه عصا دقيقة من خيزران فهوت بها على وجه الضابط الذي أهانها ، بكل ما أوتيت من قوة • وقد حدث هذا المشهد كله بسرعة كسرعة البرق • وخرج الضابط عن طوره فهجم على المرأة الشابة التي سرعان ما تركها تابعها : فأما الأول ، وهو الرجل المتوسط العمر ، فقد اختفى اختفاءً تاماً ، وأما الثاني فقد اتحنى جانباً وأخذ يضحك ملء حلقه • لا شك في أن الشرطة كانت ستدخل بعد دقيقة ، ولكن ناستاسيا فيليوفنا كان يمكن أن تلقى أثناء تلك الدقيقة شراً كبيراً لولا أن جاءتها نجدة لم تكن في الحسبان : ان الأمير ، وكان على مسافة خطوتين منها أيضاً ، قد استطاع أن يمسك يدي الضابط من وراء • وقد خلّص الضابط يديه منه ، ولطمه على صدره لطمه بلغت من القوة أن الأمير مضى يسقط على بعد ثلاث خطوات فوق كرسى • ولكن ناستاسيا فيليوفنا كان قد أصبح الى جانبها الآن مدافعان آخران • فأمام الضابط المهاجم كان قد وقف صاحبنا الملاكم — كاتب المقالة التي يعرف القارئ من أمرها ما يعرف ، وأحد الأعضاء العاملين القدامى في عصبة روجووين ؟ وما هو ذا يتقدم من الضابط برصانة وثقل ويقول له :

— اسمي كيلر ، ليوتنان متقاعد ! فاذا كنت يا كابتن ، تريد استعمال الأيدي وتقبلني مدافعاً عن الجنس الضعيف فأنا تحت أمرك ورهن اشارتك ! اننى قوى من الطراز الأول فى الملاكمة الانجليزية • لا تدفعني يا كابتن ! اننى أشاركك أملك من الاهانة « الدامية » التي تلقيتها ، ولكننى لا أستطيع أن اسمح باستعمال قبضات الأيدي ضد امرأة على مرأى من

الناس • فاذا شئت أن تسوّي الأمر بطريقة أخرى ، كما يليق ذلك
برجل مهذّب ••• مهذب ، فإن عليك طبعاً أن تفهمنى ، يا كابتن •••

ولكن الكابتن كان قد تاب الى نفسه ، وأصبح لا يصغى الى كلام
كيللر •

وفى تلك اللحظة خرج روجوين من بين الجمهور فأمسك ذراع
ناستاسيا فيليوفنا بسرعة ، واقتادها • كان يبدو منفِعلاً أشد الانفعال هو
أيضاً : كان شاحب الوجه وكان يرتجف • وأُتيح له وهو يقتاد المرأة أن
يقهقه أمام أنف الضابط ، وأن يقول بلمهجة بائع منتصر :
- هه ! ماذا أخذ من ذلك ؟ دماً فى بوزه !

سيطر الضابط على نفسه سيطرة تامة ، وأدرك نوع هؤلاء الناس
الذين يواجههم ، فلم يزد على أن غطى وجهه بمنديله ثم التفت بأدب نحو
الأمير الذى كان قد قام من سقطة ، وقال له :
- أنت الأمير ميشكين ؟

- انها مجنونة ! انها ملتانة العقل ! أؤكد لك !
كذلك أجابه الأمير بصوت متقطع وهو يمد اليه يديه المرتعشتين
مدّاً آلياً •

قال الضابط :
- لا شك فى أنك أعلم منى بالأمر . ولكن يهمنى أن أعرف
اسمك •

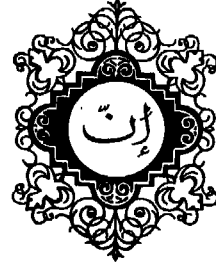
ثم حياً بحركة من رأسه وانصرف ، فما هى الا خمس ثوان حتى
كانت الشرطة قد وصلت فعلاً ، ولكن بعد أن كان أواخر ممثلى المشهد
قد غابوا عن المسرح • ولم تدم الفضيحة أكثر من دقيقتين على كل حال •

وقد قام جزء من الجمهور وانصرف + واكتفى عدد من الأشخاص بأن
غيروا أماكنهم + وسرَّ بعض الناس بالحادث سروراً عظيماً + ووجد فيه
آخرون موضوعاً مثيراً تدور عليه أحاديثهم + الخلاصة أن الأمر انتهى
كما تنتهي أمثاله عادة + واستأنف الأوركستر عزفه +

تبع الأمير أسرة ايباتشين + ولو أنه ، بعد أن ضربه الرجل على
صدره فسقط على كرسي ، ولو أنه خطر بباله أن ينظر الى يساره أو اتسع
وقته لأن ينظر الى يساره ، لكان رأى أجاليا واقفةً على بعد عشرين
خطوة منه تقرب المشهد رغم نداءات أمها وأخواتها اللواتي كن قد قطعن
مسافة طويلة + وقد هرع اليها الأمير « شتت + + » ، واستطاع أن
يحملها على الانصراف بأقصى سرعة + فأدركت الركب (ان اليزابت
بروكوفينا قد تذكرت هذا فيما بعد) وهي في حالة من الاضطراب تبعث
على الاعتقاد بأنها لم تكن قد سمعت نداءاتهن + ولكنها بعد دقيقتين ، عند
دخول الحديقة ، قالت بلهجة تحمل معنى الاستخفاف ، وهي لهجة
معهودة فيها :

– انما أردت أن أعرف كيف يمكن أن تنتهي المهزلة !

الفصل الثالث



الحادث الذى وقع فى الفوكسهول قد صقق الأم
والبنات صعقاً ان صح التعبير • فكانت اليزابت
بروكوفينا ، وهى تحت وطأة الاضطراب
والانفعال والقلق ، تقتاد بناتها هاربة بما يشبه
الركض على طول الطريق المؤدى من المحطة الى الدار • وكان فى رأيها
أن أموراً كثيرة قد انكشفت أثناء ذلك الحادث ؛ حتى لقد أخذت تنب
فى ذهنها ، رغم الاضطراب والذعر ، أفكار معينة حاسمة • وأدرك
الجميع على كل حال أن شيئاً شاذاً غير عادى قد وقع ، وأن هناك سرّاً
خارقاً لعله أخذ ينكشف • ان أوجين بافلوفتش ، رغم التأكيدات
والشروح السابقة التى قدمها الأمير « شتش • • • » قد « سقط القناع
عن وجهه » و « ظهر على حقيقته » ، و « ثبت ثبوتاً قاطعاً أن له علاقة
بتلك المخلوقة » • ذلك كان رأى اليزابت بروكوفينا ، وحتى رأى
بنيتها الكبريين أيضاً • غير أن هذا الاستنتاج لم يزد على أن ضاعف
الألغاز والأحجيات • ان الآستين ، فى قرارة نفسيهما ، قد ساءهما ذلك
الذعر الرهيب وذلك الفرار الفاضح من جهة أمهما • ولكنهما لم تشاء
فى غمرة اضطراب اللحظة الأولى ، أن تروعاها مزيداً من الترويع
بأسئلتهما • لقد كاتتا تحسان أن أختهما الصغرى ، آجلايا ايفانوفنا ، ربما
كانت تعلم من أمر هذه القضية ما لا تعلمان وما لا تعلم أمهما • أما الأمير
« شتش • • • » ، فكان مكفهر الهيئة مظلم الوجه ، غارقاً فى تأملاته

هو أيضاً • لم توجهه اليه اليزابت بروكوفينا ، طوال الطريق ، كلمة واحدة ؛ ولكن لم يد عليه أنه انتبه الى صمتها هذا • وقد ألقت عليه آديلايد مراراً هذا السؤال : « من هو ذلك العم ؟ وما الذى حدث ببطرسبرج ؟ » ، فكان لا يزيد على أن يجمعهم بلهجة مريرة ، مجيباً اجابة غامضة ، قائلاً ان هناك معلومات يجب السؤال عنها ، وان المسألة كلها عجيبة مستحيلة على كل حال • فقالت آديلايد تنجيه وقد عدلت عن الالاح فى السؤال : « لا شك فى هذا » • وأظهرت آجلانيا هدوءاً خارقاً • كل ما هنالك أنها أثناء الطريق نبّئت الى أن سيرهم سريع مسرف فى السرعة • وفى لحظة من اللحظات نظرت وراءها فلمحت الأمير محاولاً اللحاق بهم • فابتسمت ابتسامة فيها شيء من السخرية ، ثم لم تلتفت بعد ذلك الى جهته قط •

وعند عتبة الفيلا تقريباً ، التقوا بايفان فيدوروفتش الذى كان قد وصل من بطرسبرج منذ برهة فهبّ الآن الى لقاءهم • وكانت الكلمة الأولى التى قالها هى أنه سأل عن أوجين بافلوفتش • ولكن زوجته مرت بقربه متوحشة الهيئة ضاربة السحنة ، دون أن تنجيه بل ودون أن تنظر اليه • وسرعان ما قرأ فى أعين بناته وفى عيني الأمير « شتت • • • » أن عاصفة قد أملت بالمنزل • وعلى كل حال فقد كان وجهه ، حتى قبل أن يدرك ذلك ، يعبرّ هو نفسه عن قلق غير مألوف • فلم يلبث أن أمسك ذراع الأمير « شتت • • • » ، فأوقفه أمام الفيلا ، وتبادل معه بضع كلمات بصوت خافت • فلما صعدا الى الشرفة بعد ذلك للحاق باليزابت بروكوفينا كان الناظر اليهما يستطيع أن يعرف من رؤية وجهيهما أنهما قد اطلعا على تبا خارق •

والتأم الجمع كله أخيراً فى أعلى ، بجناح اليزابت بروكوفينا ؛ ولم يبق الا الأمير ، جلس فى ركن كأنه ينتظر شيئاً ما • كان هو نفسه

لا يعلم ما بقاؤه هنالك ، ولم يخطر بباله أن ينصرف وهو يرى هذا الاضطراب الذى شمل المنزل . لكأنه قد نسى الكون بأسره ، وكأنه مستعد لأن يبقى مسمراً ستين متواصلتين فى المكان الذى يمكن أن تضعه فيه . وكانت تصل الى مسامعه من فوق ، بين الفينة والفينة ، أصداء مناقشة حامية الوطيس . لا يدرى كم قضى من الوقت جالساً فى ذلك الركن . ولكن المساء قد جاء ، وأخذ الظلام يعم . وفجأة ظهرت آجلايا على الشرفة . كانت تبدو هادئة ، ولكنها شاحبة الوجه قليلاً . وابتمت ابتسامتها يخالطها شيء من الدهشة حين رأت الأمير الذى كانت لا تتوقع طبعاً أن تراه هنالك جالساً على كرسى .

سألته وهى تدنو منه :

— ماذا تفعل هنا ؟

فتمتم الأمير ببضع كلمات مضطرباً ، وأسرع ينهض . ولكن آجلايا لم تلبث أن جلست قربه فعاد يجلس . تفرست فيه بنظرة سريعة لكنها متفحصة ، ثم سرحت ببصرها من خلال النافذة دون أن تكون لها نية معينة ظاهرة ، وعادت تحديق الى الأمير وتفرس فيه .

قال الأمير يحدث نفسه : « أتراها تريد أن تأخذ فى الضحك ؟ لا ، لو كانت تريد ذلك لما أمسكت عنه ! » .

قالت بعد صمت :

— هل تريد أن تصيب قليلاً من الشىء ؟ ان شئت أمرت لك بشىء .

— لا . لا أدري

— كيف لا تدري أتريد أن تشرب شيئاً من الشىء أم لا تريد ؟

آ... بالنسبة : اذا دعاك أحد الى مبارزة فما عساك تفعل ؟ هذا سؤال
كنت أريد أن ألقيه عليك •

- ولكن من ذا الذى ... لا يمكن أن يتتوى أحد دعوتى الى
مبارزة !

- هب ذلك حدث ، فهل تخاف ؟

- أعتقد اننى سأخاف ... سأرتاع ارتياحاً شديداً ؟

- حقاً ؟ أنت اذن جبان ؟

- ل ... لا ، قد لا أكون جباناً • فمن خاف ولم يهرب فليس
جباناً •

كذلك قال الأمير وهو يتنسم بعد لحظة تفكير • فسألته آجلايا :

- وأنت ؟ ألا تهرب ؟

فقال وهو يضحك أخيراً لهذه الأسئلة :

- قد لا أهرب •

فقال بشيء من الغضب :

- أما أنا فلا أهرب بحال من الأحوال ، رغم اننى امرأة • ثم انك
تسخر منى ، وتتلاعب علاعبك المعهود ، لتزيد الاهتمام بك • قل لى :
هل جرت العادة بأن يتم اطلاق النار فى المبارزات على مسافة اثنتى عشرة
خطوة ؟ بل وعلى مسافة عشر خطوات أحياناً ؟ اذا صدق هذا كان مؤكداً
أن يُقتل المتبارز أو أن يُجرح !

- يندر أن لا تطيش الطلقة فى المبارزات •

- كيف ؟ لقد قُتل بوشكين •

- ربما كان ذلك مصادفة •

– لا : كانت المباراة مبارزة موت ، وقتل !

– لا شك أن الرصاصة أصابته في موضع أدنى من النقطة التي صوّب إليها داتيس ، وهى الصدر أو الرأس • ما من أحد يصوّب الى النقطة التي يصيبها • ولقد كان جرح بوشكين اذن نتيجة مصادفة ، وثمرة خطأ فى التسديد • ان أناساً متخصصين هم الذين قالوا لى هذا الكلام *.

– وأنا كلمت فى الأمر جندياً ذكر لى أن النظام يوجب على الجنود أن يصوّبوا الى منتصف الجسم حين يصوّبون • ذلك هو التعبير الوارد فى النظام : « منتصف الجسم » • فالتسديد لا يكون اذن لا الى الصدر ولا الى الرأس ، وانما يكون الى وسط الجسم • وحين سألت أحد الضباط بعد ذلك فى هذا الموضوع أكد لى صحة هذا الزعم •

– هذا يصدق على التصويب من مسافة بعيدة •

– وهل تحسن أنت التصويب ؟

– لم أطلق رصاصة فى حياتى •

– هل يمكن أن يكون صحيحاً أن لا تعرف حتى كيف تحشو مسدساً ؟

– لا أعرف • بل أعرف الطريقة لكننى لم أحاول أن أمارسها

بنفسى •

– معنى هذا أنك لا تعرف • فهذه عملية تقتضى ممارسة عملية ! أصغ الىّ واحفظ ما أقوله لك : تشتري فى أول الأمر باروداً من بارود المسدس • يجب أن لا يكون البارود رطباً بل جافاً جداً (يبدو أن هذا ضرورة لا غنى عنها) • ويجب أن يكون مسحوقاً دقيقاً ناعماً • اطلب هذا النوع من البارود ، وإياك أن تشتري باروداً من بارود المدفع •

أما الرصاصات فيظهر أن على المرء أن يتولى صبّها بنفسه • هل عندك مسدسات ؟

أجاب الأمير وهو يضحك فجأة :

ـ لا ، ولا حاجة بي إليها !

ـ آه ... يا للحماقة ! لا تنس أن تشتري مسدسات ، مسدسات جيدة ! اختر منها نوعاً فرنسياً أو انجليزياً • يقال ان المسدسات الفرنسية والانجليزية هي خير المسدسات • وخذ بعد ذلك مقداراً من البارود ، مقداراً يكفي للمء كستبان خياطة ، أو كستباين اثنين ؟ وأفرغ البارود في ماسورة المسدس ؛ ولأن يكون مقدار البارود أكثر من اللازم خير من أن يكون أقل • ثم احش الماسورة لباداً (يظهر أن اللباد لا غنى عنه ، لا أدري لماذا) • في وسعك أن تحصل على اللباد من أى مكان ، في وسعك أن تأخذه من فراش مثلاً ، أو من أباذيم الباب • وبعد أن تدس الحشوة تدخل الرصاصة • هل فهمت ؟ البارود أولاً والرصاصة بعد ذلك • والا لم تخرج الطلقة • اذا تضحك ؟ أريد أن تمرن على اطلاق النار كل يوم عدة مرات ، وأن تتعلم كيف تسدّد الى هدف فتصيه • هل ستفعل ؟

كان الأمير ما يزال يضحك • فقرعت آجلايا الأرض بقدمها غاضبة • تحير الأمير من كل هذا الجدل في حديث كهذا الحديث • كان يحس احساساً غامضاً بأن عليه أن يستعلمها بعض النقاط ، وأن يلقى عليها بعض الأسئلة عن موضوعات هي أخطر شأنًا من طريقة حشو المسدسات على كل حال • ولكنه نسي • لم يبق لديه الا احساس واحد هو أنه يراها جالسة أمامه وحيدة وأنه ينظر إليها • أما ما قد تحدثه عنه وتكلمه عليه في تلك اللحظة فأمر لا يكاد يعنيه •

وأخيراً نزل ايفان فيدوروفتش نفسه من الطابق الأعلى وظهر على الشرفة • كان يهم أن يخرج ، وكان كالح الهيئة متجههم الوجه مشغول البال ثابت العزم • فلما رأى الأمير هتف يسأله ، رغم أن الأمير لم تبد عليه أية حركة تدل على أنه يريد الانصراف •

— آه ••• ليون نيقولايفتش ••• هذا أنت ••• الى أين أنت ذاهب الآن ؟ تعال ••• هناك كلمة أريد أن أقولها لك •••

قالت آجلالاً وهي تمد يدها للأمير :

— الى اللقاء يا أمير !

كانت الشرفة قد خيم عليها الظلام بحيث أن الأمير لم يستطع في تلك اللحظة أن يميز سمات الفتاة تمييزاً واضحاً • وبعد دقيقة ، بينما كان هو والجنرال قد خرجا من الفيللا ، احمر احمراراً رهيباً على حين فجأة وقلص يده اليمنى تقليصاً قوياً •

واتفق ان كان على ايفان فيدوروفتش أن يسير في طريق الأمير ذاته • انه ، رغم تأخر الوقت ، يريد الذهاب الى شخص من الأشخاص بسرعة لا يرام صفقة • فأخذ أثناء الطريق يحدث الأمير بلهجة متعجلة وكلام مضطرب مفكك • كان اسم اليزابت بروكوفينا يتردد ذكره على لسانه كثيراً • فلو كان الأمير أقدر على الانتباه في تلك اللحظة ، فلربما استطاع أن يدرك أن محدثه كان يحاول أن يستمد منه بعض المعلومات ، أو قل أن يلقي عليه سؤالاً معيناً ، ولكن دون أن يستطيع مواجهة النقطة الأساسية • يجب أن نذكر أن الأمير كان من الاضطراب والبلبل والذهول بحيث لم يسمع بداية الكلام الذي قاله له الجنرال ، فلما تسمّر الجنرال أمامه ليلقى عليه سؤالاً حاداً ، اضطر أن يعترف بأنه لم يفهم شيئاً •

فما كان من الجنرال الا أن رفع كفيه • ثم استأنف كلامه فعاد يقول متدفقاً :

— ما أعجبكم كلکم ، من جميع النواحي ! أقول لك اننى لا أفهم شيئاً البتة من خواطر الزيات بروكوفينا وأنواع الجزع والهلع التى تتنابها ! انها تتقلب بين جميع حالات الاضطراب ، وتنشج باكية ، وتقول اتنا احتقرنا وازدُرنا ، وان سمعنا ساءت وكرامتنا أهنت وشرفنا تلتطخ • من فعل بنا هذا ؟ كيف تم ؟ مع من جرى ؟ متى حدث ؟ لماذا وقع ؟ اننى اعترف بأن لى عيوباً فادحة وأخطاء كبيرة ، ولكن طيش تلك المرأة المضطربة (التى تسلك فوق ذلك سلوكاً شائناً) أمر يمكن أن تضع له الشرطة حداً • اننى أنوى منذ اليوم أن أذهب الى أحد وأن أتخذ اجراءات • وكل شيء يمكن أن يسوَّى بهدوء وسكينة ورفق ، بل وبمداورة ومراعاة ، ودون أية فضيحة أو جرسة ، وذلك بالاعتماد على بعض العلاقات • واننى لأعترف أيضاً بأن المستقبل يحمل أحداثاً كبيرة ، وأن أموراً كثيرة تحتاج الى ايضاح • نحن بصدد مؤامرة • ولكن اذا كان لا يوجد هنا أحد يعرف شيئاً ، واذا كان لا يوجد هناك أحد يعرف شيئاً كذلك ؛ اذا كنت أنا لم أسمع بشيء ، واذا كنت أنت لم تسمع بشيء ، واذا لم يكن ثالث ولا رابع ولا خامس قد سمع بشيء أيضاً ، فانى لأسألك : فمن تُرى يكون على علم بالأمر ؟ كيف تعلق أنت هذا ؟ اللهم الا أن نسلّم أننا ازاء سراب أو شبه سراب ، وأننا ازاء ظاهرة لا تمت الى الواقع بسبب ، كضوء القمر أو طيوف الأشباح ؟

تمتم الأمير يقول وقد تذكر فجأة ، على ألم شديد ، كل ما جرى فى النهار :

— « هى » مجنونة !

— لنسلّم بهذا ، اذا كنتَ عن تلك المرأة تتكلم ! لقد فكّرت أنا فى

الأمر مثل تفكيرك تقريباً ، وارتحت الى هذا الرأي • لكننى ألاحظ أن تفكيرهم هم كان أسلم ، وأصبحت لا أعتقد بأنها مجنونة • صحيح أن هذه المرأة يعوزها الحس السليم ، ولكنها مجنونة • ان اندفاعتها فى الكلام اليوم بصدد كاييتون الكسيفتش يدل على ذلك دلالة قاطعة • انها تتصرف تصرف وغد حقير ، أو تصرف يسوعى ماكر لتبلغ هدفاً معيناً •

– من كاييتون الكسيفتش ؟

– آه ... ليون نيقولايفتش ! انك اذن لا تصغى الى البتة ! لقد كانت بداية كلامى اليك عن كاييتون الكسيفتش • لقد بلغت من الاضطراب لهذا الأمر أن ذراعى وساقى ما تزال ترتعد • وذلك هو السبب فى أننى رجعت اليوم من المدينة متأخراً هذا التأخر كله • كاييتون الكسيفتش رادومسكى ، عم أوجين بافلتش ...

هتف الأمير :

– ماذا ؟

– اطلق النار فى رأسه هذا الصباح ، عند الفجر ، الساعة السابعة • كان شيخاً محترماً فى نحو السبعين من عمره ، أبيقورياً • وكما قالت هى تماماً ، اختلس من مال الدولة ، اختلس مبلغاً ضخماً !

– من أين استطاعت أن ...

– أن تعرف هذا ؟ ها ها ... لقد تكونت لها « أركان عامة » بكاملها • هل تعرف أية شخصيات تختلف اليها الآن أو تلمس « شرف التعرف بها » ؟ فلا عجب أن يكون بعض زوارها الذين وصلوا من المدينة قد أطلعوها على شيء ما ، لأن بطرسبرج كلها تعرف النبأ الآن ، كما يعرفه على كل حال نصف سكان بافلوفسك أو ربما جميعهم • ولكن ما أمكر الملاحظة التى قالتها ، على ما روى لى ، عن وظيفة أوجين بافلوفتش ،

أى عن حسن اختياره الوقت المناسب للاستقالة ! يا لها من غمزة جهنمية !
لا ، لا ، ان هذا لا يدل على جنون ! طبعاً أنا أرفض أن أصدق أن
أوجين بافلوفتش قد أمكنه أن يتنبأ بالكارثة ، أى أن يعلم أنها ستحدث
يوم كذا ، ساعة كذا من الصباح ، النخ • ولكن لعله أوجس هذا قبل
حدوثه • هه ! حين أتذكر كيف أن الأمير « شتت • • • » ، وأنا ، ونحن
جميعاً ، كنا مقتنعين بأنه سيرث عمه • • • هه ! • • • شيء فظيع ، فظيع !
على كل حال ، افهم عنى ما أقول : اننى لا أتهم أوجين بافلوفتش أى
اتهام • هأنذا أسارع الى اعلان ذلك لك • غير أن فى الأمر شيئاً مشبوهاً •
هذا لا شك فيه • ان الأمير « شتت • • • » قد بلغ ذروة التعجب والذهول •
لقد جرت الأمور كلها مجرى غريباً لا حدّ لغرابته ! • • •

— ولكن ما هو الشيء المشبوه فى سلوك أوجين بافلوفتش ؟

— لا شيء البتة • لقد تصرف تصرفاً سليماً لا غبار عليه • ثم اننى
لم أغمز أى غمز يقدر فيه • أظن ان ثروته الشخصية لا مرأ فيها •
ان اليزابت بروكوفينا لا تطيق طبعاً حتى أن تسمع ذكر اسمه • • • ولكن
الأمر الأخطر هو الكوارث المنزلية كلها أو قل هذه الهموم العائلية • • •
أوه • • • أصبحت لا أعرف كيف اسمّها ! • • • انك أنت يا ليون
نيقولايفتش صديق للأسرة حقاً • فإليك اذن ما عرفناه منذ قليل (رغم
أن الأمر ليس مؤكداً محققاً بعد) : لقد عرفنا أن أوجين بافلوفتش قد
صارح آجلايا منذ أكثر من شهر ، وأنه فيما يظهر قد تلقى منها رفضاً
قاطعاً !

هتف الأمير قائلاً بحرارة :

— غير ممكن !

قال الجنرال وهو يرتعش دهشةً ويقف متسماً فى مكانه :

- ولكن هل أنت على علم بشيء ؟ لعلنى يا صديقى العزيز قد أخطأت وجافيت الكياسة واللباقة حين حدثتك عن هذا ... ولكنى انما فعلت لأنك ... لأنك شخص ... قد يكون مثله على علم بشيء . أترك تعرف شيئاً ما ؟

دمدم الأمير يقول :

- لا أعرف شيئاً ... عن أوجين بافلتس .

- ولا أنا ! أنا ... يا صديقى العزيز قد حلفوا ليدفننى ، ليقرنننى . انهم لا يريدون أن يدركوا أن هذا يشق على نفس رجل ، واننى لن أحتمله . منذ قليل قام مشهد رهيب ! اننى أكلمك كما يكلم أب ابنه . أفسى ما فى الأمر أن أجلايا تشبه أن تسخر من أمها وتهزأ بها . أما الرفض الذى لعلها قابلت به أوجين بافلوفتش منذ شهر ، وأما المصارحة القاطعة التى لعلها تمت بينهما ، فهذه تخمينات أختها . وهى تخمينات قد تكون صحيحة على كل حال . لكن أجلايا اسانة متسلطة مستبدة غريبة الأطوار ذات نزوات ، الى حد لا يستطيع المرء أن يتصوره . صحيح أنها تملك جميع اندفاعات الروح النبيلة ، وجميع مزايا القلب والفكر اللامعة . اننى أسلم بهذا . لكنها ذات بدوات عجيبة ، وسخرية مسرفة . ان لها طبعاً شيطانياً ، وان لها شطحات شاذة ! منذ قليل ، تهكمت صراحة على أمها ، وعلى أختها ، وعلى الأمير «شتش ...» ؛ ناهيك عنى أنا ، أنا الذى قلما أنجو من سخرياتها ... ولكن من أنا ؟ أنت تعلم مدى ما أحملها لها من حب حتى فى سخرياتها . ويخيل الى أن هذا هو السبب فى أن هذه الشيطانة الصغيرة تحبنى حباً خاصاً ، أعنى أنها تحبنى أكثر من سائر الآخرين . أراهن انها قد أتبح لها أن تمارس سخريتها عليك أنت أيضاً . لقد رأيتهما منذ قليل منهما فى الحديث

بعد الزوبعة التي قامت فوق • كانت جالسة الى جانبك كأن شيئاً لم يحدث •

احمر الأمير احمراراً رهيباً ، وقلّص يده ، لكنه لم ينطق بكلمة .
قال الجنرال فجأة ، بحرارة وتدفق :

- يا عزيزى الطيب ليون نيقولايفتش !... أنا ، وحتى اليزابت بروكوفينا (التي عادت تحمل عليك وتقول فيك السوء ، وتعاملنى هذه المعاملة نفسها أنا أيضاً بسببك ، لا أدري لماذا !) ، نحن نجبك مع ذلك ، نجبك حباً صادقاً ونقدّرك رغم كل شيء ، أعنى رغم المظاهر • ولكن اعترف أنت نفسك يا صديقى العزيز ، اعترف أنت نفسك أنه لفر مفاجيء ونبأ فظيع أن نسمع هذه الشيطانة الصغيرة (وكانت عندئذ واقفة أمام أمها هناك ، متسمره ، تصطنع أعماق الاحتقار لجميع أسئلتنا ، ولا سيما الأسئلة التي كنت ألقها عليها أنا •• ذلك أننى قد ارتكبت حماقة فتكلمت باللهجة القاسية التي ينبغي أن يتكلم بها رب أسرة ! تباً لى ! لقد كنت أحق غيباً) أقول أن نسمع هذه الشيطانة الصغيرة تذكر تفسيراً لا يدور بخلد أحد ، تذكره بلهجة باردة وهيئة ساخرة ، فتقول : « ان تلك » المجنونة « (تلك هى الكلمة التي استعملتها ، وقد أدهشنى أن اسمك تكرر جملتها نفسها) ••• كيف لم تستطيعوا أن تلاحظوا ذلك من قبل ؟ - ان تلك « المجنونة » قد وضعت فى رأسها أن تجعلنى أتزوج الأمير ليون نيقولايفتش مهما كلف الأمر ، وذلك هو السبب فى أنها تحاول اجلاء أوجين بافلوفتش عن بيتنا • ذلك هو كل ما قالته • ثم انفجرت ضاحكة ضحكاً مجلجلاً قبل ان تضيف أية شروح أخرى • ففغرت أفواهنا من شدة الدهول ، وخرجت هى صافقة باب الغرفة صفقاً قوياً • ثم روى لى الحادث الذى وقع اليوم بينها وبينك ، و ••• و ••• اسمع يا صديقى العزيز ، ما أنت بالرجل الذى يتأذى بسرعة ، بل أنت رجل عاقل رصين

كما لاحظتُ أنا ذلك ، ولكن لا تزعل اذا قلت لك انها تضحك عليك •
 يميناَ انها تضحك عليك ! تضحك عليك ضحك طفلة ، فما ينبغي لك أن
 تؤاخذها وأن تحمل لها مودةً وضفناً • ولكن الأمر هو كذلك •
 لا يذهبن بك الخيال بعيداً • انها تتسلى بك كما تتسلى بنا نحن أيضاً ،
 تزجيةً للوقت وملئاً للفراغ لا أكثر • هيّا ، الى اللقاء ! انك تعرف
 عواطفنا نحوك • وتعرف مدى صدقها • وهى ثابتة لن يغيرها شيء •••
 ولكن يجب على أن ادخل هنا • ندر أن كنت فى حياتى معتكر المزاج
 (أهذا هو التعبير المستعمل ؟) كما كنت اليوم • يا له من اصطيف !

بقى الأمير وحده فى المنعطف ، ثم ألقى نظرةً حوالبه ، وأسرع
 يقطع شارعاً فيقترب من نافذة مضاعة باحدى الفيللات ، فيفرضُ هنالك
 ورقة صغيرة ظل قابضاً عليها قبضاً قوياً بيده اليمنى طوال مدة الحديث
 الذى جرى بينه وبين ايفان فيدوروفتش ؛ فيقرأ عليها فى الضوء الضعيف
 الخارج من تلك النافذة ، ما يلى :

« غداً ، فى الساعة السابعة من الصباح ، سأكون على الدكة
 الخضراء فى الحديقة ، وسأنتظرك • لقد قررت أن أحدثك فى أمر هام
 جداً ، يتعلق بك مباشرة » •

« حاشية : آمل أن لا تطلع على هذه الرسالة أحداً • لقد شعرت
 بشيء من تأنيب الضمير وأنا أسطر لك هذه التوصية بالكتمان ، ولكن اذا
 فكرنا فى الأمر ملياً وجدنا أنك تستحقها • وحين أضفتها تصورت طبعك
 المضحك ، فاحمر وجهى شعوراً بالحجل •

« حاشية ثانية : هى تلك الدكة نفسها التى أريتك اياها منذ قليل •
 لا بد أن تشعر بالحزى من اضطرارى الى التوضيح والتحديد مرة
 أخرى » •

كانت الرسالة قد كُتبت على عجل ، وطُويت باهمال ، قبل نزول
آجلها الى الشرفة بلحظة قصيرة فى أغلب الظن •

شعر الأمير بانفعال عارم عنيف لا يغالب ، انفعال يشبه أن يكون
جزعاً ؛ ثم قبض على الورقة الصغيرة بيده قبضاً قوياً من جديد ، وابتعد
عن النافذة المضاء متعجلاً تعجل لص فاجأه أحد • ولكن هذه الحركة
المباغتة القته الى سيد كان وراءه تماماً •

قال هذا السيد :

– اننى أرقبك وأرصدك يا أمير •

فهتف الأمير يقول مدهوشاً :

– أهذا أنت يا كيلر ؟

– كنت أبحث عنك يا أمير • انتظرتك عند حواف فيلا أسرة
ايباتشين ، التى لا أستطيع دخولها طبعاً • وتابعتك خطوة خطوة أثناء
سيرك مع الجنرال • أنا رهن أوامرك يا أمير • لك أن تتصرف بى كما
تشاء • اننى مستعد أن أضحي بنفسى ، بل وأن أموت اذا لزم الأمر •

– ولكن ... لماذا ؟

– لأن مبارزة ستحدث حتماً ! ان هذا الليوتان مولوفستوف ، وأنا
أعرفه ... لا معرفة شخصية ... لن يبلغ الاهانة • وهو ينظر الى أمثال
روجوين وأمالي نظرتة الى أوغاد طبعاً ، ولعله فى هذا على حق ؛ فستكون
أنت المسئول تجاهه اذن • لا بد من دفع الثمن يا أمير • وقد سمعت أنه
استعلم عنك ، ولا بد أن يجيئك فى الغد أحد من أصدقائه ، هذا اذا لم
يكن فى انتظارك بمنزلك منذ الآن • فاذا شرقتى باختارى شاهداً ،

فانتى مستعد حتى لتحمل خطر السجن • من أجل أن أقول لك هذا انما
بحثت عنك يا أمير •

صاح الأمير يقول وهو ينفجر مقهقهاً ، على دهشة شديدة من كيللر :

ـ أأنت أيضاً تجيء تحدثنى عن مبارزة ؟

وبلغ من شدة الضحك أنه أمسك أضلاع صدره • أما كيللر الذى
بدا عليه أنه كان كالواقف على رموس الابن ما لم يقم بواجبه فيعرض على
الأمير أن يختاره شاهداً ، فانه كاد يشعر بأنه يهأن بهذا الضحك الغزير
من الأمير •

ـ تذكر يا أمير أنك قد قبضت على ذراعيه فى أصيل هذا اليوم ؟

ما من رجل شريف يمكن أن يحتمل هذا ، ولا سيما اذا حدث على مرأى
من الناس •

صاح الأمير يقول وهو ما يزال يضحك :

ـ ولكنه لکمنى فى صدرى لكمة قوية • ولا داعى الى أن نقتل ،
فسأعذر له فينتهى كل شيء • واذا كان لا بد من الاقتال فسوف نقتل !
ألا فيلجأ الى السلاح • أنا لا أطلب خيراً من هذا • ها ها ! اننى أعرف
الآن كيف أحشو مسدساً • تصور أننى علّمت هذا منذ برهة ! هل
تجيد حشو مسدس يا كيللر ؟ يجب أولاً شراء بارود من بارود
المسدسات ، أى بارود لا يكون رطباً بل جافاً ، ولا يكون كبيراً كالبارود
الذى يُستعمل فى حشو المدافع • فاذا اشتريت البارود وضعته فى ماسورة
المسدس قبل كل شيء ، ثم انتزعت لباداً من ابزيم أحد الأبواب ، ثم
وضعت الرصاصة بعد اللباد • حذار أن تضع الرصاصة قبل البارود ،
لأن الرصاصة لن تنطلق عندئذ • هل فهمت يا كيللر ؟ الرصاصة لن

تطلق ... ها ها ! ... أليس هذا سبباً رائعاً يا صديقي كيللر ؟ آ ...
 كيللر ، هل تعلم اننى سأقبلك فوراً ؟ ها ها ها ! كيف تصرفت حتى
 استطعت أن تصل اليه فقف أمامه فجأة ؟ تعال اشرب عندى شمبانيا متى
 استطعت . سنسكر بشمبانيا ! هل تعلم أن عندى اثنتى عشرة زجاجة
 فى قبو ليديف ؟ لقد عرضها على أمس الأول بسعر قال انه « فرصة » ،
 فاشتريتها منه كلها . حدث هذا غداة وصولى . لسوف أجمع حفلاً
 بكامله ! قل لى : هل ستنام هذه الليلة ؟

— كالعادة يا أمير .

— أتمنى لك اذن أحلاماً جميلة ! ها ها ! ...

وقطع الأمير الشارع ، وغاب فى الحديقة ، تاركاً كيللر فى حيرة
 وبلبله وشيء من خيبة الأمل . ان كيللر لم يسبق له أن رأى الأمير فى
 حالة نفسية كهذه الحالة غريبة ، لا ولا كان فى وسعه أن يتخيله فى هذه
 الصورة !

قال كيللر يحدث نفسه : « لعله مصاب بحمى ، فانه رجل عصبي
 قد أثرت فيه هذه الأحداث كلها ، ولكنه لن يخاف حتماً ! يا الهى ! ان
 أمثال هذا الانسان لا يهابون . هم ... شمبانيا ! هذا خبر شائق . اثنتا
 عشرة زجاجة ! دسنة زجاجات ! مثونة محترمة . أراهن أن ليديف قد
 أخذها من أحد الذين يقترضون منه مالاً على رهن . هم ... الحق
 أنه لطيف ، هذا الأمير . يميناً انه نوع الرجل الذى يعجبني . على كل
 حال ، ليس هذا أوان التردد ... فاذا كان هناك شمبانيا ، فيجب انتهاز
 الفرصة ... »

لقد كان صحيحاً فى الواقع أن الأمير كان فى حالة قريبة من

الحمى .

ظل يطوّف مدة طويلة في ظلمات الحديقة ، واكتشف أخيراً أنه يذرع ممراً من ممرات الحديقة بين الأشجار . شعر أنه قد قطع هذا الممر ثلاثين أو أربعين مرة بين الدكة وبين شجرة قديمة مرتفعة يسهل تعرفها تقع على بعد مائة خطوة . أما أن يتذكر فيم كان يفكر أثناء هذا التجوال الذي دام ساعةً على الأقل ، فلقد كان يستحيل عليه ذلك ولو أراد . ثم انه قد اهتدى الى فكرة سرعان ما جعلته ينفجر ضاحكاً على حين فجأة . ولم يكن في الفكرة ما يضحك مع ذلك ، غير أن كل شيء كان يثير فيه الضحك الشديد . خطر بباله أن افترض تشوب مبارزة ربما نبت في رموس أخرى غير رأس كيللر ، وأن الدرس الذي أُلقي عليه في طريقة حشو المسدس لم يكن اذن ثمرة مصادفة . قال يحدث نفسه فجأة وهو يتوقف كأنما باغته فكرة أخرى : « عجيب ! منذ قليل ، حين نزلت الى الشرفة ووجدتني في ذلك الركن أذهلها أن تراني هناك . وابتمت . . . وكلمتني عن الشاي . ولكن الرسالة كانت مع ذلك في يدها . هذا دليل قاطع على أنها لم تكن تشك في أنني هناك ، على الشرفة . فما الذي أدهشها اذن ؟ ها ها ها ! . . . »

واستلّ الرسالة من جيبه فقَبَّلَهَا ، ولكنه سرعان ما توقف وشرذ فكره ثانية وقال يحدث نفسه بعد دقيقة بلهجة فيها ألم : « أمر غريب جداً ، نعم ، غريب جداً » . انه في لحظات الفرح الشديد يشعر دائماً بالحزن يجتاح قلبه ، لا يدري هو نفسه لماذا !

وألقي حواليه نظرة متحيرة ، وأدهشه أن يكون قد جاء الى هذا المكان . وشعرت بتعب شديد واعياء قوى ، فاقترب من الدكة وجلس عليها . كان يرين على الجو حوله صمت عميق . ان الموسيقى قد انقطعت في الفوكسهول . ولعل الحديقة كلها خلت من كل انسان . الليل ساج هادىء رطب مضى . هي ليلة من لىالى بطرسبرج في شهر حزيران

(يونيه) • غير أن الحديقة الكثيفة الظليلة في ممر الأشجار الذي كان هو فيه ، كانت تامة الظلمة تقريباً •

لو قال له أحد في تلك اللحظة انه عاشق ، وانه موله ، لرفض هذه الفكرة مذهولاً مشدوهاً ، وربما مستكراً مستاءً • ولو أضاف أحد الى ذلك أن الرسالة الصغيرة التي كتبها له آجلايا هي رسالة غرام ودعوة الى لقاء غرامي ، لاحمر خجلاً عن صاحب مثل هذا الاقتراض ، وربما دعاه الى مبارزة • كان صادقاً في هذا كل الصدق ، وانه لم يراوده فيه شك واحد يوماً من الأيام ، ولا ساوره أى لبس في أن تحبه هذه الفتاة بل وفي أن يحبها هو نفسه • فلو خطرت بباله فكرة كهذه الفكرة للملأته شعوراً بالخزى : لقد كان يرى أن احتمال أن تحب فتاة « رجلاً مثله » شيء شاذ غريب • وكل ما يمكن أن تشتمل عليه هذه القضية من واقع لا يعدو أن يكون « شيطنة » من الفتاة ، وهي « شيطنة » كان الأمير يقبلها غير مكرث ولا عابىء ، لأنه كان يراها من طبيعة الأمور فما ينبغى أن يهتز لها أو أن تثير فيه أى انفعال • وكانت مشاغله وهمومه منصبه على موضوع آخر مختلف كل الاختلاف • لقد صدق الجنرال تصديقاً كاملاً حين كشف له الجنرال بأقواله عرضاً أثناء الانفعال أنها تضحك على الجميع ، وتضحك عليه هو خاصة ، الأمير • لم يجرح شعوره هذا الكلام ولم يؤلمه أى ايلام • كان في رأيه أن الأمر لا يمكن أن يكون غير هذا الشيء الأساسي في نظره الآن هو أنه في الصباح الباكر من الغد سوف يراها الى جانبه على هذه الدكة الخضراء ، وسوف يتأملها مصغياً الى ما ستقوله عن طريقة تمبشة المسدسات • ولم يكن في حاجة الى أكثر من هذا • مرة أو مرتين تسأل عن الموضوع الذي تريد أن تكلمه فيه ، وعن تلك المسألة الهامة التي تعنيه مباشرة ما عساها تكون ؟ على أنه لم

يراوده في لحظة من اللحظات أيُّ شك في حقيقة هذه القضية « الهامة » التي ضربت له موعداً من أجلها • ولكنه لا يكاد يفكر الآن في هذا الأمر ، ولا كان يفريه أن يتلبث عليه بذهنه •

وهذا وقع خطو بطيء على الرمل في الممر بين الأشجار يجعله يرفع راسه • وهذ رجل يصعب تمييز قسما وجهه في الظلام يقترب منه ويجلس الى جانبه •

مال الأمير على الرجل ، حتى كاد يلمسه ، فاذا هو يرى وجه روجوين أصفر شاحباً •

جمعهم روجوين يقول من بين أسنانه :

— قدرت أنك تحوم ههنا في مكان ما •

هذه اول مرة يلتقيان فيها منذ لقائهما الأخير في دهليز الفندق • وقد بلغ الأمير من الدهشة لظهور روجوين المبالغ الذي لم يكن في البال أنه لبث مدة من الوقت شارد اللب لا يستطيع أن يثوب الى رشده • ان احساساً كاوياً قد شب قوياً في قلبه • وأدرك روجوين الأثر الذي أحدثه في الأمير • ورغم أنه بدا في أول الأمر مضطرباً ، فقد تكلم بيسر كأنه مصطنع ، لكن الأمير لم يلبث أن لاحظ أن الأمر ليس اضطراباً ولا اصطناعاً • ولئن كان في حركاته وفي حديثه خراقة ، فان ذلك ليس الا مظهرآ ، أما في قرارة نفسه فان هذا الرجل لا يمكن أن يكون قد تغير •

سأله الأمير ليقول شيئاً ما :

— كيف أمكنك أن تكتشفني ••• هنا ؟

— أعلمني كيلر قائلاً : « ذهب الى الحديقة » (مررت بيتك) ،

فقلت لنفسى : هذا حسن • نلت المطلوب •

– ماذا تعنى بقولك : « نلت المطلوب » ؟

كذلك سأله الأمير فى قلق •

فابتسم روجويين ابتسامة مأكرة ، وثرَّب من الشرح ، قائلاً :

– تلقيت رسالتك يا ليون نيقولايفتش • لا فائدة من تكليف نفسك
هذا العذاب كله ••• فى غير طائل • أنا الآن آت اليك رسولاً منها •
انها تطلب منك أن تذهب اليها حتماً • هناك شىء مستعجل تريد أن تقوله
لك • حتى انها تنتظرك فى هذا اليوم نفسه •

– سأذهب اليها غداً • أنا الآن عائد الى البيت فوراً • هل
تجىء ••• معى ؟

– علام أجيء معك ؟ لقد قلت لك كل شىء • استودعك الله •

سأله الأمير فى رفق :

– ألن تجىء اذن ؟

– انك لرجل عجيب يا ليون نيقولايفتش • لا يملك المرء الا أن
يجدك باعثاً على الدهشة والاستغراب •

قال روجويين ذلك وابتسم ابتسامة مأكرة •

سأله الأمير بحرارة ، ولكن بشىء من الحزن أيضاً :

– لماذا هذا الكلام ؟ من أين جاءتك هذه العداوة لى الآن ؟ لماذا
تبغضنى هذا البغض كله ؟ هأنت ذا ترى أن جميع تخميناتك كانت
لا تقوم على أساس • على اننى كنت أقدر أن كرهك لى لم ينقض ، وهل
تدرى لماذا ؟ لأنك حاولت قتلى • ذلك هو السبب فى أن مقتك باقى
لا يزول • أما أنا فأقول لك اننى لا أعرف الا بارفيون روجويين واحداً ،
هو ذلك الذى تأخيت معه فى ذلك اليوم حين تبادلنا صليينا • لقد كتبت

لك هذا فى الرسالة التى بعثتها إليك أمس من أجل أن تنسى حتى لحظة الهذيان تلك ، فما تكلمنى عنها بعد الآن قط • لماذا تبتعد عنى ؟ لماذا تخبىء يدك ؟ أكرر لك أنتى أرى أن ما حدث فى المرة الماضية لم يكن الا لحظة جنون وهذيان • انتى أقرأ فى نفسك الآن كل ما جرى ذلك اليوم كأننى أقرأ فى ذات نفسى • ان ما تخيلته لم يوجد ولا كان يمكن أن يوجد • فلماذا العداوة بيننا اذن ؟

قال روجويين ضاحكاً ساخراً من جديد ، فى الجواب على الكلمات الحارة التى انطلقت من الأمير عفواً الخاطر بلا تصنع :

— ولكن أنت قادر على أن يكون فى نفسك عداوة ؟

وكان روجويين يقف على بعد خطوتين من الأمير ، مخفياً يديه حقاً • وأضاف يقول ، ختاماً للحديث ، بلهجة بطيئة رصينة :

— أصبح يستحيل على استحيالة تامة بعد الآن أن اختلف إليك يا ليون نيقولايفتش •

— أتكرهنى اذن الى هذا الحد ؟

— لا أحبك يا ليون نيقولايفتش • فعلام اختلف إليك ؟ هيه يا أمير ... ان لك من الطفل كل صفاته • اذا أراد لعبة أرادها فوراً ، ولكنه لا يفهم من أمرها شيئاً • ان كل ما تقوله لى الآن قد كتبته أمس فى رسالتك كما هو ، ولكن أنا لا أصدقك ؟ بلى ! انتى أصدق كل كلمة من كلماتك • انتى أعلم أنك لم تخدعنى فى يوم من الأيام ، وأنت لن تخدعنى أبداً • ومع ذلك لا أحبك • لقد كتبت لى أنك نسيت كل شيء ، وأنت تتذكر روجويين الذى بادله صليك ، لا روجويين الذى أشهر عليك خنجرأ • ولكن من أين تعرف عواطفى ؟ (قال ذلك وضحك

ضحكة ساخرة من جديد) لعلنى منذ ذلك اليوم لم أشعر بالندم على فعلتى مرة واحدة ، بينما أنت أرسلت الى غفرانك الأخوى • ولعلنى فى مساء ذلك اليوم نفسه قد انصرف فكرى الى شىء آخر تماماً و ...

– نسيت ذلك الأمر ...

بهذا أكمل له الأمير جملته وأردف يقول :

– أقدر هذا ! بل اننى لأراهن على أنك ذهبت توأ الى المحطة فركبت القطار الى بافلوفسك ، وجئت تسمع الموسيقى ، وتبعثها وتجسست عليها فى الجمهور ، كما فعلت اليوم • أتظن أنك أدهشتنى ؟ ولكن لولا أنك كنت عندئذ فى حالة نفسية لا تسمح لك أن تفكر الا فى شىء واحد ، لكان من الجائز أن لا تشهر على خنجرك ... لقد أوجست ما ستقدم عليه من فعلة منذ الصباح ، حين رأيت وجهك ؟ أتعرف ما الذى كان يلوح فى هيتك ؟ لعل هذه الفكرة قد ومضت فى ذهنى لحظة تبادلنا فيها صليينا • لماذا أخذتنى فى تلك اللحظة الى أمك العجوز ؟ هل كنت تأمل أن توقف بذلك ذراعك ؟ لا ، لا يمكن أن يكون هذا ما خطر ببالك • انك مثلى قد أحسست احساساً فحسب ... لقد احسنا احساساً واحداً • لولا أنك أشهرت على يدك (والله هو الذى حوّلها) أكان يمكننى أن أحتمل اليوم نظرتك ؟ لقد اشتبهت فىك ، ومعنى ذلك أننا ارتكبنا كلانا اثم الريبة (لا تقطب حاجيك ! لماذا تضحك ؟) • تقول انك لم تدم • ألا انك ما كنت لتستطيع أن تدم ولو أردت ، لأنك لا تحبنى ، زيادة على ذلك ! حتى لو كنت ازاءك بريثاً كملاك ، لما أمكنك أن تطيق احتمالى ، وستبقى على هذه الحال ما ظللت تظن أنها لا تحبك أنت بل تحبنى أنا • هذا غيرة • ولكن اليك الفكرة التى شغلت ذهنى فى خلال هذا الأسبوع والتى أحرص على أن أطلعك عليها يا بارفيون : هل تعلم أنها تحبك الآن

أكثر مما تحب أى انسان آخر ، وأن حبها من نوع يجعلها تحبك مزيداً من الحب كلما عذبتك مزيداً من التعذيب • لن تقول هى هذا فى يوم من الأيام ، ولكن يجب على المرء أن يعرف كيف يفهمه • لماذا تريد أن تتزوجك رغم كل شيء ؟ سوف تكشف لك عن هذا فى ذات يوم • ان بين النساء من يُردن أن يحبهن الرجل هذا النوع من الحب • وهى واحدة من هاته النساء • لا شك فى أن طبعك وحبك قد فتاها • هل تعلم أن فى وسع امرأة أن تعذب رجلاً تعذيباً قاسياً ، وأن تتخذهُ أضحوكة وتجعله موضع سخريه وتهكم ، دون أن يشعر ضميرها من ذلك بأى عذاب ؟ ذلك أنها ، كلما رأته ، تقول لنفسها : « سوف أعذبه الآن تعذيباً قاتلاً » ، ولكننى سأعوّضه عن هذا فى المستقبل حباً • • • • •

أصغى روجويين الى كلام الأمير حتى النهاية ، ثم اذا هو ينفجر ضاحكاً ، ويسأله :

— قل لى يا أمير ، أتراك وقعت أنت نفسك على امرأة من هذا النوع؟ هل ما سمعته عنك صحيح ؟

فارتعش الأمير باختلاجة مفاجئة • وسأله :

— ماذا ؟ ماذا سمعت عنى ؟

ووقف وقد استبد به اضطراب هائل •

ظل روجويين يضحك • كان قد أصغى الى كلام الأمير بشيء من حب الاطلاع وربما بشيء من التلذذ : ان ما كان يبدو فى الأمير من مزاج مشرق وحماسة حارة قد أثر فيه تأثيراً قوياً وسرى عنه كثيراً •

قال :

— لم أسمع عنك فقط ، وانما اقتنع الآن وأنا أراك أن ما سمعته هو الحقيقة • هل تكلمت فى لحظة من اللحظات كما تكلمت فى هذه اللحظة ؟

لكن رجلًا آخر كان يتكلم الآن بلسانك • لولا اننى سمعت عنك شيئاً من هذا القيل لما جئت الى هنا ساعياً اليك فى الحديقة وقد انتصف الليل •

- لا أفهم البتة يا بارفيون سيميوتتش !

- لقد شرحتُ لى أمرك منذ مدة طويلة ، واستطعت أن أتحقق من صدق شروحا حين رأيت ، فى هذا اليوم ، المرأة التى كنت جالساً الى جانبها أثناء سماع الموسيقى • لقد حلفت لى أمس واليوم أنك مولّه بحب أجاليا ايباتشين • وهذا أمر لا يعنينى كثيراً يا أمير ، ولا علاقة له بشأنى • فلتن أصبحت أنت لا تحبها فانها هى ما تزال تحبك • هل تعلم أنها تريد أن تزوجك الأخرى مهما كلف الأمر ؟ لقد حلفت لتفعلن ذلك ! هى • هى ! قالت لى : « لن أتزوجك ما لم يتحقق هذا • ويوم يذهبان هما الى الكنيسة نذهب نحن أيضاً » • هذا شيء لا أفهمه ولا استطعت أن أفهمه يوماً : فاما أنها تحبك حباً لا حدود له واما ••• ولكن اذا كانت تحبك فكيف يمكن أن تريد تزويجك امرأة أخرى ؟ ••• وهى تقول أيضاً : « أريد أن أراه سعيداً » • اذن فهى تحبك •

قال الأمير وقد أصغى الى روجويين متألاً :

- قلت لك وكتبت انها لا تملك عقلها كاملاً •••

- الله أعلم ! قد تكون مخطئاً فى هذا ! ••• على كل حال ، حين اصطحبته اليوم عائدتين من سماع الموسيقى ، حدثت لى اليوم قائلة : « ستزوج حتماً بعد ثلاثة أسابيع ، وربما بعد أقل من ذلك » • حلفت على ذلك أمام الأيقونة وقبلتها • هكذا يكون الأمر الآن مرهوناً بك متوقفاً عليك يا أمير • هى • هى ! •••

– هذا كله هذيان ! ان ما تسبأ لى به لن يحدث أبداً ، لن يحدث أبداً • سوف أجيء اليك غداً •••

قال روجوين :

– كيف تستطيع أن تقول انها مجنونة ؟ لماذا تكون سليمة العقل في نظر جميع الناس ، وتكون مختلفة في نظرك وحدك ؟ كيف كان يمكنها أن تكتب رسائل الى هناك ؟ ولو كانت مجنونة للوحد ذلك من قراءة رسائلها ؟

سأله الأمير مرتاعاً :

– أية رسائل ؟

– انها تكتب رسائل الى هناك ، الى « الأخرى » ، وهذه تقرأ رسائلها • ألا تعرف هذا ؟ سوف تعرفه اذن • ستريك الرسائل هي نفسها حتماً •

هتف الأمير قائلاً :

– مستحيل تصديق هذا !

– هيه ! أرى يا ليون نيقولا يقتش أنك ما زلت في بداية الطريق • انتظر قليلاً : لسوف تصل من الأمر الى حيث يصبح لك شرطة خاصة تكلفها بالتجسس ، والى حيث تتولى الحراسة بنفسك نهاراً وليلاً ، فتعرف كل خطوة تسم ، متى •••

صاح الأمير يقول :

– كفى ! ولا تكلمنى في هذا مرةً أخرى أبداً • اسمع يا بارفيون :

قبل وصولك بلحظة ، كنت أطوّف هنا • وفجأة أخذت أضحك ، دون أن أعرف لماذا ! تذكرت أن غداً عيد ميلادى • والليل يوشك الآن أن يتصّف • فتعال انتظر معى صبح هذا اليوم • عندى خمرة ، سوف تشرب • وسوف تتمنى لى ما لا أملك أن أتمناه لنفسى فى هذه اللحظة • عنك أنت انما يجب أن يصدر هذا التمنى لى • أما أنا فسوف أتمنى لك السعادة الكاملة • اذا لم تقبل أن تجىء معى فهات صليبي ! ردّه الىّ ! انك لم ترجعه الىّ فى اليوم التالى • آأنت تحمله الآن ؟

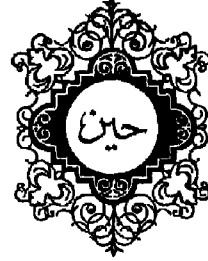
أجاب روجوين :

- نعم أحمله •

- اذن تعال ! لا أريد أن أدخل حياةً جديدة بدونك ، وان حياةً جديدة لتبدأ بالنسبة الىّ ! ألا تعلم يا بارفيون أن حياتى الجديدة قد بدأت اليوم ؟

- الآن أرى وأعرف بنفسى أنها بدأت • وسوف أبلغها « هى » ذلك • لست فى حالتك الطبيعية يا ليون بقولايفتش •

الفصل الرابع



اقرب الأمير بصحبة روجوين من منزله ،
أدهشه أشد الدهشة أن يرى شرفته تسطح بضياء
قوى ويملؤها حفل كبير صاحب • كان الحفل
يزخر نشاطاً وحماسة ، ويضحك متقهقها ،
ويتدفق في الكلام تدفقاً قوياً ، ويتنافس بصرخات عالية • ان المرء ليدرك
من أول لحظة أن الحشد يقضى وقتاً مرحاً • فلما صعد الأمير الى الشرفة
تحقق تقديره ، اذ وجد الجميع يشربون ، بل وجدهم شربون شمبانيا •
ولا بد أن تكون هذه الحفلة قد بدأت منذ وقت غير قصير ، لأن كثيراً من
الحضور كان قد أتيج لهم حتى تلك اللحظة أن ينالوا قسطاً كبيراً من
الانشراح • وكانوا جميعاً من معارف الأمير ، ولكن الغريب في الأمر هو
أن يراهم مجتمعين اجتماعاً من دُعوا دعوة ، مع أنه لم يوجه أية دعوة ،
فهو لم يتذكر عيد ميلاده الا عرضاً منذ برهة قصيرة •

دمدم روجوين يقول للأمير وهو يتبعه على الشرفة :

— لا بد أنك ذكرت لأحد أنك ستقدم شمبانيا ، فهرعوا على هذا
النحو •

ثم أضاف يقول بلهجة فيها حق ومرارة ، لأنه تذكر ماضياً غير
بعيد في أغلب الظن :

— نحن نعرف هذا ! يكفي أن تصفر لهم ...

أسرع الجمع كله يحيط بالأمير بعد أن استقبله بصيحات وتمنيات . وكان بعض الضيوف مسرفين في الصخب ، وكان بعضهم الآخر أهدأ كثيراً . ولكن ما ان عُرف أن اليوم عيد ميلاد الأمير حتى اقتربوا منه يهشونه واحداً بعد واحد بكثير من الحرارة . وقد تعجب الأمير من حضور بعض الأشخاص ، من حضور بوردوفسكى مثلاً . غير أن ما أدهشه أكثر من أى شيء آخر هو أن يجد أوجين بافلوفتش في صحبة مثل هذا الحشد . حتى انه لم يكذب يصدق عينيه ، وانتابه ما يشبه الذعر حين تعرفه .

وفي هذه الأثناء ، هرع ليديف ، وكان شديد احمرار الوجه بل قل كان مشتمل الوجه ، هرع يشرح الأمور ، وكان قد سكر بعض السكر . فقال ان هذا الملاء كله قد اجتمع شمله على نحو طبيعي تماماً ، بل وبمصادفة . فكان هيبوليت أول الوافدين ، لأنه وصل في بداية المساء . انه وقد شعر بتحسن كبير في حالة صحته ، واذ أراد أن ينتظر الأمير في الشرفة ، قد اضطلع على ديوان . ثم التحق به ليديف الذي لم يلبث أن تبعته أسرته كلها أو قل بناته والجنرال ايفولجين . أما بوردوفسكى فقد وصل مع هيبوليت وكان يصحبه . ومررت جانبا مع بتسين بالفيللا فدخلا ، منذ مدة قصيرة فيما يبدو ، (دخلا في الوقت الذي كان يقع فيه حادث الفوكسهول) . وبعد ذلك ظهر كيلر ، فأعلن أن اليوم عيد ميلاد الأمير ، وطالب بشمبانيا . أما أوجين بافلوفتش فإنه لم يحضر الا منذ نصف ساعة . وقد ألحَّ كولا ، بكل ما أوتى من قوة ، على ضرورة تقديم الشمبانيا واقامة احتفال . فأسرع ليديف يأتي بالحمرة .

قال ليديف يخاطب الأمير :

— ولكن هذه خمرتى أنا . أنا أتحمل النفقات ، لأحتفل بعيد ميلادك

ولأهنتك • وسنولم كذلك وليمة صغيرة ، ستقدم عشاء بارداً • ان بتي تهيم العشاء • آ ••• يا أمير ••• ليتك تعرف الموضوع الذى كنا نتناقش فيه • هل تذكر جملة هاملت هذه : « نكون أو لا نكون » ؟ انه لموضوع عصرى ، عصرى جداً ! أسئلة وأجوبة ••• والسيد تيرتيف ممثلى بالنشاط زاهر بالحمامة ••• لا يريد أن يرقد ! على أنه لم يشرب الا جرعة شمبانيا واحدة ، جرعة واحدة ، هذا لا يمكن أن يؤذيه ••• اقرب يا أمير ، واحسم المناقشة ! ان الجميع ينتظرونك ، ان الجميع ينتظرونك ، ان الجميع يعتمدون على ثاقب بصرك ، وسديد رأيك •••

ولاحظ الأمير النظرة العذبة الملائمة التى كانت تلقىها عليه فيرا ليديف وهى تشق لنفسها طريقاً من أجل أن تصل اليه • فكانت أول من مد الأمير اليه يده • فاحمرت سروراً وهنأته بعيد ميلاده متمنية له حياة سعيدة « منذ هذا اليوم » • ثم أسرعت تمضى الى المطبخ حيث كانت تهيم وجبة الطعام الخفيفة • ولكنها كانت ، حتى قبل عودة الأمير ، تنجى الى الشرفة ، متى سنحت لها أول فرصة للتحرر من انشغالها بتهيئة الطعام ، وذلك لتصفى بكل سمعها الى المناقشات الحامية التى تدور بين الضيوف الى غير نهاية بعد أن أهاجتهم الحمرة ، والتى كانت تتناول مسائل مجردة الى أبعد حدود التجريد ، غريبة عن الفتاة الى أقصى درجات الغرابة • وكانت أختها الصغرى قد نامت فى الغرفة المجاورة ، فافرة الفم جالسة على صندوق • أما الصبى ابن ليديف ، فقد بقى قرب كولا وهبوليت • فإذا رأى الرائي وجهه أدرك أن الصبى مستعد لأن يبقى جالساً فى مكانه دون حراك ، عشر ساعات متتالية ، مستمتعاً بالحديث •

قال هيبوليت للأمير حين تناول الأمير يده بعد مصافحة فيرا فوراً :
- كنت انتظر على أحر من الجمر ، ويسرنى جداً أن أراك سعيداً
هذه السعادة كلها •

– وكيف عرفت اننى « سعيد » ؟
 – يرى المرء هذا فى وجهك • سلّم على هؤلاء السادة ثم تعال
 اجلس هنا ، قريباً منا ، بسرعة •
 وكرّر يقول ، ضاعطاً على هذه الجملة ضغطاً ذا دلالة :
 – انتظرتك على أحر من الجمر !
 سأله الأمير أليس خطراً على صحته ان يسهر الى مثل هذه الساعة
 المتأخرة من الليل ، فأجابه بأنه يستغرب هو نفسه أنه لم يشعر يوماً بمثل
 ما يشعر به فى هذا المساء من تحسن فى صحته ، بينما كان منذ ثلاثة أيام
 على شفا الموت •
 نهض بوردوفسكى فجأة ، فغمغم يقول انه جاء « هكذا » ، « مصطحباً »
 هيبوليت • وانه سعيد برؤية الأمير • وانه كتب فى رسالته « سخافات
 وحماقات » ولكن يسعده الآن حقاً أن ••• لكنه لم يكمل جملته ، وشدّ
 على يد الأمير مصافحاً بقوة ، ثم جلس •
 حتى اذا فرغ الأمير من تحية الجميع ، اقرب من أوجين بافلوفتش،
 فسرعان ما أمسكه هذا من ذراعه وقال له هامساً :
 – أريد أن أقول لك كلمتين ••• كلمتين لا أكثر • الأمر أمر
 حادث هام جداً • فلتنفرد دقيقة •
 وهمس فى الأذن الأخرى من أذنى الأمير صوت آخر، بينما أمسكته
 يد ثانية من ذراعه الثانية :
 – أريد أن أقول لك كلمتين •
 فما كان أشد دهشة الأمير حين التفت فرأى أمامه وجهاً مشعثاً ،
 أحمر ، ضاحكاً ، مكشراً ، سرعان ما عرفه الأمير : انه فردشتشيكو ،
 لا يدرى أحد من أين انبجس !

سأله فردشتشكنو :

– هل تذكر فردشتشكنو ؟

وصاح كيللر الذى أسرع يقترب منهما ، صاح يقول :

– انه نادم • لقد كان مخبئاً لأنه لم يشأ أن يظهر أمامك • كان مخبئاً هناك ، فى ركن • انه نادم يا أمير • يشعر بأنه مذنب •

– ولكن ما ذنبه ؟

– أنا لقيته يا أمير ، فجئت به فوراً • انه من خيرة اصدقائى •
لكنه نادم •

قال الأمير أخيراً ليتخلص منهما :

– تشرقت بحضوركما يا سيدى ! اتخذنا لكما مكاناً بين الحفل •

كان الأمير يستعجل التحدث مع أوجين بافلوفتش •

قال أوجين بافلوفتش :

– يتنهج المرء فى بيتك • لقد قضيت فى انتظارك نصف ساعة ، فكان وقتاً ممتعاً • اليك المسألة يا صديقى العزيز جداً ليون يقولايقتش • لقد ربت كل شئ مع كورمشيف ، فجئت أطمئنت وأهدىء بالك • لا تقلق • لقد نظر الى الأمر نظرة فيها كثير من التعقل • لا سيما وأنه ، فى رأى ، كان هو المخطئ •

– من هو كورمشيف هذا ؟

– عجيب ... هو ذلك الذى أمسكت ذراعيه من خلف فى الحديقة العامة ... لقد بلغ من الغضب أنه كان يريد أن يرسل اليك فى الغد شهوده يطلبون منك الاستعداد للمبارزة •

– هيأ ... دعك من هذه السخافة ! ...

- هي سخافة طبعاً ... ولا شك أن الأمر كان سينتهى نهاية سيئة
... غير أن بلادنا فيها أناس من هذا النوع ...
- أتراك قد أتيت لغرض آخر يا أوجين بافلوفتش ؟
قال أوجين بافلوفتش ضاحكاً :

- آ ... طبعاً ! هناك غرض آخر • غداً يا عزيزى الأمير ، عند
مطلع الصبح ، سأسافر الى بطرسبرج بسبب تلك الحكاية المشؤمة (قضية
عمى ، هل تتذكر ؟) • تصوّر أن كل ما قيل صحيح فعلاً ، وأن جميع
الناس كانوا يعرفونه الا أنا • وقد بلغت من الاضطراب للأمر أننى لم
يتسع وقتى حتى للذهاب الى « هناك » (الى أسرة ايباتشين) ، لا ولن
أستطيع ذلك غداً ، لأننى سأكون غداً ببطرسبرج • هل تفهم ؟ وقد لا أعود
من بطرسبرج الا بعد ثلاثة أيام • لا أريد أن أبالغ فى تقدير خطورة
الحادث ولا أن أضخم شأنه ، ومع ذلك رأيت أن على أن أصارحك فى
الأمر صادقاً دون مزيد من الارغاء والتأجيل ، أى أن أصارحك فى الأمر
قبل سفرى • اذا سمحت لى فسأبقى الآن هنا أنتظر انصراف الناس •
وليس هناك شىء يفضل هذا الانتظار عندى ، لأننى مضطرب اضطراباً
شديداً فلا سبيل لى الى نوم • الخلاصة أننى ، رغم ما يشتمل عليه هذا
التشبت بأحد الناس من مفاجاة للمباقة والكياسة والأدب ، أقول لك بصراحة
اننى انما جئت اليك ملتمساً صداقتك يا عزيزى الأمير • انك انسان
لا نظير له ، بمعنى أنك لا تكذب فى كل لحظة وربما كنت لا تكذب فى
آية لحظة • وهناك قضية أحتاج فيها الى صديق صادق وناصح أمين ، فأنا
الآن فى عداد الأشقياء فعلاً ...

وأخذ يضحك من جديد

قال الأمير بعد دقيقة من تفكير :

- ليس هناك الا مزعج واحد : انك تريد انتظار انصرفهم ، ولكن لا يعلم الا الله متى ينصرفون ! أفليس الأفضل أن نمضي الآن الى الحديقة العامة ؟ سوف ينتظروننى حتماً ، فاعتذر لهم •

- لا ، لا ، هناك أسباب تجعلنى أحب أن لا ينتهبوا الى اننى أبغى اجراء حديث غير عادى معك • ان بين هؤلاء الناس أفراداً يهتمون بالعلاقات بيننا اهتماماً شديداً ، ألا تعرف ذلك يا أمير ؟ فالأفضل كثيراً أن يلاحظوا أن علاقتنا هى أطيب العلاقات لا فى الظروف الاستثنائية فحسب ، بل فى الحياة الجارية أيضاً ، هل فهمت ؟ سوف ينصرفون بعد نحو ساعتين • وسأشغل من وقتك قرابة عشرين دقيقة ، أو نصف ساعة فى أكثر تقدير ***

- عفوك عفوك ! اننى سعيد بك جداً • ما كنت فى حاجة الى مثل هذا الاعتذار • ثم اننى أحرص على أن أشكر لك أحرّ الشكر كلمتك عن علاقات الصداقة بيننا • هل تعلم أننى يستحيل علىّ استحالة مطلقة فى هذه اللحظة أن أركز انتباهى ؟

دمدم أوجين بافلوفتش يقول وهو يتسم ابتسامة خفيفة :

- هذا واضح ! هذا واضح !

كان أوجين بافلوفتش مرح المزاج جداً فى ذلك المساء •

سأله الأمير مرتبساً :

- ماذا بك ؟

فتابع أوجين بافلوفتش كلامه دون أن يجيب عن السؤال اجابة مباشرة ، وهو ما يزال يتسم :

- أترك لا تشبه ، يا عزيزى الأمير ، فى أن لا يكون لزيارتى هذه

من هدف الا أن أحاصرك وأن استخرج منك بعض المعلومات دون أن يبدو على ذلك ، هه ؟

قال الأمير وقد أخذ يضحك هو أيضاً :

– أما أنك جئت لتحملني على الكلام فذلك أمر لا ريب فيه البتة ! بل لعلك آليت على نفسك لتسرفن في استغلال سذاجتي • لكنني في الواقع لا أخشاك • ثم انني في هذه اللحظة لا يهمني هذا الأمر ، هل تصدّق ؟ ثم ... لما كنت قبل كل شيء مقتنعاً بأنك انسان ممتاز فسوف تنتهي دائماً ، في آخر الأمر ، الى أن نصبح صديقين ! لقد أعجبتني كثيراً يا أوجين بافلوفتش • لأهلك ... في رأيي ... رجل محترم جداً ... جدا ! ...

قال أوجين بافلوفتش يختم الحديث :

– هيّا ... ان التعامل معك ممتع على كل حال ، أياً كان الباعث اليه • سوف أشرب كأساً نخبَ صحتك • انني سعيد جداً بلقائك ... وقطع كلامه ليسأله فجأة :

– آ ... هل أقام هذا السيد هيوليت عندك ؟

– نعم •

– أظن أنه لن يموت الآن ، أليس كذلك ؟

– لماذا هذا السؤال ؟

– لا شيء ! لقد قضيت في صحبته نصف ساعة ...

ان هيوليت ، الذي كان ينتظر الأمير ، لم يحوّل عينيه ، طوال مدة الحديث الذي جرى بين الرجلين ، لم يحوّل عينيه لا عن الأمير ولا عن أوجين بافلوفتش • فلما عادا نحو المائدة اتعش اتعاشاً محموماً • لقد كان قلقاً ، مهتماً احتياجاً شديداً • وكان العرق يلتصق على جبينه كحبات

اللؤلؤ • وكانت عيناه المتقدتين الزائغتين تعبران عن خوف متصل لا ينقطع ، وعن نوع من نفاذ الصبر لا يمكن تحديده • كانت نظراته تنتقل دون هدف من شيء الى آخر ، ومن شخص الى شخص ، دون أن تثبت على أى موضع • ورغم أنه كان حتى ذلك الحين قد شارك مشاركة فعالة فى الحديث الصاخب والمناقشة الحامية التى كانت تدور من حوله ، فلقد كانت حماسه حماسه حى لا أكثر • وحقيقة الأمر أنه لم يكن منصرفاً الى تلك المناقشة • كان تفكيره متقطعاً مفككاً ، وكان يعبر عن آرائه بلهجة فيها سخر واهمال ومفارقة • كان لا يكمل جملة ، وينقطع عن الكلام فجأة فى منتصف المناقشة التى يكون قد أثارها هو نفسه بحرارة قبل ذلك بدقيقة واحدة • وقد شعر الأمير بدهشة وأسف حين علم أنهم أباخوا له فى ذلك المساء أن يشرب كأسين من الشمبانيا • فالكأس التى توجد على المائدة أمامه والتى تجرع بعضها كانت هى الكأس الثالثة • ولكن الأمير لم يعلم بهذا الا فيما بعد • أما الآن فإنه لم يكن قادراً على أن يلاحظ أى شيء •

صاح هيبوليت يقول :

— هل تعلم أنتى سعيد جداً بأن يقع عيد ميلادك فى هذا اليوم ؟

— لماذا ؟

— سوف ترى لماذا • اجلس بسرعة الى المائدة • أولاً : لأن جميع أصحابك ... حاضرون • لقد قدّرت أنهم سيحيونك عدداً كبيراً ، وصدق تقديرى لأول مرة فى حياتى ! خسارة أنتى لم أعلم بيوم عيد ميلادك من قبل ... فلو علمت لحملت اليك هدية ... هاها ! ولكن من يدرى ؟ قد تكون الهدية فى جيبى ؟ هل مطلع الصبح بعيد ؟

قال بتسعين بعد أن نظر فى ساعته :

- يطلع الفجر بعد ساعتين في أكثر تقدير *

قال أحدهم :

- ولكن ما شأننا والفجر اذا كان في وسعنا أن نستغنى عنه الآن
لنقرأ في الخارج * ؟

- ذلك أنتي أريد أن أرى قليلاً من شمس + هل نستطيع أن
نشرب نخب الشمس يا أمير ؟ ما رأيك ؟

كان هبوليت يلقي أسئلة بلهجة قاسية ، مخاطباً جميع الناس
مخاطبة فارس من الفرسان ، كأنه يصدر أوامر + ولكن كان يبدو أنه
هو نفسه لا يلاحظ ذلك ولا يشعر به *

- ليكن ما تشاء ! فلنشرب ! ولكن يجدر بك أن تسكن وتهدأ
يا هبوليت ، أليس كذلك ؟

- أنت تصحني دائماً بأن أمضى أيام يا أمير ، فتعاملني كما تعامل
الطفل مربيته + متى طلعت الشمس وأخذت « تسطح في قبة السماء »
(من قائل هذا البيت من الشعر : « سطعت الشمس في قبة السماء » * ؟
ليس لهذا الكلام معنى ، ولكنه جميل) فعدتذ سوف نرقد يا ليديف ؟
هل الشمس ينبوع الحياة ! ما معنى هاتين الكلمتين « ينبوع الحياة » في رؤيا
القديس يوحنا ؟ هل سمعت الكلام عن « الكوكب الأفستى » * يا أمير ؟
- قيل لي ان ليديف يرى أن الكوكب الأفستى هو شبكة السكك
الحديدية هذه في أوروبا *

فانفض ليديف وصاح يقول ملوحاً بذراعيه كأنه كان يريد أن
يلجم الضحك الذي انطلق من صدور الجميع :

- ها ... لا ... اسمحوا لي ... اسمحوا لي !

ثم التفت نحو الأمير فجأة فقال له :

— مع هؤلاء السادة ... مع هؤلاء السادة جميعهم •• هناك مسائل لا يمكن أن •• انهم لا يستحقون الا هذا ••

قال ذلك وقر المائدة نقرتين ، فما كان من هذا الا ضاعف الضحك وفاقم الهرج والمرج •

كانت حالة ليديف في هذا المساء كحالته في كل مساء ، ولكنه كان في هذه المرة أشد حرارة واندفاعاً مما يكون في العادة ، وذلك بسبب تلك المناقشة الطويلة « الفقية » التي سبقت • انه في مثل هذه الحال يبدى لمعارضيه ازدياء لا حدود له •

— لا يُستحسن هذا أيها السادة ! لقد اتفقنا منذ نصف ساعة على أن لا نقاطع ولا نضحك حين يكون أحدنا بسبيل الكلام ، وأن نفسح لكل فرد مجال التعبير عن فكره واسعاً كاملاً • وللملحدين أنفسهم بعد ذلك أن يملنوا اعتراضاتهم اذا حرصوا على ذلك • لقد أقمنا الجنرال رئيساً للمجادلات • فما هذا الذي تعمدون اليه ؟ انكم بهذه الوسيلة تستطيعون أن تجعلوا أى انسان يفقد تسلسل أفكاره مهما تكن رفيعة سامية عميقة ! •••

صاح الجميع يقولون بصوت واحد :

— ولكن تكلم ، تكلم ! ما من أحد سيمنعك من الكلام !

— تكلم ، ولكن لا تهذر وتستطرد !

سأل أحدهم :

— ما « الكوكب الأستى » هذا الذي أتيتم على ذكره ؟

فقال الجنرال وقد عاد الى مجلس الرئاسة وقور الهيئة مهيب المنظر :

— لا أعرف عن هذا الأمر شيئاً البتة !

عندئذ تغمتم كيللر يقول وهو يتزحزح على كرسية بحركات قوية ،
وهيئة تتم على النشوة والشوق :

— اننى أحب هذه المناقشات وهذه المشاجرات حب العادة !

ثم التفت فجأة الى أوجين بافلوفتش الذى كان جالساً بقربه ،
فقال له :

— موضوعات علمية سياسية + لشد ما يشوقنى ما أقرؤه فى الصحف
من خلاصات عن المجادلات والمناقشات التى تحدثم فى مجلس النواب
البريطانى • ليس جوهر هذه المجادلات هو الذى يفتنى (فما أنا
سياسى ، تعلم ذلك) ، وانما تفتنى الطريقة التى يتعامل بها الخطباء ،
والأسلوب الذى يستعملونه فى القيام بدورهم من حيث سياسيون : « ان
الفيكونت النيل الذى يتخذ مكانه قبالتى •• » ، « ان الكونت النيل الذى
يشاطرنى رأيي •• » ، « ان معارضى النيل الذى أثار اقتراحه دهشة
أوروبا •• » ، فهذه العبارات الجميلة كلها ، هذه الروح البرلمانية لدى
شعب حر ، هى ما يسحرنى ويأخذ بلبى ! اننى أتلذذ بهذا يا أمير ! لقد
كنت فى قرارة نفسى فناناً على الدوام ، أحلف لك يا أوجين بافلوفتش !
صاح جانبا من مكانه قائلاً بلهجة هجومية :

— أنت تستتج اذن أن طرق السكة الحديدية شر لعين ، وأنها
ستكون السبب فى هلاك الانسانية ، وانها السم الذى سينزل على الأرض
فيلوٲ « ينابيع الحياة » ؟

كان جبريل آرداليونوفتش ، ذلك المساء ، متعشاً اتعاشاً خاصاً ،
وكان فرح المزاج حتى ليكاد يكون شاعراً بالاتصار والظفر فيما بدا
للأمير • وواضح أن سؤاله لم يكن الا مزحة أراد بها استفزاز ليديف ،
ولكنه لم يلبث أن تحمس هو نفسه •

أجابه ليديف وقد شعر أنه أُخرج عن طوره وأنه فى الوقت نفسه
سكران لذه :

— لا ، لا طرق السكة الحديدية ! ان هذه الطرق لا تستطيع بذاتها
أن تلوّث ينبع الحياة • وانما الشر اللعين هو جملة الحال كله ؛ هو هذه
الروح العلمية العملية التى سيطرت ميولها فى هذه القرون الأخيرة !

سأل أوجين بافلوفتش :

— هل اللعنة محققة أم هى ممكنة فحسب ؟ لا بد لنا من معرفة
المقصود هنا على وجه الدقة •

قال ليديف مؤكداً باندفاع وحماسة :

— بل اللعنة محققة !

قال بتسكين مبتسماً :

— لا تندفع يا ليديف ! انك تكون فى الصباح أحسن حالاً وأخلى
بالأ !

قال ليديف يجيئه بحرارة وهو يلتفت اليه :

— نعم ، ولكننى فى المساء ، أصرح مقالاً ! أنا فى المساء أكثر مودة ،
وأصدق صدقاً ! أنا فى المساء أبسط وأوضح وأشرف • ولعلنى بهذا
أتيح لكم أن تمطرونى بانتقاداتكم • ولكننى أيتها السادة لا أعابى بهذه
الانتقادات • وانى لأتحداكم الآن جميعاً أيتها الملاحدة : كيف ستتقنون
العالم ؟ ما هى الطريق السوية التى شققتموها له نحو السلامة أتم أيضاً ،
يا أيتها الصناعيون وأنصار نظام الاشتراك ونظام الأجور وما الى ذلك ؟
بأى شئ ستتقنون العالم ؟ بالتسليف ؟ ما التسليف ؟ الى أين سيؤدى بكم
الاقتراض ؟

قال أوجين بافلوفتش :

– انك شديد الاهتمام بهذه المسائل !

– ورأيت أن من لا يهتم بهذه المسائل ليس الا انساناً تافهاً لا قيمة

له ! نعم يا سيدى !

قال بتسين :

– التسليف يؤدي على الأقل الى التضامن العام، والى توازن المصالح.

– ولكن لا أكثر من هذا ! ان الأساس الأخلاقى الوحيد الذى تقيم

عليه رأيك هو ارضاء الأناية الفردية واشباع الحاجات المادية • السلام
الشامل ، والسعادة الجماعية الناشئة عن الحاجة ! اسمع لى أن أسألك :

أليس هذا هو ما يجب أن أفهمه من كلامك أيها السيد العزيز ؟

قال جانبا وقد بدأ يتحمس فعلاً :

– ولكن الحاجة المشتركة بين جميع البشر الى أن يعيشوا ويشربوا

ويأكلوا ، وكذلك الاقتناع المطلق العلمى بأن هذه الحاجات لا يمكن

ارضائها الا بالاشتراك الشامل وبالتكافل والتضامن فى المصالح ، ذلك

فيما يبدو لى رأى قادر على أن يكون دعامة و « ينبوع حياة » للانسانية

فى العصور المقبلة •

– ضرورة الشراب والطعام ، أى غريزة البقاء وحدها •••

– ولكن أليست هذه الغريزة شيئاً ؟ انها قانون الانسانية الطبيعى

السوى •

صاح أوجين بافلوفتش فجأة :

– من قال لك هذا ؟ هى قانون ، نعم ، ولكن هذا القانون ليس

سويّاً أو طبعياً أكثر من قانون التدمير ، وحتى تدمير الذات • هل البقاء

هو القانون الطبيعى السوى الوحيد الذى يحكم الانسانية ؟

هتف هيبوليت قائلاً وهو يلتفت بقوة الى جهة أوجين بافلوفتش :

— هيه ! هيه !

وتفرس فيه باهتمام قوى واستطلاع شديد ، ولكنه حين لاحظ أنه يضحك ، أخذ يضحك هو أيضاً ، ثم لكز كوليما الذى كان جالساً الى جانبه وعاد يسأله كم الساعة الآن ، حتى لقد شدَّ اليه ساعة الفتى الفضية ونظر فى عقربها بشراهة • وتمدد أخيراً على الديوان كأنما ليغيب فى غياهب النسيان ، جاعلاً يديه وراء رأسه ، وأخذ يحدث الى السقف • ولكن ما ان انقضى نصف دقيقة حتى عاد يجلس الى المائدة ، منهضاً صدره ، مصنياً الى هذر ليديف الذى بلغ ذروة الحماسة •

قال ليديف وهو يتهجم بعنف على رأى المفارق الذى عبّر عنه أوجين بافلوفتش :

— هذه فكرة بارعة ساخرة ، هذه فكرة مثيرة ! ولكنها فكرة صحيحة صادقة ، رغم انك لم تقلها الا فى سبيل أن تضرم المناقشة مزيداً من الاضرار • ان رجلاً ريبياً مثلك ، رجلاً من أبناء المجتمع الراقى ، ضابطاً من سلاح الفرسان (موهوباً على كل حال) لا يستطيع أن يدرك هو نفسه كل ما تشتمل عليه هذه الفكرة من عمق وصواب ! نعم ياسيدى ! ان قانون تدمير الذات وقانون المحافظة على الذات لهما فى هذا العالم قوة واحدة • وسيظل يستعملهما الشيطان كليهما للسيطرة على الانسانية خلال زمن لا نعرف له حداً • أنضحكون ؟ ألا تؤمنون بوجود الشيطان ؟ ان انكار وجود الشيطان فكرة فرنسية ، فكرة تافهة ؟ هل تعرفون من هو الشيطان ؟ هل تعرفون اسمه ؟ انكم وأنتم تجهلون حتى اسمه ، تسخرون من صورته ، على غرار فولتير • تضحكون من قدميه المشرومتين ومن ذنبه ومن قرنيه ، وذلك كله من اختراع خيالكم أنتم ، ذلك ان الروح

الشريرة روح ضخمة هائلة لا شأن لها لا بالأقدام المشرومة ولا بالقرون
التي تسبونها اليها • ولكن ليست الروح الشريرة موضوعنا الآن ...

صاح هبوليت يسأله وهو ينفجر فجأة في ضحك متشنج :

— ما يدريك ؟ لعل الشيطان هو موضوعنا الآن !

قال ليديف مؤيداً :

هذه ملاحظة سديدة موحية ! لكنني أكرر أن الأمر ليس هو هذا
الآن • وانما المسألة هي أن نعلم ألم يضعف التطور « ينايع الحياة » ؟

هتف كوليا سائلاً :

— تقصد المواصلات بالسكك الحديدية ؟

— لا ، لا المواصلات بالسكك الحديدية ، أيها الفتى المتهور
الطائش ، بل الاتجاه الذي يمكن أن نعد السكك الحديدية صورة له ،
أو تمثيلاً له ، أو تجسيداً فنياً ان صح التعبير • ان الناس الآن في عجلة
من أمرها ، تتحرك هنا وهناك ، وتتخط وتضج وتصرخ ، وتتزاحم
وتتصادم ، وتحت الخطى وتغذ السير ، بدعوى العمل لسعادة الانسانية !
ان مفكراً معتزلاً لهذا العالم قد ندب حظ البشر فقال : « أصبحت
الانسانية مسرفة في الجلبة والضوضاء ، مفرطة في الصناعة ، على حطام
الهدوء النفسى والغبطة الروحية » • فأجابه مفكر آخر يطوف هنا وهناك
ويشيع بوجهه عن الأول منتصراً متعالياً : « ليكن • ولكن ضجة العربات
التي تحمل الخبز للبشر الجياع قد تكون أفضل من الهدوء النفسى والغبطة
الروحية ! » • أما أنا ، أنا ليديف الحقير ، فأنى لا أوئن بالعربات التي
تحمل الخبز للبشرية ! لأن هذه العربات ، ان لم تقدها فكرة اخلاقية
روحية ، يمكنها برود وهدوء أن تحرم من حق الخبز الذى تنقله جزءاً
كبيراً من النوع الانسانى • وقد رأينا هذا فعلاً ...

قال أحدهم معترضاً :

– هل العربات هى التى تستطيع بهدوء وبرود أن تحرم •••
 كرر ليديف كلامه قائلاً دون أن يتنازل فيولى السؤال أى انتباه :
 – لقد رأينا هذا فعلاً • لقد كان مالتوس رجلاً من محبى البشر •
 لكن محب البشر هو من أكلة لحوم البشر اذا كان الأساس الأخلاقى
 الذى يقف عليه مهتزاً مترنحاً • ناهيك عن غروره ••• انه ليكفى أن
 تجرح كبرياء أى واحد من محبى البشر هؤلاء الذين لا يحصى عددهم
 حتى يكون مستعداً لأن يحرق على الفور أركان الأرض الأربعة ارضاءً
 لحقده الصغير ! ••• على أننى يجب أن أضيف ، حتى أكون منصفاً غير
 متحيز ، أن كل واحد منا ، وأنا فى الطليعة ، مستعد لأن يفعل مثل هذا ،
 فلعلنى أكون أول من يحمل حزم الحطب لاضرام النار ، ثم يولى هارباً ••
 ولكننى أعود فأقول ان المسألة ليست هذه !

– فما هى المسألة اذن ؟

– انه يزعجننا حقاً !

– المسألة هى مسألة حكاية ترجع الى القرون الماضية ، ذلك اننى
 مضطر أن أحدثكم عن عهد بعيد • ففى عصرنا هذا ، وفى وطننا الذى
 تحبونه ، فيما أرجو ، كما أحبه أنا ••• ذلك أننى من جهتى أياها السادة
 مستعد لأن أبذل فى سبيله آخر قطرة من دمي •••

– طيب طيب ، وبعد ؟

– نعم ••• فى وطننا ، كما فى أوروبا ، تنتاب الاسبانية مجاعات
 عامة شديدة مرة كل ربع قرن فى أكثر تقدير ، اذا صحت الحسابات
 وصدقت ذاكرتى ، أى كل خمس وعشرين سنة • لست أناقش صحة
 الرقم ، ولكن الواقع الذى أريد أن أقرره هو أن المجاعات نادرة نسبياً •

– نسبياً ؟ تعنى بالنسبة الى ماذا ؟

– بالنسبة الى القرن الثانى عشر ، والى القرون التى سبقته وأعقبته .
ذلك أن المجاعات العامة ، فى ذلك العهد ، كانت تجتاح الامسانية كلَّ
سنتين أو كل ثلاث سنين ، على الأقل – هذا ما يشهد به المؤرخون –
حتى ان الانسان فى مثل تلك الظروف كان يعتمد الى أكل لحم البشر ،
ولكن خفية . وقد روى طيفلى من ذلك الزمان ، حين دلف الى
الشيخوخة ، روى من تلقاء نفسه ، دون أى ضغط أو اكراه ، أنه فى أثناء
حياته الطويلة التعيسة قد قتل وأكل فى السر ستين راهباً وعدة أطفال ،
سته فى أكثر تقدير ، وهو عدد ضئيل بالقياس الى عدد رجال الدين
الذين أكلهم . أما الكبار من غير رجال الدين فيظهر أنه لم يمسس أحداً
منهم فى يوم من الأيام .

هتف الرئيس نفسه يقول بلهجة فيها ما يشبه الاستياء :

– هذا غير ممكن . اتنى كثيراً ما أناقشه وأجادله ايها السادة فى
موضوعات من هذا النوع دائماً . فإذا هو يطالمنى بمثل هذه الأضاليل
التي تقشعر لها الأبدان ، وتُصمُّ منها الآذان .. أشياء لا يمكن أن
يسلّم بها العقل !

– يا جنرال ، تذكر حصار كارس * ! وأنتم أيها السادة ، اعلموا
ان حكاييتى هى الحقيقة صافية . وأضيف من جهتى أن الواقع ، رغم
خضوعه لقوانين ثابتة لا تتغير ، يكاد يكون دائماً صعب التصديق بعيداً عن
المقول . وفى بعض الأحيان نرى الحوادث أبعد عن المعقول كلما كان
ألصق بالواقع .

سأله السامعون ضاحكين :

– ولكن هل يستطيع امرؤ أن يأكل هكذا ستين راهباً ؟

- انه لم يأكلهم دفعة واحدة بطبيعة الحال . لعله أكلهم خلال خمس عشرة سنة أو عشرين • ففي هذه الحالة يكون الأمر مفهوماً وطبيعياً الى أبعد الحدود •••

- وطبيعياً أيضاً ؟

- نعم ، طبيعياً !

كذلك أجاب ليديف بضاد المدعى وإصرار المتفقيه • وتابع يقول :

- ثم ان الراهب الكاثوليكي هو بطبيعته انسان يحب التواصل بالكلام ويكثر من الاستطلاع ، فلا أسهل من استدراجه الى غابة أو الى مكان ناء ، ليلقى هنالك المصير الذى وصفته آنفاً • ولست أجد مع ذلك أن عدد الأشخاص المأكولين فيه اسراف ، وأنه يدل على الشراهة •

قال الأمير فجأة :

- ربما كان هذا صحيحاً أيها السادة •

كان قد لزم الصمت حتى ذلك الحين ، وتابع المناقشة دون أن يتدخل فيها • وقد ضحك من كل قلبه مراراً حين أخذ الجميع يضحكون • كان واضحاً أنه لفتتن بأن يرى نفسه محاطاً بهذا المرح ، وبكل هذه الضوضاء ، بل وأن يلاحظ أن الضيوف يشربون بهذا الاندفاع كله وهذه الحمياً كلها • كان يمكن أن لا يفتح فمه طوال السهرة ، ولكن خطر بباله فجأة أن يقول كلمة ، ففعل ذلك بجدة وحرصانة يبلغان من الشدة أن جميع الضيوف التفتوا نحوه وفي أعينهم نظرات حيرة وتعجب !

- أريد أن أوضح نقطة أيها السادة ، هى كثرة تكرار المجاعات فى الماضى • لقد سمعت عن هذا الأمر أنا أيضاً ، وان كنت لا أعرف التاريخ معرفة جيدة • يبدو لى أن الأمر كان على هذا النحو حقاً • اننى

أثناء إقامتي في جبال سويسرا قد أعجبت كثيراً بأطلال القصور الاقطاعية القديمة ، القائمة في جنبات الجبال ، فوق صخور وعرة ، على ارتفاع لا يقل عن نصف فرسخ (أى عدة فراسخ سيراً في الطرقات المؤدية إليها) . تعرفون ما القصر : انه جبل من حجارة حقاً . ان بناء يتطلب عملاً رهيباً ، عملاً لا يتصوره الخيال ، عملاً لا شك في أنه قد قام به جميع أولئك الفقراء الذين كانوا أفتاناً . وكان على هؤلاء ، بالإضافة الى ذلك ، أن يدفعوا انواعاً من الاتاوات وأن يعملوا رجال الكهنوت . كيف كانوا يجدون في وقتهم متسعاً لأن يقيموا أود أنفسهم وأن يزرعوا الأرض ؟ لقد كان عددهم في ذلك الزمان أقل من أن يستطيعوا النهوض بتلك الأعباء كلها ، وكان أكثرهم يموتون جوعاً ، لأنهم لا يجدون ما يأكلونه فعلاً . حتى لقد اتفق لي أن تساءلت كيف لم يندثر أولئك السكان كافة ، كيف قاوموا واستطاعوا أن يتحملوا تلك الحياة ؟ فإذا قال ليديف انه حدث في ذلك الزمان أن أكل بعض الناس لحوم بشر ، فصدّقوه لأنه على حق حتماً . ولكني لا أدري لماذا أقحم الرهبان في هذه القضية ، ولا أعلم ما الذي أرادته .

قال جبريل آرداليونوفتش :

— لا شك أنه أراد أن يقول ان المرء في القرن الثاني عشر كان لا يستطيع أن يأكل من البشر الا الرهبان ، لأن الرهبان وحدهم كانت بهم سمعة .

فصاح ليديف يقول :

— هذه ملاحظة رائعة وصحيحة كل الصحة ، ذلك أن صاحبنا لم يمسس أحداً من غير رجال الدين ! لم يأكل رجلاً واحداً من غير رجال الدين وأكل ستين عينةً من هؤلاء : هذه واقعة فظيعة ، لها دلالة تاريخية

وقيمة احصائية • هى واقعة من الوقائع التى يستطيع بواسطتها رجل ذكى أن يتصور الماضى تصوراً صحيحاً ، اذ يبرهن بدقة حسابية على أن رجال الكهنوت كانوا فى ذلك الزمان أكثر رخاء وأفضل تغذية من سائر البشر ستين مرة على الأقل ، وربما كانوا أسمن من سائر البشر ستين مرة أيضاً •

صاح بعض الحاضرين يقول وسط انفجارات الضحك :

— ما أشد مبالغتك يا ليديف ، ما أشد مبالغتك !

عاد الأمير يقول سائلاً :

— أنا أسلم بأن لهذه الفكرة دلالة تاريخية ، ولكن ما الذى تريد أن تخلص اليه ؟

كان الأمير يتكلم بجديبلغ من الشدة ، ولهجة تبلغ من خلوها من السخرية أو التهكم على ليديف الذى كان يتندر به الحضور كافة ، أن التناقض بين لهجته وبين لهجة الآخرين كان يخرج منه تأثير هزلى مضحك بدون قصد ، حتى لقد أوشك أن يصيح الأمير نفسه محل ضحك واستهزاء ، ولكن الأمير لم ينتبه الى هذا •

همس أوجين بافلوفتش يسأل الأمير :

— ألا ترى يا أمير أنه مجنون ؟ لقد قيل لى هنا منذ قليل ان الميل الى مرافعات المحاماة وجلسات المحاكم قد فتن عقله وذهب بصوابه وانه يريد أن يتقدم الى امتحان • اننى أتوقع محاكاة مضحكة لمرافعة يتولاها محام من المحامين !

تابع ليديف كلامه قائلاً بصوت مدو :

— اننى أخلص الى نتيجة ضخمة • ولكن يجب أن نحلل قبل كل شيء الوضع السيكلوجى والقضائى لهذا المجرم • اننا نرى أن هذا

المجرم (ولنسمّه موكلّى ان شئتم) ، رغم استحالة عثوره على غذاء آخر ، قد أبدى مراراً ، طوال مدة حياته الغريبة ، رغبةً فى التوبة وفى العدول عن لحم رجال الدين . وهذا يتجلى واضحاً فى وقائع ثابتة : لقد أكل خمسة أطفال أو ستة فيما قبل لنا . صحيح أن هذا الرقم الأخير ضئيل تافه . ولكنه من وجهة نظر أخرى يحمل دلالة بليغة . واضح أن موكلّى قد حاصرته نوبات رهيبية من عذاب الضمير (ذلك أنه كان رجلاً متديناً ، رجلاً ذا وجدان ، أستطيع أن أبرهن على ذلك) : فلقد أراد أن يخفف ذنبه ، فى حدود الامكان ، فأحلّ محل النظام الغذائي القائم على أكل لحوم رجال الدين نظاماً غذائياً قائماً على أكل لحوم غير رجال الدين : فعل ذلك ست مرات على سبيل التجربة أو المحاولة . فأما أن ما فعله عندئذ كان تجارب أو محاولات ، فذلك أيضاً أمر لا سبيل الى جحوده . ذلك أنه لو كان لا يريد الا أن يبدل قائمة طعامه من باب التنويع ، لما كان لعدد الستة قيمة ! لماذا كان العدد ستة ولم يكن ثلاثين ؟ (انتى هنا أقسم البشر الذين أكلهم نصفين : نصفاً من رجال الدين ونصفاً من غير رجال الدين) . أما اذا كان الأمر أمر تجربة أو محاولة لم يدفعه اليها الا التألم والجزع من الاعتداء على الدين والاساءة الى الكنيسة ، فان عدد الستة يكون عندئذ معقولاً بل أكثر من معقول . ان ست محاولات يقوم بها لتهديّة ما يعاينه من عذاب الضمير لهى أكثر من كافية ، اذ لا يمكن أن تؤدى الى نتيجة مرضية . أولاً فى رأى لأن الطفل صغير جداً ، أو قولوا هزيل جداً : فلو أكل موكلّى أطفالاً بدلاً من أن يأكل رهباناً خلال مدة معينة لكان عليه أن يتلع من الأطفال ثلاثة أضعاف بل خمسة أضعاف ما يتلع من رهبان . وبذلك تكون جريمته قد خفّت من جهة الكيف ، ولكن ثقلت من جهة الكم . لاحظوا أيها السادة أنتى اذ أفكر فى الأمر على هذا النحو وأناقشه بهذه الطريقة ، انما أضع

ذاتى فى الحالة النفسية التى كان عليها انسان القرن الثانى عشر • أما أنا ، رجل القرن التاسع عشر ، فمن الممكن أن أفكر فى الأمر تفكيراً آخر غير هذا التفكير • اننى ألفت نظركم الى هذا يا سادتى حتى لا يبقى محل لسخركم منى وتهكمكم على • أما أنت يا جنرال ، فلقد أصبح موقفك غير لائق حقاً • ذلك أولاً ، أما ثانياً فان لحم الطفل - وهذا رأى شخصى لى - لا يشتمل على غذاء كثير ، وربما كان مذاقه غير لذىذ ، فلا يترك فىمن يأكله الا عذاب الضمير •

« اليكم الآن ، أيها السادة ، النتيجة التى أخلص اليها ، اليكم الخاتمة التى تحل لكم مشكلة من أكبر المشكلات فى ذلك الزمان وفى هذا الزمان على السواء • ان المجرم قد انتهى به الأمر الى الوشاية بنفسه للكهنوت ، والمثول بين أيدي السلطة • فلنتصور أنواع التعذيب التى كانت تنتظره فى ذلك الزمان ، لتصور العجلات التى يربط بها ويشد اليها ، لتصور النيران التى يلقي فيها ! فما الذى دفعه الى الوشاية بنفسه والاعتراف بجريمته ؟ لماذا ، بعد أن وقف عند العدد ستين ، لم يحتفظ بسرّه الى آخر رمق من حياته ؟ لماذا لم يقتصر على الاستغناء عن أكل لحم الرهبان ، والتكفير عن نفسه بأن يعيش ناسكاً ؟ لماذا لم يصبح راهباً هو نفسه ؟ تلكم هى كلمة السر ! كان هنالك اذن قوة فوق قوة نيران التعذيب ، وفوق قوة العادة التى ترسخت طوال عشرين عاماً ! كان هنالك فكرة أقوى من جميع الكوارث والمجاعات والتعذيب والطاعون والجذام وكل ذلك الجحيم الذى ما كان للانسانية أن تحتمله لولا تلك الفكرة نفسها التى كانت تُخضع القلوب وتوجهها ، وتُخصب بنايع الحياة ! هيّا أرونى شيئاً يشبه تلك القوة ، فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، عصر الرذائل والسكك الحديدية •• كان ينبغى أن أقول: « عصر السفن البخارية والسكك الحديدية » ••• كان ينبغى أن أقول « عصر الرذائل والسكك الحديدية » *، لأننى سكران، ولكنى صادق أقول الحقيقة • أرونى فى زماننا

هذا فكرة تؤثر في الانسانية نصف التأثير الذى كانت تحدثه تلك
الفكرة فى ذلك الزمان ! هل تجرؤون أن تقولوا بعد هذا ان ينابيع الحياة
لم تضعف ، ولم تضطرب ، تحت ذلك « الكوكب » ، تحت هذه الشبكة
التي التف بها البشر؟ لا تظنوا أنكم سترهبوننى برخائكم وثرواتكم وندرة
المجاعات وسرعة وسائل المواصلات ! صحيح أن الثروات أوفر ، ولكن
القوى تنقص ! لم يبق ثمة فكر يخلق رابطة بين البشر ! نعم ، انا جميعاً ،
جميعاً ، جميعاً فاسدون !... ولكن كفى ! ليس هذا هو المهم الآن .
وانما المهم أن نقدم العشاء الذى أُعدَّ لضيوفنا ، أليس كذلك أيها الأمير
المحترم جداً ؟

أوشك ليديف أن يحدث فى نفوس بعض سامعيه استياءً حقيقياً
(يجب أن نذكر أن الحضور استمروا يفتحون الزجاجات أثناء ذلك
الوقت كله) . لكنه أسقط فى يد جميع خصومه فوراً بهذه الخاتمة غير
المنتظرة ، التي ترف بشرى وجبة الطعام ، وهي خاتمة وصفها هو نفسه
بأنها « حيلة بارعة يقوم بها محام حاذق لتغيير مجرى قضية » . وتعال
ضحكات فرحات من جديد ، وعاد الحفل الى نشاطه وحيائه . ونهض
الجميع عن المائدة ، وأخذوا يمشون على الرصيف ليحركوا أعضائهم
ويذهبوا عنها التخذر . وظل كيللر وحده مستاءً من خطاب ليديف ،
وانفعل انفعالاً شديداً ، واضطرب اضطراباً كبيراً ، وأخذ يستوقف
الضيوف بعضاً وراء بعض ، فيقول لهم بصوت عال :

— انه يهاجم الحضارة ، ويمجد تعصب القرن الثانى عشر ؛ وهذا
كله تمثيل وتظاهر وتهريج . ان ليديف لا يملك من طهارة القلب
ونظافة اليد أبسر اليسير . قولوا لى : بأى مال أصبح مالكاً لهذا المنزل ؟

وقال الجنرال فى الركن المقابل لأشخاص آخرين من الحفل موجهاً
الكلام الى بتسين خاصة وهو يقبض على زر سترته :

— لقد عرفت شارحاً حقيقياً لرؤيا القديس يوحنا ، هو المرحوم جريجور سيميونوفتش بورمستروف • كان هذا يُنفذ في القلوب ما يشبه أن يكون سهماً من نار • كان يبدأ أولاً بوضع نظاراته ، ثم يفتح كتاباً كبيراً قديماً مجلداً بجلد أسود • كانت له لحية شائبة ، وكان يزين صدره بوسامين فاز بهما لقيامه بأعمال بر كثيرة • كان يأخذ يقرأ بلمهجة شديدة قاسية • وكان الجنترالات ينحنون أمامه وكانت السيدات تقع مغشياً عليها • أما هذا فانه يختم كلامه بالتبشير بعشاء بارد للضيوف ! شيء عجيب !

كان بتتسين أثناء اصغائه الى كلام الجنرال يتسم محافظاً على هيئة من يريد أن يتناول قبعته وينصرف • ولكنه كان لا يعزم أمره عليه • وقبل النهوض عن المائدة كان جانبا قد انقطع عن الشراب فجأة ، ودفع الكأس بعيداً عنه ، وطافت بوجهه سحابة قاذلم • حتى اذا نهضوا عن المائدة اقرب من روجوبين وجلس الى جانبه • فلو رآهما راء لاعتقد انهما على خير وفاق ، وأن العلاقات بينهما أحسن ما تكون العلاقات • ان روجوبين الذي أوشك في البداية أن ينصرف متسللاً بهدوء ورفق ، عدة مرات ، يجلس الآن ساكناً خافض الرأس • كأنه هو أيضاً قد نسي اعتزازه الانصراف متسللاً • انه غارق في أفكاره • وهو يرفع عينيه في بعض اللحظات فينفرس في جميع الحاضرين واحداً بعد واحد • ان وضعه الآن يحمل على الاعتقاد بأنه قد أرجأ انصرافه بانتظار شيء له عنده شأن خطير •

لم يكن الأمير قد شرب الا كأسين أو ثلاثاً • فكان فرحاً لا أكثر فلما نهض عن المائدة وقعت عيناه على عيني أوجين بافلوفتش ، فتذكر أن هناك حديثاً يجب أن يجري بينهما فابتسم هاشاً • فأوماً له أوجين بافلوفتش فجأة بحركة من رأسه ، مشيراً الى هيبوليت الذي كان نائماً على

الديوان والذي كان أوجين بافلوفتش يحدثُ اليه في تلك اللحظة بنظرة فاحصة •

— قل لي يا أمير ؟ لماذا اندس هذا الصبي في بيتك ؟

ألقى أوجين بافلوفتش هذا السؤال على الأمير فجأة ، وفي وجهه غضب ظاهر بل وبغض بّين ، فلم يسمع الأمير الا يُدهش •

وأضاف أوجين بافلوفتش يقول :

— أراهن أن في رأسه نيةً مبيتةً وغرضاً سيئاً !

فقال له الأمير :

— لقد لاحظت يا أوجين بافلوفتش ، أو خيّل إليّ ، أنك اهتمت به اليوم كثيراً ، أهذا صحيح ؟

— أضف الى ذلك انني في الظروف الخاصة التي تحيط بي يجب أن يكون رأسي ممتلئاً بمشاغل أخرى ، لذلك فأنا أول المدهوشين من أنني لم أستطع طوال مدة السهرة أن أحوّل بصرى عن هذه الهيئة المنفرة الكريهة •

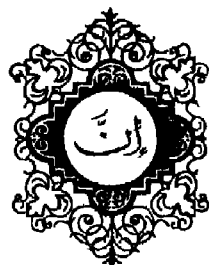
— ان وجهه جميل •••

صاح أوجين بافلوفتش يقول للأمير وهو يجره من ذراعه :

— انظر ، انظر ، انظر •••

فالتقى الأمير على محدثته نظرة مشدوهة من جديد •

الفصل الخامس



هيوليت الذي كان قد نام على الديوان فجأة بعد خطاب ليديف استيقظ الآن منتفضاً ، كان أحداً لكزه في جنبه ؟ وارتمش ، وجلس متكئاً على أحد كوعيه ، ونظر فيما حوله وشحب لونه . فلما رأى من يحيطون به عبّر وجهه عن شيء من الجزع . لكنه حين ثابت اليه ذاكرته واسترد وعيه ، استحال ذلك الجزع الى ما يشبه الذعر والهول ، فقال مغموماً وهو يمسك يد الأمير :

– ماذا ؟ أينصرفون ؟ انتهى ؟ أنقضى كل شيء ؟ هل طلعت الشمس ؟ كم الساعة الآن ؟ قل لي كم الساعة الآن ، ناشدتك الله ! لقد نمت . هل نمت مدةً طويلة ؟

أضاف هذه الجملة الأخيرة بلهجة تعبّر عما يكاد يكون ألماً كبيراً ويأساً شديداً فكأنه قد فاتته أثناء النوم أمرٌ يتوقف عليه ويرتبط به مصيره كله على أقل تقدير .

أجابه أوجين بافلوفتش :

– نمت سبع دقائق أو ثمانى .

فنظر اليه هيوليت بشراة ، وفكّر بضع لحظات ، ثم قال :

– آ ... فقط ! ... اذن أنا ...

وتنفس الهواء بقوة كأنه تخلص من حمل ثقيل وعبء هائل . لقد
 فهم أخيراً أنه « لم ينته كل شيء » ، وأن الفجر لما يسطع بعد ، وأن
 الحضور لم يقوموا عن المائدة الا ليمضوا الى تناول وجبة العشاء الخفيفة ،
 وأن الشيء الوحيد الذى انقطع انما هو ثروة ليديف . قابتسم وتخصبت
 وجنتاه ببقعتين حمراوين تكشفان عما به من مرض السل . ثم لم يلبث
 أن قال بلهجة ساخرة :

ـ وأنت يا أوجين بافلوفتش ، لقد عددت حتى الدقائق التى قضيتها
 أنا نائماً ! انك لم تحول بصرك عنى طوال السهرة ... لقد لاحظتُ
 ذلك ...

وأردف يهمس فى اذن الأمير ، مقطباً حاجبيه ، مشيراً بحركة من
 رأسه الى المكان الذين كان يجلس فيه بارفيون سيميونوفتش الى المائدة :

ـ آ ... روجوين ! لقد رأيته الآن فى الحلم ...

وتابع كلامه يقول قافزاً من موضوع الى موضوع فجأة :

ـ آ ... نعم ... أين الخطيب ؟ أين ليديف ؟ هل انتهى من القاء
 خطابه اذن ؟ عمّ تحدث ؟ هل صحيح يا أمير أنك قلت فى ذات يوم ان
 « الجمال » يمكن أن ينقذ العالم ؟

ثم صاح يقول مُشهداً جميع الحضور :

ـ اشهدوا أيها السادة أن الأمير يدعى أن الجمال سوف ينقذ العالم ؟
 أما أنا فأقول : اذا كان للأمير آراء تبلغ هذا المبلغ من المرح فذلك دليل
 على أنه عاشق ! أيها السادة ، ان الأمير مولّه حباً ! لقد أيقنت بهذا منذ
 دخل علينا قبل مدة قصيرة ! لا تحمرّ خجلاً يا أمير ، والا أخذتنى بك
 شفقة ! أى جمال سوف ينقذ العالم ؟ ان كوليّا هو الذى نقل الى حديثك

هذا ... هل أنت مسيحي قوى الايمان ؟ يقول كولييا انك أنت الذى
تعت نفسك بأنك مسيحي •

تأمل الأمير ملياً ولم يجبه •

فأضاف هيبوليت يقول فجأة بلهجة خشنة كأن هذه الملاحظة قد
فاتته :

- ألا تجيب ؟ أنراك تظن أننى أحبك كثيراً ؟

- لا ، لا أظن ذلك • أنا أعلم أنك لا تحبنى •

- كيف ؟ حتى بعد الذى حدث أمس ؟ لقد كنت صادقاً معك أمس •

- أمس أيضاً كنت أعلم أنك لا تحبنى •

- هل تعنى أن سبب ذلك هو أننى أحسدك ، هو أننى أغار منك ؟
انك قد ظننت هذا دائماً ، وما زلت تظنه ، ولكن ... لماذا أكلملك
فى هذا ؟ أريد أن أشرب مزيداً من الشمبانيا • يا كيللر ، صبّ لى
شمبانيا !

- ما ينبغي أن تشرب أكثر مما شربت يا هيبوليت • لن أدع لك أن

تشرب ...

قال له الأمير ذلك ، وأبعد عنه الكأس •

فلم يلبث هيبوليت أن قال موافقاً وقد شرد ذهنه :

- صحيح ... اذا شربت ' فلا بد أن يقولوا اننى ... ولكن ماشأنى
بما قد يقولونه ! ... أليس كذلك ؟ هه ؟ ليقولوا فى المستقبل ما شاء لهم
هواهم أن يقولوا ، أليس هذا صحيحاً يا أمير ؟ أى ضر يمكن أن يصيبنا ،
جميعاً ، مما قد يقولونه « بعد » ؟ ... على كل حال ، أنا الآن خارج من
حلم • ألا ما كان أفضله حلماً ! فى هذه اللحظة انما أتذكره • لا أتمنى

لك أحلاماً كهذا الحلم يا أمير ، رغم أنني ربما كنت لا أحبك كثيراً .
على كل حال ، إذا كان امرؤ لا يحب شخصاً من الأشخاص فليس حتماً
عليه أن يريد له الشر ، وأن يتمنى له الضر ، أليس هذا صحيحاً ؟ ولكن
ما بالي ألقى هذه الأسئلة كلها ؟ فيم هذه الأسئلة جميعها ؟ ناولني يدك
فاشد عليها شداً قوياً . نعم ، هكذا هأنت ذا قد مددت الي يدك
رغم كل شيء . أنت تشعر اذن أنني أشد عليها صادقا مخلصاً طيب
. لن أشرب أكثر مما شربت . كم الساعة الآن ؟ ولكن لا داعي أن
تقولوا لي كم الساعة الآن أنا أعرف . لقد دقت الساعة . آن
الأوان . أظف الوقت . ماذا ؟ هل تقدمون وجبة العشاء في ذلك الركن ؟
هل هذه المائدة خالية اذن ؟ عظيم أيها السادة ، انني جميع
هؤلاء الناس لا يريدون حتى أن يصغوا انني أريد أن أقرأ مقالة
يا أمير . صحيح أن وجبة الطعام أهم شأنًا وأجل قدرًا ، ولكن

قال هبوليت هذا ثم استل من جيبه الجانبي ، بطريقة مفاجئة غير
متوقعة ، حزمة عريضة من قياس رسمي ، مختومة بخاتم كبير أحمر ،
ووضعها على المائدة أمامه .

أحدثت هذه الحركة المبالغته أثرها في الحفل ، الذي كان « متهيثا » ،
ولكن لا للقراءة .

نهض أوجين بافلوفتش عن كرسيه منتفضاً . واقترب جانبا من
المائدة بحركة سريعة . وتبعه روجويين ، لكنه تبعه مشتمرا الهيئة متجهم
الوجه كمن يعرف ما مدار القضية وما حقيقة الأمر . وكان ليديف قريباً
فتقدم محملق العينين وأخذ يتفحص الحزمة محاولاً أن يحزر ما تحويه .

سأله الأمير بلهجة قلقة :

— ما هذا الذي معك ؟

صاح هيوليت يقول :

- سأرقد متى طلعت أولى أشعة الشمس يا أمير • لقد قلت ذلك •
بمعناً • سوف ترى !

ثم أضاف وهو يلقي حوله نظرة تحدّ كأنه يواجه بها جميع
الحضور بغير استثناء :

- ولكن ... ولكن ... هل تظنون أنني لا أقدر أن أقض هذه
الحزمة ؟

لاحظ الأمير أن هيوليت كان يرتجف بكل جسمه • فتكلم باسم
الجميع قائلاً :

- لم يدرك هذا الحاطر في ذهن أحد منا ، فلماذا تسبها الينا وتظن
أنا ... ثم ما أغرب هذه الفكرة التي تراودك ، وهي أن تقرأ لنا مقالة ؟
ماذا بك يا هيوليت ؟

وتساءل بعضهم من حوله :

- ما هذا ؟ ماذا دهاه أيضاً ؟

واقرب الجميع ، وكان بعضهم قد بدأ يأكل • إن الحزمة وخاتمها
الأحمر يجذبان الضيوف كالمغناطيس •

قال هيوليت يخاطب الأمير :

- هذا ما كتبته بنفسى أمس ، بعد أن قطعت لك عهداً بأن أجيء
إليك لأقيم عندك يا أمير • قضيت في كتابته طول النهار والليل ، وأنهيت
في هذا الصباح • لقد رأيت حلماً قبل مطلع الصبح ...

قاطعه الأمير يقول في خجل ووجل :

- أليس الأفضل أن ترجىء القراءة الى غد ؟

فرداً عليه هيبوليت قائلاً وهو يضحك ضحكة ساخرة متشنجة :

- غداً « لا يكون قد بقى وقت » • ولا تخف على كل جال ، فان القراءة ستستغرق أربعين دقيقة ، أو ساعة في أكثر تقدير • انظر الى اهتمام الجميع بالأمر : ان كل واحد يقترب ، وان كل واحد ينظر الى حزمى المختومة • لولا أننى وضعت المقالة فى حزمة مختومة لما أنارت أى اهتمام ، ولما أيقظت فى نفس أحد أى فضول • ها ها ! هذه جاذبية السر !...

ثم هتف يقول ضاحكاً ضحكته الخاصة ، طائفاً على الحضور بنظرات عينيه المتقدتين :

- أأفرض أم لا أفرض أيها السادة ؟ سر ! سر ! هل تتذكر يا أمير من ذا الذى أعلن أنه « لن يكون قد بقى وقت » ؟ انه الملاك الكبير القوى الذى تحدثنا عنه رؤيا يوحنا •

هتف أوجين بافلوفتش فجأة يقول وقد ظهر عليه قلق بلغ من الشدة أنه خطف انتباه كثير من الأشخاص :

- الأفضل أن لا تقرأ !

وصاح الأمير يقول أيضاً وهو يضع يده على الحزمة :

- لا تقرأ !

وقال أحدهم :

- ماذا ؟ الآن نقرأ ؟ اننا نريد أن نتعشى !

وسأل آخر :

- مقالة ؟ لا بد أنها مقالة لمجلة ، هه ؟

وسأل الآخرون :

- ولكن ما الأمر ، ما المسألة ؟

ان حركة التخوف التي بدرت من الأمير قد أرهبت حتى هيبوليت نفسه ! فقال يسأل الأمير همساً ، بلهجة خائفة ، بينما كانت تلمُّ بشفتيه المزرقتين ابتسامة متصعرة :

- ألا أقرأ أذن ؟...

ثم دمدم سائلاً وهو يتفحص حوله جميع الأعين وجميع الوجوه ، محاولاً أن يشدَّ اليه الناس ، كما فعل منذ لحظة ، شاعراً بحاجة شرهة الى البوح والافضاء :

- ألا أقرأ أذن ؟

وعاد يلتفت نحو الأمير مرة أخرى ويسأله :

- أأنت ... خائف ؟

فأجابه الأمير وكانت سمخته تنقلب وتتغير من دقيقة الى أخرى :

- مِمَّ أخاف ؟

فما كان من هيبوليت الا أن وثب عن مكانه على حين فجأة ، كأنه انتزع من كرسيه انتزاعاً ، وصاح يسأل :

- هل يعطيني أحد قرشاً ؟ هل مع أحد منكم قطعة نقدٍ بعشرين كوبيكاً ؟

فأسرع ليديف يناوله قطعة النقد قائلاً .

- خذ !

لقد استولى على ذهن ليديف أن المريض فقد عقله وأصابه جنون . وسرعان ما صاح هيبوليت منادياً :

- فيرا لوكيانوفا • أمسكى هذا القرش وارميه على المائدة ، ثم انظري : هل سقط على وجهه أم على قفاه • فان سقط على قفاه قرأت !

نظرت فيرا ، مذعورة ، الى القرش فالى هيوليت فالى أبيها ، ثم رفعت رأسها لاعتقادها بأن عليها أن لا ترى القرش ، ورمته على المائدة بحركة خرقاء • لقد سقط القرش على قفاه •

قدمم هيوليت يقول وكأن قرار الحظ هذا قد سحقه سحقاً :

- يجب أن أقرأ •

ما كان لهيوليت أن يصطبغ وجهه بهذه الصفرة الرهية ولو سمع قرار الحكم عليه بالاعدام •

هتف يقول مرتعشاً بعد نصف دقيقة من صمت :

- ما معنى هذا على كل حال ؟ كيف أمكن أن أقامر ببصري ؟

وألقي على الحضور نظرة دائرة تفصح عن تلك الرغبة نفسها في البوح والافشاء ، وفي التماس الانتباه والاهتمام • ثم التفت نحو الأمير فجاءه وهتف يقول بلهجة فيها دهشة صادقة :

- هذه سمة غريبة من سمات النفس يا أمير ...

وكرر يقول متعشاً بلهجة اسنان ثاب الى نفسه :

- سجل هذا وتذكره ، ما دمت تجمع معلومات ومستندات عن الحكم بالاعدام ، فيما قيل لي ... لقد قيل لي هذا ... ها ها ! ... هه ... يا للسخف ! ...

وجلس على الديوان ، وأسند كوعيه الى المائدة ، وأمسك رأسه بين يديه • ويتابع يقول :

- بل ... ويا للعار! ... ولكن ما يضيرني أن يكون في هذا عار! ...

وسرعان ما رفع رأسه فقال كمن انصاع لقرار مفاجئ :

- أيها السادة ، أيها السادة ... اننى أقض حزمى ، و ... و ...
لا أجبر أحداً على الاصغاء !

ويدين مرتعتين من شدة الانفعال فضّ الحزمة وأخرج منها
ورقات من ورق الرسائل ، مطرزةً بكتابة صغيرة دقيقة ، فوضعها أمامه
وأخذ يفتحها •

دمدم عدد من الحاضرين يقولون عابسين :

- ما هذا ؟ ماذا هنالك ؟ ماذا يُراد أن يُقرأ علينا ؟

ولزم آخرون الصمت ، ولكن الجميع ظلوا جالسين يرقبون المشهد
باهتمام واستطلاع • لعلهم كانوا ينتظرون وقوع حادث خارق فعلاً •
وقد تشبّث فيرا بكرسى أبيها ، وكانت تشعر بخوف يبلغ من الشدة أنها
لا تكاد تستطيع أن تحبس دموعها • ولم يكن كوليّا أقل ارتياحاً • أما
ليديف الذى كان قد جلس ، فانه نهض فجأة ، فتناول شموعاً وقرّبها
من هيوليت ليستطيع هيوليت أن يقرأ بوضوح أكبر •

أضاف هيوليت يقول ، لا يدرى المرء لماذا :

- أيها السادة ، هذا ... سوف ترون ما هذا فوراً ...

ثم انتقل الى القراءة رأساً بلا تمهيد ، فقرأ : « شرح لا غنى عنه »
تصدير : « من بعدى الطوفان » * • لكنه لم يلبث أن قال بلهجة من شعر
بنار تلسعه : أف ... كيف أمكن أن أصدر مقالتى بقول يبلغ هذا المبلغ
من الغباء والحمق ؟ ... ثم اتجه الى الحضور فقال لهم :

- اسمعوا أيها السادة !... أؤكد لكم أن هذا كله قد لا يكون في آخر حساب الاتفاقات وترهات شنيعة !... ما هذه الا خواطر جالت في رأسي أنا ... فإذا كنتم تتوقعون شيئاً سرياً أو ... محظوراً ، أى ...

فقاطعه جانبا قائلاً :

- الأفضل أن تقرأ بغير تمهيد ...

وأضاف آخر يقول :

- انه يلف ويدور •

وقال روجوين الذى ظل أخرس حتى ذلك الحين :

- هذا بعينه ما يسمى هذراً وثرثرة !

فنظر اليه هيبوليت فجأة • فلما أن التقت نظراتهما ابتسم روجوين ابتسامة مرة لاذعة ، ثم نطق بهذه الأقوال الغريبة :

- ما هكذا يجب التصرف ، في هذه القضية ، أيها الصبي ، لا ..

ما من احد فهم ما يعنيه روجوين طبعاً • ولكن جملته أحدثت في الحضور تأثيراً خاصاً : لكأن فكرة واحدة ساورت أذهانهم جميعاً • أما في هيبوليت فقد أحدثت هذه الجملة تأثيراً رهيباً : أخذ يرتجف ارتجافاً بلغ من القوة أن الأمير همّ أن يمد نحوه يديه ليحميه من السقوط ؛ وكان لا بد ان يصرخ حتماً لولا أن ظل صوته محبوساً في حلقه • ولبت دقيقة بكاملها لا يستطيع أن ينطق بكلمة • كان يتنفس بمشقة ، ولا يحول عن روجوين بصره • فلما استطاع أخيراً أن يسترد أنفاسه بجهود كبيرة نطق يقول مجبجماً :

- اذن أنت ... الذى ... أنت الذى ...

- الذى ماذا ؟

كذلك سأل روجويين بهيئة من لم يفهم •

ولكن هيوليت احمر احمراراً شديداً ، وصرخ يقول بصوت كاسر وحشى ، يدفعه اليه نوع من حنق مسعور مفاجيء :

ـ « أنت » الذى جئت الىّ فى الأسبوع الماضى ، ليلاً ، بعد الساعة الواحدة ، غداة ذلك اليوم الذى زرتك فيه • هو « أنت » ! اعترف بذلك : أأنت أم لا ؟

ـ الاسبوع الماضى ؟ ليلاً ؟ أترك فقدت عقلك أيها الصبى ؟

سكت « الصبى » لحظةً أخرى ، ثم رفع ابهامه الى جبينه كمن يستجمع خواطره • ولكن تعبيراً عن المكر وحتى عن الفوز برز فى وجهه فجأة من تحت ابتسامته الصفراء التى جمدها الخوف • وكرر يقول بصوت يكاد يكون همساً ، ولكن ب لهجة فيها اقتناع كامل مطلق :

ـ أنت ! « أنت » جئت الىّ ! لبثت جالساً على كرسى قرب النافذة ساعةً بل أكثر من ساعة : كان ذلك بين منتصف الليل والساعة الثانية • وانصرفت قبل الساعة الثالثة ••• نعم ، أنت أنت ! لماذا أخفتنى ؟ لماذا جئت تعذبنى ؟ اننى لا أفهم هذا ••• ولكنك أنت الذى جئت الى ! ••• وأشتعل فى نظرتيه وميض بفض على حين فجأة ، ولكنه ظل يرتعد هلعاً • وقال :

ـ فوراً أيها السادة ، ستعلمون كل شىء ••• اننى ••• اننى ••• أصنوا الىّ •••

وأسرع يتناول أوراق مخطوطته التى كانت قد تحركت من مكانها وتبعثرت ، فأخذ يحاول ترتيبها • وكانت الأوراق ترتعش بين أصابعه المرتجفة ، فقضى فى ترتيبها وقتاً •

غمغم روجوين يقول بصوت لا يكاد يُفهم :

— اما أنه معجون ، واما أنه يهذى ...

وبدأت القراءة أخيراً • ففي الدقائق الخمس الأولى لقي كاتب «المقالة» التي لم تكن في الحسبان ، لقي عناءً كبيراً في استرداد أنفاسه ، فكان يقرأ قراءة مفككة متفاوتة • لكن صوته ثبت وقوى شيئاً بعد شيء ، فاستطاع أن يؤدي معنى ما كان يقرؤه اداءً كاملاً • كل ما هنالك أن سمعاً شديداً كان يقطع القراءة من حين إلى حين ؛ ولما وصل من القراءة إلى نصفها كان صوته قد أصيب ببحّة قوية • وكانت حماسته تشتدّ مزيداً من الاشتداد لحظة بعد لحظة حتى بلغت الذروة ، وكان الاحساس الأليم الذي يحدثه في نفوس مستمعيه يقوى لحظة بعد لحظة بتلك السرعة نفسها • واليكم نص المقالة كاملاً :

((شرح لا غنى عنه))

((من بعدى الطوفان))

« في صباح أمس ، جاءني الأمير • فاقترح عليّ ، فيما اقترح ، أن أقیم عنده في الفيلا • كنت أعلم أنه لن يفوته أن يلحّ علي هذه النقطة • كنت على يقين من أنه سيقول لي فوراً « ان الأفضل لي أن أموت محاطاً بالناس والأشجار » ، على حد تعبيره • لكنه في هذا اليوم لم يستعمل كلمة « أموت » ، بل قال « ان الأفضل لي أن أعيش هناك » ، والأمران في حالتي أمر واحد على كل حال • سأله ماذا يعني بكلمة « الأشجار » التي يكثر من استعمالها هذا الاكثار ، ولماذا يصدّع أذني بها دائماً • فما كان أشدّ دهشتي حين سمعته يجيبني بأنني أنا الذي صرحت في مساء فائت بأنني انما جئت الى بافلوفسك لأرى الأشجار مرةً أخيرةً فذكرت له أنه يستوى عندي تماماً أن أموت تحت الأشجار أو أن أموت وأنا أنظر

الى حائط من الأجر أمام نافذتى • فلا حاجة بى الى هذا العناء كله والى هذا الاحتفال كله فى سبيل أسبوعين اثنين بقيا لى فى هذه الحياة • فسرعان ما وافقتى على هذا رأى ، لكنه قدّر أن الحضرة والهواء الطلق سيؤثران فى حالتى الجسيمة تأثيراً حسناً ولا ريب ، وسيدّان « أحلامى » وسيفيّران نتائج فرط احتياجى حتى لقد يجعلانها محتملة • فاعترضت عليه من جديد وقلت له ضاحكاً انه يتكلم كما يتكلم رجل مادى المذهب • فأجبنى وهو يتسم ابتسامته المألوفة بأنه كان دائماً مادى المذهب • واذا أنه رجل لا يكذب ، فلا شك أن قوله هذا ليس كلاماً جزافاً ألقاه فى الهواء • ان ابتسامته طيبة • وقد أنعمت النظر فيه عندئذ بمزيد من الانتباه • لا أدري أنا الآن أحبه أم لا أحبه • ولا يتسع وقتى الآن لأن أصدّع رأسى بمثل هذا السؤال • ان الكره الذى كنت أحمله له منذ خمسة أشهر - لاحظوا هذا - قد أخذ يهبط هبوطاً تاماً أثناء هذا الشهر الأخير • من يدري ؟ لعلى لم أذهب الى بافلوفسك الا فى سبيل أن أراه • ولكن ... لماذا تركت غرفتى اذن ؟ ان المحكوم عليه بالاعدام يجب أن لا يبارح الركن الذى هو فيه • فلو أننى لم أتخذ قراراً حاسماً ، لو أننى - على عكس ذلك - أذعنت لفكرة انتظار ساعتى الأخيرة ، اذن لما رضيت أن أجيء « أموت » عنده فى بافلوفسك •

» يجب أن أسارع لأنهى هذا « الشرح » كله حتماً قبل الغد • معنى ذلك أننى لن أملك من الوقت ما يتيح لى إعادة قراءته ويسمح لى بتصحيحه وتنقيحه • سوف أعيد قراءته غداً حين أقرؤه على الأمير وعلى شاهدين أو ثلاثة شهود أمل أن أجدهم عنده • واذا أن هذا الكلام لن يشتمل على كلمة واحدة ليست هى الحقيقة الصافية العليا الصريحة ، فأنى ليهمنى كثيراً أن أعرف الاحساس الذى سأشعر به أنا نفسى حين سأقرؤه عليهم • على اننى أخطأت اذ كتبت هذه الكلمات : « الحقيقة العليا

الصريحة » ، فإن حياة لن تدوم الا خمسة عشر يوماً لا تستحق أن يحياها المرء (حاشية - هذه فكرة يجب أن لا تغيب عن البال : ألسنت مجنوناً في هذه اللحظة ، أو قولوا في بعض اللحظات ؟ لقد أكد لي بعضهم أن المرضى بداء السل ، حين يصلون الى آخر مرحلة من مراحل مرضهم ، تختل عقولهم في بعض اللحظات . يجب التثبت من هذا غداً بالآثر الذي تخلفه في نفوس السامعين قراءة هذا الكلام . هذه مسألة يجب أن تحل أدق حل مهما كلف الأمر . وبدون ذلك لا يستطيع المرء أن يشرع في شيء أو أن يعمل شيئاً) .

« يخيل الى أنني قد كتبت الآن سخافة كبيرة . نغير أن وقتي لا يتسع للتصحيح ، كما سبق أن قلت ذلك من قبل . ثم انني أتعهد لنفسي عامداً أن أترك هذه المخطوطة خالية من أية تصحيح ، حتى ولو لاحظت أنني أناقض نفسي بنفسي كل خمسة أسطر . فأنما أريد أن أمتحن منطق تفكيري ، وأن أناكد من انني ألاحظ أخطائي ، غداً عند القراءة . فبذلك أعرف هل الأفكار التي أنصبتها في هذه الغرفة خلال هذه الأشهر الستة ، حقيقة صادقة أم هذيان باطل .

« لو وجب عليّ ، منذ شهرين ، أن أهجر غرفتي هجراً تاماً ، كما سأفعل الآن ، وأن أودّع حائط ماير ، لكنت شعرت بحزن حتماً . أما الآن فقد أصبحت لا أشعر بشيء رغم أن عليّ أن أترك هذه الغرفة وهذا الحائط « الى الأبد ! » . معنى هذا أن كياني يستحوذ عليه الآن اقتناع بأن حياة أسبوعين لا تستحق أن تمتلئ نفس المرء فيها بمشاعر الأسف والحسرة ، وأن ينقاد المرء أثناءها لأي عاطفة من العواطف . ولعل جميع حواسي أصبحت تخضع لهذا الاقتناع منذ الآن . ولكن هل هذا صحيح حقاً ؟ هل صحيح أن طبعي قد تم لي قهرها وتحققت لي السيطرة عليها ؟ لو أنزل بي تعذيب في هذه اللحظة لأخذت أصرخ حتماً ، ولما قلت ان المرء ما ينبغي

له أن يصرخ ولا أن يشعر بالألم اذا لم يكن قد بقى له من الحياة الا خمسة عشر يوماً •

« ومع ذلك ، هل صحيح أنني لم يبق لى من الحياة الا خمسة عشر يوماً لا أكثر ؟ ان ما رويته فى بافلوفسك كان كذباً : ان « ب • • ن » * لم يقل لى شيئاً البتة ، حتى انه لم يرئى فى يوم من الأيام • غير أنني قد جىء لى منذ اسبوعين بالطالب كيسلورودوف • انه شاب ماذى المذهب ، ملحد ، عديمى • ومن أجل هذا انما طلبت أن يؤتى به الى • كنت فى حاجة الى انسان يقول لى أخيراً الحقيقة صافية صريحة بلا مداراة أو مراعاة ، وبلا تصنع أو تكلف • وذلك ما فعله • ولم يفعله متعجلاً بغير لف ودوران فحسب ، بل فعله وهو يشعر بلذة ظاهرة واضحة أيضاً (لذة تجاوزت الحدود فى رأيى) • لقد أعلن لى بغلظة وقسوة اننى قد بقى لى من الحياة نحو شهر ؟ وربما طال عمرى أكثر من ذلك قليلاً اذا ساعدت الظروف ، ولكن قد يكون ما بقى لى من عمر أقل كثيراً من شهر • وهو يرى أن من الجائز أن أموت على حين غرة ، فى غدٍ مثلاً • فهذا أمر رئى مثله • فأمس الأول كانت سيدة شابة مصابةٌ بداء السسل ، وهى تقطن حى كولومنا وتشبه حالتها حالتى ، كانت تتهياً للذهاب الى السوق من أجل أن تشتري مؤناً لها ، فاذا هى تشعر فجأة باعياء ، فلما اضطجعت على أريكة لترتاح زفرت زفرة وأسلمت روحها • لقد روى لى كيسلورودوف هذه التفاصيل كلها وهو يتصنع نوعاً من عدم التأثر وقلة الاكتراث ، كأنه يشترفى بأن يعدنى ، أنا أيضاً ، رجلاً متفوقاً يذهب مذهب الجحود مثله ، ولا يؤله البتة أن يبارح هذه الحياة • المهم أن هناك أمراً أصبح ثابتاً هو أن ما بقى لى من حياة لا يزيد عن شهر ! فأنا مقتنع بأنه من هذه الناحية لم يخطئ •

« ولقد دهشت كثيراً حين حزر الأمير أننى أرى أحلاماً ثقيلة ،

وانتى اعانى أثناء النوم من كوابيس • فقال ما نصه حرفاً حرفاً « ان نتائج فرط احتياجى وأحلامى ستتغير فى بافلوفسك • لماذا تكلم عن أحلامى ؟ نعم ، انه طيب ، أو انه يملك فكراً ذا نفاذ خارق قادر على أن يحزر أموراً كثيرة (وأما أنه رغم كل شيء « أبله » ، فهذا لا مجال للشك فيه) • والحق اننى قبل وصوله بقليل كنت قد رأيت حلماً جميلاً (من تلك الأحلام التى أرى فى هذه الآونة مئات منها !) • كنت قد نمت قبل زيارته بساعة فيما أظن ، فرأيتنى فى غرفة ليست غرفتى • انها أرحب من غرفتى سعةً ، وأعلى سقفاً ، وأحسن أثاثاً ، ويدخلها النور • الأثاث يتألف من خزانة للملابس ، ومنضدة ذات أدراج ، وديوان ، وسرير • والسرير واسع عريض ، له غطاء أخضر من حرير مضلّع • وانى لفى هذه الغرفة اذا أنا أرى حيواناً مربعاً لا عهد لى بمثله ، فهو ليس من الحيوانات الطبيعية • انه يشبه عقرباً ، ولكنه ليس بعقرب • هو شيء أشنع من العقرب وأشنع وأدعى الى النفور وأبعث على الاشمئزاز • واعتقدت أن ثمة سرّاً فى عدم وجود حيوانات من هذا الجنس فى الطبيعة ، وفى أن واحداً منها قد ظهر عندى مع ذلك « خصيصاً » ! تفحصت الحيوان ملياً : هو نوع من الزواحف ، يكسوه درع كدرع السلحفاة داكن ، يبلغ طوله نحو عشرين سنتيمتراً ، ويبلغ سمك رأسه اصبعين ، ولكن جسمه يستدق تدريجياً حتى الذنب فلا يكاد يبلغ سمك ذيله نصف سنتيمتر • وعلى بعد خمسة سنتيمترات من الرأس تخرج من جسمه قدمان يبلغ طول كل منهما عشرة سنتيمترات ، وتنفرجان بزاوية قدرها خمس وأربعين درجة • فاذا نظرت من فوق ، ظهر لك الحيوان كله فى صورة من ذات ثلاثة أفرع • لم أر رأسه رؤية واضحة جداً ، ولكننى لاحظت فى الرأس مجسّين قصيرين جداً ، دكناوين هما أيضاً ، يشبهان ابرتين ضخمتين • وفى آخر الذيل يرى مجسّان مائلان ، وكذلك فى نهاية كل قدم •

فيكون مجموع المجسّات ثمانى • وكان الحيوان يجرى جرياً سريعاً جداً في أرجاء الغرفة كلها ، مستعيناً بقدميه وذنبه ؛ وفيما هو يجرى ، يتلوى جسمه وتتلوى أعضاؤه كحكة من الحيات بسرعة خارقة ، رغم الدرع الذى يكسو ظهره • منظر مروّع رهيب • خفت خوفاً فظيماً من أن يلسعنى هذا الحيوان ، فقد قيل لى انه سام • غير أن ما كان يعذبني أكثر من أى شيء آخر هو أن أعرف من الذى أرسله الى غرفتي ، وما هي المكيدة التي تُدبّر لى ، وماذا وراء هذا السر • وكان الحيوان يختبئ تحت المنضدة ذات الأدراج ، وتحت خزانة الملابس ، ويعتصم بأركان الغرفة • جلست على كرسى وثيت ساقىّ تحتى • وأسرع الحيوان يقطع الغرفة على مسار مائل ، ويختفى فى مكان ما قرب الكرسى الذى أجلس عليه • بحثت عنه بعينىّ مرتاعاً ، لكننى وقد جعلت ساقىّ تحت جسمي ، كنت آمل أن لا يتسلق الكرسى • فاذا أنا أسمع ورائي زفيراً خفيفاً قرب نقرتي • فالتفت فاذا أنا أرى الحيوان الزاحف يتسلق الجدار • وكان قد وصل من تسلقه الجدار الى مستوى رأسى ، حتى لقد لامس شعري بذنبه الذى كان يتموج بخفة قصوى • فما كان منى إلا أن وثبت ، فاخفتى الحيوان الغريب • لم أجرو أن اضطجع على السرير ، خشية أن يتسلل فيندس تحت المخذة • وعندئذ دخلت الغرفة أُمى وامرأة أخرى من صاحباتها لا أعرفها • وأخذتا تطاردان الحيوان الزاحف • كانتا أهدأ منى ، بل كان لا يظهر عليهما أى رعب ، ولكنهما لم تفهما من الأمر شيئاً • وفيجأة ظهر الحيوان العجيب من جديد • فكان فى هذه المرة يزحف بحركة بطيئة جداً كأنه يضمّر نية خاصة • ان تلوياته التي تنم على قلة الاكرات تزيد منظره الآن بشاعة ، وتجعله أبعث على الاشمئزاز • وقطع الغرفة من أولها الى آخرها كالمرّة الأولى ، متجهاً نحو العتبة • وفى تلك اللحظة فتحت أُمى الباب ، ونادت كلبتنا نورما • ان نورما كلبه

سوداء جعداء الشعر ، ماتت منذ خمس سنين • هرعت الكلبة الى الغرفة ووقفت أمام الحيوان كالتجمدة رعباً ، وتوقف الحيوان هو أيضاً عن التقدم ، لكنه ظل يتلوى ويضرب أرض الغرفة بقدميه وطرف ذيله • ان الحيوانات لا تستبد بها مخاوف غيبية فيما أظن • ولكن بدا لي في تلك اللحظة أن في ارتباك نورما شيئاً غريباً كل الغرابة ، غيبياً الى أبعد الحدود • فكأنها أدركت مثلي أن ظهور هذا الحيوان أمر يشتمل على سر وينذر بشؤم • فتقهقرت ببطء بينما أخذ الحيوان يتقدم محاذراً بخطى محسوبة معدودة • كانت هيئته تدل على أنه يستعد للثوب على الكلبة من أجل ان يلسعها • ولكن نورما ، رغم ذعرها ورغم أن جميع أعضائها كانت ترتعش ارتعاشاً قوياً ، حدثت الى الحيوان بعينين تفيضان حقناً • وأخذت في لحظة من اللحظات تكشف عن أنيابها الموجهة الرهية شيئاً بعد شيء ، ثم فتحت بوزها الضخم الأحمر ، ووثبت الى أمام ، فانقضت على الحيوان بعزم شديد ، وتلقفته بأسنانها • ويبدو ان الحيوان بذل جهداً كبيراً من أجل أن يخلص نفسه ، لأن نورما انقضت عليه ثانية وتلقفته بفكيها مرتين كأنها تحاول أن تبلعه • وقرقع الدرع متكسراً تحت أسنانها ، وظل ذيل الحيوان وقدماه في خارج فمها تتحركان تحركاً مرعباً • وفجأة صرخت نورما صرخة توجع وشكوى • فقد استطاع الحيوان أن يلسع لسانها رغم كل شيء • وانفجرت أنياب الكلبة وهي تن من الألم ، فرأيت الحيوان في فمها شبه مهشم وما يزال يتخبط • ومن جسمه المتور يسيل على لسان الكلبة سائل أبيض غزير يشبه السائل الذي يخرج من خنفساء حين تسحق ... وفي تلك اللحظة انما استيقظت من نومي ودخل على الأمير •

هنا قطع هيوليت قراءته فجأة وكأنه يشعر بخجل :

— اننى أيها السادة لم أرجع المقالة ، ويخيل الى اننى ضمنيتها

أشياء كثيرة لا داعي اليها ولا فائدة منها ، اعترف بذلك !... ان هذا الحلم ...

فأمرع جانبا يقول :

- اعترافك صحيح .

- انتى أسلّم بأن ههنا احساسات شخصية كثيرة مسرفة فى الكثرة ... أقصد : احساسات لا علاقة لها الا بشخصى ...

حين قال هيبوليت ذلك كان يبدو عليه الاعياء والارهاق ، وكان يجفف عرق جبينه بمنديله +

قال ليديف بصوت صافر :

- صحيح أيها السيد ! انك مفرط فى الاهتمام بنفسك !

- ولكنى أعود فأكرر أيها السادة أنتى لا أجبر أحداً على الاصغاء فالذين لا يريدون أن يسمعوا يستطيعون أن ينسحبوا ...
جمعهم روجوين يقول بصوت لا يكاد يُدرك :

- يطرّد الناس ... من بيت غيره !

وانبرى فردشتشنيكو يقول بعد أن لم أن يتجاسر أن يرفع صوته حتى ذلك الحين :

- فما قولك اذا نهضنا جميعاً لنصرف ؟

فخفض هيبوليت عينيه وأمسك مخطوطته + ولكنه لم يلبث أن رفع رأسه فوراً + كانت حدقاته تسطمان ، وكانت وجنتاه مصطبغتين ببقعتين حمراوين + حدّق الى فردشتشنيكو وقال له :

- أمت لا تحبى البتة !

فانطلعت ضحكات ، لكن أكثر الحضور لم يستجيبوا لها + واحمر هيبوليت احمراراً رهيباً +

قال الأمير :

— يا هيووليت ، 'لم' أوراقك واعطينها • واذهب الى النوم ، هنا في غرفتي • سنتحدث قبل أن ننام وسنستأنف الحديث غداً ، ولكن على شرط أن لا تعود الى هذه الأوراق • هل تريد ؟

قال هيووليت وهو يلقي عليه نظرة تعبر عن الدهشة حقاً :

— أهذا ممكن ؟

وأضاف يقول صائحاً وقد استبدت به نوبة جديدة من احتياج

محموم :

— أيها السادة ، لم يكن ما قرأته عليكم الا جزءاً عرضياً تافهاً من قصتي ، جزءاً لم أستطع أن أسيطر فيه على نفسي وأتحكم بقلمى • لن أقطع قراءتى بعد الآن • فمن أراد أن يصنع فليصنع ...

قال ذلك وأسرع يبلع جرعة ماء ، ويضع كوعيه على المائدة ليتحاشى النظرات ، واستأنف يقرأ فى عناد • على أن خجله لم يلبث أن تبدد • •
« ان الفكرة التى تذهب الى أن الحياة التى لن تدوم الا بضعة أسابيع لا تستحق من المرء أن يحياها ، انما أخذت تحاصرني منذ شهر فيما أظن ، وذلك حين أصبحت أقدر أنني لم يبق لى من الحياة الا أربعة أسابيع • ولكنها لم تستحوذ على استحواذاً كاملاً الا منذ ثلاثة أيام ، فى ذلك المساء الذى عدت فيه من بافلوفسك •

« لقد شعرت بنفاذ هذه الفكرة الى أعماق أعماق نفسى أول مرة ، يوم كنت جالساً على الشرفة فى بيت الأمير فقررت أن أجرب الحياة تجربة أخيرة • كنت قد أردت أن أرى الناس والأشجار (لنسلم باننى أنا الذى استعملت هذا التعبير) • وكنت قد تحمست مدافساً عن بودروفسكى « قريبي » ، متوهماً أن جميع الحضور سيفتحون لى أذرعهم

ويعاقوننى ، وأنهم سيسألوننى الصفح والعتو ، وأنتى سأسألهم مثل ذلك أيضاً . باختصار : لقد انتهت من كلامى غيباً بليداً بلا عبقرية . وعندئذ انسا انكشفت فى نفسى ذلك « الاقتناع الكامل » . وانى لأسألك الآن كيف أمكن أعيش ستة أشهر بكاملها دون أن يتحقق لى ذلك « الاقتناع » ! لقد كنت أعلم علم اليقين اننى مصاب بسيل لا شفاء منه ؛ لم أكن مأخوذاً بوهم الصحة والعافية ، بل كنت أرى حالتى رؤية واضحة لكننى كنت ازداد نهماً الى الحياة على قدر ازدياد الوضوح فى معرفة واقعى ورؤية حالتى . كنت أنشئت بالحياة مزيداً من التشبث ، وكنت أريد أن أطيلها على أى نحو من الأنحاء . اعترف باننى لعلنى سخطت حينذاك على القدر الغاشم المظلم ، الذى كان أعمى عن رؤية وضعى وكان أصم عن سماع صوتى ، والذى قرر - لا أدرى لماذا - أن يسحقنى سحق ذبابة . ولكن لماذا لم أكتف بالسخط وحده ؟ لماذا « بدأت » أعيش فعلاً ، مع أننى كنت أعلم أن ذلك غير مباح لى ؟ لماذا انقذت لتلك المحاولة وأنا أعرف أنها لن تثمر ؟ ومع ذلك انتهى بى الأمر الى أن أصبحت لا أستطيع أن أقرأ كتباً ، وعدلت عن القراءة . علام أقرأ ؟ علام أتعلم ولم يبق لى من الحياة الا ستة أشهر ؟ ان هذه الفكرة قد جعلتنى أرمى عدة مرات الكتاب الذى بدأت قراءته .

« نعم ، ان حائط منزل ماير ذاك يستطيع أن يحدث طويلاً عن هذه الأمور . لقد طبعت عليه أشياء كثيرة . ليس على هذا الحائط القذر بقعة واحدة الا حفظتها على ظهر القلب وصرت أعرفها بالذاكرة . يا للحائط النحس ! ومع ذلك فهو أغلى فى نفسى وأحب الى قلبى من جميع أشجار بافلوفسك ، أو قل لا بد أن يكون كذلك لولا أن جميع الأمور أصبحت فى نظرى سواء !

« اننى أنذكر الآن شدة اهتمامى الشره النهم بمتابعة حياتهم «هم» .

لم أشعر قبل ذلك بمثل ذلك الفضول في يوم من الأيام • حتى لقد كنت أنتظر عودة كوليا على أحرّ من الجمر من نفاذ الصبر وشدة الغضب في بعض الأحيان ، أيامَ بلغ بي المرض حداً أقعدني عن الخروج فلا أستطيع أن أغادر غرفتي • وأخذت أتسقط التفاصيل الصغيرة تسقطاً يبلغ من الشراهة ، وأهتم بالأقاويل النافهة اهتماماً يبلغ من القوة ، اننى أصبحت فيما أعتقد كواحد من أولئك الذين يروّجون الشائعات ويذيعون النمام • كنت لا أفهم مثلاً كيف لا يظفرون بالنقى والثراء (والحق اننى الى الآن لا أفهم حياة ، كيف لا يظفرون بالنقى والثراء) والحق اننى الى الآن لا أفهم هذا) • لقد عرفت رجلاً عجيباً مسكيناً قيل لى ، فيما بعد ، انه مات من الجوع • اننى لا أنذكر كيف أن هذا النبأ أثار غضبى وأخرجنى عن طورى ، فلو بُعث ذلك الشقى حياً لا نقضت أجهز عليه فى أغلب ظنى •

« كان يتفق لى فى بعض الأحيان أن أشعر بتحسن فى صحتى خلال أسابيع طويلة ، فاستطيع أن أنزل الى الشارع • غير أن الشارع أصبح يثير حنقى حتى صرت أقبع فى بيتى بارادتى أياماً كاملة ، رغم أننى كان فى وسعى أن أخرج كما يخرج سائر الناس • أصبحت لا أطيق أن أرى أولئك الخلق الذين يسعون ويضطربون من حولى على الأرصفة ، ويفغرون ويغنون ، مهمومين مغمومين دائماً ، متجهمين قلقين بغير انقطاع • علام يحزنون هذا الحزن السخيف المستمر ، ويضطربون هذا الاضطراب الباطل المتصل ، ويعبسون ذلك العبوس الحائق الذى لا يهدأ ولا يسكن (ذلك أنهم أشرار ، أشرار ، أشرار) ؟ من المذنب اذا هم كانوا أشقياء تمساء ، واذا هم كانوا لا يعرفون كيف يحيون ، مع أن آفاق أملهم فى الحياة تمتد ستين عاماً الى أمام ؟ لماذا رضى زارتسين أن يموت جوعاً ، مع أن أمامه ستين سنة يمكن أن يعيشها ؟ وهذا كل واحد يبدى أسامه الرثة ويظهر يديه الكنباوين فيغضب ويصيح متشكياً : « ها نحن أولاء نعمل

كما تعمل الأبقار ، وتعب وتنصب ، ونجوع ونسغب كالكلاب ، ونجر
 معنا البؤس جراً ، بينما يوجد أناس آخرون لا يعملون ، ولا يحملون
 أنفسهم أى عناء ثم هم أغنياء ! (الأغنية الأبدية !) وعلى موازاة هؤلاء ،
 يسمى ويركض ويتحرك ويضطرب ، من الصباح الى المساء ، كادح
 بائس ، متغضن الوجه ، لكنه « نيل المحتد » هو ايفان فومتش سوريكوف
 القاطن فى الطابق الذى يقع فوق طابقنا من المنزل . ان كوعى كميه
 متقن دائماً ، وان أضرار ملاپسه مغلطة . وهو يتولى عن الناس شراء
 ما يكلفونه بشرائه لهم ، ويقوم بأعمال لا أدري ما هى ، وينفق فى ذلك
 يومه كله من الصباح الى المساء . حاولوا أن تتحدثوا معه : سوف يقول
 لكم انه « فقير ، بائس ؟ وان زوجته ماتت لأنه لم يجد ما يشتري لها به
 دواء ، وان ابنه الصغير مات فى الشتاء متجمداً من البرد ؟ وان ابنته
 الكبرى تلمس رزقها عند الرجال » انه يئن ويتوجع ، ويشكو
 ويبكى بغير انقطاع . آه اننى لم أشعر بأية شفقة ، لا فى ذلك الحين ،
 ولا فى هذا الوقت ، نحو هؤلاء الأغنياء الحمقى وأقول هذا فخوراً
 معتزلاً ! لماذا لا يكون هذا الفرد رجلاً مثل روتشيلد ؟ من المذنب اذا كان
 لا يملك ملايين مثل روتشيلد ، اذا كان لا يملك جبلاً من الدنانير
 الامبراطورية * أو من الليرات الذهبية التابوليونية ، جبلاً لا يقل ارتفاعه
 عن ارتفاع الجبل الذى نراه فى المعرض أثناء الكرنفال ؟ ما دام قادراً
 على أن يرحب ، فان كل شى فى طاقته . من المذنب اذا كان لا يفهم ذلك ؟
 « آه لقد تساوت فى نظرى جميع الأمور الآن ، ولم يبق فى
 وقتى متسع لأن أغضب . أما فى ذلك الحين ، فقد كنت ، كما سبق أن
 قلت ذلك ، اعرض على وصادتى حقناً ، وأمزق غطائى سخطاً وغيطاً .
 آه يا للحلم الذى كنت أحلمه حينذاك ، ويا للأمنية التى كنت
 أتمناها ! لقد كنت أتمنى راضياً مسروراً أن أرمى الى الشارع فوراً ، وأنا

فى الثامنة عشرة من عمرى ، أن أرمى شبه عار لا يكاد يسترنى شيء ، وأن أترك وحيداً وحدة مطلقة ، بلا مسكن ولا عمل ولا لقمة عيش ، ولا أهل ولا صاحب واحد ، ولا أى انسان أعرفه ، فى المدينة الكبيرة ، جائعاً مضروباً (لا بأس ! ...) ، ولكن صحيح الجسم غير مريض .

« ما الذى كان يمكننى أن أظهره فى تلك الحالة ؟ »

« آه ... هل تتصورون أننى لا أعى مدى الانحطاط والاسفاف الذى بلغته قبل أن أقول هذا الكلام فى « الشرح » الذى أقدمه ؟ فمن ذا الذى لا يعدنى والحالة هذه فى ساذجاً غراً ، غريباً عن الحياة ، ناسياً أن عمرى ليس ثمانى عشرة سنة فحسب ، لأن الذى يحيا كما حيت خلال هذه الأشهر الستة انما يكون قد عاش الى السن الذى يشيب فيها الشعر ؟ ولكن اسخروا اذا شاء لكم هواكم أن تسخروا ، وانظروا الى هذه الأشياء كلها نظرتكم الى حكايات ! وما هى فى الواقع الا حكايات حكيتها لنفسى ، فعلاأت بها لىالى بكاملها ، وانى لاتذكرها الآن جميعها . »

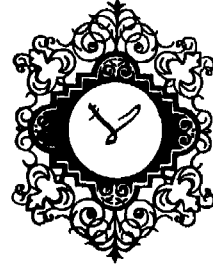
« ولكن هل يجب على أن أكررها الآن بعد أن انقضى عهد الحكايات حتى بالنسبة الى ؟ ولمن أكررها ؟ لقد تلذذت بها حين رأيت بوضوح اننى ممنوع حتى عن دراسة قواعد النحو اليونانى التى خطر ببالى أن أدرسها ؛ فحين قدّرت اننى سوف أموت قبل أن أصل الى تعلم الأعراب ، توقفت عن القراءة منذ الصفحة الأولى ورميت الكتاب تجد المائدة . وبقي الكتاب راقداً هنالك . وحظرت على ماتريونا أن تشيله . »

« ان من ستقع مقالتى هذه بين يديه ، فيصبر على قراءتها حتى النهاية ، قد يعدنى مجنوناً ، أو قد يظننى تلميذاً فى المدرسة الثانوية ، أو لعله يتصور اننى رجل محكوم عليه بالاعدام يتراعى له بحق أنه مامن انسان غيره يقدر الحياة حق قدرها ، وأن البشر يعيشون الحياة ويددونها

بكثير من الحفة والطيش ، وأنهم يستمتعون بها غير واعين ، وغير مباليين أو
مكثرين ، وأن الملاّ جميعاً ، من أولهم الى آخرهم ، ليسوا اذن جديرين
بها ، وليسوا يستحقونها . فماذا أقول ؟ اننى أعلن أن هذا القارئ
سيخطئ اذا هو اتقاد لهذا الظن ، وأن آرائى ليست متأثرة أى تأثر
بكونى محكوماً علىّ بالموت ! اسألوهم ، اسألوهم فقط ، اسألوهم جميعاً
بغير استثناء كيف هم يتصورون السعادة ، كيف هم يفهمون السعادة ؟
آه .. تقوا أن كريستوف كولومب لم يكن سعيداً حين اكتشف أمريكا ،
بل حين أشرف على اكتشاف أمريكا ، حين كان على وشك أن يكتشفها .
كونوا على يقين من أن لحظة سعادته القصوى كانت قبل اكتشافه العالم
الجديد بثلاثة أيام ، أى حين استبد اليأس بصحبه فتمردوا وأوشكوا أن
يرجعوا أدراجهم الى أوروبا . لم يكن المقصود هو العالم الجديد . لقد
مات كولومب وهو لمّا يكد يراه ؟ وهو لم يعرف فى حقيقة الأمر ماذا
اكتشف . فانما الأمر المهم هو الحياة ، الحياة وحدها ... هو البحث
المتصل عن الحياة ، هو السعى الأبدى الى الحياة ، وليس هو اكتشاف الحياة !
ولكن علام هذا الهذر ؟ أغلب ظنى أن هذا الكلام له من مظهر الأمور
المعروفة الشائعة المبذولة ما لعله يجعل القارئ يعتقد أن مثلى كمثّل تلميذ
فى الصفوف الدنيا من مدرسة ثانوية مكلف بكتابة موضوع انشاء عنوانه
« طلوع الشمس » . سوف يُقال اننى ربما أردت أن أعبر عن شئ ما ،
لكننى رغم كل رغبتى لم أظفر بأن « أشرح » ما بنفسى . ومع ذلك فاننى
أضيف أن كل فكرة عبقرية ، وأن كل رأى جديد بل وكل رأى جاد
ينشأ فى دماغ انسان ، أقول ان كل شئ من هذا القليل انما يشتمل على
بقية لا يمكن نقلها الى الآخرين ولو وقف المرء على محاولة الافصاح عنها
كتاباً بكاملها ، أو ظل يقلّب الأمر على وجوهه مدة خمسة وثلاثين عاماً .
ان تلك البقية لن تخرج من رأسك بأى حال من الأحوال ، بل ستظل

باقية فيه أبد الآبدين • ستموت أنت قبل أن تستطيع نقلها الى أحد ،
وربما كانت هي التي تشتمل على الشيء الجوهري من تفكيرك • فإذا لم
أستطع أنا أيضاً أن أجعلكم تشعرون الآن بكل ما قاسيته خلال تلك
الأشهر الستة ، فسوف تفهمون على الأقل اننى لعلنى دفعت غالباً ثمن
ذلك « الاقتناع الكامل » الذى وصلت اليه الآن • ذلكم ما اعتقدت أن من
الضرورى أن أوضحه فى هذا « الشرح » الذى أقدمه اليكم لغاية أعرفها •
« ولكن هأنذا أعود الى مجرى قصتى •

الفصل السادس



أريد أن أكذب • ان الواقع قد أمسكنى عدة مرات فى أثناء هذه الأشهر ، فجرفنى جرفاً يبلغ من القوة أنه أنساني موتى المحتم ، أو قل جعلنى لا أريد أن أفكر فيه وجعلنى أشرع فى العمل •

وسأصف الآن ، فى هذه المناسبة ، ظروف حياتى حينذاك • منذ قرابة ثمانية أشهر ، عندما تفاقم مرضى قطعت جميع علاقاتى وكففت عن رؤية رفاقى القدامى • واذ كان مزاجى مظلماً حزيناً على الدوام ، فان رفاقى أولئك لم يصعب عليهم أن ينسونى • وعلى كل حال ، كان يمكن أن ينسونى ولو لم أتصف بذلك المزاج المظلم الحزين • أما حياتى فى البيت ، أى « مع الأسرة » فقد كانت حياة اعتزال وانزواء • لقد أغلقت على نفسى الباب منذ نحو خمسة أشهر ، واعتزلت ذوىّ اعتزالاً كاملاً • وكانوا قد اعتادوا طاعة رغباتى والرضوخ لارادتى ، فكان لا يأذن أحد لنفسه بأن يدخل الى غرفتى ، الا فى ساعات محدّدة معينة لتنظيفها وترتيبها ، ولاثنائى بطعامى • كانت أمى ترتعش أمام أوامرى ، ولا تجرؤ حتى أن تبكى وتدمع بحضورى اذا اتفق لى فى بعض الأحيان أن قررت السماح لها بالدخول علىّ • وكانت تضرب الأولاد دائماً حتى لا يحدثوا ضجة فيزعجونى • نعم ، هذه هى الحقيقة • كثيراً ما كنت أشتكى من صراخهم ، اننى أخيل مدى الحب الذى لا بد أنهم يضمرونه لى الآن ! وأعتقد كذلك اننى عذبت كثيراً صاحبى « كولىا الأمين » ، (هذا هو اللقب

الذى خلعه عليه) ولقد ثار منى فى الآونة الأخيرة فعذبني هو أيضاً :
 ان ذلك فى طبيعة الأمور ، فالناس انما خُلِقُوا ليعذب بعضهم بعضاً . ومع
 ذلك لاحظت أنه كان يتحمل مزاجي السيء ، كمن آلى على نفسه أن
 يدارى مريضاً . وقد أحققتى ذلك بطبيعة الحال . وأحسست أيضاً أنه
 قد قرر أن يقلد عقيدة « المذلة المسيحية » التى يعتقها الأمير ، وكان لا بد
 أن يبدو هذا سخيلاً مضحكاً بعض الشيء . ان هذا الفتى تزخر نفسه
 بحماسة الشباب ؟ فلعله يقلد كل ما يقع عليه بصره . ولكن بدا لى
 أحياناً أنه قد أن الأوان لأن يجعل من نفسه شخصية لها استقلالها . اننى
 أحبه كثيراً . وقد عذبت أيضاً سوريكوف ، الذى يقطن فوق مسكننا ،
 والذى يقضى يومه كله ، من الصباح الى المساء ، فى القيام بمهام يكلفه
 بها الناس ! لقد انققت وقتاً طويلاً فى محاولة افهامه أن شقاه لا يرجع
 سببه الا اليه وحده ، فخاف فى النهاية حتى أصبح لا يضع قدميه فى غرفتي
 أبداً . انه انسان شديد المذلة جداً . (حاشية : يزعم بعضهم أن المذلة
 قوة هائلة . يجب أن أسأل الأمير توضيحاً لهذا الكلام ، لأنه هو صاحب
 هذا التعبير) . ولكن حين صعدت اليهم فى شهر آذار (مارس) لأرى
 كيف تركوا ابنهم الصغير يموت «متجمداً» من البرد كما قالوا ، ابتسمت
 أمام جثة الطفل بغير ارادة ، وعدت أشرح لسوريكوف «أنه هو المذنب» .
 عندئذ أخذت شفتا الرجل المسكين الهزيل ترتعشان فجأة ، ثم وضع يده
 على كتفى وأشار بيده الأخرى الى الباب قائلاً لى « أخرج يا سيدى ! » .
 قالها برفق وهدهوء ، بصوت يشبه أن يكون همساً . فخرجت . وأعجبتنى
 فعلتى كثيراً ، أعجبتنى حتى بعد أن طردت . ومع ذلك ظلت كلماته
 خلال مدة طويلة ، تحدث فى نفسى كلما تذكرتها أثراً غريباً أليماً ،
 يشبه أن يكون شعوراً بشفقة مزدرية نحوه ، وهو شعور كنت أتمنى أن
 لا أحسه . ان هذا الرجل كان عاجزاً عن الغضب حتى حين أهين تلك
 الالهة (أنا أشعر فعلاً بأننى أهنته ، دون أن أقصد ذلك أو أتو به) .

واذا كانت شفتاه قد اخذتا تختلجان فان ذلك لم يحدث له بتأثير الغضب ،
أحلف لكم !... لقد أمسك ذراعى ونطق بجملته الرائعة دون أى
غضب : « اخرج يا سيدى ! » كان فى تلك اللحظة زاخراً بالكرامة ،
حتى ان تلك الكرامة كانت تتعارض مع جملة هيئته (وكان فى هذا ما يبعث
على الضحك فى الواقع) لكن نفسه لم تنطو عندئذ على أى غضب أو
حق . لعله شعر نحوى باحتقار مفاجئ . ولقد لقيته بعد ذلك مرتين أو
ثلاث مرات على سلم المنزل . فكان يسارع الى تحيتى برفع قبعته ، وذلك
ما لم يكن يفعله من قبل قط ؛ ولكنه أصبح لا يقف لى كما كان يقف
فى الماضى ، وانما هو يمر بجانبى مسرعاً خجلاً مضطرباً . فهو اذا كان
يحقرنى انما يحقرنى على طريقته ، أى يحقرنى بنوع من « المذلة » .
ولعله كان لا يرفع لى قبعته محياً الا من قبيل الخوف والحشية ، لأننى ابن
دائته : فهو مدين لأمى دائماً بمبلغ من المال ، وهو عاجز عجزاً مطلقاً
عن سداد دينه . ربما كان هذا الاقتراض أقرب الى الصحة . وقد خطر
بألى أن أناقشه فى الأمر . انى لعلى يقين من أنه كان سيسألنى العفو
والمغفرة لو فعلت . لكننى فكرت فرأيت أن من الأفضل أن أدعه وشأنه .

« فى تلك الفترة ، أى فى نحو منتصف شهر آذار (مارس) ،
حين ترك سوريكوف ابنه « يتجمد » من البرد ، شعرت أنا بتحسن كبير
فى صحتى ، ودام هذا التحسن قرابة أسبوعين . فأخذت أخرج ، عند
هبوط الليل فى أكثر الأحيان . اننى أحب ساعات الغسق فى شهر آذار
(مارس) ، حين يبدأ التجلد ويُسْعَلُ الغاز . وكنت أوغل فى نزهاتى
مسافات بعيدة أحياناً . ففى ذات يوم ، مرّ أمامى فى الظلام ، بشارع
« الدكاكين الستة » ، شخص يبدو من هيئته أنه سيد ، لكننى لم اتبين
ملامحه تيناً واضحاً . كان يحمل صرة ملفوفة بورق ، وكان يرتدى
معطفاً عتيقاً مهترئاً ، عدا أنه معطف خفيف فى مثل ذلك البرد الذى كان

يسود الجو . فلما وصل الى قرب أحد مصابيح الشارع ، رأيت شيئاً يسقط من جيبه . فأسرعت أتناول الشيء الذى سقط ، أسرعت أتناوله فى الوقت المناسب ، ذلك أن شخصاً يرتدى قفطاناً طويلاً كان قد هرع يريد تناوله ، فلما رأى أنه صار فى حوزتي ، لم يحاول أن ينافسني واكتفى بأن ألقى نظرة على يدي ثم مضى فى سبيله . كان ذلك الشيء محفوظة أوراق من جلد ، كبيرة الحجم قديمة الطراز ، محشوة بأوراق كثيرة حتى لتكاد تنبعج ؛ لكننى حذرت على الفور - لا أدري كيف ! - ان المحفظة قد تحتوى كل شيء الا المال . كان الرجل الذى سقطت منه المحفظة قد أصبح على مسافة أربعين خطوة أمامي ، فلن يلبث أن يغيب عني فى زحمة الجمهور . فركضت وراءه أناديه . ولكن لما كنت لا أستطيع أن أناديه الا بصرخة « هيه ! » ، فانه لم يلتفت . وغار فجأة على اليسار فى بوابة عمارة من العمارات . فلما وصلت الى تلك البوابة التى كان يخيم فيها ظلام حالك ، لم أجد هنالك أحداً . ان العمارة واحدة من تلك المباني الضخمة التى يشيها التجار جاعلين منها عدداً كبيراً من المساكن الصغيرة . حتى ان بينها مباني تضم الواحدة منها مائة مسكن .

« حين اجتزت بوابة العمارة خيل الى اننى ألتح فى الزاوية اليمنى من قرارة فناء واسع رجلاً كان يتمد ، لكن الظلمات جعلتني لا أرى أكثر من ذلك . فركضت حتى بلغت تلك الزاوية ، فاكشفت وجود مدخل لسلم ضيق قدر جداً ، بغير اضاءة . واذا سمعت أصوات وقع أقدام فى أعلى ، فأدركت أن شخصاً يرقى السلم اندفعت أصعد أملاً أن أدرك أثره حين يفتح له الباب . وذلك ما حدث . ان فسحات السلم متقاربة جداً ، ولكن عددها بدا لى بغير نهاية ، حتى لقد تقطعت أنفاسي من شدة التعب بالركض . وسمعت صوت باب يفتح وينلق فى الطابق الخامس . سمعت هذا حين كنت ما أزال تحت الطابق الخامس بثلاث

فسحات • فقضيت بضع دقائق حتى بلغت الطابق الخامس واسترددت أنفاسي ويحث عن جرس الباب • فجاءت تفتح لي امرأة كانت بسيل اضرام النار في السماور بمطبخ صغير مفرط في الصغر • فاستمعت الى أسئلتي صامتة ، ولا شك أنها لم تفهم منها شيئاً ، لكنها ادخلتني الى غرفة مجاورة دون أن تفتح فيها بكلمة واحدة • هي غرفة صغيرة جداً ، منخفض سقفها انخفاضاً شديداً ، ولا يشتمل أثاثها الفقير الا على الضروري الذي لا بد منه ولا غنى عنه •

« كان يرقد على سرير عريض ذي أسجاف رجل نادته المرأة باسم « تيرتتش » ، وبدا لي ثملاً • وكان ثمة بقية من شمعة تشتعل قرب منصدة في شمعدان من حديد ، الى جانب قينة من الفودكا توشك أن تكون فارغة • نطق تيرتتش ببضعة أصوات غير جلية يخاطبني بها ، ويومئ لي بيده الى غرفة مجاورة ، دون أن ينهض • كانت المرأة قد غابت ، فلم يبق لي الا أن أدفع ذلك الباب • وذلك ما فعلته : فتحت الباب الذي دلتني عليه ودخلت الى الغرفة المصاصة •

« ان هذه الغرفة الأخرى أقل سعة وأكثر ازدحاماً من الغرفة الأولى ، حتى انني لم أعرف كيف أستطيع التحرك فيها • كان في الزاوية سرير ضيق يكاد يملأ الغرفة كلها • أما باقي الأثاث فلا يعدو ثلاثة كراسي عادية تكدست عليها أنواع شتى من الأسمال البالية والأطمار الخلقية ، ومائدة غليظة من موائد المطابخ وضعت أمام ديوان عتيق مغطى بقماش مشمّع ، وقد تقاربت هذه الأشياء كلها تقارباً يكاد يكون التصاقاً ، فلا يدرى المرء كيف يتسلل بين المائدة والسرير •

« وعلى المائدة كانت تشتعل شمعة في شمعدان من حديد يشبه شمعدان الغرفة الأخرى ؛ وثمة طفل وليد لا يكاد يتجاوز من عمره ثلاثة أسابيع كان يصرخ راقداً على السرير ، وبقره امرأة مريضة شاحبة

كانت « تنفير » له أو قل تعيد تقييطه • ان المرء يدرك أنها خارجة من فترة النفاس • أما الطفل فهو لا ينقطع عن الصراخ ، بانتظار ندى أمه الهزيل • وعلى الديوان كان ينام طفل آخر ، هو بنت في السنة الثالثة من عمرها قد أُلقي عليها رداء يوحى منظره بأنه « فراك » • وقرب المائدة كان يقف رجل يرتدى رندجوتاً مهترئاً متسلاً (كان الرجل قد خلع معطفه ووضعه على السرير) ، وهو بسيل فضّ صرّة ملفوفة بورق أزرق فيها رطلان من خبز أسود وقطعتان صغيرتان من مقانق • وكان على المائدة أيضاً ابريق شاي ملآن ، وبقايا خبز أسود • وتحت السرير يستطيع المرء أن يرى حقيبة مفتوحة ورزمتان محشوتان أسماًلاً •

« الخلاصة : فوضى رهية ! وقد أوحى الى السيد والسيدة منذ النظرة الأولى أنهما شخصان محترمان ، وليكن الفقر المدقع هو الذى هوى بهما الى هذه الحالة من التردى التى تصبح الفوضى فيها أمراً مفروضاً يكف المرء عن مقاومته ثم يألفه ويعتاده ، وينتهى به الأمر لا الى العجز عن الاستغناء عنه فحسب ، بل كذلك الى أن يجد فى تزايد يوماً بعد يوم لذة مريرة من لذائذ الانتقام لا أدرى ما هى !

« كان السيد حين دخلت بعيد دخوله يفض حزمة ما اشتراه من طعام ويتحدث الى امرأته بلهجة فيها كثير من احتياج الأعصاب • ولم تكن السيدة قد فرغت من تقييط الوليد ، وكانت قد أخذت عيناها تدمعان بكاء • من الجائز أن الأباء التى حملها اليها زوجها كانت سيئة كالعادة • وظهر لى السيد رجلاً محترماً يطمأن اليه بل ويؤنس به • انه فى نحو الثامنة والعشرين من عمره ، اسمر اللون ، جاف البشرة ، محلوّق شعر الذقن ، الى الحيتين صغيرتين فى العارضين • كان مكفهر الوجه عابس النظرة ، ولكن على شئ من كبرياء مرّضية يسهل أن ثور • ولقد أحدث وصولي مشهداً غريباً •

• ان من الناس من يجدون فى احتياجهم لذة عظمى ولا سيما حين يبلغ هذا الاحتياج أعلى ذروة له (وهذا ما يحدث لهم بسرعة) ؛ حتى يمكن أن يقال ان ايداءهم واهاتهم فى مثل تلك اللحظة أحب اليهم من أن لا يلحق بهم أذى ولا تنزل فيهم اهانة • لكن هؤلاء الأشخاص الغضوبين يشعرون بعد ذلك بالآلم الندامة ، هذا اذا كانوا أذكياء طبعاً وكانوا قادرين على أن يدركوا أنهم اندفعوا اندفاعاً أقوى عشر مرات من الاندفاع الذى يقبله العقل •

• نظر الى الرجل خلال لحظة مذهولاً ، بينما كان وجه امرأته يعبر عن الفرع ، كأن ظهور كائن اسانى فى غرفتهم حادث رهيب ! ولكنه لم يلبث فجأة ، قبل أن يشع وقتى لأن أقول كلمتين ، لم يلبث أن هجم على بنوع من الحلق المسعور • لقد جرح شعوره كثيراً أن يرى رجلاً حسن الثياب لائق الهندام يسمح لنفسه بأن يدخل الى مسكنه الحقيقى بغير كلفة أو تحرج ، فيأخذ يتأمل بنظراته هذا البيت الحقيقى الذى يشعر هو نفسه منه بخجل وعار • ولا شك أن هذه الفرصة التى أتت له ، وهى أن يصب على شخص من الأشخاص ما كان يعمل فى نفسه من غضب سببه ضروب الاخفاق التى يعنى بها ، أقول لا شك أن هذه الفرصة قد أحدثت له لذة ؛ حتى لقد اعتقدت فى لحظة من اللحظات أنه سوف يضربنى • وقد شحب وجهه كشحوب وجه امرأة أصابتها نوبة هستريا ، فارتاعت زوجته من ذلك ارتياحاً شديداً •

• صرخ يقول مرتجفاً مرتشياً حتى ليكاد يعجز عن النطق بكلماته :

• - كيف تجاسرت أن تدخل هكذا ! اخرج !

• ولكنه سرعان ما رأى محفظته فى يدي •

• قلت بلهجة فيها أكثر ما يمكن من هدوء وجفاف (وتلك هى

اللهجة المناسبة فى هذا المقام على كل حال) :

« - أحسب أن هذه المحفظة قد سقطت منك •
 ظل الرجل واقفاً أمامي بعض الوقت مروّعاً مذعوراً كأنه لا يفهم شيئاً • ثم تلمّس جيبه بحركة سريعة ، وفتح فمه مشدوهاً ، ولطم جيبه ، وقال :

« - عثرت عليها ؟ كيف عثرت عليها ؟
 » فشرحت له بكلمات قليلة وبلهجة أكثر جفافاً كيف التقطت المحفظة بعد سقوطها منه ، وكيف ركضت وراءه نادياً إياه بغير طائل ، وكيف تعقبته صاعداً درجات السلم أربعاً أربعاً ، على غير هدى وبدون يقين ، وانما بنوع من الظن والتخمين •
 « صاح يقول متجهاً الى امرأته :

« - هذه أوراقى ! هذه آخر ما أملك من وسائل ! هى كل ما بقى لى !
 » وأضاف يقول لى :

« - آه يا سيدى !... هل تعلم ما أسديت الى من جميل ؟ لولا أنك عثرت لى على هذه الأوراق لضعت وهلكت !... »

« فى أثناء ذلك كنت قد أمسكت زر الباب لأخرج دون أن أجيّب ، لكننى شعرت باختناق وألمت بى نوبة سعال مفاجئة بلغت من القوة والشدة أننى أصبحت لا أكاد أستطيع الوقوف على قدمى ! ورأيت السيد يلتفت الى كل جهة ليجد لى كرسيّاً خالياً • ثم يعمد الى أحد المقاعد فينزح كل ما كان ملقى عليه من أطمار ويرميها الى الأرض ويجلسنى على الكرسي بسرعة ولكن على حذر • وطال سعالى ثلاث دقائق أخرى على الأقل • فلما ثبت الى نفسى كان جالساً بجانبى على كرسي آخر لا شك أنه أخلاه هو أيضاً مما كان عليه من أسمال ، وكان ينظر الىّ محدقاً •

« قال لى باللهجة التى يتكلم بها الأطباء عادة حين يواجهون مرضاهم :

« - ظاهر عليك أنك ... مريض ! انتى ... طيب * (لم يستعمل كلمة « دكتور ») *

« قال ذلك وأشار لى الى الغرفة كأنما ليحتج على ما هو فيه من ظرف خاص ووضع شاذ * وأضاف :

« - أرى أنك ...

« فقلت موجزاً وأنا أنهض :

« - أنا مريض بالسل ...

« فنهض هو أيضاً بوثبة * وقال :

« - لملك تبالغ ... انك اذا عاجلت مرضك ...

« لقد كان مضطرباً أشد الاضطراب فلا يستطيع أن يثوب الى نفسه * وكان يحمل المحفظة بيده اليسرى *

« قاطعته من جديد ، وأنا أمسك زر الباب :

« - لا تقلق ... لقد فحصنى الدكتور « ب ... ين » فى الأسبوع

الماضى ، ومسألتى واضحة (هنا أيضاً ذكرت اسم « ب ... ين ») معذرة !

« وأردت أن افتح الباب فأخرج تاركاً الطبيب خجلاً ممتناً يسحقه

الشعور بالعار ، لكن سعالى اللعين رجع يمسك بخناقى فى تلك اللحظة

نفسها * فعاد الدكتور يجلسنى وألحَّ علىَّ أن أرتاح * والتفت نحو

امراته فوجهت الىَّ امرأته بضع كلمات لطيفة عبّرت بها عن الشكر

والامتنان ، دون أن تتحرك من مكانها * وقد بلغت من اضطراب أثناء

ذلك أن خديها الجافين الحائل لونهما تخضبا بحمرة شديدة * وبقيت *

لكن هيئتي كانت هيئة من يريد أن يظهر في كل لحظة بمظهر من يخاف أن يكون وجوده مزعجاً (تلك هي الهيئة المناسبة للاتقة) • ولاحظت أن الندم قد أخذ يعذب صاحبي الدكتور آخر الأمر •

« بدأ يتكلم فقال وهو يقطع نفسه في كل لحظة قافزاً من جملة الى جملة قفزاً :

« لو أننى ••• أنا أشكر لك جميلك اجزل الشكر ••• وقد أسأت اليك اساءة بالغة ••• اننى ••• أنت ترى ••• (أراني الغرفة من جديد) ••• اننى الآن ••• فى وضع •••

« قلت :

« - كل شيء واضح • لا جديد فى الأمر • لعلك فقدت وظيفتك فجئت الى العاصمة تشرح أمرك وتلتمس وظيفة أخرى ، أليس كذلك ؟
« سألتى مدهوشاً :

« - من أين ••• عرفت هذا ؟

« قلت بلهجة ساخرة غير مقصودة :

« - هذا يرى من أول نظرة • كثير من الناس يصلون من الأقاليم بآمال كهذه الآمال • يبذلون جهوداً ويقومون بمساعٍ ، ويعيشون حياتهم هكذا ، يوماً يوماً •••

« فأخذ يتكلم بحرارة مفاجئة • وكانت شفاته تختلجان • يجب أن أقول ان شكواؤه وقصته قد أثرت فى نفسى • مكنت عنده قرابة ساعة • قصَّ علىَّ حكايته ، وهى لا تحوى شيئاً خارقاً على كل حال • انه موظف بالأقاليم فى خدمة الدولة ، وقع ضحية دسائس ومكائد اتهم فيها حتى اسم زوجته • ثارت كبرياؤه وتمردت أنفته وعيل صبره • وحدثت عندئذ

تنقلات في أعضاء هيئة الموظفين تناسب خصومه ، فأخذ خصومه يدسون الدسائس ويدبرون المكائد . وقدّمت في حقه شكوى . واضطر أن يترك وظيفته وأن يمضي بآخر ما يملك من مال الى بطرسبرج ليشرح أمره ، ويبرهن على براءته . وطال مكوثه ببطرسبرج قبل أن يظفر بمقابلة المسئول . ثم أُصنئى اليه ، ثم صُرف بخشونة ، ثم بُذلت له وعود ، ثم عومل بقسوة ، ثم أُمر بان يعرض قضيته كتابةً ، ثم رُفض استلام عريضته المكتوبة ، ثم طُلب منه أن يقدم التماساً ، الخ الخ . الخلاصة أنه ظل يركض خمسة أشهر أكل خلالها كل ما كان يملك من بقية مال ، حتى انه رهن أبواب زوجته الى آخر واحد منها . وفي تلك الآونة انما وُلد لهما ولد ! و . . . و . . . « اليوم أُبلغت رفض التماسي رفضاً حاسماً . لم يبق لي خبز ان صبح التعبير ، لم يبق لي شيء البتة ، وامرأتي ناهضة من نفاسها . انني . . . انني . . . »

وانتصب واقفاً على حين فجأة ، وأشاح وجهه . كانت امرأته تبكي في أحد الأركان . وعاد يصرخ . ففتحت دفتري الصغير وأخذت أدون فيه بضع كلمات . فلما فرغت من ذلك ونهضت ، رأيت مغروساً أمامي ينظر الى باستطلاع خائف . قلت له :

« - لقد دونت اسمك وسائر الأمور : المكان الذي كنت تعمل فيه ، واسم حاكم الاقليم ، والتواريخ والأشهر . ان بين رفاقي في المدرسة شاباً اسمه باخموتوف ، وعمّه مستشار دولة ومدير قسم ، هو بطرس ماتفتشش باخموتوف . . . »

« هتف الطبيب يقول بنوع من الارتجاف :

« - بطرس ماتفتشش باخموتوف ؟ . . . ان القضية كلها متوقفة عليه مرهونة به ! . . . »

« الحق أن كل شيء في قصة هذا الطبيب وفي النهاية التي اختتمت

بها ، وهى نهاية شاركت أنا فيها على هذا النحو الذى لا يخطر بالبال ،
ان كل شيء قد تسلسل وترتب كما تتسلسل الأمور وترتب فى رواية
من الروايات وفقاً لحطة موضوعة .

« طلبت من هذين المسيكين أن لا يبنيا أى أمل على كلامي ، لاننى
لست أنا نفسى الا تلميذاً فقيراً فى المدرسة الثانوية (تعمدت أن أضخم
وضاعة شأنى ، والحق أننى كنت قد أنهيت دراستى فى المدرسة الثانوية
منذ مدة طويلة) . وأضفت أنهما ليسا فى حاجة الى أن يعرفا اسمى ،
ولكننى ذاهب فوراً الى فاسيلفسكى أوستروف لأرى رفيقى باخموتوف ؛
وأنا واثق أن عمه ، مستشار الدولة ، وهو رجل متقدم فى السن ولكنه لم
يتزوج وليس له أولاد ، يجب ابن أخيه حباً عظيماً يبلغ درجة الوله ،
لأنه بعده آخر نسل الأسرة . وقلت اختتم كلامى ان هذا الرفيق سوف
يستطيع أن يضع لكما شيئاً بالتأثير فى عمه ، ارضاءً لى .

« هتف الطبيب يقول مرتجفاً كأن به حمى ، بينما كانت عيناه
تلتزمان :

« لا أريد الا أن يُسمح لى بشرح أمرى أمام صاحب السعادة !
ليتنى أظفر بأن أستطيع الحصول على شرف عرض ظلامتى وبسط
شكواى له !

« نعم ، هذا هو التعبير الذى استعمله : « ليتنى أظفر بأن أستطيع
الحصول على شرف » . وبعد أن كررت مرة أخرى أن المسعى قد
يفقد حتماً ، وأن جميع جهودنا قد تظل عقيمة ، أضفت أعلن أن عليهما ،
إذا لم اجيء اليهم فى صباح غد ، أن يفهما أن المسعى لم يشر ، فلا يتوقعا
شيئاً . لن أنسى ، ما حيت ، تعبير وجهيهما حينذاك . وركبت عربة
ومضيت الى فاسيلفسكى أوستروف رأساً .

« كنا قد عشنا فى عداوة متصلة ، انا وباخموتوف هذا ، خلال عدة

سنتين بالمدرسة • كان يُعَدُّ عندنا ارستقراطياً ؛ أو هذا على الأقل ماوصفته
أنا به • كان دائماً حسن الهمدَام أَتَبَقِ الملبس ، يصل الى المدرسة بركبته
الخاصة • لم يكن متكبراً أو متعجرفاً • كان رفيقاً ممتازاً ، مشرق المزاج
حلو المعاشرة دائماً ، فكه الحديث مرحح النكتة حاضر البديهة أحياناً ، دون
أن يكون ذا ذكاء عظيم ونباهة كبيرة • ومع ذلك كان هو الأول ترتيباً في
الصف على الدوام ؛ ولم أحصل أنا على الدرجة الأولى في أى شيء يوماً •
وكان جميع زملائه يحبونه ، الا أنا • وقد حاول التودد الىّ مراراً خلال
السنتين التي قضيناها في المدرسة معاً ، لكنني كنت في كل مرة أشيح
وجهي عنه متجهماً حائقاً •

« اتنى لم أره منذ نحو سنة • هو الآن في الجامعة • فلما دخلت عليه
في نحو الساعة التاسعة من المساء (ولم أدخل عليه بدون رسميات ، فان
الخدم قد هبوا اليه يلبغونه حضوري) ، استقبلني في البداية مدهوشاً ،
بل استقبلني بغير كبير بشاشة لكنه لم يلبث أن استرد مرحه المجهود فيه ،
وانطلق يضحك فجأة وهو ينظر الىّ • ثم هتف يسألني بطريقته المألوفة
التي تمتاز برفع الكلفة وروح المودة :

« - ماذا أصابك حتى خطر ببالك أن تزورني ؟

« ان في لهجته شيئاً من الجسارة وقلة التحرج دائماً ، لكنها لا تكون
مهينةً أو مؤذية في وقت من الأوقات • تلك سمة من سماته كنت أحبها
فيه ، وكانت مع ذلك سبب كرهى له • وصاح يسألني مذعوراً :

« - ولكن ماذا بك ؟ أنت مريض الى هذه الدرجة ؟

« كان السعال قد استبد بي ، فتهالكت على كرسى ، ولم أستطع أن
استرد تنفسي الا بكثير من العناء •

« قلت له :

« - لا تقلق ! اننى مريض بالسل . لى عندك رجاء .
 « جلس مدهوشاً ، وأخذت أقص عليه حكاية الطبيب كاملة ، وقلت
 له انه قد يستطيع أن يصنع لهذا المسكين شيئاً ، وذلك لما له على عمه من
 نفوذ . قال :

« - سأفعل ، سأفعل حتماً ! سأتوسط لدى عمى منذ الغد . بل اننى
 لمقنط جداً ؟ ما كان أحلى أسلوبك فى سرد القصة كلها . ولكن كيف
 راودتك فكرة الاعتماد على رغب كل شيء يا تيرتيف ؟

« - ان كل شيء فى هذه القضية متوقف على ارادة عمك ومرتهن
 بمشيئته . اتنا يا باخموتوف قد كنا عدوين دائماً ، لكننى لما أعرفه من
 نبل قلبك وشهامة طبعك قدّرت أنك لن ترفض رجاء لعدو .
 « كذلك أضفت أقول بلهجة فيها قليل من سخرية . فهتف يقول
 وهو ينفجر ضاحكاً :

« - مثل نابوليون الذى اعتمد على كرم انجلترا !...
 « واذا رآنى أنهض جاداً الهيئة قاسى الوجه ، أسرع يضيف قوله :
 « - سأفعل اللازم ، سأفعل اللازم ! بل سأذهب الآن فوراً
 اذا أمكن !

« وبالفعل ، سوّيت القضية على نحو لم يكن فى الحسبان قط ،
 سوّيت تسوية نالت رضانا كاملاً . فما هى السته أسابيع حتى حصل
 صاحبنا الطبيب على وظيفة جديدة فى اقليم آخر ، مع دفع نفقات الانتقال،
 بل وتقديم مساعدة مالية . وأظن أن باخموتوف قد حمل الطبيب على أن
 يقبل منه سلفة على سبيل الاقتراض . وأخذ يزوره كثيراً (بينما قطعت
 أنا زيارتى عامداً . وكنت ، اذا اتفق أن زارنى الطبيب مصادفة ، استقبله
 استقبالاً يكاد يكون جافاً) . وقد لقيت باخموتوف أثناء تلك الأسابيع

السة مرة أو مرين ، ثم التينا مرة ثالثة حين احتفلنا بسفر الدكتور .
لقد دعا باخموتوف صاحبنا الطيب الى عشاء وداع مع شمبانيا . وحضرت
زوجة الطيب العشاء ، لكنها تركتنا فى ساعة مبكرة لتمضى الى العناية
بالطفل . كان ذلك فى بداية شهر أيار (مايو) . المساء جميل . قرص
الشمس الضخم يغيب فى الخليج . أوصلنى باخموتوف الى بيتى عائداً .
مررنا بجسر نيقولا ، وكنا نملين بعض التمل كلاتا . حدثنى عن ابتهاجة
العظيم بالنهاية التى انتهت اليها قضية الطيب . شكر لى لا أدرى ماذا .
وصف لى الارتياح الذى يحسه بعد أن صنع خيراً ، وقال ان الفضل فى
هذا كله يرجع الى . أعرب عن اعتقاده بخطأ أولئك الكثرين الذين
يذهبون فى هذه الأيام الى أن صنع الخير الفردى لا قيمة له .
« فاستولت علىّ أنا أيضاً رغبة فى الكلام لا سليل الى مقاومتها .
فبدأت أتكلم فقلت :

« - ان من يأخذ على عاتقه أن يقوم بعمل برّ فردى ، يسىء الى
طبيعة الانسان ويهين الكرامة الشخصية لمن أحسن اليه . على أن تنظيم
« الاحسان الاجتماعى » ومسألة الحرية الفردية أمران مستقلان ، لا ينفى
أحدهما الآخر . ان أعمال البر الفردية تظل باقية لأنها تقابل حاجة لدى
الانسان هى حاجة حية الى أن يكون لفرد تأثير مباشر فى فرد آخر . كان
يعيش بموسكو جنرال عجوز ، أقصد « مستشار دولة » اسمه اسم
ألمانى . لقد قضى حياته يزور السجون والمجرمين . حتى صارت كل
مجموعة من المحكوم عليهم بالسجن الذى يستعدون للترحيل الى
سيريا ، تعرف مقدماً أن هذا الشيخ الطيب سيزورها فى « جبل
المصافير » * . وكان الرجل يقوم بمهمته تلك فى كثير من الجد والتقوى .
يصل الى المكان فيستعرض جميع السجناء المصطفين حوله ، يقف أمام كل
واحد منهم ، ويسألهم عن حاجاتهم ، ولا يحاول أن يلتقى عليهم دروساً

فى الأخلاق ناصحاً أو واعظاً ، ويناديهم جميعاً بقوله « يا أصدقائى » ؛
ويوزع عليهم عليهم مالا ، ويرسل اليهم أمتعة مما لا غنى عنه : جوارب
تدفىء أرجلهم وشيئاً من قماش ، ويأتهم فى بعض الأحيان بكتب دينية
صغيرة يسلمها للذين يعرفون القراءة ، مقتنعا اقتناعاً عميقاً بأنهم سيقرونها
أثناء الطريق وسينقلون مضمونها للذين لا يعرفون القراءة وكان
يندر أن يسألهم عن الجرائم التى ارتكبوها . وإنما هو يصغى ، فى أكثر
تقدير ، لكلام أولئك الذين كانوا يحبون من تلقاء أنفسهم أن يسروا اليه
بأمرهم . وكان لا يفرق بين المجرمين أى فريق ، بل يساوى بينهم
مساواة تامة . وكان يكلمهم كما يكلم اخوة ؛ وكانوا ينتهون هم أنفسهم
الى أن يعدوه أباً . فإذا لاحظ فى جماعة امرأة تحمل على ذراعيها طفلاً
اقرب منها فلاعب الطفل وصفق له بأصابعه كى يضحكه . هكذا قضى
حياته الطويلة الى أن مات . وظفر بأن يكون معروفاً فى روسيا وفى
سبيريا كلها ، لدى السجناء على الأقل . وقد حدثنى رجل كان فى سبيريا
فوصف لى كيف كان أعتى المجرمين يتذكرون هذا الجنرال ، مع أن هذا
الجنرال كان حين يزور فرن المرحلين ينذر أن يستطيع اعطاء كل واحد
منهم أكثر من عشرين كوبكاً صحيح أن هؤلاء الأفراد كانوا لا يتحدثون
عن الجنرال بالفاظ فيها كثير من الحماسة والحرارة ، حتى ولا بلهجة فيها
كثير من الجلد . كان واحد من هؤلاء « الأشقياء » ، وهو مجرم فظيع
لعله قتل دسته رجال أو ذبح ستة أطفال لا لسبب غير حب التلذذ بالقتل
(يقال ان هناك أوغاداً من هذا النوع) كان يتنهد من حين الى حين
ويهتف متسائلاً : « ترى ماذا الذى صار اليه ذلك الجنرال الطيب ؟ من
يدرى أما يزال حياً أم مات ؟! . . . » . كان هذا الحاطر يلم برأسه دون
أى سبب ظاهر ، ربما مرة واحدة خلال عشرين سنة ، وربما مع ابتسامة
تطوف بشقيقه أيضاً ، ثم لا شئ غير ذلك ! ولكن من كان يدري أن

« الشيخ الطيب » قد زرع في هذه النفس بذرة ستبقى فيها الى الأبد ، وسيحتفظ الرجل بذكرها عشرين عاماً ؟ هل تستطيع ان تعرف يا باخموتوف ما يحدثه هذا التواصل بين انسان وانسان من تأثير في مصير الآخر ؟ ان ههنا حياة بكاملها ، وعددأ لا نهاية له من التفرعات تغيب عنا ولا تبدو لأبصارنا . ان أمهر لاعب من لاعبي الشطرنج وأبعد واحد منهم نظراً لا يستطيع أن يتنبأ الا الا بعدد محدود من الضربات التي سيحجى بها خصمه . لقد حدثونا عن لاعب فرنسي كان يستطيع أن يحسب عشر ضربات سلفاً ، فكان حديثهم عنه يشبه أن يكون حديثاً عن معجزة خارقة . فما أكثر الضربات والتركيبات التي تغيب عنا فلا تظهر لأبصارنا في الحالة التي نحن بصدد الكلام عليها الآن ! انك حين تزرع البذرة ، حين تقوم بعمل « البر والاحسان » في أية صورة من الصور ، حين تقوم بفعل الخير الذي تقوم به ، انما تهب جزءاً من شخصيتك وتأخذ جزءاً من شخصية الآخر . فيكون بين وجوديكما تواصل . ويكفى أن تتبّه قليلاً حتى تكافأ عن ذلك بالمعرفة ، تكافأ باكتشافات لم تدر في خلدك قط . ولا بد أن تنتهي في الحتام حتماً الى أن تعد عمك الطيب علماً ، فهو يسيطر على كل حياتك وربما ملأها ملئاً تاماً .

« ثم ان جميع أفكارك وجميع البذور التي زرعتها ولعلك نسيتها سوف تمتد لها في الأرض جذور ، وسوف تنمو وتكبر . ان من أخذها عنك سينقلها الى غيرك . من ذا الذي يعرف أي نصيب ستال من حل المشكلات التي يتوقف عليها مصير الانسانية ؟ واذا استطاعت معرفتك وحياة كاملة موقوفة على هذا النوع من العمل أن ترفلك أخيراً الى ذرى تستطيع وأنت فيها أن تبذر بذوراً كثيرة وأن تورث الكون فكرة كبيرة ، فلسوف ... الخ الخ ، تكلمت كثيراً في ذلك اليوم .

« هتف باخموتوف يقول كمن يوجه لوماً عارماً الى شخص ثالث:

« - ثم تظن بعد ذلك أن الحياة ممنوعة عنك محظورة عليك !
 « كنا فى تلك اللحظة متكئين بكوعينا على افريز الجسر ، وكنا ننظر
 الى نهر نيفا . فقلت وأنا أميل مزيداً من الميل فوق الدربزين :

« - أتعرف ماذا خطر ببالى ؟
 « فصاح باخموتوف يقول شبه مذعور :
 « - أن تلقى بنفسك فى الماء ؟
 « لعله كان قد قرأ هذا الحاطر فى وجهى .
 « قلت :

« - لا . اننى الآن اكفى بالتفكير على النحو التالى : لقد بقى لى من
 الحياة شهران أو ثلاثة أشهر ، وربما أربعة . ولكن فلننظر ، مثلاً ، الى
 اللحظة التى لا يكون قد بقى لى فيها الا شهران ، ولنفرض اننى فى تلك
 اللحظة أردت أن أقوم بفعل خير يتطلب منى جهداً ، ويقتضىنى أن أذهب
 وأجىء مرات ومرات ، ويسبب لى متاعب من نوع المتاعب التى سببتها لى
 قضية صاحبنا الدكتور . سوف يكون علىّ فى هذه الحالة أن أعدل عن
 القيام بذلك العمل الطيب لضيق الوقت ، وأن أسعى الى عمل طيب آخر
 يكون أقل شأناً ويكون فى طاقتى أن أعمله (هذا اذا كان هوى القيام
 بأعمال الخير قد استبد بى الى هذا الحد !) . فكرة مسلية ، أليس كذلك ؟
 « كان باخموتوف المسكين شديد القلق علىّ . فأوصلنى الى مسكنى ،
 وكان لبقاً فلم يعتقد أن عليه أن يعزّينى ويواسينى ، بل لزم الصمت طول
 الوقت تقريباً . وحين ودّعنى شدّ على يدى بحرارة واستأذنى فى أن
 يزورنى . فأجبتّه بأن مجيئه الىّ ، اذا كان يريد أن يجيئ الىّ « مواسياً
 ومعزياً » (ذلك أن زيارته ، وان كانت صامتة ، سيكون هدفها المواساة
 والعزاء ، وقد شرحت له هذا) لن يكون فى نظرى أكثر من تذكير

بالموت الوشيك • فهزّ كفيه ، ولكنه وافقنى على صواب رأيى • وافترقنا على بشاشة ومجاملة ، وذلك ما لم أكن أتوقعه •

« فى أثناء ذلك المساء ، وفى خلال الليلة التى أعقبته ، انما نبت فى نفسى « اقتناعى الأخير » • تشبّث تشبّثاً نهماً بتلك الفكرة الجديدة ، وأخذت أحللها بحرارة وحماسة ، وأقلّبها على جميع وجوهها ، وأتعبها فى جميع انعطافاتها (لم أتم فى تلك الليلة) • فكلما تعمقتها مزيداً من التعمق ، وكلما نفذت الى مزيداً من النفاذ ، امتلأت من ذلك بمزيد من الجزع • ثم استولى علىّ دعر فطيع لزمى ولم يبارحنى طوال الأيام التالية • انتى فى بعض الأحيان ، ما ان أتذكر ذلك الدعر حتى يتابنى هلع جديد يجمدنى تجميداً • وخلصت من ذلك الى أن « اقتناعى الأخير » قد ترسخ فى نفسى ترسخاً يبلغ من القوة أنه يستحيل أن لا يصل بى الى خاتمة • ولكنى لم أملك من الجرأة ما يكفينى لأعزم أمرى وأتخذ قرارى • وبعد ذلك بثلاثة أسابيع كانت تلك التعللات والتهربات قد انقطعت ، ورجعت الى جرائى ، ولكن ذلك انما حدث فى أعقاب ظرف غريب كل الغرابة •

« انتى أذكر هنا ، فى هذا الشرح ، جميع هذه الأرقام وجميع هذه التواريخ • ولا شك أن ذلك لن يعينى فيما بعد ، أما « الآن » (وربما فى هذه اللحظة وحدها) ، فانتى أريد من أولئك الذين سيحكمون على عملى أن يتصوروا تصوراً واضحاً تسلسل الاستنتاجات المنطقية التى بها الى « اقتناعى الأخير » •

« قلت انتى اكتسبت الجرأة الحاسمة التى كانت تعوزنى لأضع ذلك « الاقتناع الأخير » موضع التنفيذ ، اكتسبتها لا بطريق الاستنتاج المنطقى فيما أعتقد بل فى أعقاب صدمة غير متوقعة ، على أثر حادث غير عادى كان يمكن أن لا يكون له أى صلة بمجرى القضية •

« فمئذ نحو عشرة أيام زارني روجويين بمناسبة مسألة تتعلق به ولا مجال للحديث عنها هنا . لم أكن قد رأيته قبل ذلك في يوم من الأيام ، ولكنني كنت قد سمعت عنه كلاماً كثيراً . أعطيته جميع المعلومات التي كان في حاجة إليها ، فلم يلبث أن انصرف . واذاً أن ذلك كان هو الهدف الوحيد من مسعاه ، فقد كان يمكن أن تقف الأمور بيننا عند هذا الحد . لكن الرجل أثار اهتمامي اثاره قوية ، فظللت طوال النهار فريسة خواطر وأفكار بلغت من الغرابة انني قررت أن أزوره في الغد . فلما دخلت عليه لم يخف استيائه من رؤيتي ، وأفهمني « بكياسة ولباقة » أن علاقتنا يجب أن لا تطول . ومع ذلك قضيت عنده ساعة كانت شائقة لي وله على السواء فيما أظن . ان التعارض بيننا يبلغ من القوة أننا لم نستطع لا أنا ولا هو الا أن نلاحظ ذلك ، وقد لاحظته أنا خاصة . أنا انسان أيامه معدودة ، وهو رجل زاخر بحياة مندفع ، مستسلم استسلاماً تاماً لهوى اللحظة الحاضرة ، لا نهمة الاستنتاجات « الأخيرة » أو الأرقام أو أى شيء ، ولا يعنيه أمر مما . . . مما لا شأن له بموضوع هواه وجنونه . فليغفر لي السيد روجويين هذا التعبير وليرجعه الى الحراقة لدى كاتب ضعيف في الافصاح عما يجول فكره . لقد أحسست أثناء لقائي بالسيد روجويين ، رغم قلة بشاشته وتودده ، أنه رجل ذكي ، قادر على أن يفهم أموراً كثيرة ، وان كان لا يعنيه شيء مما لا يتصل به مباشرة . لم أشر أمامه أية اشارة الى « اقتناعي الأخير » ، لكنني أدركت من بعض العلامات أنه قد كفاه أن يسمع كلامي حتى يحزره . لقد كان ساكناً لا يتكلم . ان هذا الرجل صموت صمتاً هائلاً . وقلت له عند انصرافه انه هو نفسه ، رغم الفروق التي بيننا ورغم التعارض الذي يفصلنا - الأطراف القصوى تلتقي كما يقول الفرنسيون - (ترجمت له هذا التعبير الفرنسي الى الروسية) ، اقول انه رغم ذلك قد لا يكون بعيداً عن هذا

« الاقتناع الأخير » الى الحد الذى يُظن ، فلم يجبنى الا بتصعيرة فى وجهه زاخرة بالمرارة ، ثم نهض ومضى يأتبنى بقيعتى متظاهراً بالاعتقاد أننى أنهياً للانصراف . وبحجة أنه يوصلنى الى الباب أدباً ولباقة ، لم يزد فى الواقع على أن طردنى من بيته المتجه طرداً . ولقد عجبت لبيته هذا فعلاً : لكأنه مقبرة . ولكننى أظن أنه يعجبه ويرضيه . وهذا شيء يفهمه المرء بسهولة : فان روجوبين يعيش حياة أزخر بالعنف وأقوى اتصالاً بالأمر المباشر من أن يشعر بحاجة الى جو فى البيت أبهج وألطف .

« أرهقتى زيارتى تلك لروجوبين . ثم اننى كنت أشعر بتعب منذ الصباح . حتى اذا كان المساء أحسست باعياء شديد وضعف كبير فتمددت على سريرى . كانت حمى غيفة تتأبى فى بعض اللحظات حتى لتجعلنى أهذى . ولبت كوليناً بقربى حتى الساعة الحادية عشرة . وأنا أتذكر مع ذلك كل ما قاله لى وكل الأمور التى تكلمنا عنها . ولكن حين كانت تطبق أجفائى من حين الى حين فأغفو قليلاً ، فان صورة ايفان فومتش كانت تعود الى دائماً ، فأراه فى الحلم وقد أصبح مليونيراً ، وأراه لا يدرى ماذا يصنع بعلاينه ، فهو لا يبرح يحفر فى رأسه باحثاً لها عن مكان ، ثم يخطر بباله أن من الممكن أن تُسرق فيرتجف خوفاً وينتهى به الأمر الى أن يقرر دفنها . فأنصحها بأن يصهر هذه الثروة بدلاً من أن يدفنها فى غير طائل ، ثم يصنع منها تابوتاً ذهبياً صغيراً للطفل الذى تركه يموت « متجمداً » من البرد ، وذلك بعد أن يخرج رفاته من القبر ؛ فيستقبل سوريكوف هذه النصيحة الساخرة بدموع شكر وعرفان ، ويسرع يضعها موضع التنفيذ . فأبصق على الأرض تعبيراً عن الشعور بأنه امرؤ لا سبيل الى اصلاحه ، وأدعه حيث هو وأمضى . وقد أكد لى كوليناً ، حين استرددت وعيى استرداداً كاملاً ، أننى لم أُنم البتة ، وأننى ما انفككت أكلمه عن سوريكوف طوال الوقت . ومرّت لحظات اجتاحتني فيها نوبات

غم رهيب واضطراب فظيع لذلك تركني كوليًا وهو يشعر بقلق • ونهضت
اغلق الباب وراءه بالفتاح ، فتذكرت في تلك اللحظة ، على حين فجأة ،
لوحة كنت رأيته في ذلك الصباح عند روجوين ، في احدى الصالات
المعتمة المظلمة من منزله فوق باب من الأبواب • لقد أرايتها هو نفسه
حين مررنا بها ، فلبثت واقفاً قرابة خمس دقائق - فيما أذكر - أمام تلك
اللوحة التي ألفتني الى حالات اضطراب عنيف رغم خلوها من أية
قيمة فنية •

• كانت اللوحة تمثل المسيح لحظة انزاله عن الصليب • ان
الرسميين ، اذا لم يخطئ ظني ، انما اعتادوا أن يصوروا المسيح اما على
الصليب واما بعد نزوله عنه ، مع وميض جمال في وجهه يفوق الطبيعة •
انهم يحرصون على أن يحتفظوا له بذلك الجمال حتى في وسط أشد
أنواع العذاب قسوة • أما اللوحة التي رأيته عند روجوين فلم يكن فيها
شيء من هذا • انها تصوير كامل لجثمان انساني يعبر عن جميع العذابات
التي لا حدود لها مما احتمله المسيح حتى قبل صلبه • فيها آثار الجروح
وآثار اللطمات والضربات التي أمطره بها حراسه والناس حين كان
يحمل صليبه ويسقط على الأرض تحت وطأة ثقله ؛ وفيها أخيراً آثار
الصلب خلال ست ساعات (اذا صدق حسابي أنا على الأقل) • هذا حقاً
وجه انسان أنزل عن الصليب « منذ برهة » • انه ما يزال يحتفظ بكثير
من الحياة والحرارة • ولم يكن التجمد قد فصل فعله بعد ، فكان وجهه
الميت ما يزال يصور الألم كأنه ما انفك يعانيه (لقد أدرك الفنان هذا
ادراكاً قوياً) • زد على ذلك أن الوجه كان يعبر عن الحقيقة صارمة
لا تراعى ولا تدارى : فكل شيء فيه طبيعي • انه حقاً وجه أي انسان عانى
تعذيباً كذلك التعذيب •

• أنا أعرف أن الكنيسة المسيحية قد ذهبت ، منذ القرون الأولى ،

الى أن آلام المسيح لم تكن رمزية بل واقعية ، وان جسمه كان يخضع وهو على الصليب لجميع قوانين الطبيعة بدون أى تحديد أو تضيق . فكانت اللوحة اذن تمثل وجهاً شوهته الضربات تشويهاً فظيماً ، فتورم وتنفخ ، وامتلأ خدوشاً وجروحاً نازفةً رهيبية ، وحملت عيناه ، وانقلبت حدقاتها ، واتسع بياضهما الذى يلتصق التماعاً زجاجياً يعكس الموت . غير أن أغرب ما فى الأمر هو هذا السؤال العجيب المثير الذى يوحى بمنظر جثمان ذلك الانسان الذى عذب هذا التعذيب : اذا كان جميع مريديه ، اذا كان جميع الذين سيصبحون حواريه ، اذا كانت النساء التى تبعته وتعلقت بأسفل الصليب ، اذا كان الذين آمنوا به وعبدوه ، اذا كان جميع هؤلاء قد رأوا أمام أبصارهم جثة ك تلك الجثة (ولا بد أن الجثة كانت على الصورة التى وصفناها) فكيف أمكنهم أن يصدقوا وهم يرون هذه الرؤية أن الشهيد سيبعث حياً ويقوم ؟ ان المرء ليقول لنفسه رغم أنفه : اذا كان الموت أمراً فظيماً الى هذا الحد ، اذا كانت قوانين الطبيعة قوية هذه القوة ، فكيف يمكن الانتصار عليها ؟ كيف يمكن تذليلها . فى حين أنها لم تلق حتى أمام ذلك « الذى » أخضع الطبيعة أثناء حياته ، وجعلها تنصاع له ، وقال : « قومى طليتا » * فاذا الصية تقوم ، وقال « اخرج لعازر » * فاذا الميت يخرج من القبر . حين يتأمل المرء هذه اللوحة فانه يتخيل الطبيعة فى صورة وحش ضخم حاقد أخرس . أو قل ، مهما يكن التشبيه غريباً غير متوقع ، ان من الأصح كثيراً أن تشبه الطبيعة هنا بآلة حديثة من آلات البناء الضخمة ، صماء لا تحس ، بلهاء لا تفهم ، تلقفت ثم طحنت ثم ابتلعت « كائنا » لا يعادله كائن ، يساوى وحده كل الطبيعة وكل القوانين التى تحكم الطبيعة ، وكل الأرض التى لعلها لم تُخلق الا ليظهر ذلك « الكائن » !

« ان ما بدا لى أن تلك اللوحة تعبر عنه انما هو فكرة وجود قوة

غامضة غاشمة أبدية يخضع لها كل شيء ، وتحكمكم رغم أنوفكم • ان الناس الذين كانوا يحيطون باليت ، رغم أن اللوحة لم تصور أى واحد منهم ، لا بد أنهم شعروا بغم فظيع وانصعاق رهيب فى ذلك المساء الذى حطّم ، دفعةً واحدة ، جميع آمالهم ، وكاد يحطم إيمانهم • لا بد أنهم افترقوا على هلع هائل ملاً جوانب أنفسهم ، رغم أن كل واحد منهم حمل فى قرارة نفسه فكرة كبيرة ترسخت فى أعماقه فلا سبيل الى انتزاعها منها بعد ذلك قط • سؤال آخر : ترى لو استطاع « المعلم » أن يرى صورة نفسه عشيّة تعذيبه ، أفكان يمشى الى الصלב والى الموت كما مشى اليهما ؟ ذلكم سؤال آخر يخطر ببالكم على غير ارادة منكم حين تنظرون الى تلك الصورة •

» حاصرت هذه الخواطر فكرى بعد انصراف كوليّا خلال ساعة ونصف ساعة • وكانت مفككة ، وأغلب الظن أنها كانت تشتمل على هذيان ، لكنها كانت كذلك تكتسى فى بعض الأحيان مظهرًا محسوسًا • هل يستطيع الخيال أن يصفى شكلاً معيناً على ما ليس له فى الواقع شكل ؟ كان يخيّل الىّ فى بعض اللحظات أننى أرى تلك القوة التى لا نهاية لها ، أن أرى ذلك الكائن المظلم الأخرس يتجسد تجسداً مادياً على نحو غريب لا سبيل الى وصفه • أذكر أننى أحسست بأن أحداً حاملاً شععة قد أمسك يدي فأراني عنكبوتة ضخمة كريهة ، مؤكداً لى أن هذه العنكبوتة الضخمة هى بعينها ذلك الكائن المظلم الأعمى القادر على كل شيء ، ضاحكاً من الاستياء التى أظهرته •

» يضىء غرفتى فى الليل دائماً مصباحٌ صغير أمام الأيقونة • ورغم أن ضوء هذا المصباح كامد مهتز فانه يتيح تمييز الأشياء ، حتى ليستطيع المرء أن يقرأ اذا هو دنا من الضياء • أظن أن الوقت كان بعد منتصف

الليل بقليل • لم أكن نائماً البتة ، وكنت مضطجاً مفتوح العينين • وفيما أنا كذلك اذا بباب غرفتي يُشق فجأة فيدخل روجويين •

» دخل وأغلق الباب ثانية ، ونظر الىّ دون أن يقول كلمة ، واتجه متشداً نحو الكرسي الذي يوجد في زاوية الغرفة تحت المصباح تقريباً • دهشت أشد الدهشة ، وأخذت أرقبه منتظراً ما سوف يفعله • وضع كوعيه على منضدة صغيرة ، وحدق الىّ بنظرة ثابتة صامتاً • انقضت ثانيتان أو ثلاث ثوان على هذه الحال • وأذكر أن صمته قد أهانني كثيراً وأثار حقني • لماذا لا يحزم أمره فيتكلم ؟ وقد استغربت طبعاً أن يجيء في ساعة متأخرة هذا التأخر كله ، ولكنني لا أذكر أن هذا شذهني وأذهلني كثيراً في حد ذاته • بالعكس : صحح أنني لم أعرب له في الصباح عن فكرتي اعراباً واضحاً ، لكنني كنت أعلم أنه حزرها وأدركها • ولقد كانت تلك الفكرة تستحق فعلاً أن يجيء لمعاودة الكلام فيها ، ولو في ساعة متأخرة جداً • لذلك قرّرت أنه انما جاء لهذا الغرض • كنا قد افترقنا في الصباح على غير وفاق ووثام ، حتى انني أذكر أنه رشقني مرة أو مرتين بنظرة فيها كثير من السخرية والاستهزاء • وهذا التعبير نفسه عن السخرية والاستهزاء هو ما أقرؤه الآن في نظرتي ، وهو ما أشعر أنه يجرح شعوري ويهين كرامتي • أما أنني كنت أرى أمامي روجويين نفسه فعلاً ، وأنني لا أرى حلم نوم أو أشباح هذيان فذلك ما لم يراودني فيه أبسر شك في أول الأمر ، حتى ان هذه الفكرة لم تخطر ببالي أصلاً •

» ويظل روجويين جالساً ، ويظل ينظر الىّ مبتسماً ابتسامته الساخرة تلك • انقلبت على سريري غاضباً ، ووضعت كوعي على وسادتي وقررت أن أقلّد صمته ، ولو طال هذا الصمت الى غير نهاية • لا أدري لماذا أردت أن يكون هو البادئ بالكلام حتماً • أظن أن نحو عشرين

دقيقة انقضت على هذه الحال • وفجأة ومضت في ذهني فكرة : من يدري؟
قد لا يكون هذا روجوين ، بل شبحاً لا أكثر !

« لم يكن قد تراءى لي أى شبح لا أثناء مرضى ولا قبل مرضى •
وأنا منذ طفولتي حتى هذه اللحظة ، أى حتى الآونة الأخيرة ، رغم اننى
لم أومن قط بأشباح تظهر ، كان يبدو لي دائماً اننى سأموت فوراً اذا
اتفق أن ظهر لي شبح مرة • ومع ذلك أذكر اننى حين خطر ببالى أن
هذا ليس روجوين بل هو شبح ، لم أشعر من ذلك بأى رعب • وأكثر
من هذا اننى شعرت بغضب • أمر غريب : ان التساؤل عما أراه أمامى
أهو شبح أم هو روجوين بشخصه لم يشغلنى ولا أفلقنى ، كما كان
طبيعياً أن يحدث ذلك • ويبدو لي أن فكرى كان منصرفاً الى غير هذا
من ذلك مثلاً اننى كنت على أحر من الجمر رغبةً في أن أعرف لماذا كان
روجوين يرتدى الآن رداء « فراك » ، وصديرة بيضاء ، وربطة عنق
بيضاء بينما كان في الصباح يلبس ثوباً للمنزل ويتعل خفين • وقلت
لنفسى : اذا كان ما أراه شبحاً فأتنى غير خائف منه • فلماذا لا أنهض
فأقرب منه لأتحقق بنفسى ما هو ؟ أترانى مع ذلك خائفاً لا أجسر أن
أفعل ؟ ولكن ما ان خطر ببالى اننى خائف حتى شعرت بصقيع في جسمى
كله ، وسرت في ظهري رعدة ، وأخذت ركبتاى تصطكان ارتجافاً •
وكان روجوين أدرك رعبى ، فاذا هو ، في تلك اللحظة نفسها ، يسحب
ذراعه التى كان متكئاً على كوعها ، ويتنصب قائماً ، ويفتح فمه يهيم أن
يضحك • وكان يحدث لي في اصرار وعناد • فاجتاحني حلق بلغم من
قوة الاستعار اننى أردت أن أهجم عليه • لكننى وقد آليت على نفسى أن
لا أكون البادى بقطع الصمت ، لم أتحرك عن سريري • ثم اننى لم أكن
واثقاً من أن ما أراه هو روجوين بشخصه ، وليس طيفاً أو شبحاً •

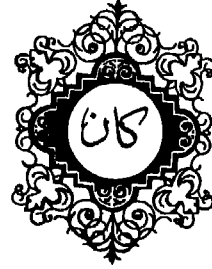
« لا أذكر كم طال هذا المشهد • لا ولا أستطيع أن أقول هل كنت

أغفو أثناء ذلك من حين الى حين • ونهض روجويين أخيراً ، فتألمني بهدوء وانتباه ، كما فعل حين دخل ، ولكن دون ضحك ساخر في هذه المرة ، ثم اتجه بخطى لا تكاد تلمس الأرض ، على رؤوس الأصابع تقريباً ، اتجه نحو الباب ففتحه وخرج وأغلق وراءه • لم أنهض من مكاني • ولا أذكر كم من الوقت ظلت على هذه الحال مضطجماً ، مفتح العينين ، غارقاً في أفكارى ، مستسلماً لحواطرى • ماذا كانت تلك الأفكار والحواطر ؟ الله أعلم ! ولست أذكر أيضاً كيف غفوت •

« واستيقظت في الغد بعد الساعة التاسعة ، حين سمعت قرعاً على بابى • ان من المتفق عليه في بيتنا أن تقرر ما تريونا بابى اذا لم أفتح من تلقاء نفسى بعد الساعة التاسعة ولم أنا أحداً لايتانى بالشأى • فلما فتحت الباب لمتريونا أسرعت أتساءل : كيف أمكنه أن يدخل اذا كان هذا الباب مغلقاً • واستطلعت الأمر فأيقنت أنه ما كان لروجويين أن يستطيع دخول غرفتى لأن جميع أبوابنا تكون في الليل مقفلة بالمفتاح •

« ان هذا الحادث الذى وصفته لكم بجميع هذه التفاصيل الكثيرة هو الذى حضنى على أن أتخذ «قرارى» نهائياً • ان هذا القرار لا يصدر اذن عن منطق الاستدلال العقلى بل عن شعور الاشمئزاز العاطفى • اننى لا أستطيع أن أبقى في حياة تكسى أشكالا غريبة وجارحة الى هذا الحد • ان ذلك الشبح قد تركنى تحت وطأة احساس بالذل • اننى لا أشعر بأنى أرضى الخضوع لقوة تستعير مظاهر عنكبوت ضخمة • أنا لم أحس بشئ من التخفف الا حين رأيتنى أخيراً ، عند النسق ، أمام قرار كامل نهائى • ومع ذلك لم يكن هذا الا مرحلة أولى : وكنت سأجتاز المرحلة الثانية في بافلوفسك ، ولكن هذا قد سبق أن شرحته شرحاً كافياً • •

الفصل السابع



عندى مسدس صغير للجيب ، حصلت عليه حين كنت طفلاً ، فى تلك السن المضحكة التى يأخذ فيها الطفل بالتحمس لقصص المبارزات وهجمات قطاع الطرق . كنت أحلم بأن أُدعى الى مبارزة ، فأُقف أمام مسدس خصمى رابط الجأش ثابت الجنان . وقد فحصت هذا المسدس منذ شهر وسلّحته . ففى اللعبة التى كانت تضمه وجدت رصاصتين ووعاء صغيراً يحتوى على بارود يكفى لطلقتين أو ثلاث . ان المسدس ردىء لا قيمة له ، فهو ينحرف ولا يتجاوز مداه خمس عشرة خطوة ، لكنه اذا وُضع على الصدغ رأساً فلا شك أنه يكفى لتحطيم الجمجمة .

« قررت أن أموت فى بافلوفسك ، عند طلوع الشمس ، بعد أن أنزل الى الحديقة العامة حتى لا أحدث اضطراباً فى الفيللا . ان «الشرح» الذى أتركه بعد موتى سيكون كافياً لتوجيه التحقيق الذى ستقوم به الشرطة . وسوف يستطيع عشاق علم النفس والمهمتون بالأمر أن يستخلصوا من ذلك كل ما يحلو لهم أن يستخلصوه . ومع ذلك لا أحب أن تُنشر هذه المخطوطة فى الصحف . اننى أرجو الأمير أن يحتفظ بنسخة عنده وأن يوصل النسخة الأخرى الى آجلايا ايفانوفنا ايباتشيننا . هذه ارادتى . وأنا أوصى بهيكلى العظمى لأكاديمية الطب خدمةً للعلم .

« لا أعترف لأحد بحق الحكم عليّ ، وأعلم أنني الآن في منجى من كل قضاء . منذ مدة قصيرة راودتني فكرة مضحكة . تساءلت : لو بدا لي فجأة أن أقتل أحد الناس ، أو أن أذبح عشرة أشخاص مرة واحدة ، أو أن أقترب أية جريمة فظيعة ، أن أرتكب أقطع جريمة يمكن أن يتحدث عن هولها الناس ، فما أشد الارتباك الذي سأضع فيه المحكمة وأنا لم يبق لي من الحياة الا أسبوعان أو ثلاثة ، وقد أُلغى الاستجواب والتعذيب ؟ لو فعلت هذا لأتبع لي أن أموت مرفقاً مدلاً في المستشفى ، محاطاً بعناية الأطباء ، وقد يتوفر لي من الراحة والدفع هناك أكثر كثيراً مما يتوفر لي في بيتي . لا أفهم كيف لا تخطر هذه الفكرة ببال الناس الذين يكونون في مثل حالتى ، ولو من قِبل المزاح . لعل الفكرة خطرت ببالهم فعلاً ، فليس الفكهون هم الذين يتقصوننا أو ينقصون غيرنا .

« ولكن اذا كنت لا أعترف بقضاه يحكمون عليّ ، فهذا لا ينفي أنني أعرف أن الناس سيحكمون عليّ ، حتى حين أكون قد أصبحت منهما أصمّ أبكم . لذلك لا أريد أن أمضى قبل أن أترك رداً حراً بغير اكراه ، لا لأبرر نفسي ، لا ، لا ! فما أنا في حاجة الى أن أطلب عفراً من أحد ، بل لأننى أحب أن أترك رداً ، ولأننى أجد في ذلك لذة .

« اليكم أولاً هذه الفكرة الغريبة : من ذا الذى يستطيع - وبأى حق ولأى سبب ؟ - أن ينكر عليّ حرية التصرف في حياتى خلال هذين الأسبوعين أو هذه الأسابيع الثلاثة ؟ أية محكمة يمكن أن تكون جهة الاختصاص في هذا ؟ وما عسى أن تكون الفائدة لا من أن أكون مقضياً عليّ بالموت فحسب ، بل كذلك من أن أحتمل المدة الباقية لتنفيذ الحكم بالموت مدعناً عاقلاً ؟ هل يمكن أن ينتفع أحد بهذا حقاً ؟ هل تستفيد قضية الأخلاق من هذا فعلاً ؟ كان يمكن أن أقبل هذا الكلام لو كنت

أنتظر ، وأنا فى تمام العافية وفى كمال القوة ، أن يأتى حينٌ « أكون فيه نافعاً لأخى الانسان » النخ الخ ... ان الأخلاق تستطيع عندئذ أن تتهمنى ، منقاداً لروتين عتيق بال ، بأننى تصرفت فى حياتى دون استئذان ، أو أن تتهمنى باقتراف ذنب آخر من هذا النوع !... أما الآن وقد أُبلغت موعد موتى ، فبماذا يمكن أن أُنهم ؟ ما هى تلك الأخلاق التى تطلب منك بالإضافة إلى حياتك ، تلك الحشجة الأخيرة التى تلفظ أثناءها آخر ذرة من روحك ، سامعاً تلك الكلمات المواسية المزيّة التى لن يفوت الأمير أن يقولها لك وأن يصل منها إلى براهين مسيحية على أن من الأفضل لك حقاً أن تموت ؟ (ان أمثاله من المسيحيين يصلون دائماً إلى تلك الفكرة ، فهى موضوع هوسهم !) • ما الذى يريدونه من حديثهم المضحك عن « أشجار بافلوفسك » ؟ أيريدون أن يجعلوا ساعاتى الأخيرة أرفق وألطف ؟ أهم لا يدركون اذن أنني على قدر ما أنسى نفسى فأفقد لنواية هذا الشبح الأخير من الحياة والمحبة الذى يأملون أن يخفوا به عن بصرى حائط منزل ماير وكلّ ما هو مسجّل عليه بصراحة كبيرة وسذاجة تامة ، أنني على قدر ذلك يزداد شقائى وتتفاقم تعاستى ؟ فيم تهمنى الطبيعة الجميلة وحديقة بافلوفسك العامة ، وفيم يهمنى شروق الشمس وغروبها ، والسماء الزرقاء والوجوه الرضية الرخية ، إذا كنت الشخص الوحيد الذى يُعدُّ غير مفيد ، وإذا كنت الشخص الوحيد الذى أُبعد عن هذه الوليمة منذ البداية ؟ ما حاجتى إلى كل ذلك السناء وكل تلك الروعة إذا كان يجب علىّ فى كل دقيقة ، وفى كل ثانية ، أن أعلم مجبراً أن تلك الذبابة الصغيرة التى تدندن الآن حولى فى شعاع شمس ، يحق لها أن تشارك فى تلك الوليمة وأن تشارك فى جوقة الطبيعة هذه • انها تعرف المكان المحفوظ لها ، وهى تحبه وهى سعيدة به • أما أنا فأننى وحيدى النبوذ ؟ ولم يمننى عن فهم ذلك حتى الآن إلا الجبن •

« اننى أعلم أن الأمير وسائر الآخرين يريدون أن يحملونى على العدول عن هذه التعابير « الحاقدة الكارهة » ، ويودون لو يسمعوننى أنشد ، باسم انتصار الأخلاق ، تلك الأبيات الشعرية الكلاسيكية الشهيرة التى أنشدها ملفوى اذ قال :

ألا فليَرَ جمالك المقدس
أصدقاء كثيرون ، ضُمّت آذانهم عن سماع وداعى !
ولتطل أعمارهم ، ولتُذرف لموتهم الدموع
ولتطبق أجفانهم يدا صديق

« ولكن صدّقوا أيها البسطاء ، صدّقوا كل التصديق ، أن فى هذه الأبيات الواعظة وفى هذه المباركة الأكاديمية للعالم بشعر فرنسى ، كثيراً من المرارة الحبيثة ، وكثيراً من البغضاء التى لا يشفى لها غليل ، البغضاء التى تلتذذ بنفسها ؛ وأن تلك المرارة وهذه البغضاء بلغت من القوة والشدة أن الشاعر نفسه يمكن أن يكون قد انطلى عليه الأمر فحسب الكره والحدّ دموع حنان وعبرات عاطفة • ولا شك أن الشاعر مات وهو على ذلك الوهم • رحمه الله ! اعلّموا أن هناك حدّاً للغم والقهر والنكد الذى يحدثه فى نفس الانسان شعوره بأنه لا شيء ، وبأنه عاجز ، فاذا تجاوز الانسان ذلك الحد غرق فى لذة خارقة •

« صحيح أن المذلة هى بهذا المعنى قوة ضخمة • اننى اسلم بهذا •
ولكن هذه القوة ليست القوة التى يجدها فيها الفن •

« آه ••• الدين ! اننى أسلّم بالحياة الأبدية • ولعلنى كنت أسلّم بها دائماً • أحب فعلاً أن أعتقد أن الشعور شعلة أوقدتها ارادة قوة عليا • وأنه يعكس فى ذاته الوجود ، وأنه يقول : « أنا موجود » • وأحب أن أومن أيضاً بأن هذه القوة العليا نفسها تأمره دفعة واحدة بأن ينطفىء ،

لحكمة بعيدة غامضة ، وبدون أى تفسير • ليكن • اننى اسلم بهذا كله .
ولكن يبقى السؤال الأبدى : لماذا يجب علىّ أن أضيف الى هذا الاجبار
اذعائى وذلى ؟ ألا يكفى أن ألتهم فحسب ، دون أن أتغنى بمدح ذلك
الذى يלתهمنى ؟ هل يمكن أن يوجد هناك فى الملأ الأعلى أحد يسىء اليه
حقاً ويؤذيه فعلاً أن لا أريد انتظار ساعتى أسبوعين ؟ لا ، لا أصدق هذا !
بل افترض - وذلك أقرب كثيراً الى الصحة - أن تكون حياتى المسكينه
التي هى حياة ذرة ، قد وجدت حاجة الى زوالها لاكمال اسعاجم كلى
شامل ، لتحقيق زيادة معينة أو نقص معين ، لايجاد نوع من تضاد أو
تعارض أو شيء من هذا القليل ، كما توجد حاجة الى التضحية كل يوم
بملايين الكائنات التي لا يمكن أن يبقى العالم ما لم تمت (لاحظوا أن
هذه الفكرة ليست سمحة في ذاتها) • ولكن فلننتقل من هذا • لنسلم
بأنه اذا لم يأكل البشر بعضهم بعضاً ، يستحيل بناء العالم ؛ بل ولأترض
أن لا أفهم من هذا البناء شيئاً • ولكن اليكم ما أعلمه حتماً : اذا كنت قد
أوتيت أن أدرك أنتى « أوجد » ، فهل أنا مسئول عن كون هذا العالم قد
بنى مقلوباً وأنه لا يمكن أن يوجد الا بهذه الطريقة وعلى هذا النحو ؟
من ذا سيحكم علىّ بعد هذا ، والى أى شيء سيستند ليحكم علىّ ؟ فكروا
فى الأمر ما شئتم أن تفكروا ، فلن تستطيعوا أن تنكروا أن هذا كله
يستحيل تصوره ، وأنه كله ظلم لا عدل •

« على أنتى لم أستطع فى يوم من الأيام ، رغم كل رغبتى فى ذلك ،
أن أتصور أن الحياة الآخرة والعناية الالهية لا وجود لهما • فأغلب الظن
أن ذلك كله موجود ، ولكننا لا نفهم شيئاً لا عن الحياة الآخرة ولا عن
القوانين التي تحكمها • ولكن اذا كان هذا يصعب بل يستحيل فهمه ،
فهل أحاسب أنا على عجزى عن ادراك ما لا يمكن تصوره ؟ صحيح
أنهم يدعون - وهذا رأى الأمير قطعاً - أن من الواجب علينا هنا أن

نخضع ونطيع دون تفكير ، بداعى الحس الأخلاقي وحده ؛ وهم يضيفون الى ذلك أن طواعيتي ستجد في الحياة الآخرة مكافأتها • ألا أننا نخفض قيمة العناية الالهية كثيراً حين ننسب اليها أفكارنا غضباً من العجز عن فهمها • ولكنني أعود فأكرر قولي بأن الانسان اذا عجز عن فهم العناية الالهية فمن الصعب أن يتحمل تبعة عجز عن الفهم فُرض عليه فرضاً وجعل له قانوناً • واذا كان الأمر كذلك فكيف يحكم علىّ لأنني لم أستطع أن أفهم ارادة العناية الالهية وأن أدرك قوانينها ؟ لا ! الأولى أن ندع الدين جانباً •

« وكفى هذا ، على كل حال ! حين سأصل الى هذه الأسطر ستكون الشمس قد طلعت ، وستأخذ » وترجع في السموات « مغدقة على الكون كله قوى واسعة لا تعد ولا تحصى ! لتكون مشيئة الله ! سوف أموت متأملاً وجه ينبوع القوة والحياة هذا ، ينبوع هذه الحياة التي لن أريدها بعد اليوم • لو كانت ولادتي مرهونة بارادتي، لرفضت الوجود في ظل ظروف ساخرة الى هذا الحد • ولكنني ما أزال أقدر أن أموت ، وان كنت لا أملك الا بقية حياة أصبحت أيامها منذ الآن معدودة • هذه قدرة ضئيلة ؛ وليس تمردي أقل ضالة منها •

« شرح أخير : اذا مت فإن ذلك لا يرجع الى انني لا أملك الشجاعة اللازمة لاحتمال هذه الأسابيع الثلاثة • ان في وسعي حتماً أن أجحد القوى الضرورية لاحتمالها ؛ ولو شئت لكان في امكاني أن أستمع عزاء كافياً من الشعور بالاهانة التي ألحقت بي • لكنني لست شاعراً فرنسياً ، ولا أحرص على هذا النوع من العزاء • ثم ان هناك اغراء : ان الطبيعة حين قضت بأن لا أعيش الا ثلاثة أسابيع قد بلغت من تضيق ساحة عملي أن الانتحار ربما كان الآن هو الفعل الوحيد الذي أستطيع أن أقوم به وأن انفذه بارادتي الحرة • فلماذا لا أستغل هذه الامكانية الأخيرة التي

تساح لى من أجل أن « أعمل » ؟ رب احتجاج له قيمته فى بعض الأحيان

أنهى هيبوليت أخيراً قراءة « الشرح » ، فوقف ...

ان الانسان العصبى ، اذا غضب غضباً شديداً وخرج عن طوره ، يمكن فى حالات قصوى أن يمضى فى الصراحة الى درجة الاستخفاف والاستهتار . فلا يخشى بعدئذ شيئاً ، ويكون مستعداً لاثارة أية فضيحة ، حتى لقد يفتته هذا ويخلب لبه . انه يهجم على الناس وقد عقد النية بصورة غامضة لكنها حاسمة على أن يلقى بنفسه بعد دقيقة واحدة من أعلى برج نلوس ، فيصفى بذلك ، دفعةً واحدة ، جميع الارباقات والمشكلات التى يكون قد خلقها سلوكه . وهذه الحالة يسبقها فى العادة وينذر بها انهك يعترى القوى الجسمية شيئاً بعد شيء . ان التوتر الشديد ، غير السوى ، الذى سند هيبوليت حتى ذلك الحين ، كان قد بلغ تلك المرحلة . فجسم هذا المراهق الذى يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، والذى هدّم المرض ، كان يبدو ضعيفاً ضعف ورقة مرتجفة انتزعت من الشجرة . لكنه ما ان نظر الى ساميه - لأول مرة منذ ساعة - حتى عبرت نظرتة وابتهامته فوراً ، عن أكبر اشمئزاز متعال ، وعن أشد احتقار جارح . لقد كان يتعجل أن يتحداهم ، لكن هؤلاء قد امتلأوا استياء وانزعاجاً . فنهضوا عن المائدة يضجون غضباً . ان التعب والحمة وتوتر الأعصاب ، ان ذلك كله قد فاقم الفوضى وزاد عكر المشاعر فى هذا الاجتماع . نهض هيبوليت عن كرسيه بوثبة ، نهض نهوضاً مفاجئاً كأنما هو انتزع انتزاعاً . فلما رأى ذرى الأشجار تسطع بالنور هتف يقول للأمير وهو يشير له اليها ، كما لو كان ذلك معجزة من المعجزات :

— طلعت الشمس ! طلعت الشمس !

قال فردشتشكو :

– أتراك كنت تظن أنها لن تطلع ؟

ودمدم جانبا يخول معبراً عن الضجر وقلة الاكتراث ، متساولاً
قبعته بيده ، متمطياً ومتثائباً :

– الجؤ يؤذن بنهار آخر محرق • هل أماننا شهر آخر من جفاف ؟ •
أنصرف أم نبقي يا بتسين ؟

أصغى هيوليت الى هذه الكلمات بدهش يشبه أن يكون انشدها •
وشحب لونه على حين فجأة شحوباً فظيعاً ، وأخذت أعضاؤه كلها
ترتئش •

قال لجانيا وهو يحدق الى بياض عينيه :

– تتصنع قلة الاكتراث لتهيننى ! أنت رجل تافه !

قال فردشتشكنكو :

– يا سلام ! ما هذا الانطلاق فى الكلام بغير تحرج ؟ يا للاسترسال
الهائل الذى لا يعرف الكلفة !

قال جانيا :

– ما هو الا شاب غبى لا أكثر !

استرد هيوليت شيئاً من سيطرته على نفسه وكظم غيظه ، وبدأ يتكلم
فقال وهو ما يزال يرتئش ويقاطع نفسه فى كل لحظة :

– اننى أفهم أيها السادة أن أكون جديراً بحقدكم الشخصى ، و •
يؤسفنى أننى أزعجتكم بقراءة هذا الهذيان لكم (قال ذلك وهو يظهر
مخطوطته) • ولكن يؤسفنى من جهة أخرى أننى لم أضايحكم مزيداً من
المضايقة (قال هذا وابتسم ابتسامة بلهاء) • أليس صحيحاً يا أوجين
بافلوفتش أننى كنت مزعجاً مضجراً ؟ أكنت مضجراً أم لا ؟ تكلم !

أجاب أوجين بافلوفتش :

- كانت المقالة طويلة بعض الطول ، ولكن ... على كل حال ..
فقال هيوليت وهو ما يزال يرتجف :
- قل فكرتك كلها ، لا تكذب ! مرة واحدة في حياتك على

الأقل ...

قال أوجين بافلوفتش وهو يشيح وجهه مشمئزاً :

- أوه ! مستوى عندى تماماً ... دعنى وشأنى ، أرجوك .

قال بتسين وهو يقترب من المضيف :

- طابت ليلتك يا أمير .

وهتفت فيرا تقول مسرعةً نحو هيوليت :

- لكنه سيطلق النار فى رأسه ، ما بالكم ! انظروا اليه ! قال انه

سيبتحر عند طلوع الشمس ، ماذا تفعلون ؟

كانت فيرا فى ذروة الذعر حتى لقد أمسكت يديه .

فدمدمت عدة أصوات ، منها صوت فانيا ، تقول بلهجة كارهة :

- لن يبتحر !

صاح كوليا وقد أمسك يد هيوليت هو أيضاً :

- حذار أيها السادة انظروا اليه ! أمير ، أمير ، كيف تبقى غير

مكتثر ؟

تجمع حول هيوليت كل من فيرا وكوليا وكيللر وبوردوفسكى ،

وتشبث الأربعة به .

تمتم بوردوفسكى يقول :

- هذا من حقه ، هذا من حقه ! ...

ولكن بوردوفسكى كان يبدو عليه أنه فاقد عقله تماماً •
وقال ليديف للأمر يسأله :

- اسمح لى يا أمير ؟ ما هى الاجراءات التى تنوى اتخاذها ؟
كان ليديف مخموراً ، وكان اندفاعه يستحيل الى وقاحة •
سأله الأمير :

- أية اجراءات تعنى ؟

- لا ، اسمح لى ! أنا هنا سيد الدار ، وان كنت لا أريد أن أقلل
ما احمله لك من اعتبار !... انتى أسلمت بأن هذا البيت بيتك أيضاً ...
ولكننى لا أريد مشاكل من هذا النوع تحت سقفى ... لا ...
لا أريد !... •

وصاح الجنرال ايفولجين يقول فجأة بلهجة فيها ثقة وامتعاض على
قدر سواء :

- لن ينتحر • هذا الصبى مهرج !
فصاح فردشتشسكو يقول مجدداً :

- مرحى يا جنرال !
قال ليديف :

- أنا أعرف أنه لن ينتحر يا جنرال ... أيها الجنرال المحترم جداً
... ولكننى مع ذلك ... أنا هنا سيد الدار •
ودع بتسين الأمير ، ومدّ يده الى هيوليت • وقال له بفتة :

- اسمع يا سيد تيرتيف : ورد فى كتابك ذكر لهيكلك العظمى
فيما أظن ، وورد أنك تورثه أكاديمية الطب ، أليس كذلك ؟ فهل تقصد
هيكلك العظمى أنت ؟ أعظامك تورث ؟

- نعم ، عظامى ...

- آ ... طيب • ذلك أن من الممكن أن يحدث سوء فهم • يظهر
أن شيئاً من هذا سبق أن وقع •
تدخل الأمير فجأة يسأل بتسعين :

- لماذا تفيظه ؟

وأضاف فردشتشكو قائلاً :

- لقد أبكىته !

لكن هيوليت لم يكن يبكى البتة • وقد همّ أن يقلت ، لكن
الأشخاص الأربعة الذين كانوا يحيطون به ، لم يلبثوا أن قبضوا عليه •
وانطلقت ضحكات •

قال روجوين :

- كان يأمل أن نوثق يديه لنصده عن الانتحار ، لذلك قرأ لنا
دفتره • استودعك الله يا أمير • لقد طال جلوسنا حتى أصبحنا نحس بألم
فى عظامنا •

وقال أوجين بافلوفتش ضاحكاً :

- لو كنت فى مكانك يا تيرتيف ، وكان فى نيتى أن أنتحر فعلاً ،
لمدلت عن الانتحار بعد هذه الأماديع التى كالوها جزافاً ، ولو لأغاظتهم
على الأقل !

فقدفه هيوليت بقوله وكأنه يريد أن ينقض عليه من فرط غضبه :

- انهم يتمنون أن يرونى أنتحر !

قال أوجين بافلوفتش :

- انهم ليخبطهم كثيراً ان لا يروا هذا المنظر !

- أأنت أيضاً تظن اذن أنهم لن يروه ؟
فأجاب أوجين بافلوفتش بلهجة بطيئة يصطنع فيها مظهر الحماية له:
- لا أريد أن أحضك عليه • بالعكس : أنا أعتقد بأنك قادر على أن
تتحرر ، لكننى أرجوك خاصة أن لا تعضب
قال هيبوليت وهو ينظر الى أوجين بافلوفتش بلهجة تبلغ من الثقة
المفاجئة أنه كان كمن يطلب نصيحة من صديق :
- لم أدرك الا الآن الخطأ الضخم الذى ارتكبته اذ قرأت عليهم
دفترى !
فأجابه أوجين بافلوفتش قائلاً وهو يتسهم :
- وضعت عجب مضحك ! بصراحة : لا أدرى ما هى النصيحة
التى يمكن أن أسديها اليك !
فحدّق اليه هيبوليت صامتاً ، بنظرة وحشية عنيدة • كان يبدو كمن
يفقد ادراك ما يجرى حوله من حين الى حين •
قال ليديف :
- آآآ لا اسمحوا لى يا سادة ! ما هذه طريقة فى التصرف •
هو يصرخ بأنه « سيطلق النار فى رأسه بالحديقة العامة حتى لا يزعج
أحدًا » ، فهل يعتقد اذن بأنه لن يزعج أحدًا اذا هو انتحر فى الحديقة
على بعد ثلاث خطوات من هنا ؟
وأراد الأمير أن يتكلم فقال :
- أيها السادة
ولكن ليديف قاطعه غاضباً يقول :
- لا ، اسمح لى ، أيها الأمير الجليل ! انك لترى بنفسك أن هذا
ليس مزاحاً • ان نصف ضيوفك على الأقل يشتركون فى الاقتناع بأن

الشرف يوجب عليه ، بعد الذى سمعناه من كلام ، أن يبادر الى الانتحار .
ولما كنت أنا رب المنزل ، فانتى أطلب معونتك وأناشدك أن تهب الى
مساعدتى أمام شهود .

– ما الذى يجب أن نعمله يا ليديف ؟ أنا مستعد لمساعدتك .
– اليك ما يجب أن نفعله : يجب أولاً أن يسلمنا المسدس الذى
افتخر بأنه يحمله ، وأن يسلمنا ذخيرته . فاذا وافق على ذلك ، وافقت
أنا على أن يقضى الليلة هنا ، مراعاةً لمرضه ، ولكن على شرط أن أراقبه ؛
ثم يكون عليه أن يمضى فى الغد الى حيث يشاء أن يمضى . معذرة
يا أمير ! اذا لم يسلم سلاحه ، فسأقبض أنا على احدى ذراعيه ، ويقبض
الجنرال على ذراعه الأخرى ، ونرسل فى طلب الشرطة حالاً ، فتتولى
هى الأمر وتمسك بزمام القضية . وسيتولى السيد فردشتشكو ابلاغ
الشرطة بصفته صديقاً .

وقامت جلبة : ليديف يتحمس ويتعدى حدود القصد والاعتدال ؛
وفردشتشكو يتهماً للذهاب الى الشرطة ؛ وجانيا يكرر مصرراً ملحاً أن
هيوليت لن يحاول الانتحار . أما أوجين بافلوفتش فقد لزم الصمت .

قال هيوليت يسأل الأمير بصوت خافت :

– هل اتفق لك يا أمير أن سقطت يوماً من أعلى برج ناقوس ؟

فأجابه الأمير بسداجة :

– لا ... لا !

وعاد هيوليت الذى كانت عيناه تلتصمان ، عاد يهمس من جديد
قائلاً :

– أظن أنني لم أتبأ بهذه الكراهية كلها ؟

ثم صاح يقول على حين فجأة ، مخاطباً الجمع كافة :

- كفى ! لقد أخطأت ... أكثر من أى شخص آخر ! يا ليديف ،
اليك المفتاح (قال ذلك واستل من محفظته حلقة من الفولاذ تتدلى منها
ثلاثة مفاتيح صغيرة أو أربعة) ، أقصد هذا المفتاح ... الذى هو قبل
الأخير ... سيريك كوليا ... يا كوليا ! أين كوليا (كذلك صاح ينادى
وهو ينظر الى كوليا دون أن يراه ...) آ ... نعم ! ... طيب ! هو الذى
سيريك ... لقد ساعدنى منذ قليل فى ترتيب حقيتى . اذهب معه
يا كوليا . فى حجرة الأمير ، تحت المنضدة ... ستجد حقيتى ...
وبواسطة هذا المفتاح ستجد فى الصندوق الصغير الموجود فى قاع الحقيبة
... مسدسى ووعاء البارود . ان كوليا نفسه هو الذى رتب لى الحقيبة
منذ قليل . سيريك كل شئ . يا سيد ليديف . ولكننى اشترط أن تردّ
الىّ المسدس فى صباح الغد ، حين أسافر . هل تسمع ؟ اننى لا أفعل هذا
ارضاءً لك أنت ، بل ارضاءً للأمير .

قال ليديف وهو يمسك المفتاح :

- فهذا أفضل !

قال ليديف ذلك وركض الى الغرفة المجاورة وهو يتسهم ابتسامة
مسمومة . ووقف كوليا كمن يريد أن يعترض ، لكن ليديف جرّ معه .
رأى هيوليت الضيوف يضحكون . ولاحظ الأمير أن أسنانه كانت
تصطك كأنما هو يعانى حمى شديدة .

ودمدم هيوليت يقول فى اذن الأمير من جديد بلهجة غاضبة :

- ما أحقر هؤلاء الناس جميعاً !

كان من أجل أن يكلم الأمير ، يميل عليه دائماً ، ويخاطبه بصوت
خافت ، همساً .

قال له الأمير :

— دعهم وشأنهم ! انك ضعيف جداً ...

— فوراً ، فوراً ، سامضى فوراً ...

قال هيبوليت ذلك وقبّل الأمير فجأة . وأضاف وهو ينظر اليه
ضاحكاً ضحكة خاصة :

— لعلك تظن اننى مجنون ، أليس كذلك ؟

— لا ، ولكنك ...

— فوراً ، فوراً ، اسكت . لا تقل شيئاً ... انتظر ... أريد أن
أنظر الى عينيك ... ابق كما أنت ، حتى أستطيع أن أنظر اليك . اننى
أودّع انساناً .

وتوقف عن الكلام وتأمل الأمير ساكناً صامتاً خلال عشر نوان .
كان شديد الاصفرار ، وكان العرق يتقاطر فى صدغيه ، وكانت يده
متشبثة بالأمير تشبثاً عجيباً كأنه يخاف أن يفلت الأمير منه .
صاح الأمير يسأله :

— هيبوليت ! هيبوليت ! ماذا بك ؟

— فوراً ، حالاً .. سوف أنام ... أريد أن أشرب كأساً ، نخب
الشمس .. أريد هذا .. أريد هذا ... دعنى أفعل !

ومن مكانه ، أمسك الكأس بسرعة ، ثم رفعها ومضى بوثة واحدة
الى مدخل الشرفة . وهمّ الأمير أن يركض وراءه . ولكن شاءت
المصادفة ، بما يشبه العمد ، أن مدّ اليه أوجين بافلوفتش يده فى تلك
اللحظة نفسها مودّعاً . فما انقضت دقيقة واحدة ، حتى كان يدوى فى
الشرفة صراخ عام على حين فجأة ، أعقبه اضطراب شديد .

اليكم ما حدث :

حين وصل هيبوليت الى مهبط الشرقة ، توقف عن السير ممسكاً الكأس بيده اليسرى ، وأدخل يده الأخرى في الجيب الأيسر من معطفه . وقد أكد كيللر فيما بعد أن يده كانت في تلك الجيب منذ أن كان يتحدث مع الأمير ممسكاً كتفه وتلييه باليد اليسرى . حتى ان حركته هذه باليد اليسرى هي التي أثارت فيه ، هو كيللر ، أول اشتباه . ومهما يكن من أمر فإن كيللر قد اندفع يلاحق هيبوليت ، يحضه على ذلك نوع من التخوف . لكنه هو أيضاً لم يدركه في الوقت المناسب . كل ما هنالك أنه أبصر شيئاً يلتصق في يد هيبوليت اليمنى ؛ ثم رأى قوهة مسدس صغير للجيب تطبق على صدغ المريض . وقد هرع اليه ليمسك ذراعه ، لكن هيبوليت كان قد ضغط على الزناد في تلك اللحظة نفسها ؛ فسُمت قرقة كلبِ المسدس ، لكن الطلقة لم تخرج . وهجم كيللر على هيبوليت واستسلم هيبوليت للسقوط كمن أغشى عليه ، ولعله كان يظن أنه مات فعلاً . وأصبح المسدس في يدي كيللر ، واستولى الآخرون على هيبوليت وقربوا اليه كرسياً أجلسوه عليه ، وتحلقوا جميعاً حوله يصرخون ويسألون . انهم بعد أن سمعوا قرقة الزناد ، رأوا الرجل حياً سليماً حتى من أي خدش . وكان هيبوليت جالساً لا يعرف ماذا يجري ، ويسجل على ما حوله نظرة زائغة . وفي تلك اللحظة دخل ليديف وكوليا مسرعين كهبوب الريح .

كان الحضور يسألون من هنا ومن هناك :

— هل خابت الطلقة ؟

وقال بعضهم :

— لعل المسدس لم يكن محشواً منذ البداية !

فصاح كيللر يقول بعد أن فتش السلاح :

— بل المسدس محشو . لكن ...

— فكيف أمكن أن تخبى الطلقة ؟

قال كيلر :

— لم يكن ثمة كبسولة •

يصعب على المرء أن يصف المشهد الأليم الذى أعقب ذلك •

ان الذعر العام الذى سيطر فى اللحظة الأولى لم يلبث أن حل محله
مرح شامل • حتى ان بعض الأشخاص ضجوا بالضحك صاخين، ووجدوا
فى الموقف مجالاً لتندر خيث وتفكه ماكر • كان هيبوليت يبكى ناشجاً ،
ويقف ذراعيه مثلاً ، كأنما اعترته نوبة عصبية • ويرتمى على جميع
الناس حتى على فردشتشكو معانقاً اياه بكلتا يديه حالفاً بأغلظ الأيمان
أنه نسى وضع الكبسولة نسياناً « عرضياً طارئاً بغير ارادة » ، مضيفاً أن
جميع الكبسولات ، وعددها ست ، موضوعة هنا فى جيب صديرتيه ، فهذه
هى ، لكنه تركها فى مكانها مخافة أن تنطلق الطلقة من المسدس مصادفةً
فى الجيب ، على أساس أن فى وسعه أن يضع الكبسولة فى الوقت الذى
يشاء ، غير أنه نسى فجأةً أن يفعل ! كان هيبوليت يتجه بكلامه الى الأمير
والى أوجين بافلوفتش واحداً بعد واحد • ويضرع الى كيلر أن يردّ اليه
المسدس ليستطيع أن يبرهن فوراً على أن « شرفه •• نعم •• شرفه •• »
••• لكن شرفه « قد تلطنح الآن الى الأبد ! » •••

ثم تهاوى مغشياً عليه بالفعل • فنُقل الى حجرة الأمير • وكان
ليديف قد زايله سكره تماماً فأرسل فى طلب طبيب على الفور ، وبقي
هو وابنته وابنه وبوردوفسكى والجنرال حول سرير المريض •

حين نُقل هيبوليت الى حجرة الأمير مغشياً عليه ، وقف كيلر فى
وسط الغرفة وصاح يقول على رؤوس الأشهاد ، بلهجة جازمة قاطعة ،
مفصّلاً كل كلمة من كلماته :

— أيها السادة ، اذا أعلن أحد منكم مرةً أخرى ، بحضورى ،
الافتراض القائل بأن هبوليت تعمّد أن ينسى الكبسولة ؟ اذا ادعى أحد
منكم أن الشاب الشقى المسكين كان يمثل تمثيلاً ، فليكون له معنى
شأن !... .

لم يجبه أحد • وكان الضيوف قد تفرقوا أخيراً جماعات ، وانصرفوا
مسرعين • ومضى بتتسين وجانيا وروجوين معاً •

أدهش الأمير أن يرى أوجين بافلوفتش يغيّر رأيه ويمضى قبل
أن يتحدث اليه كما طلب • فسأله :

— ألم تكن تريد أن تتحدث معى قبل انفضاض الحفل ؟

فأجابه أوجين بافلوفتش وهو يجلس فجأة ويجلس الأمير الى
جانبه :

— صحيح • لكننى غيّرت رأيى الآن • اعترف لك باننى منفعل ،
وأعرف أنك منفعل أنت أيضاً • أفكارى مشتتة مضطربة • ثم ان المسألة
التي كنت أريد أن أكاشفك فيها تهمنى الى أبعد الحدود ، وتهمك الى أبعد
الحدود • لقد أردت يا أمير أن أقوم ، ولو مرةً واحدة فى حياتى ، بعمل
شريف كل الشرف ، أعنى بعمل خالٍ من كل غرض خبيء ، مبرأ من أية
فكرة مبيتة ! واذ أننى لا أملك الآن ، فى هذه الدقيقة ، أن أكون قادراً
على ذلك كل القدرة ؟ واذ أنك قد تكون أنت أيضاً فى مثل حالتى ...
ف ... ف ... فلنرجى تلك المكاشفة الى وقت آخر • من الجائز أن
تضح الأمور لى ولك على السواء ، اذا تركنا الأمر يومين أو ثلاثة ،
وهذه هى المدة التى أنوى أن أقضيها فى بطرسبرج •

قال أوجين بافلوفتش ذلك ونهض عن كرسيه من جديد ، فلا يفهم

المرء لماذا جلس قبل ذلك • أحس الأمير أنه كان مستاءً غاضباً ، ولاحظ له في نظريته عداوة لم تعبر عنها من قبل • وسأل الأمير فجأة :

— بالمناسبة ، أتت ذاهب الى المريض الآن ؟

فقال الأمير :

— نعم ... أنا خائف عليه !

— لا تخف ! سيعيش ستة أسابيع أخرى ، حتى لقد يشفى هنا • ولكن الأفضل أن تطرده منذ الغد •

— لعلنى قد حرّضته أنا أيضاً بصمتى دون أن أشعر ... لعله ظن أنني كنت أنا أيضاً أشك في صدق عزمه على الانتحار • ما رأيك يا أوجين بافلوفتش ؟

— لا ، بتاتاً ! انك تسرف في طيبة القلب اذا ظللت تكثر بهذا الأمر ! لقد سمعت من يقول ، دون أن تتاح لي فرصة التحقق من هذا الرأي في يوم من الأيام ، أن الانسان قد ينتحر خصيصاً ليجذب اليه مدح الآخرين له ، أو لأنه غاضب من أن أحداً لم يمدحه • وما كان لي أن أصدق خاصة أن المرء يمكن أن يبدي ضعفه ابتداءً يبلغ هذا المبلغ من الصراحة • ولكن مهما يكن من أمر ، يجب عليك أن تطرده منذ الغد !

— هل تعتقد أنه سيكرر محاولة الانتحار ؟

— لا ، لن يكررها • ولكن يجب عليك أن تحذر الروسى الذى ينتمى الى نوع « لاسنير » ! أعود فأقول لك : ان الجريمة هي الملاذ المألوف الذى يلجأ اليه أمثال هؤلاء التافهين العاجزين الذى يحرقهم نفاد الصبر ويأكلهم الحسد أكلاً !

— أهو اذن من نوع « لاسنير » ؟

— الجوهر واحد ، ولكن ربما كان الطرف مختلفاً • لسوف ترى

هل يتورع هذا السيد عن ذبح عشرة أشخاص ، ولو لمجرد أن « يدبّر مقلباً » ، على حد التعبير الذى استعمله هو نفسه حين قرأ دفتره * . ان أقواله ستحرمنى الآن من النوم .

– لعلك تغالى فى مخاوفك .

– ان أمرك لعجيب يا أمير . ألا تصدّق أنه لا يتورع عن أن يقتل «الآن» عشرة أشخاص ؟

– أخشى أن أجيبك . هذا كله عجيب . ولكن ، ولكن ...

ختم أوجين بافلوفتش الكلام قائلاً بلهجة ساخطة :

– طيب . لك ما تشاء ! ثم انك رجل شجاع ! ولكن حاول أن لا تكون أنت نفسك احدى ضحاياه !

قال الأمير وهو ينظر الى أوجين بافلوفتش شارد الذهن :

– الأرجح أنه لن يقتل أحداً .

فضحك أوجين بافلوفتش ضحكة ساخرة مأكرة . وقال :

– الى اللقاء . آن الأوان . بالمناسبة : هل لاحظت أنه يورث آجلايا ابغانوفنا نسخة من اعترافه ؟

– نعم ، لاحظت ذلك ... و ... ودعاني هذا الى التفكير .

قال أوجين بافلوفتش وهو يضحك ساخراً من جديد :

– ذلك ما يؤدى بنا الى الضحايا العشر .

ثم خرج .

بعد ساعة ، بين الثالثة والرابعة من الصباح ، نزل الأمير الى الحديقة العامة . كان قد حاول أن ينام فى بيته ، ولكنه لم يستطع الى ذلك سيلاً ،

بسبب دقات قلبه الشديدة العنيفة • ثم ان كل شيء فى بيته قد عاد الى النظام والهدوء • نام المريض ، وأعلن الطبيب الذى جاء يعوده أنه غير معرض لأى خطر مباشر • وقد نام ليديف وكوليا وبوردوفسكى فى غرفته ليتأوبوا السهر عليه • فلا خوف اذن على شيء •

ومع ذلك كان قلق الأمير يزداد دقيقة بعد دقيقة • ضرب فى الحديقة على غير هدى ، ملقياً حواليه نظرات ذاهلة ، ثم توقف مدهوشاً حين وصل من غابة الحديقة الى البقعة الجرداء التى تقع أمام الفوكسهول ، فرأى صفوف المقاعد الخالية ومساند دفاتر الأوركستر • خطف بصره منظر هذا المكان اذ وجده قبيحاً قبحاً رهيباً ، لا يدرى لماذا ! وعاد أدراجه ، وسار فى الطريق الذى كان قد اتبعه أمس مع أسرة ايباتشين للذهاب الى الفوكسهول • فلما وصل الى الدكة الحضرية ، مكان الموعد المضروب ، جلس وانفجر يضحك ضحكة مفاجئة صاخبة سرعان ما لام نفسه عليها مستاءً أشد الاستياء • لم يبارحه غمه وقلقه • ودَّ لو يضرب فى الأرض على غير هدى ••• أن يذهب الى أى مكان بغير هدف ، وغرّد على الشجرة فوقه عصفور صغير • فأخذ يبحث عنه بعينه بين أوراق الأغصان • وطار العصفور صافقاً جناحيه على حين فجأة • فذكّره رأساً بتلك « الذبابة الصغيرة المدندنة فى شعاع من الشمس محرق » ، التى كتب هيوليت بصدها « أنه يعرف مكانه فى جوقة الطبيعة هذه » حيث لا يوجد دخل غيره ، هو هيوليت • ان تلك الجملة التى سبق أن خطفت انتباهه حينذاك ، تعود الآن الى فكره • واستيقظت فى نفسه ذكرى نائمة منذ زمن بعيد ، فاذا هى تشرق فى هذه اللحظة بضياء مفاجئ •

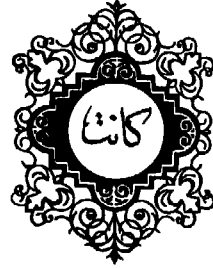
كان ذلك بسويسرا ، أثناء السنة الأولى بل أثناء الأشهر الأولى من معالجة مرضه • كان يُعدّ فى ذلك الحين أبله تماماً • كان لا يستطيع حتى

أن يبتّر عما يريد التعبير عنه ، بلغة سليمة ، وكان فى بعض الأحيان لا يفهم ما يُطلب منه أو يسأل عنه . ومضى ذات يوم الى الجبل ، وكان النهار واضحاً وكانت الشمس متألّثة . ظل مدة طويلة يطوّق على غير هدى ، تصدّبه فكرة أليمة كاوية لكنه لا يتوصل الى صياغتها بكلام . كان يرى أمامه سماء ساطعة ، ويرى تحت قدميه بحيرة رائعة ، ويرى من حوله أفقاً نيراً مضيئاً يبلغ من السعة أنه يسدو بغير حدود . تأمل هذا المنظر مدة طويلة مهصور القلب غمّاً وهماءً انه يتذكر الآن أنه مدّ يديه الى ذلك الأنيانوس من الضياء واللازورد ، وانه ذرف دموعاً غزيرة . كان يعذبه أن يتصور أنه غريب عن هذا كله . ما هذه الوليمة ، ما هذه الحفلة التي لا نهاية لها ، والتي كان يحس أنه منجذب اليها منذ الأزل، منذ طفولته، دون أن يستطيع المشاركة فيها قط ؟ الشمس تطلع مشرقه فى كل صباح . وفى كل صباح يرتسم قوس قزح فوق الشلال . حتى اذا غابت الشمس، التهبّت بنار كالأرجوان ، فى كل مساء ، عند الأفق ، الذروة المغطاة بالثلج من أعلى جبل حول هذه الأراضى . ان كل « ذبابة صغيرة تدندن حوله فى شعاع محرق من شمس ، فتشارك فى جوقة الطبيعة هذه : انها تعرف مكانها ، وتجه ، وهى سعيدة به » . كل عشب تنمو وتسعد ! لكل كائن طريقه الذى يعرفه . يصل ويرحل مغنياً ! أما هو ، فهو الوحيد الذى لا يعرف شيئاً ، ولا يفهم شيئاً ، لا البشر ، ولا أصوات الطبيعة ، لأنه غريب اجنبى فى كل مكان ، ولأنه فى كل مكان دخيل منبوذ . صحيح أنه كان فى ذلك الحين لا يستطيع أن يعبر عن شعوره بهذه الألفاظ ، ولا أن يصوغ سؤاله بهذه العبارات . كان أله أصمّ أبكم . ولكنه يتخيل الآن أنه فى ذلك الحين كان يقول هذا كله بهذه العبارات نفسها . وخيّل اليه أن كلام هيبوليت عن « الذبابة الصغيرة » ، انما هو مأخوذ عنه ومستمد من الدموع التي كان يذرفها فى تلك الأيام . انه مقتنع بهذا ، لا يدري لماذا ؟ وكانت هذه الفكرة تجعل قلبه يخفق .

وغفا على الدكة ، لكن اضطرابه لاحقه حتى فى النوم • تذكر ، حين نام ، ما افترضه أوجين بافلوفتش من أن هبوليت يمكن أن يقتل عشرة أشخاص ، فابتسم لهذه الفكرة المستحيلة السخيفة • وكان يرين حوله صمت مضى جليل • وكان حفيف أوراق الشجر يقوى الهدوء والعزلة • ورأى الأمير أحلاماً كثيرة كانت كلها مقلقة تبعث على الغم ، وتُجرى فى الجسم رعدات لا تنقطع • وأخيراً اقتربت منه امرأة • انه يعرفها ، يعرفها الى حد الألم • انه ما يزال يستطيع أن يسميها ، أن يعيّنّها ، ولكن الشيء الغريب هو أن لها الآن وجهاً آخر مختلفاً كل الاختلاف عن الوجه الذى رآه فيها دائماً • شعر بنفور أليم من رؤيتها فى هذه الملامح الجديدة • أن الوجه يعبّر عن الندم والذعر تعبيراً يبلغ من القوة أن المرء يمكن أن يشعر أن هذه المرأة مجرمة رهية ، وأنها آتية الآن من اقتراف جرم فظيع • كانت ترتجف على وجهها الشاب عبرة • نادته بحركة من يدها ووضعت اصبعاً على شفتيها ، كأنما هى تدعوه أن يتبعها بغير ضجة • انهار قلبه • كان لا يريد أن يرى فيها مجرمة ، بأية من الأحوال ، ولكنه أحس أن حادثاً هائلاً يوشك أن يقع ، وأن هذا الحادث سيؤثر فى مجرى حياته كلها • كان يبدو أنها تريد أن تريه شيئاً ما ، فى مكان غير بعيد ، بالحديقة العامة • نهض ليتبعها ، ولكن ضحكة راقية نضيرة رنّت فجأةً قربه ؛ وإذا يد تصير فى يده على حين بقتة • أمسك اليد بقوة ، واستيقظ من نومه •

كانت آجلانيا أمامه تضحك مقهقهة •

الفصل الثامن



تضحك ، ولكنها كانت مستاءة في الوقت نفسه .
صاحت تقول بلهجة الدهشة والازدراء :
- انه نائم ! أكنت نائماً ؟
فتمتم الأمير يقول قبل أن يسترد وعيه ، وقد

تعرفها مدهوشاً :

- هذا أنت ؟ ها ... نعم ... بيتنا موعد مضروب ... لقد نمت
هنا !

- لاحظت ذلك طبعاً !

- ألم يوقظني أحد غيرك ؟ ألم يجيء الى هنا أحد سواك ؟ ظننت
أن قد كانت هنا ... امرأة أخرى .

- امرأة أخرى هنا ؟

واسترد الأمير وعيه كاملاً آخر الأمر . فقال شارد الذهن :
- لم يكن ذلك الا حلماء . ولكنه حلم غريب ، في هذه اللحظة .
اجلسي .

وشدها من يدها وأجلسها على الدكة ، وجلس هو الى جانبها ،
وغرق في أفكاره وخوابره . لم تقطع آجلايا الصمت واكتفت بأن تحديق
اليه . وكان ينظر اليها هو أيضاً ، ولكنه ينظر اليها في بعض الأحيان
وكأنه لا يراها أمامه . أخذ وجهها يحمر .

قال الأمير مرتعشاً :

- أطلق هيبوليت في صدغه طلقة مسدس •

فسأله دون أن تظهر عليها دهشة شديدة :

- متى ؟ عندك ؟ أمس مساءً ، كان ما يزال حياً فيما أظن !

ثم هفت تقول بحرارة :

- كيف أمكنك أن تجيء تنام هنا بعد حادث كهذا الحادث ؟

قال الأمير :

- لكنه لم يمت • لم تنطلق الطلقة •

وظف الأمير ، تلبيةً لرجاء آجلانيا ، يقص عليها فوراً ، بتفاصيل كثيرة ، كل ما جرى في الليلة الماضية • فكانت تستعجله سرد التهمة بغير انقطاع ، ولكنها تقاطعه هي نفسها بالقاء أسئلة كثيرة متصلة لا تكاد تتعلق بالموضوع • وقد اهتمت اهتماماً خاصاً بما قاله أوجين بافلوفتش ، حتى لقد سألت الأمير مراراً حول هذا • فلما انتهى من سرد القصة قالت :

- كفى هذا ! يجب أن أسرع ! ليس أماناً إلا ساعة واحدة نقضها هنا ، ويجب أن أكون بالمنزل في الساعة الثامنة قطعاً ، حتى لا يعلموا أنني جئت الى هذا المكان • وأنا انما جئت هنا لأمر • ثمة أشياء كثيرة يجب أن أنقلها اليك • لكنك قطعت علىّ تسلسل فكري • ف فيما يتعلق بهيبوليت أعتقد أن مسدسه ما كان يمكن إلا أن يخيب • فهذا يتفق وطبيعة الشخص • ولكن أنت موقن أنه أراد أن يتنحى حقاً ، وأن ذلك لم يكن تمثيلاً ؟

- لا ، لا يمكن ذلك تمثيلاً !

- هذا هو الأرجح فعلاً • وقد أوصى ، كتابةً ، بأن عليك أن

تحمل الى « اعترافه » ؟ فلماذا لم تجئني به ؟

— ألم أقل لك انه لم يمت ؟ سأطلبه منه .

— جئنى به حتماً ، ولا تطلب منه شيئاً . أنا أعلم أن ذلك لا يمكن
الا أن يسرّ ، ولعله لم يشأ أن ينتحر الا لأقرأ أنا بعد ذلك اعترافه .
أرجوك يا ليون نيقولا يقتش ، لا تضحك مما أقوله لك : ان هذا التفسير
قد يكون هو التفسير الصحيح .

— لست أضحك ، فأنا نفسى أعد هذا التفسير جائزاً جداً .
— أنت أيضاً ؟ أيمن أن تكون قد ساورتك هذه الفكرة نفسها ؟
كذلك سألته آجلايا بدهشة مفاجئة .

كانت تسائله متعجلة ، وتتكلم بسرعة ، ويظهر عليها الاضطراب
فى بعض الأحيان ، وكثيراً ما تسكت قبل أن تتم جملتها . وهى فى كل
لحظة تبادر الى ابلاغه هذا الأمر أو تحذيره من ذلك . فكان اضطرابها
شديداً على وجه العموم ، رغم أن نظرتها واثقة بل ومتحدية ، ولعلها
كانت فى قرارة نفسها وجلة .

انها جالسة فى أقصى الدكة ، تكسوها ثياب بسيطة ، فهى ترتدى
ثوباً مما يلبس كل يوم ، لكنه يناسبها كثيراً . وقد ارتعشت واحمرت
مراراً . وقد دهشها أعماق الدهشة أن تسمع الأمير يؤكد أن هيو ليت انما
أطلق على رأسه النار من أجل أن تقرأ هى اعترافه .

قال الأمير شارحاً :

— ولا شك أنه كان يريد ، بغض النظر عنك أنت ، أن تغدق عليه

المديح ...

— المديح ؟ كيف ؟

— أقصد ... كيف أشرح لك هذا ؟ ان التعبير عن هذا الأمر صعب

جداً • لا شك أنه كان يرغب في أن يرى جميع الناس يسرعون اليه فيحتشدون حوله ويعربون له عن عواطف المحبة والتقدير ، ويضرعون اليه أن لا يقتل نفسه • جوائز جداً أنه فكّر فيك أكثر مما فكّر في الآخرين ، فانه في لحظة كذلك للحظة قد سمّاك أنت ••• وان يكن من المحتمل أنه لم يدرك هو نفسه أنه كان يفكر فيك •••

— أصبحت لا أفهم شيئاً : يفكر فيّ دون أن يدرك أنه يفكّر فيّ !
بلى ، بلى ! فهمت ! أظن انني فهمت • هل تعلم أنني أنا نفسي ، حين كنت بنيةً في الثالثة عشرة من العمر ، قد خطر ببالي ثلاثين مرة أن أتجرع سمّاً ، وأن أشرح كل شيء في رسالة أتركها لأبوي ؟ كنت أتصور نفسي مسجاةً في التابوت ، وأتصور جميع أهلي يبكون من حولي ، ويلومون أنفسهم على أنهم كانوا قساة تلك القسوة كلها معي •••

ثم أضافت تقول بقوة وهي تقطب حاجبيها تقطياً شديداً :
— لماذا تبسّم أيضاً ؟ في أي شيء تفكر أنت اذن حين تدخل الى نفسك وتخلد الى العزلة في أحلامك ؟ أتراك تتصور نفسك مارشالاً يقاتل نابوليون ؟

فأجاب الأمير ضاحكاً :

— يميناً ان هذا بعينه هو ما أفكر فيه ، ولا سيما حين أنام • ولكنني لا أقاتل نابوليون بل أقاتل النمساويين •

— انني لا أمارحك البتة يا ليون نيقولايتش • سوف أرى هيبوليت بنفسى ، فأرجوك أن تبلغه رغبتي هذه • أما أنت فاتني أرى أن نظرتك الى نفس في مثل هيبوليت وحكمك عليها تشتملان على شر قبيح ، لأن فيهما فظاظة وغلظة • انك امرؤ خال من عاطفة الحنان • انك لا ترى الا الحقيقة وحدها ، فأنت لهذا ظالم •

أخذ الأمير يفكر • ثم قال :

— بل أنت الظالمة في حكمك عليّ ، فأنا لا أرى أى بأس فى أن تكون تلك الفكرة قد خطرت بباله • ان جميع الناس ينجحون الى أن تراودهم هذه الفكرة • ثم ان من الجائز أن لا تكون تلك الفكرة قد ملكت عليه نفسه ، وانما هى خاطرة ومضت فى ذهنه لا أكثر ! لقد أراد أن يوجد فى المجتمع مرةً أخيرةً ، وأن يستحق اعتبار الناس ، وأن يكون جديراً بمحبتهم • وتلك عواطف عظيمة رائعة • لكن ذلك كله لم يتهياً له • ومرد هذا الى المرض ، والى ما لا أدرى أيضاً ! ... ان هناك أناساً يظفرون بما يريدون ، وأناساً يضلون السبيل الى ما يشتهون ، فيخفق كل ما يحاولون ...

قالت آجلاليا :

— لا شك أنك فكّرت فى نفسك وأنت تقول هذا الكلام !

فتابع الأمير كلامه دون أن ينتبه الى ما اشتملت عليه ملاحظة آجلاليا من مكر :

— نعم •

— على كل حال ، لو كنت أنا فى مكانك لما نمت • أما أنت فتستسلم للنوم حيثما توجد • وليس بالمستحسن أن يصدر هذا عنك •

— ولكننى ظلمت سهران طول الليل ، ثم مضيت أطوّف هنا وهناك ، وذهبت الى مكان الموسيقى ...

— أية موسيقى ؟

— المكان الذى كانت تُعزف فيه الموسيقى مساء أمس ؛ ثم جئت الى هنا ، وجلست ، وفكرت طويلاً ، ثم غفوت ...

... ها ... حقاً ؟ هذا يغيّر الأمر بحيث يشرّفك ولا يضيرك ...
ولكن لماذا ذهبت الى مكان الموسيقى ؟

— لا أدري ... ذلك ما حدث ...

— طيب طيب ، سنتحدث عن هذا فيما بعد • انك تقاطعني دائماً •
فيم يهمني أن تكون قد ذهبت الى مكان الموسيقى ؟ قل لي : من هي المرأة
التي رأيته في الحلم ؟

— انها ... انها ... لقد رأيته أنت ...

— فهمت ... فهمت • انك تحمل لها كثيراً من ... على أية حال
رأيته ! في أية صورة ظهرت لك ؟

ثم أضافت تقول بشيء من غضب مفاجيء :

— على كل حال ، لا أريد أن أعرف عن هذا شيئاً • انك تقاطعني
دائماً • لا تقاطعني •

وتوقفت عن الكلام لحظة كأنما لتسترد أنفاسها أو لتحاول كظم
غضب شبّ في نفسها • ثم أضافت تقول شبه حانقة :

— اليك الأمر الذي من أجله طلبت منك أن تجيء : أريد أن أعرض
عليك أن تكون صديقي • ما بالك تنظر الى هكذا ؟

كان الأمير ، في تلك اللحظة ، ينظر اليها فعلاً بكثير من الانتباه ،
لأنه لاحظ أنها عادت تحمر احمراراً شديداً • وهي في مثل هذه الحالة
يزداد غضبها من نفسها على قدر ازدياد احمرارها ، فذلك يُقرأ في
السماعات عينيها ؛ حتى اذا انقضت دقيقة صبت غضبها على محدّثها في
العادة ، سواء أكان مذنباً أم كان غير مذنب ، فهي تأخذ تناكده باحثة عن
أى وسيلة لمشاجرته • انها لمعرفتها بطبعها المتوحش وبحيائها قلما تتدخل

فى الحديث ، فهى صموت أكثر من أختيها ، حتى ان عيها هو الافراط
فى الصمت • حتى اذا كانت فى ظرف حرج دقيق ، كالظرف الذى
توجد فيه الآن ولا تستطيع أن تستغنى فيه عن الكلام ، فانها تتكلم بتعال
مفتعل وتكبر مصطنع وهيئة فيها شيء من التحدى • وهى تتبأ دائماً
باللحظة التى ستحمر فيها أو ستأخذ فيها بالاحمرار •

قالت للأمير وهى ترشقه بنظرة متعطسة :

— أتراك لا تريد قبول ما أعرضه عليك ؟

فقال الأمير خجلان مضطرباً :

— بالعكس ، أريد جداً • ولكن • • • ولكن هذا لم يكن ضرورياً
البتة • • • أقصد انى لم أكن أتصور أن من الضرورى أن يُصاغ هذا
العرض بالكلام •

— فماذا كنت تظن اذن ؟ ما عسى يكون السبب الذى دعانى أن
أطلب منك المجيء الى هنا ؟ ألعلك تنظر الى نظرتك الى صغيرة حمقاء ،
كما يفعل الجميع فى بيتنا ؟

— لم أكن أعلم أنهم ينظرون اليك نظرتهم الى حمقاء • أنا • • • أنا
لا أنظر اليك هذه النظرة •

— أنت لا تنظر الى هذه النظرة ؟ هذا يدل على ذكاء كبير من
جانبك • وقد قلت كلامك بكثير من براعة الفكاهة على كل حال !

تابع الأمير كلامه فقال :

— بل قد تكونين على قدر كبير من عمق الفهم وسداد الفكر أحياناً •
من ذلك أنك قلت كلمة ملائى بالحكمة منذ قليل : « أنت لا ترى الا
الحقيقة وحدها ، فانت اذن ظالم » • سأظل أذكر هذه الملاحظة وأأمل فيها •

احمرت آجالها لذةً ونشوةً على حين فجأة • كانت هذه التغيرات كلها تحدث في نفسها بسرعة خارقة وانطلاق كامل • وسرَّ الأمير هو أيضاً ، وأخذ يضحك فرحاً وهو ينظر إليها •

وعادت تتكلم فقالت :

- اسمع • لقد انتظرتك طويلاً لأروى لك هذا كله • انتظرتك منذ اللحظة التي كتبتَ إلىَّ فيها رسالتك من هناك ، بل وقبل ذلك ... ولقد سمعتَ في مساء الأمس نصف ما كان عليَّ أن أقوله لك : انني أعذك أشرف انسان وأصدق انسان • وإذا قيل عنك ان في عقلك ... ان في عقلك مرضاً ، فهذا ظلم • انني مقتنعة بما أقول ، وقد دافعت عن اقتناعي هذا • ولئن كان في عقلك مرض حقاً (لا تؤاخذني ان قلت هذا ، فأنا أفهم هذه الكلمة من وجهة نظر سامية) ، فانك تملك من الذكاء الأساسي ما لا يملكه أي واحد منهم ، بل انك تملك من هذا الذكاء قدراً يعجزون حتى عن تصويره • ذلك أن الذكاء ذكاءان : فذكاء أساسي وذكاء ثانوي • أليس كذلك ؟ أليس هذا حقاً ؟

تمتم الأمير يقول بصوت خافت لا يكاد يُسمع :

- قد يكون الأمر كما تقولين •

وكان قلبه يدق دقاً قوياً ، ويخفق خفقاناً غنياً •

وتابست هي كلامها فقالت بلهجة جليلة :

- كنت على يقين من أنك ستفهمني • ان الأمير • شئت ... ، وأوجين بافلتش لا يفهمان شيئاً من هذا التمييز بين الذكابين • وكذلك الكسندرا • ولكن هل تتصور أن ماما قد فهمته ؟

قال الأمير :

— انك تشبهين الزابت الكسندروفنا كثيراً •

فسألته آجلايا مدهوشة :

— كيف ؟ حقاً ؟

— أؤكد لك •

قالت بعد لحظة من تفكير :

— أشكرك • يسعدني كثيراً أن أشبه « ماما » •

ثم أضافت تسأله دون أن تدرك سذاجة سؤالها :

— فأنت تقدرها اذن كثيراً ؟

— كثيراً • واني لسعيد أن أرى أنك قد فهمت ذلك حالاً •

— أنا أيضاً سعيدة ؟ ذلك أننى لاحظت أنهم ... في بعض الأحيان ... يسخرون منها ، ولكن اسمع : ان الأمر الجوهرى هو أننى فكّرت ملياً قبل أن يقع اختيارى عليك • لا أريد أن يسخروا منى فى البيت ، ولا أن يعاملونى فيه معاملة بنت صغيرة طائشة العقل • لا أريد أن يناكدونى ويغيظونى ... لقد فهمتُ هذا كله دفعةً واحدة ؟ ورفضتُ أوجين بافلوفتش رفضاً قاطعاً لأننى لا أريد أن يكون همهم الدائم أن يزوجونى ! أريد ... أريد ... نعم ... أريد أن أهرب من البيت ! وقد اخترتك أنت لتساعدنى فى الهروب •

هتف الأمير يسألها :

— تهربين من البيت ؟

فصاحت تقول له بحركة عنيفة مفاجئة من غضب :

— نعم ، نعم ، ثم نعم ... لا أريد بعد الآن ، لا أريد بعد الآن أن يجعلونى أحمر خجلًا بغير انقطاع • لا أريد أن أحمر لا أمامهم ،

ولا أمام الأمير « شتت • • • » ولا أمام أوجين بافلتش ، ولا أمام أى
 انسان ؛ ولذلك وقع اختيارى عليك • معك أستطيع أن أتكلم فى كل
 شئ • فى كل شئ • حتى فى أخطر الأمور شأنًا اذا حلا لى ذلك •
 وعليك أنت ، من جهتك ، أن لا تخفى عنى شيئاً فى يوم من الأيام •
 أريد أن يكون هناك انسان ، على الأقل ، أستطيع أن أكلمه فى كل شئ •
 كأننى أكلم نفسى • لقد أخذوا يقولون فجأة أنتى انتظرك واننى أحبك •
 بدأ هذا قبل وصولك ، ولم أكن قد أريتهم رسالتك • وهم الآن يرددون
 جميعاً هذه النعمة • أريد أن أكون جسورة فلا أخشى شيئاً • لا أريد
 أن أذهب الى حفلات الرقص التى يقودوننى اليها • أريد أن أكون ناعمة •
 منذ مدة طويلة أريد أن أرحل • ها قد حبسونى عشرين عاماً كاملة ، ثم
 أصبحوا لا يفكرون الا فى تزويجى ، لم يكن عمرى الا أربعة عشر
 عاماً حين أخذت أحلم بالهروب • كنت ما أزال صبية حمقاء • والآن
 رتبت كل شئ ، وانتظرتك لأحصل منك على جميع المعلومات عن الحياة
 فى الخارج • لم أر فى حياتى كاتدرائية قوطية • أريد أن أذهب الى
 روما ، أن أزور مراكز علمية • أريد أن أدرس بباريس • لقد أعددت
 نفسى لهذا فعلت طوال السنة الماضية • قرأت عدداً كبيراً من الكتب ،
 بينها جميع الكتب المحظورة • ان الكسندرا وآديلايد تستطيعان أن تقرأ
 كل شئ • ذلك مسموح لهما به ؛ أما أنا فهذا محظور علىّ ؛ وهم
 يراقبوننى • لا أريد أن اختصم مع أختى ، ولكننى أعلنت لأمى وأبى
 منذ مدة طويلة أننى أنوى تغيير حياتى تغييراً جذرياً • لقد قررت أن أعنى
 بالتربية ، وانى لأعتمد عليك ، فقد قلت لى انك تحب الأطفال • هل تعتقد
 أن فى وسعنا أن نعنى معاً بالتربية ، ان لم يكن الآن ففى المستقبل على
 الأقل ؟ سنقوم معاً بجهد مفيد وعمل نافع • لا أريد أن أكون بنت جنرال
 • • • قل لى : أنت رجل غزير العلم واسع الثقافة ؟

— لا ، بتاتاً ...

— خسارة • كنت أنا أظن ... كيف تخيلت هذا ؟ لا ضير ،
ستوجهنى وسترشدنى ، على كل حال ، ما دام اختيارى قد وقع عليك •
— هذا مستحيل يا آجلایا ایفانوفنا •

صاحت آجلایا تقول وقد أخذت عيناها تتقدان من جديد :

— أريد ، أريد أن أهرب من البيت ! فإذا لم توافق أنت ، فسأتزوج
جبریل آردالیونوفتش • لا أريد أن تنظر الىَّ أسرتى نظرتها الى فتاة
شريرة ، وأن تتهمنى بما لا أدرى من تهم !

هتف الأمير وهو يكاد يشب من مكانه :

— أأنت تملكين عقلك أم لا ؟ بماذا يتهمونك ، ومن ذا يتهمك ؟

— جميع من بالبيت : أمى ، أختاى ، أبى ، الأمير « شتد ... » ،
وحتى صاحبك السىء كولىا ! وإذا كانوا لا يقولون لى شيئاً أمام وجهى ،
فهذا لا ينفى أنهم فى دخائل أنفسهم يفكرون فى ذلك •

لقد صارحتهم جميعاً بهذا • وصارحت به أمى • فمرضت أمى من
ذلك طوال النهار ، وفى الغداة قالت لى الكسندرا ، هى وأبى ، اننى
لا أدرك حتى معنى هذا ألهدر السخيف وهذه الكلمات التى استعمالها •
قرددت عليهما قائلةً بلهجة القطع والجزم اننى الآن أدرك كل شيء ،
وأدرك معنى جميع الكلمات ، واننى لست الآن بنية صغيرة ، واننى قرأت
منذ ستين روايتين من تأليف بول دى كوك ، قرأتها خصباً لأطلع على
كل شيء ، وأعرف كل شيء • فحين سمعت أمى هذا الكلام أوشكت أن
يُغنى عنها •

ومضت في ذهن الأمير فكرة غريبة • حدّق الى آجلالا وابتسم •
 كان يصعب عليه أن يصدّق أن أمامه تلك الفتاة المتعالية نفسها التي قرأت
 له في الماضي ، بكثير من الكبرياء المستفزة ، رسالة جبريل آرداليونوفتش •
 لم يستطع أن يفهم كيف يمكن أن تنكشف في فتاة جميلة لها ذلك الطبع
 المتعطر المتوحش ، كيف يمكن أن تنكشف فيها على حين فجأة طفلة
 لعلها لا تدرك حقاً معنى « جميع الكلمات التي تستعملها » •

سألها :

- هل قضيت حياتك كلها في البيت يا آجلالا ايفانوفنا ؟ • أقصد
 ••• ألم تذهبي الى المدرسة ، ألم تلتجحي بمدرسة داخلية ؟

- لا ، لم أذهب في حياتي الى أى مكان • حُبست دائماً في البيت
 حتى لكأنني حُبست في زجاجة ، ولن أخرج من البيت الا لأتزوج • لماذا
 تظل تبسم هذه الابتسامة الساخرة ؟ ألاحظ أنك أنت أيضاً تسخر مني
 وتحيز لهم •••

أضافت آجلالا هذه الجملة الأخيرة وقد قطبت حاجبيها وظهرت في
 هيتها علائم التهديد • وتابعت كلامها فقالت :

- لا تحقني • أنا نفسي لا أعلم ماذا يحدث في نفسي ••• اني
 لواقعة بأنك جئت الى هنا مقتعاً كل الاقتناع بأننى أهواك واننى ضربت
 لك موعداً •••

أضافت هذه العبارة بلهجة غضب •

فقال الأمير معترفاً بسذاجة ، وكان يشعر بانفعال شديد :
 - حقاً لقد كنت بالأمس خائفاً من هذا • أما اليوم فأنا مقتنع بأنك ••
 صاحت آجلالا تقول وقد أخذت شفتها السفلى تختلج على حين
 فجأة :

– ماذا ؟ كنت خائفاً من أن ... هل تجرأت أن تظن أنني ...
رباه ! لعلك كنت تفترض أنني دعوتك الى هنا ليفاجئونا فتكون مضطراً أن
تنزوجني ...

– آجلايا ايفانوفنا ! كيف لا تضجبلين من قول هذا الكلام ؟ كيف
يمكن أن تثبت في قلبك الطاهر البريء فكرة تبلغ هذا المبلغ من الحطة ؟
أراهن أنك أنت نفسك لا تصدقين كلمة واحدة مما قلته ... بل وأنتك
لا تعرفين معنى هذه الأقوال التي تخرج من فمك ! ...

ظلت آجلايا خافضة رأسها ، ساكنة لا تتحرك ، كأنها مروعة
مما قالته • ثم تمتعت تقول :

– لا ، لا أخجل البتة ! ثم من أين عرفت أن لي قلباً بريئاً ؟ وكيف،
والحالة هذه ، تجرأت أن تبعث الى رسالة حب ؟

– رسالة حب ؟ رسالتي رسالة حب ؟ لقد كانت تلك الرسالة تعبيراً
عن أعماق الاحترام • وقد خرجت من قرازة قلبي في لحظة من ألم لحظات
حياتي • فكرت فيك حينذاك كما يفكر المرء في ضياء ... أنني ...

‘ قاطعته آجلايا فجأة ، ولكن بلمهجة أخرى تختلف عن لهجتها الأولى
كل الاختلاف ، لهجة تكشف عن ندم عميق. يشبه أن يكون روعاً :

– طيب ... طيب ... كفى ! ...

حتى لقد مالت عليه ، وأجرت بيدها حركة كأنها تريد أن تلمس
كفه لتدعوه بأحسن طريقة مقنعة أن لا يزعل ، مع استمرارها على غض
بصرها حتى لا تنظر اليه • وعادت تكرر قائلة باضطراب شديد :

– طيب ، طيب ... أحس بانني استعملت تعبيراً فيه غباء • وانما
قصدت من ذلك أن ... أن أمتحنك • افرض أنني لم أقل شيئاً • اذا

كنتُ قد آذيت شعورك فاعفُ لي • أرجوك : لا تنظر الىَّ محدقاً في عيني • أشح وجهك عني • لقد صرَّحتَ منذ لحظة بأنها فكرة منحطة • وانا انما عبَّرت عنها عامدة لألصعك • يتفق لي أحياناً أن أخاف مما أحب أن أقوله ، ثم اذا هو يفلت من لساني فجأةً • وقد أضفتَ أنك كتبت الىَّ تلك الرسالة في لحظة من آلم لحظات حياتك •

ثم قالت وهي تخفض صوتها وتعود تطرق الى الأرض :

- اننى أعرف ما هى تلك اللحظة التى عنيت •

- ليتك تعرفين كل شئ !

- أعرف كل شئ !

كذلك صاحت تقول فى نوبة انفعال جديدة • وتابعت كلامها فقالت :

- فى ذلك العهد كانت تشاركك بيتك تلك المرأة السيئة التى

هربت معها •••

حين نطقت آجاليا بهذه الكلمات زائلت وجهها حمرة • وشحب لونها شحوباً شديداً • ونهضت فجأة كأنما حركتها اندفاع قوية بغير شعور منها • ولكنها سرعان ما ثابت الى وعيها وسيطرت على نفسها فعاتت تجلس • ظلت شفتها تختلج مدة طويلة • وشده الأمير من هذه الاندفاع التى لم يكن يتوقعها • ولا عرف الى ماذا يعزوها •

قالت فجأة بلهجة قاطعة :

- أنا لا أحبك البتة !

فلم يجب الأمير • وساد الصمت دقيقةً من جديد •

قالت بصوت متمجل لا يكاد يُفهم وهي تخفض رأسها مزيداً من

الخفض :

- أنا أحب جبريل أرداليونوفتش ...

قال الأمير يرد عليها بما يشبه الهمس :

- غير صحيح •

- أنا أكذب ؟ تلك هي الحقيقة بعينها • وقد قطعت له عهداً ، على

هذه الدكة نفسها ، أمس الأول •

ذُعر الأمير وبقي شارد الذهن لحظة ، ثم قال بلهجة قاطعة :

- هذا غير صحيح • لقد لفقت هذه القصة تلفيقاً •

- انك لعلی أدب جم وتهذيب عظيم ! أريد أن تعلم أن جبريل

أرداليونوفتش قد تغير وتحسن • انه يحبني أكثر من حياته • وقد حرق

يده أمامي لا شيء الا أن يبرهن لي على ذلك •

- حرق يده ؟

- نعم ، يده ! ويستوى عندي أن تصدق وأن لا تصدق !

صمت الأمير • لم تكن أجلايا مازحة • انها الآن غاضبة •

- غريب ! أليكون قد أتى الى هنا بشمعة ليحرق يده ؟ لست أرى

وسيلة أخرى يمكن أن يحرق بها يده ...

- نعم ، أتى بشمعة • أى غرابية في هذا ؟ أهذا غير معقول ؟

- أشمعة كاملة أم عقب شمعة في شمعدان ؟

- نعم ... لا ... نصف شمعة • عقب شمعة • • شمعة كاملة •

لا فرق • لا تلح ! حتى لقد أتى ببيدان كبريت ، وأبقى اصبعه فوق

اللهب نصف ساعة • أبدو لك هذا مستحيلاً ؟

- لقد رأيته أمس ، فلم يكن في أصابعه أى أثر من آثار حرق •

انطلقت آجلايا تضحك ضحك طفلة • ثم التفتت نحو الأمير بخفة ،
وفى وجهها ثقة كقوة الأطفال ، بينما ألت بشفتيها إبتسامة • وقالت :

– هل تعلم لماذا قصصت عليك هذه الكذبة ؟ لأننى لاحظت أن
أحسن طريقة يعتمد اليها المرء من أجل أن يجعل كذبه معقولا بعد أن
يكون قد أخذ يكذب ، هى أن يدخل فى كذبه ، على نحو بارع ، عنصراً
يخرج عن المألوف ، عنصراً شاذاً ، عنصراً نادراً ، بل عنصراً لم يسمع
أحد بمثله • ولكننى لم أنجح ، لأننى لم أعرف كيف •••

واكهر وجهها فجأة كأن ذكرى قد ومضت فى ذهنها • ثم استأنفت
كلامها فقالت له وهى تلقى عليه نظرة رصينة بل وحزينة :

– لقد أنشدتك فى يوم من الأيام قصيدة « الفارس الفقير » ، وكنت
أهدف من ذلك الى ••• الى مدحك ، ولكننى كنت أهدف فى الوقت
نفسه الى أن أفصح سلوكك وأن أبين لك أنتى على علم بكل شيء •••

– انك يا آجلايا تظلمينى كثيراً ••• وتظلمين تلك الانسانة الشقية
التي وصفتها منذ لحظة بكلمات قاسية شديدة القسوة •••

– أنا انما عبّرت عن رأيى بتلك الألفاظ ، لأننى أعرف كل شيء ،
كل شيء ! أعرف أنك عرضت عليها الزواج على رموس الأشهاد ، منذ
سنة أشهر • لا تقاطعنى : أنت ترى أنتى أروى وقائع ولكننى لا أعلق
عليها • وبعد ذلك انما هربت مع روجوين • ثم عشت معها فى قرية من
القرى أو ضاحية من الضواحي • ثم هجرتك والتحقت برجل آخر •
(هنا احمرت آجلايا احمراراً رهيباً) • وبعد ذلك عادت الى روجوين
الذى يحبها ••• يحبها حب جنون ! ثم هأت ذاتصل الى هنا وراءها ،
زحفاً ، منذ علمت أنها عادت الى بطرسبرج ، كما يليق برجل بارع
الذكاء ! وفى مساء أمس ، انبريت تدافع عنها وتحميها ؟ ومنذ لحظة كنت

تراها فى الحلم ... أرأيت أننى أعرف كل شىء ؟ من أجلها ، من أجلها
انما رجعت الى هنا ، أليس كذلك ؟

حنى الأمير رأسه حزينا مفكرا ، دون أن يدور بخلده أن آجلانيا
كانت ترشقه بنظرة ملتبهة • وقال بصوت خافت :

- نعم من أجلها ، من أجلها ، ولكن لكى أعلم أن •• أنا لا أعتقد
بأنها يمكن أن تسعد مع روجويين ، رغم أن ••• الخلاصة : اننى لا أرى
ماذا أستطيع أن أفعل فى سبيلها ، ولكننى جئت •••
قالت آجلانيا أخيراً :

- اذا كنت قد جئت دون أن تعرف لماذا جئت ، فهذا دليل على أنك
تحبها كثيراً •

فزد عليها الأمير قائلاً :

- لا ، لا ، أنا لا أحبها ! ليتك تعرفين مدى الهول الذى أعانيه حين
أتذكر الزمن الذى قضيته معها !

وما ان قال هذه الكلمات حتى سرت فى جسمه رعدة •
أجابته آجلانيا :

- قل لى كل شىء •

- ليس فى القصة كلها ما لا يمكنك أن تسمعيه • لا أدري لماذا
كنت أنت ، أنت بعينك ، الشخص الوحيد الذى أردت أن أقص عليه
الحكاية كاملة • ربما كان مرد ذلك الى اننى أحمل لك فى الواقع كثيراً
من العاطفة • ان تلك المرأة الشقية مقتنعة اقتناعاً عميقاً بأنها أسقطت انسانة
وأفسد مخلوقة على وجه الأرض • لا تمنعها بالعار ، لا ترميها بحجر !

حسبها ما تلقى هي نفسها من عذاب الشعور بحطة تصف بها نفسها ظلماً !
 ما ذنبها يا رب ؟ هي في نوبات حماسها تصيح قائلة انها لا تعرف لنفسها
 أية خطيئة أو ذنب ، وانها ضحية الرجال ، ضحية رجل داعر وغد
 حقير ! ولكن عليك أن تعلمي ، مهما تعلن لك من رأى ، أنها أول من
 لا يصدق ما تقول . بالعكس : انها لا تتهم أحداً غير نفسها انها تتهم
 نفسها وحدها ، واعية كل الوعي . وحين كنت أحاول أن أبعد من نفسها
 هذه الظلمات كانت تشعر بالآلام وتباريح تبلغ من القوة والشدة أن قلبي لن
 يشفى يوماً ، ما ظل محفظاً بذكرى تلك اللحظات الأليمة . اننى أحس
 أن قلبي قد طعن الى الأبد . لقد هربت منى ، فهل تعلمين لماذا هربت ؟
 انها لم تهرب الا لتبرهن لى على خستها ودناؤها . على أن أقطع ما فى الأمر
 أنها هي نفسها ربما كانت تجهل أن الدافع الذى كان يحركها انما هو
 تقديم هذا البرهان لى وحدى . لقد كانت تظن أنها تهرب خضوعاً لرغبة
 عارمة لا تقاوم فى أن تقارف عملاً مشيناً يتيح لها أن تقول لنفسها بعد
 ذلك : « وهذه خسة جديدة تدينك . ألا انك لمخلوقة دنيئة منحطة ! » .
 لعلك لا تفهمين هذا يا آجلايا ! هل تعلمين أن شعورها الدائم ذاك
 بخستها ربما كان يخفى وراء لذة فظيعة مخالفة للطبيعة هي لذة اشباع
 نوع من الانتقام من أحد الناس ؟ كنت أنجح أحياناً فى أن أردّها الى رؤية
 الضياء من حولها ، لكنها سرعان ما كانت تتمرد ، وتمضى فى ذلك الى حد
 اتهاوى بأننى أريد الارتفاع فوقها والعلو عليها (وكان هذا فى الواقع بعيداً
 عن ذهنى كل البعد) ؟ ثم تعلن لى أخيراً بغير لف أو دوران ، حين
 أعرض عليها الزواج ، أنها لا تطلب من أحد لا شفقة عليها ولا رافة بها
 ولا معونة لها ، وانها ترفض أن يحاول أحد « رفعها اليه » . لقد رأيتها
 أنت بالأمس . هل تظنين أنها سعيدة بصحبة أمثال هؤلاء الناس ، وأن تلك

البيثة هي البيثة التي تناسبها ؟ انك لا تعرفين مدى سعة ثقافتها ، ورحابة
فكرها ! لظالما أدهشنى هذ فيها !

- هل كنت تلقى عليها هناك ... مواعظ كالتى تلقىها على الآن ؟
تابع الأمير كلامه دون أن ينتبه الى لهجة السؤال :

- لا . كنت أصمت طول الوقت تقريباً . كنت أريد فى كثير من
الأحيان أن أتكلم ، ولكننى لا أجد فى الواقع شيئاً أقوله . هل تعلمين أن
خير ما يفعله المرء أحياناً هو أن يصمت ؟ آ ... نعم ... كنت أحبها ..
كنت أحبها كثيراً ... ولكن ... بعد ذلك ... بعد ذلك حزرت هي
كل شىء .

- حزرت ماذا ؟

- أنتى لا أضمر لها الا الشفقة ... أنتى أصبحت لا أحبها !
- ما يدريك ؟ لعلها أحبت فعلاً ذلك ... ذلك المالك الذى
هربت معه ؟

- لا ، أنا أعرف كل شىء . انها لم تزدد على أن ضحكت عليه ؟
- وعليك أنت ، ألم تضحك قط ؟

- لا ! أقصد ... أحياناً ... كانت تسخر منى ... تخابثاً
ومكراً ! كانت فى تلك اللحظات ترهقنى بملامات حاتقة ، وكانت هي
نفسها تتألم ! ولكنها ، بعد ذلك ... آه ... لا توقطنى هذه الذكريات
فى نفسى ، لا تذكرينى بهذه الأشياء !

قال الأمير ذلك وأخفى وجهه بيديه .
سألته آجلايا :

- وهل تعلم أنها تكتب الى كل يوم تقريباً ؟

فهتف الأمير يقول مضطرباً أشد الاضطراب :

- أهذا صحيح اذن ؟ لقد ذُكر لى أنها تكتب اليك ، ولكننى أبيت
أن أصدق .

فسأله آجلايا خائفة :

- من ذكر لك ذلك ؟

- روجوين . ان روجوين هو الذى حدثنى فى هذا أمس ، ولكن
بكلمات غامضة .

- أمس ؟ أمس صباحاً ؟ فى أى وقت من النهار ؟ أقبل الموسيقى أم
بعدها ؟

- بعد الموسيقى . فى السهرة ، بين الحادية عشرة ومنتصف الليل .
- آ . . . طيب . . . ما دام هو روجوين . . . ولكن هل تعرف عمّ
تكلمنى فى تلك الرسائل ؟

- لا استغرب شيئاً . انها مجنونة !

- اليك الرسائل (استلت آجلايا من جيبها ثلاث رسائل مغلقة
وألقتها أمام الأمير) . انها ، منذ أسبوع كامل ، تتوسل الىّ ، تضرع
الىّ ، تبتهل الىّ أن أتزوجك . انها . . . نعم . . . ذكية ، وان تكن
مجنونة . أنت على صواب حين تقول انها أذكى كثيراً منى . تقول لى
فى رسائلها انها تهوانى ، وانها تبحث كل يوم عن فرصة ترانى فيها ولو
من بعيد ، وهى تؤكد لى أنك تحببى ، وأنها تعلم ذلك علم اليقين ، وأنها
لاحظته منذ زمن طويل ، وأنت حدثتها عنى حين كنتما هناك . انها تريد
أن تراك سعيداً ، وتوفى أننى أستطيع وحدى أن أسعدك ! . . . وهى
تكتب بطريقة غريبة . . . غريبة جداً . لم أظهر على رسائلها أحداً .
كنت أنتظرك . هل تدري ماذا يعنى كلامها ؟ ألا تدرك ماذا يعنى كلامها ؟

— هو جنون • كلامها يدل على أنها فقدت عقلها •
كذلك قال الأمير وقد أخذت شفته تختلجان • سأله :
— ألسنت تبكى ؟

فأجاب :

— لا آجلايا ! لست أبكى !

— ما الذى يجب على أن أفعله ؟ ببماذا تنصحنى ؟ اننى لا أستطيع
أن أستمّر فى تلقى هذه الرسائل •

هتف الأمير يقول :

— دعيها ، أرجوك ! ماذا تستطيعين أن تفعل فى هذه الظلمات ؟
سأحاول أن أجعلها لا تكتب اليك بعد الآن !

صاحت آجلايا قائلة :

— اذا كنت تقول هذا الكلام ، فمعنى ذلك أنك رجل لا قلب له •
ألسنت ترى ان أنها لا تهوانى أنا ، وانما هى تهواك أنت • انك أنت الذى
تجبه ! كيف يمكن أن تكون قد لاحظت فى كل شيء الا هذا ؟ هل
تعلم ماذا وراء كلامها ؟ هل تدرك عمّ تكشف رسائلها ؟ انها تكشف عن
الفيرة ، بل تكشف عمّا هو شر من الفيرة !... انها ... أظن أنها
ستزوج روجوبين فعلاً كما تزعم ذلك فى رسائلها ؟ لسوف تتحرر غداً
زواجنا اذا نحن تزوجنا !

ارتعش الأمير وانهد قلبه • ونظر الى آجلايا مدهوشاً : لقد شعر
باحساس غريب حين لاحظ أن هذه الطفلة قد غدت امرأة منذ مدة
طويلة •

— شهد الله يا آجلايا اننى مستعد لأن أضحي بحياتى فى سبيل أن

أدخل الى نفسها الراحة والسلام والطمأنينة والسعادة • ولكنى •••
لا أستطيع بعد اليوم أن أحبها ، وهى تعرف ذلك !
— طيب ••• ضحَّ بحياتك ما دام هذا يناسبك كثيراً ! انك محسن
عظيم • ولا تناديني باسم « آجلایا » • أنت منذ لحظة قلت « آجلایا »
فحسب !••• يجب عليك أن تحاول بعثاً جديداً • أنت مضطر أن
تفعل هذا • الواجب يملئ عليك أن تسافر معها ثانية ، لكى تدخل الهدوء
والسكينة الى قلبها • ثم انك تحبها هى !

— لا أستطيع أن أضحي بنفسى ، رغم أن هذه النية قد قامت فى
فكرى ، ولعلها ما تزال قائمة فى فكرى !••• ولكنى أعلم علماً « لا سبيل
الى الشك فيه » أنها ان بقيت معى ضاعت وهلكت !••• وذلك هو السبب
الذى يحدونى الى الابتعاد عنها • ينبغى أن أراها اليوم فى الساعة السابعة •
ولكن قد لا أذهب اليها • ان كبرياءها لن تغفر لى حبي فى يوم من الأيام ،
وسيكون فى هذا ضياعها وضياعى اذا نحن بقينا معاً ! ليس هذا طبيعياً ،
غير أن كل شيء هنا مخالف للطبيعة • تقولين انها تحببى • ولكن هل هذا
حب ؟ هل يمكن أن يكون ثمة عاطفة كهذه العاطفة بعد كل الذى عانيت
وقاسيت ؟ لا ، ليس هذا حباً • هو شيء آخر غير الحب !

قالت آجلایا بارتياح مفاجئ :

— ما أشد هذا الشحوب الذى اعتراك !

— ما ذلك بشيء • انتى لم أنم كثيراً • أشعر بأثنى ضعيف • تلك
هى الحقيقة • لقد تحدثنا عنك حينذاك يا آجلایا •••
— ذلك حق. اذن ؟ هل تحدثت « عنى معها » فعلاً ؟ و ••• كيف
أمكن أن تحببى بعد أن لم ترنى الا مرة واحدة ؟

- لا أدري • فى الظلمات التى كانت تحف بى حينذاك ، رأيت ما يشبه أن يكون حلمًا •• لعل فجراً جديداً قد أشرق أمام عينى • لا أدري لماذا انصرف فكرى اليك أنت أول ما انصرف • لم أكذب عليك حين كتبت اليك قائلاً اننى أجهل كيف حدث الأمر • لم يكن ذلك الا حلمًا هربت اليه من ذعرى حينذاك ••• وبعدئذ ، أخذت أدرس ••• وكان فى نيتى أن لا أعود قبل ثلاث سنين •••

- أمن أجلها اذن عدت ؟

- نعم ، من أجلها •

انقضت دقيقتان فى صمت • ثم نهضت آجلايا • وقالت بصوت

متردد :

- اذا كنت تقول ، اذا كنت تعتقد أنت نفسك أن هذه ••• أن صاحبك هذه مجنونة ، فان ما تأتبه من أعمال شاذة لا يعينى ولا يهمنى فى شئ • أرجوك يا ليون يقولوا يفتش أن تأخذ منى هذه الرسائل الثلاث فترميها فى وجهها نيابةً عني !

ثم صاحت آجلايا تقول بخشونة :

- وقل لها اننى ، اذا سمحت لنفسها بأن تكتب لى مرةً أخرى سطرًا واحدًا ، سأشكوها الى أبى الذى سيعرف كيف يودعها فى مأوى للمجانين •••

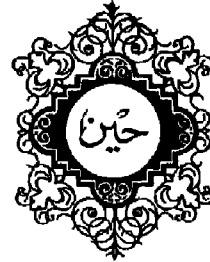
اتنفض الأمير ، ونظر مرتاعاً الى هذا الغضب الشديد الذى اجتاح آجلايا على غير توقع • ثم سقط أمام عينيه نوع من ضباب ، على حين فجأة وتمتم يقول لها :

- لا ، لا يمكن أن تحملى عواطف كهذه العواطف ••• لا •••

ليس حقاً ما تقولين !

- بل هو حق ، هو الحقيقة بعينها !...
كذلك صرخت آجلايا كالحاريجة عن طورها •
فاذا بصوت مذعور يسألها على مقربة منها :
– أى شىء هو حق ؟ عن أية حقيقة تتكلمين ؟
كانت اليزابت بروكوفينا أمامهما •
فاندفعت آجلايا تجيب أمها قائلة :
– عن حقيقة أننى قررت أن أتزوج جبريل آرداليونوفتش ، وأننى
أحبه ، وأننى سأهرب معه غداً من البيت • هل سمعت ؟ هل ارتوى
فضولك الآن ؟ هل يكفيك هذا ؟
وركضت عائدة الى البيت •
قالت اليزابت بروكوفينا وهى توقف الأمير :
– لا يا صديقى الطيب ، لن تنصرف الآن • هلاً تفضلت فصحبتي
حتى تشرح لى تصرفك • آه ... ما هذا العذاب يا رب ! وكل ذلك بعد
ليلة لم يغمض لى فيها جفن !...
تبعها الأمير •

الفصل التاسع



وصلت اليزابت بروكوفينا الى الدار توقفت في
الحجرة الأولى • واذ لم تقوَ على المضي الى أبعد
من ذلك • نهافت على ديوان منهكة منهدة •
حتى لقد نسيت أن تدعو الأمير الى الجلوس •
هي قاعة كبيرة ذات مدفأة • وفي وسطها مائدة مستديرة • ان ازهاراً
كبيرة تتكدس على رفوف فيها تحت النافذة • وفي آخر القاعة باب ذو
زجاج • يفضى الى الحديقة •
وسرعان ما ظهرت آديلايد وآلكسندرا تنظران الى الأمير والى
أمها مدهوثة سائلة مستطلعة •

لقد اعتادت الآسات أن يستيقظن في المصيف في نحو الساعة
التاسعة • لكن أجلايا أصبحت منذ يومين أو ثلاثة أيام تستيقظ قبل التاسعة
بقليل • وتمضى تنزه في الحديقة • لا في الساعة السابعة على كل حال •
بل في الثامنة وحتى بعد الثامنة •

حقاً لم تعرف اليزابت بروكوفينا سيلاً الى النوم طوال الليل من
كرة الهموم التي كانت تملأ رأسها • وقد نهضت في الساعة الثامنة
لتذهب الى الحديقة وتلحق بأجلايا التي كانت اليزابت بروكوفينا تعتقد
أنها صحت من نومها وقامت من فراشها • لكنها لم تجدها لا في الحديقة
ولا في غرفة نومها • فشعرت بروع شديد وأيقظت ابنتها الآخرين •

وقالت الخادم ان آجلایا ایفانوفنا قد ذهبت الى الحديقة العامة قبل الساعة السابعة . فضحكت الإختان ضحكاً ماکراً حين علمتا بأمر هذه النزوة الجديدة التى بدت لأختیها الصغرى ذات الخيال الجامع ، ولفتتا نظر أهمها الى أن آجلایا يمكن أن تنضب اذا مضى أحد يبحث عنها فى الحديقة العامة ؛ وقالتا انها لا بد أن تكون الآن جالسة الى كتاب بيدها على الدكة الخضراء التى تكلمت عنها منذ ثلاثة أيام وأوشكت أن تشتجر فى شأنها مع الأمير « شتس +++ » ، الذى زعم أنه لا يجد فى المكان الذى تقع فيه تلك الدكة أى جمال خاص .

فلما وقعت الیزابت بروكوفینا على ابنتها متواعدة مع الأمير ، وفاجأتها تنطق بتلك الأقوال الغريبة ، شعرت برعب شديد له فى الواقع أسباب كثيرة تبرره وتسوِّغه . ولكنها بعد أن جرَّت الأمير معها ، خشيت نتائج مبادرتها ، اذ تساءلت : « لماذا لا يجوز أن تلتقى آجلایا بالأمير فى الحديقة وان يجرى بينهما حديث ، ولو على سابق موعد ؟ » .

قالت أخيراً وهى تحاول أن تسيطر على نفسها :

— لا يذهبن بك الظن ، يا عزيزى الأمير ، أنتى جئت بك الى هنا لكى استجوبك +++ ولعلنى ، يا صديقى الطيب ، كنت أوتر ، بعد الذى جرى فى مساء أمس ، أن لا أراك مرة أخرى ، خلال مدة طويلة .

وانقطعت عن الكلام لحظة . فبادرها الأمير بقوله :

— لكننى أقدر أنك تحين أن تعرفى كيف التقينا اليوم أنا وآجلایا

ایفانوفنا +++

فأجابته الیزابت بروكوفینا باندفاع :

— طبعاً أحب أن أعرف ذلك . أنا لا أخشى أن أقابل بالحقیقة .

انتى لا أسى الى أحد ، ولم أشأ أن أسى الى أحد +++

— طبعاً •• ان الرغبة فى معرفة ذلك لا تشتمل على اساءة الى أحد.
لقد التقينا اليوم ، أنا وآجلايا ايفانوفنا ، قرب الدكة الحضرى ، فى الساعة
السابعة تماماً ، على موعد ضربته لى أمس • لقد أعطيتنى فى مساء أمس
رسالة تقول فيها انها تريد أن ترانى وأن تكلمنى فى أمر هام • فالتقينا
وتكلمنا خلال ساعة فى شئون لا تتعلق الا بها وحدها • ذلك كل شئ •

قالت اليزابت بروكوفينا بلهجة رصينة :

— طبعاً هذا كل شئ • يا صديقى • لا يساورنى أى شك فى أن هذا
كل شئ •

قالت آجلايا وهى تدخل الغرفة فجأة :

— أحسنت جداً يا أمير • أشكر لك من أعماق قلبى أنك اعتبرتنى
عاجزة عن الانحدار الى حيث ألقى كذبة • أنت راضية الآن يا ماما ،
أم تراك تريدن أن تمضى فى الاستجواب الى أبعد ذلك ؟

ردت عليها اليزابت بروكوفينا بلهجة من يلقى دوساً :

— تعلمين حق العلم أنتى لم يتفق لى فى يوم من الأيام أن احمر
وجهى أمامك ••• رغم أن ذلك كان يمكن أن يحدث لك لذة •

ثم التفت تقول للأمير :

— استودعك الله يا أمير ! اغفر لى ازعاجى اياك • آمل أن تظل
مقتنعاً بأن تقديرى لك ثابت لا يتغير •

فسرعان ما حياً الأمير أم الفتاة ثم اسل صامتاً لم لا ينبس بكلمة •
وارسمت ابتسامة على شفتى كل من آديلايد والكسندرا ، وأخذتا
تهامسان • فألقت عليهما اليزابت بروكوفينا نظرة قاسية •
قالت آديلايد ضاحكة :

— ان ما يحملنا على الابتسام هو أن نرى الأمير يلقي تحيته بهذا الجلال وهذه النخامة ! انه فى العادة ، من فرط خراقة ، أشبه بكيس ، ثم اذا هو يصطنع الآن آداباً وحركات فكأنه أوجين بافلوفتش •

قالت اليزابت بروكوفينا بوقار :

— رفعة الذوق ورهافة الحس والشعور بالكرامة أمور تنبع من القلب ولا يعلّمها أساتذة الرقص •

وصعدت الى غرفتها حتى دون أن تلقى نظرة على أجلايا •

وحين عاد الأمير الى بيته فى نحو الساعة التاسعة وجد على الشرفة فيرا لوكيانوفا وخادمة • كاتا قد رتبنا المكان وكستا الأرض بعد سهرة البارحة الصاخبة •

قالت فيرا مرحة :

— الحمد لله ! انتهينا من العمل قبل عودتك •

— صباح الخير • ان بى بعض صداع • لم أنم نوماً مريحاً • أود لو ارقد قليلاً •

— هل تحب أن ترتاح هنا ، على الشرفة ، كأس ؟ هذا حسن • سأقول للجميع أن لا يوقظوك • بابا خرج •

انصرفت الخادم • وتظاهرت فيرا بأنها تتبها ، لكنها عدلت عن ذلك ، واقتربت من الأمير مهمومة وقالت له :

— أمير ، اشفق على هذا ••• البائس • لا تطرده اليوم •

قال الأمير :

— لن أطرده بظال من الأحوال ، سيفعل ما يحلو له أن يفعله •

– الآن لن يفعل شيئاً ... لا تكن قاسياً معه !
 – طبعاً لن أكون قاسياً معه ، علام أكون قاسياً ؟
 – ثم ... لا تضحك عليه ... لا تستهزئ به ... ذلك هو الأمر
 الأساسي •

– حتماً لن أفعل •
 قالت فيرا وقد احمر وجهها :
 – سخف مني أن أقول هذا الكلام لرجل مثلك •
 ثم أضافت تقول ضاحكة وقد استدارت نصف استدارة نحو
 الباب :

– رغم أنك متعب مكدود ، فإن عينيك في هذه اللحظة تعبران عن
 أبغى الطيبة وأعظم السعادة ...
 سأله الأمير بحرارة :

– أهما تعبران عن سعادة عظيمة حقاً ؟
 وانطلق يضحك ضحكة صريحة واضحة •

ولكن فيرا التي تتصف بالبساطة ، وتتصف برفع الكلفة وعدم
 التخرج كأنها صبي ، سرعان ما خجلت خجلاً كبيراً واضطربت اضطراباً
 شديداً وازداد احمرار وجهها كثيراً ؛ ثم اذا هي تخرج فجأة دون أن
 تقطع عن الضحك •

قال الأمير يحدث نفسه : « يا لها ... من فتاة رائعة ... » ، ثم
 سرعان ما نسيها • وانسحب الى ركن من الشرفة فيه السرير ، وجلس
 قبالة مائدة صغيرة ، وغطى وجهه يديه ، ولبت على هذا الوضع زهاء عشر

دقائق • وفجأة ، دسَّ يده في جيبه الخائبي قلقاً ، فأخرج منه ثلاث رسائل •

لكن الباب فُتح من جديد ، ودخل كوليا ، ف شعر الأمير بما يشبه الفرح لهذه الفرصة التي تتيح له أن يعيد الرسائل الى جيبه ، وأن يرجي • قراءتها •

جلس كوليا على السرير •

ولم يلبث أن انبرى يدخل في الموضوع دفعةً واحدة ، بما هو معهود في أمثاله من انطلاق :

— يا له من حادث ! ما رأيك الآن في هيوليت ؟ هل فقد اعتبارك ؟

— علام يفقد اعتباري ؟ ••• ولكنني متعب ••• يا كوليا ••• ثم ان العودة الى هذا الموضوع أليمة • كيف حاله الآن مع ذلك ؟

— انه نائم • وأغلب الظن أنه لن يستيقظ قبل ساعتين • أنا فاهم : انت لم تبت ليلتك بالدار ، بل ذهبت الى الحديقة العامة • شيء طبعي •• لأنك كنت متأثراً مضطرباً ! ••• لا أقل من هذا !

— كيف عرفت أنني ذهبت الى الحديقة العامة ، وانني لم أبت ليلتي بالدار ؟

— قالت لي فيرا هذا منذ لحظة • وقد أوصتني بأن لا أدخل • لكنني لم أطق صبراً • أردت أن أراك ، ولو دقيقة ! لقد قضيت هاتين الساعتين قائماً على المريض • والآن يقوم عليه كوسيتا ليديف • أما بوردوفسكي فقد مضى • الخلاصة : ارقد يا أمير ! أتمنى لك ليلة ••• بل يوماً سعيداً ! ولكن ••• هل تعلم ؟ أنا مشدود مدهول !

— لا غرابة في ذلك ، بعد كل الذي •••

— لا يا أمير ، لا • ان ما يشدهنى ويذهلنى هو « الاعتراف » ؟
ولا سيما الجزء الذى يتحدث فيه عن العناية الالهية والحياة الآخرة • ههنا
فكرة ضخ ••• مة !•••

نظر الأمير الى كوليا بعاطفة وحنان • لا شك فى أن كوليا إنما جاء
ليحدث مع الأمير فى تلك الفكرة الضخمة •
قال كوليا :

— لكن الشيء الأساسى ، الشيء الأساسى ، ليس الفكرة ذاتها بل
الظروف التى نبتت هذه الفكرة فى ظلها • فلو أن الذى عبّر عن هذه
الفكرة فولتير أو روسو أن برودون ، لقرأتها ولاحظتها دون أن تدهشنى
الى ذلك الحد من الادهاش • أما أن يقول هذا الكلام انسان موقن من أنه
لم يبق له أن يحيا على وجه هذه الأرض الا عشر دقائق ، فذلك مثال
رهيب على الكبرياء والجبروت ! ان هذا أسمى مظهر من مظاهر الاستقلال
والكرامة الشخصية ! ان هذا اقتحامٌ "جسور" ••• بل هو قوة نفسية
ضخمة ! فاذا قيل بعد هذا انه تعمد أن ينسى الكبسولة تعمداً ، كان ذلك
حطة وخسة ، بل كان سخفاً واستحالة ! ولكن هل تعلم ؟ لقد خدعنا
هيوليت أمس • انه ماكر • أنا لم أشاركه فى ترتيب حقيقته ، لا ولا رأيت
مسدسه فى يوم من الأيام ، انه هو الذى حزم كل شيء • لذلك دُهِشت
وتحيرت حين سمعته يزعم ذلك الزعم • تقول فيرا انك ستبقيه هنا •
أؤكد لك أن لا خطر البتة ، لا سيما وأنا نراقبه مراقبة دقيقة فى
كل لحظة •

— من الذى سهر عليه هذه الليلة ؟

— كوستيا ليديف ، وبوردوفسكى ، وأنا • وقد جاء كيللر برهة ،
لكنه لم يلبث أن ذهب ينام عند ليديف ، اذ لم يكن فى غرفتنا مكان يرقد

فيه • وهناك انما بات فردشتشكو كذلك ، ثم خرج فى الساعة السابعة • وما يزال الجنرال فى بيت ليديف • والآن خرج هو أيضاً • • • أظن أن ليديف ينوى أى يجرى إليك بعد هنيهة • لقد بحث عنك - لا أدري لماذا ! - وسأل مرتين أين أنت • أوجب أن نسمح له بالدخول ، أم يجب أن نطلب منه الانتظار ، اذا كنت تريد أن ترتاح ؟ أنا نفسى سوف أمضى أنا • ها • • • نعم • • • يجب أن لا أنسى أن أذكر لك ما يلى : لقد شهدت ، منذ قليل ، عملاً غريباً من أعمال الجنرال • أيقظنى بوردوفسكى قبل الساعة السادسة ، بل فى الساعة السادسة تماماً ، لأبشر نوبتى فى القيام على المريض • فخرجت دقيقة ، فما كان أشد دهشتى حين التقيت بالجنرال وقد بلغ من السكر أنه لم يعرفنى ، ولبث جامداً أمامى كأنه وتد مغروس فى الأرض ، ثم تاب الى رشده ، فابترى يسألنى : « هيه ! كيف حال المريض ؟ لقد جئت أسأل عن صحته ! » • فذكرت له كيت وكيت • فأضاف يقول : « هذا كله حسن ! ولكننى انما نهضت من فراشى وجئت خاصة لأبتهك • هناك أسباب تدعونى الى الاعتقاد بأن من غير الممكن أن يقال كل شئ بحضور فردشتشكو • • وان من الواجب أن يكون المرء على حذر منه • • • أتفهم يا أمير ؟

- هل هذا ممكن ؟ على كل حال • • • نحن لا يهمننا ذلك ولا يعيننا •

- طبعاً لا يهمننا ولا يعيننا ، فنحن لسنا من « الماسونيين الأحرار » ! حتى لقد أدهشنى أن يكون الأمير قد أراد أن يوقظنى هذه الليلة ليقول لى هذا الكلام •

- تقول ان فردشتشكو خرج ؟

- فى الساعة السابعة • جاء الى وأنا قائم على المريض ، فذكر لى أنه

سينهى ليلته عند فلكن - انه سكير مشهور ، فلكن هذا ! - هيا ! أنا
منصرف ! ولكن هذا هو لوكيان تيموفتشس ... ان الامير يريد أن ينام
يا لوكيان تيموفتشس ، فارجع من حيث أتيت !

فأجاب ليديف وهو يحيى بكثير من الاحتفال :

- لا أكثر من دقيقة واحدة أيها الأمير المعظم • ان الأمر أمر قضية
لها عندى شأن هام •

كان ليديف يتكلم بصوت خافت ولهجة رصينة ، ولكن صوته
ممتلئ بخطورة القضية التي جاء يتحدث فيها • لقد رجع الآن الى البيت ،
حتى انه لم يذهب الى غرفته بعد ، فما يزال ممسكاً بعبته بيده • كان
وجهه مهموماً ، وكانت هيئته تعبر عن خطورة الأمر تعبيراً قوياً •

رجاه الأمير أن يجلس •

- هل سألت عنى مرتين ؟ أترك ما تزال قلقاً بسبب حوادث
البارحة ؟

- أأنت تعنى موضوع فنى الليلة الماضية يا أمير ؟ لا ، لا : لقد
كانت أفكارى مضطربة أمس • أما اليوم فلست أريد أن أعاكس نواياك
فى أى شىء ...

- أعاك ... ماذا قلت ؟

- قلت : أعاكس • هذه كلمة فرنسية كغيرها من الكلمات الفرنسية
الكثيرة التى دخلت على لغتنا الروسية ، ولكننى لا أحرص عليها حرصاً
كبيراً •

قال الأمير وهو يتسم ابتسامة خفيفة :

– ماذا أصابك اليوم يا ليديف حتى صرت شديد الرصانة كثير الاحتفال الى هذه الدرجة ؟ أراك تتمهل فى الكلام مقطّعا كلماتك وازناً ألفاظك •

فاتجه ليديف الى كوليا وقال له بلهجة يكاد يكون فيه حنان :
– نيقولاى آرداليونوفتش ! علىّ أن أبلغ الأمير قضية تتعلق خاصة ب •••

– طيب ••• فهمت !••• قضية لا تتعلق بى • الى اللقاء يا أمير !
كذلك قال كوليا وانصرف فوراً •
قال ليديف وهو يتابعه بنظره :

– أحب هذا الصبى حقاً ، فهو حاد الذكاء سريع الفهم ؛ وهو يقظ نشيط ، وان يكن مزعجاً بكثرة الحاحه • لقد حلّت بى مصيبة كبرى أيها الأمير المعظم ، حلّت بى مساء أمس أو هذا الصباح فى وضح النهار •• لا أستطيع أن أحدّد الوقت تحديداً دقيقاً بعد •
– ماذا حدث ؟

– اربعمائة روبل اختفت من الجيب الداخلى من رداى •
ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة مرة :
– خدعت أيها الأمير المعظم !
– فقدت اربعمائة روبل ؟ خسارة •••
– لا سيما بالنسبة الى رجل فقير يعيش من عمله بشرف ونبل •
– طبعاً ، طبعاً • كيف وقع الأمر ؟

– الذنب ذنب الحمرّة • اننى اتجه اليك اتجاهى الى العناية الالهية أيها الأمير المعظم • ان مبلغ الاربعمائة روبل هذا قد ردّه الىّ مدينٌ

فى الساعة الخامسة من مساء أمس • وعدت الى هنا بالقطار • وكانت محفظة أوراقي فى جيبى • فلما خلعت بزتى لأرتدى رندنجوتى وضعت المال فى جيب الرندنجوت حرصاً منى على الاحتفاظ بالمال معى • كنت أنوى أن أسلم المال فى السهرة لرجل من رجال الأعمال كان قد طلبه منى • وكنت انتظر ذلك الرجل

– بالنسبة يا لوكيان تيموفتشس : هل صحيح أنك نشرت فى الجرائد اعلاناً أنك تقرض مالاً برهن أشياء ذهبية أو فضية ؟

– هذا الاعلان قد تم ارساله بواسطة رجل من رجال الأعمال • فهو لا يحمل اسمى ولا عنوانى • وانا امرؤ لا أملك الا رأس مال صغير ، وقد ازداد عدد أفراد أسرتى ، فأظن أنك توافق على أن فائدة شريفة

– طبعاً ، طبعاً ! أنا لم ألق عليك هذا السؤال الا من باب العلم بالشىء !... اغفر لى اننى قاطعتك •

– لم يأت رجل الأعمال الذى كنت أنتظره • ثم جىء الى هنا بذلك البأس الشقى • وبعد العشاء كنت قد انتعشت • ثم جاء زوارنا • فشربنا ... شايًا ... و ... من سوء حظى أننى أفرطت فى المرح • فلما وصل كيللر فى ساعة متأخرة من السهرة فأعلن- لنا أن اليوم عيد ميلادك وأن علينا أن نقدم شمبانيا ، اعتقدت يا عزيزى الأمير المعظم ، اعتقدت أنا الذى أملك قلباً لا أقول انه عاطفى ولكننى أقول معترراً انه قلب يعترف بالجميل (وأغلب ظنى أنك لاحظت ذلك ، لاننى استحق أن تلاحظه) ، نعم ... اعتقدت أن من واجبى أن أخلع ثيابى القديمة البالية وأن أعود أرتدى بزتى الرسمية انتظاراً للحظة التى أعبر لك فيها عن تهنتى ، وأحتفل فيها بعيد ميلادك بمزيد من المهابة والفضامة • ذلك ما فعلته يا أمير ، ولا بد أنك لاحظت أننى لبثت مرتدياً بزتى الرسمية

طوال السهرة • ولكننى حين بدلت ثيابى تسيت المحفظة فى جيب ردنجوتى • صدق من قال : اذا أراد الله أن يعاقب أحداً جرّده من عقله أولاً • وفى هذا الصباح ، فى الساعة السابعة والنصف ، حين استيقظت من نومى ، وثبت نحو ردنجوتى كالمجنون • فإذا أنا أجد الجيب خالياً • فلا أثر للمحفظة •

– آه ... هذا مزعج !

– هذه هى الكلمة : مزعج •

كذلك قال ليديف ثم أضاف بشئ من المكر :

– انك بما تملك من كياسة تتميز بها قد وجدت التعبير المناسب فوراً •

قال الأمير قلقاً بعد لحظة من تفكير :

– ولكن ... مع ذلك ... كيف ... هذا خطر !

– تلك هى الكلمة : خطر ! لقد جئت ، يا أمير ، مرةً أخرى ، بالتعبير الموقّق الذى يحدّد ال ...

– أوه ... لو كيان تيموفتشس ! ما لنا وللكلمات الآن ! ليست الكلمات هى الأمر المهم • هل تعتقد أن من الجائز أن تكون المحفظة قد سقطت من جيبيك دون أن تنتبه أنت الى ذلك بسبب سكرك ؟

– جائز • كل شئ فى السكر جائز ، على حد التعبير الذى استعملته بكثير من الصراحة أيها الأمير المعظم • ولكن احكم فى الأمر بنفسك : لو أننى أسقطت محفظتى من جيبي حين خلعت ردنجوتى لكان يجب العثور على المحفظة فى أرض الغرفة • فآين هى المحفظة ؟

– ألا يجوز أن تكون قد دسستها فى درج منضدة ؟

- نبشت كل شيء • بحثت في كل موضع • ثم اتى لم أضعها في
أى مكان ، ولم أفتح أى درج • أتذكر هذا تذكرًا تامًا •

- هل بحثت في الحزانة الصغيرة ؟

- ذلك أول شيء فعلته، حتى لقد بحثت فيها عدة مرات هذا الصباح
••• ثم ما الذى كان يمكن أن يدفعنى الى دسّ المحفظة فى الحزانة
الصغيرة أيها الأمير المعظم ؟

- أعترف لك يا ليديف أن الأمر يقلقنى كثيراً • أأكون أحد قد
عثر بها اذن على الأرض ؟

- أو استلها من جيبي ! ليس هناك تفسير آخر •

- هذا يقلقنى قلقاً شديداً ! من ذا الذى يمكنه أن يفعل هذا ؟••
ذلك هو السؤال !

- لا شك أن ذلك هو السؤال الأساسى • انك أيها الأمير المعظم
توفق توفيقاً مدهشاً محكماً الى الكلمات والأفكار والتعاريف التى تصور
الوضع •••

- آه ••• لو كان تيموفتشس ••• كفى سخرية ! هنا •••

صاح ليديف وهو يرفع ذراعيه قائلاً :

- سخرية ؟

- هيّا ••• هيّا ••• طيب ••• لست أزعج ••• ان اهتمامى
منصرف الى غير هذا تماماً •• اتى أخشى أن أرى أناساً يتهمون • فيمن
تشبه ؟

- السؤال محرج جداً ••• و ••• معقد جداً ! لا أستطيع أن أتهم
الخدمة ، فلقد لبثت فى مطبخها طول الوقت • ولا يمكن الشك فى أولادى
أيضاً •••

— طبعاً •

— يتتج عن ذلك أن الفاعل لا يمكن أن يكون إلا أحد الزوار •

— ولكن هل هذا ممكن ؟

— هذا مستحيل استحالة مطلقة كاملة ، ولكن لا يمكن أن يكون قد حدث غير هذا • وانتي لأسلّم مع ذلك ، بل انني لمقتنع أيضاً بأن السرقة — اذا كان ثمة سرقة — انما حدثت لا في السهرة ، حين كان الزوار مجتمعين ، بل في ساعة متأخرة من الليل ، أو حتى عند مطلع الصبح ، وان الشخص الذي ارتكبها هو أحد الذين باتوا ليلتهم هنا •
— آه ... رباه ! ...

— أنا لا أشك طبعاً في بوردوفسكى ولا في نيقولاى آرداليونوفتش ؛ وهما لم يدخلوا على ، في كل حال •

— هذا بديهي ، حتى ولو دخلا عليك ! من بات ليلته عندك ؟
— نحن أربعة بتنا في غرفتين متلاصقتين : الجنرال ، كيلر ، السيد فردشتشكو ، وأنا • فالفاعل لا بد اذن أن يكون أحدينا •

— تقصد أنه لا بد أن يكون أحد الثلاثة • ولكن من هو ؟
— لقد عددت نفسى بين المعدودين ، لأكون عادلاً ، ولأضع الأمور في نصابها • ولكنك توافقني يا أمير على أنني لا يمكن أن أسرق نفسى بنفسى ، وان تكن هذه الحالة قد سبق أن شوهد مثلها في هذا العالم ...
صاح الأمير يقول وقد نفذ صبره :

— آه ... ليديف ... ثرثرتك مضجرة جداً • انتقل الى الوقائع •
لماذا هذه الموارد ؟ ...

— بقي اذن ثلاثة أشخاص • فلنبداً أولاً بالسيد كيلر ، وهو رجل متقلب لا يعرف الاستقرار ، وهو رجل سكير مدمن على الشراب ، وهو

فى بعض الأحوال يوصف بأنه لبرالى ، فيما يتعلق بمسألة الجيوب هذه على الأقل • والأولى على كل حال أن يوصف بأن طبعه يشبه طبع فارس من العصر القديم أكثر مما يشبه طبع لبرالى من الزمان الحاضر • لقد قضى النصف الأول من الليل معنا فى غرفة المريض ثم لم يبارحنا الا فى ساعة متأخرة بحجة أنه لا يستطيع أن ينام على الأرض •

— هل تشبه فيه ؟

— اشبهت فيه ، وحين وثبت عن فراشى كالمجنون بعد الساعة السابعة ولطمت جينى ، مضيت على الفور أوقظ الجنرال الذى كان ينام نوماً هادئاً بريثاً • فلما تأملنا أنا والجنرال فى أمر اختفاء فردشتشكو ذلك الاختفاء الغريب ، وهذا أمر خليك وحده بأن يثير فىنا الشبهات والشكوك ، قررنا كلانا أن نفتش كيللر الذى كان راقداً مثل ••• مثل ••• مثل مسمار تقريباً • نبشنا جيوبه نبشاً دقيقاً فلم نجد قرشاً واحداً ، حتى ان جميع جيوبه كانت مثقوبة لا يُستسى منها جيب واحد • وعثرنا فى أحد الجيوب على منديل من قطن أزرق ذى مربعات يأنف المرء من أن يشيله بملقط • ووجدنا رسالة غرام من خادمة ما ، فيها مطالبة بمال وفيها تهديد • ووجدنا صفحات من المقالة التى تعلم من أمرها ما تعلم • ذلك كل ما وجدناه فقرر الجنرال أن كيللر برىء • ومن أجل أن نزيد الأمر وضوحاً ، أيقظنا الرجل من نومه ، ولقينا فى ايقاظه بعض العناء ، فلما بسطنا له القضية لم يكذب يفهم عمّ تتكلم : كان أمامنا فاجر الفم ، ثمل الهيئة ، غبىّ الوجه ، برىء النظرة • ليس هو الفاعل اذن !

صاح الأمير يقول وهو يتنفس الصعداء فرحاً :

— آه ••• ما أعظم سرورى ! كنت خائفاً عليه !

قال ليديف غامزاً بمكر :

- كنت خائفاً عليه ؟ أكان هناك اذن أسباب تدعوك الى الخوف عليه؟

فأجابه الأمير :

- لا ، لا ... فأنما أنا قلت هذا بغير تفكير + لقد عبّرت عن تفكيرى تعبيراً أحقق أخرق حين قلت اننى كنت خائفاً عليه + أرجوك يا ليديف أن لا تتقل كلامى هذا الى أحد +

- أمير ! أمير ! سوف يبقى كلامك مدفوناً فى قلبى ، فى القاع من

قلبى + هو من قلبى فى قبر +

كذلك قال ليديف بمهابة وجلال ، ضاغطاً بقبعته على صدره +

سأله الأمير :

- طيب ... طيب .. هل الفاعل اذن هو فردشتشكو ؟ أقصد +

هل تشبه فى فردشتشكو ؟

فأجاب ليديف خافضاً صوته محدقاً الى الأمير :

- هل هناك من يمكن أن أشبه فيه غيره ؟

- نعم ... طبعاً ... من يمكن الاشتباه فيه غيره ؟ ولكن ، أين

الأدلة ؟

- الأدلة موجودة + أولاً : اختفاؤه فى الساعة السابعة أو حتى قبل

الساعة السابعة من الصباح +

- أعلم : لقد حكى لى كوليا أن فردشتشكو قد دخل عليه ليلغه أنه

سوف ينهى ليلته عند ... نسبت الاسم ... المهم : عند أحد أصدقائه +

- فيلكين + اذن سبق أن حدثك نيقولاى آرداليونوفتش عن هذا

الأمر ؟

– لم يقل لى عن السرقة شيئاً •

– هو لا يعلم بها ، لأننى أكنم الأمر الآن • اذن ذهب فردشتشكو الى عند فيلكين : لا غرابة فى أن يذهب سكير الى سكير ، حتى فى مطلع الصبح ، بدون أى داع ، أليس كذلك ؟ ولكن هنا يرتسم مسار يمكن اقتفاؤه • ان فردشتشكو ، حين انصرف ، قد ذكر المكان الذى كان ذاهباً اليه • اصغ الى يا أمير ، وتابع سير تفكيرى • لماذا فعل فردشتشكو ذلك؟ لما اتعمد أن يدخل على نيقولاى آرداليونوفتش ، رغم أن الطريق اليه فيه دورة طويلة ، ليلغنه أنه « سيختم ليلته عند فيلكين » ؟ من ذا الذى يهمه أن يعرف أنه خارج ، وأنه ذاهب خاصة الى فيلكين ؟ لماذا الابلاغ عن هذا ؟ لا ، لا ، ان ذلك شطارة ، شطارة لص ! ذلك معناه : « انظروا : اننى لم أحاول اخفاء أثرى ، فكيف يمكن بعد ذلك أن تنصب على شبهة سرقة ؟ هل يدل سارق على المكان الذى يذهب اليه ؟ » • هذه زيادة فى الاحتياط والحذر لتحويل الأنظار وصرف الشبهات ، ومحو آثار الخطوات على الرمل ان صح التعبير ••• هل فهمت عنى يا أميرى المعظم ؟

– فهمت ، فهمت جيداً ، ولكن هذا دليل واهن كل الوهن •

– اليك دليلاً آخر : لقد ظهر أن المسار كاذب ، وأن العنوان الذى تركه فردشتشكو غير صحيح • فلقد ذهبت أفرع باب فيلكين بعد ساعة ، أى فى الساعة الثامنة • انه يسكن هنا ، فى « الشارع الخامس » وأنا أعرفه على كل حال • لم أجد عنده فردشتشكو • صحيح أننى استطعت أن أعلم من خادمة صماء كأنها جرة ماء ، أن أحداً قد جاء منذ ساعة فعلاً ، وأنه بذل جهوداً كبيرة ليدخل حتى لقد خلع الجرس ، ولكن الخادمة لم تفتح الباب اما لأنها لم تشأ أن توقظ فيلكين ، واما لأنها لعلها لم تستطع أن تنهض عن سريرها • هذا واضح •

— أهذه براهينك كلها ؟ انها قليلة *

— حول من يمكن أن تحوم شبهاتى اذن يا أمير ؟

هكذا ختم ليديف كلامه بلهجة فيها مراعاة شديدة ، وبصوت يوشك أن يكون دامعاً ، ولكن على ابتسامة لا تخلو من بعض المكر *

قال الأمير مهمومَ الهيئة بعد لحظة من تفكير :

— يجب عليك أن تفتش الغرف والأدراج تفتيشاً جديداً *

فقال ليديف متنهداً ، معبراً بوجهه عن مزيد من التأثر :

— فعلت !

فهتف الأمير يقول وهو يضرب المائدة غضباً :

— هم *** ولكن لماذا ، لماذا خلعت ردنجوتك ؟

قال ليديف :

— هذا سؤال مستمد من مسرحية هزلية قديمة * ولكننى أرى أيها الأمير العظيم المبجل أنك تسرف فى التألم لمصيبتى ! أنا لا أستحق كل هذا . أقصد : أنا لا أستحق هذا ، وحدى ! على أننى أرى أنك تتألم للجاني أيضاً *** لذلك الرجل التافه الذى يسمى فردشتشكو !

فقاطعه الأمير يقول ذاهلاً مستاءً :

— نعم *** فعلاً *** لقد ملأت نفسى همًا * الخلاصة : ماذا تنوى أن تفعل ++ اذا كنت مقتنعاً هذا الاقتناع كله بأن فردشتشكو هو الجاني؟ قال ليديف وهو يتلوى ويتعقف ويصطنع لهجة ما تنفك تزداد امتلاءً بالتأثر والعاطفة :

— يا أمير ، أيها الأمير العظيم ، من ذا الذى يمكن أن أتهمه سواه ؟ يستحيل أن ينصرف التفكير الى شخص آخر ، وان استحالة الاشتباه فى

أى انسان عدا فردشتشكو هى فى ذاتها قرينة أخرى تشير الى أنه هو الجانى . ذلك دليل ثالث ! ذلك اننى أكرر هذا السؤال : من ذا الذى يمكن اتهمه عداه ؟ اننى لا أستطيع أن أشبه فى السيد بوردوفسكى ،
هى . هى ؟

- دعك من هذا السخف !

- لا ولا الجنرال ، هى . هى ؟

- هذه أيضاً حماقة !

قال الأمير هذه الجملة الأخيرة بلهجة تكاد تشتمل على غضب ،
وانقلب على مضجعه الى الجهة الأخرى متمللاً نافذ الصبر .

- هى حماقة طبعاً ! هى . هى . هى ! ما أغرب شأن هذا الجنرال !
لشد ما أضحكنى ! لقد ذهبنا منذ قليل ، نبحث عن فردشتشكو عند فيلكين
.. يجب أن أقول لك انه كان أشد دهشة منى حين مضيت وأوقفه بعد
أن تيسن لى ضياع المال ؟ فسرعان ما انقلبت سحته ، وتبدل وجهه ،
فاحمر ثم اصفر ، واستبدت به آخر الأمر نوبة نبيلة من الاستياء والغضب
بلغت من الشدة والعنف حدّاً لم أكن أتوقع مثله البتة ! ان له طبعاً من أنبل
الطباع . صحيح أنه لا ينفك يكذب ، ضعفاً ، ولكنه انسان رفيع العواطف
سامى المشاعر ؟ وهو الى ذلك يبلغ من القباء والبراءة ما يجعل المرء
يمحضه ثقة كاملة لا تشوبها شائبة من شك . سبق أن قلت لك ، أيها
الأمير العظيم ، اننى لا استلطفه فحسب ، بل أحمل له عاطفة طيبة ومحبة
كثيرة . لقد وقف فى وسط الشارع على حين فجأة ، وفتح رداءه ، وكشف
لى عن صدره قائلاً : « قتشنى ! لقد فتشت كيلر ، فلماذا لا تفتشنى ؟
ان العدل يوجب ذلك ! » . وكانت ذراعه وساقاه ترتجف ، وكان وجهه
شديد الشحوب حتى يشعر الناظر اليه بخوف . أخذت أضحك وقلت له :

« اسمع يا جنرال ، لو قال هذا الكلام أحد عنك ، لبادرت أقطع رأسي بيدي ، ثم أضعه على طبق كبير وأمضى أعرضه بنفسى على جميع أولئك الذين يمكن أن يشتبهوا فيك ، قائلاً لهم : « هل ترون هذا الرأس ؟ اننى مستعد لأن أقدمه رهناً على أن الجنرال صادق لا يكذب ، بل اننى مستعد لأن ألقى بنفسى الى النار فى سبيله ! » • فما كان من الجنرال الا أن ارتدى بين ذراعى ، ونحن مانزال فى وسط الشارع، نذرف بضع عبرات ، وبلغ من قوة شدتى الى صدره معانقاً أننى كدت اختنق من نوبة سعال • قال لى : « أنت الصديق الوحيد الذى بقى لى فيما أنا فيه من شقاء » • انه انسان حساس جداً ! وقد انتهز الفرصة طبعاً ليقص على أثناء الطريق حكاية تتفق وهذه المناسبة ، فقال انه قد اتهم ذات يوم أثناء شبابه بأنه سرق خمسمائة ألف روبل • لكنه فى غداة ذلك اليوم نفسه رمى نفسه فى لهب منزل يحترق ، فأخذ الكونت الذى كان قد اتهمه ، وأخذ فى الوقت نفسه نينا الكسندروفنا التى كانت فى ذلك الأوان فتاة لم تتزوج • وقد عانقه الكونت وقبله • وفى أعقاب هذا الحادث انما تزوج نينا ألكسندروفنا • أما المال المقتد فقد اكتشف فى اليوم التالى بين انقاض المنزل المحترق ، داخل علبه حديدية كان مودعاً فيها • ان تلك العلبه الحديدية ، وهى صناعة انجليزية ذات قفل خفى ، كانت قد اندست تحت أرض الغرفة - لا يدرى أحد كيف ! - فلم يمكن العثور عليها الا بعد الحريق • القصة ملفقة طبعاً ، ولكن هذا لا ينفى أن عينيه قد دمعتا حين جاء على ذكر نينا ألكسندروفنا • انها لامرأة محترمة جداً ، نينا ألكسندروفنا هذه ، رغم أنها غاضبة منى حاقدة على

- أليس لك بها صلوات ؟

- تقريباً • ولكننى أتمنى أن تكون لى بها صلة ، ولو لأبرىء نفسى فى نظرها • ان نينا ألكسندروفنا حاقدة على لأنها تظن أننى أدفع زوجها

الآن الى الادمان على السكر • والحق أننى لا أحضه على الفساد بل أصدده عنه ، ولعلنى آقيه من رفاق السوء ، وأجتنبه مزالقي بيثة خطيرة • هذا واتنى أعدده صديقاً ، وأعترف لك باننى لن أهجره بعد اليوم أبداً ؛ ولأذهبن الى حيث يذهب ، لأنه لا سبيل الى التأثير فيه الا بالمعاطفة • لقد انقطع الآن عن التردد الى صاحبه « الكابتنه » انقطاعاً تاماً ، وان يكن فى سرّه يحترق شوقاً الى الذهاب اليها ، حتى انه فى بعض الأحيان يتنهد تنهداً قوياً بل يشن أنيناً حين يفكر فيها ، ولا سيما فى الصباح ، حين يقوم من فراشه ويضع قدميه فى حذاءيه • لا أدري لماذا يستبد به هذا الأمر فى تلك اللحظة بعينها • والبلية أنه لا يملك قرشاً واحداً ، وهو لا يستطيع أن يذهب اليها بغير مال • ألم يسألك أن تنفحه بعض المال ، أيها الأمير المعظم ؟

— لا ، لم يسألنى شيئاً •

— انه متحرج • كان يريد أن يطلب منك مالاً • حتى لقد اعترف لى بأنه ينوى مضايقتك بهذا الأمر • ولكنه لم يجرؤ ، لأنك أقرضته منذ مدة قصيرة ، فقدّر أنك ربما رفضت اقراضه ثانية • لقد أفضى الىّ بهذا افضاء صديق يبوّح لصديقه بما فى نفسه •

— وأنت ، ألا تعطيه مالاً ؟

— يا أمير ، أيها الأمير المعظم ، أنا مستعد لأن أعطى هذا الرجل لا مالاً فحسب ، بل حياتى أيضاً ان صح التعبير ••• حين أقول حياتى فاننى أبالغ • ولكننى مستعد فى سبيله لأن أتحمّل الحمى ، أو أن أتحمّل دملاً أو زكاماً ، هذا طبعاً اذا كان ثمة حاجة مطلقة الى ذلك • اننى أعدده

رجلاً عظيماً لكنه انحدر وهوى • هذا رأيي ؛ فمن بابٍ أولي ، اذا كان الأمر أمر مال ...

— اذن فأنت تعطيه مالا !

— لا ، لا أعطيه مالا • لم أعطه مالا ، وهو يعرف اننى لن أعطيه • ولكننى لا أُمْنَعُ عنه المال الا لهدف واحد هو أن أحمله على الاعتدال ، وأن أصلح ما فسد من شأنه • ان الفكرة الثابتة التى تستبد به الآن هى أن يصحبني الى بطرسبرج فى رحلتى التى ألاحق فيها السيد فردشتشكو ، لاعتقادي بأنه هناك ختماً • فالجنرال يغلى ويفور الآن ، لكننى أُنَبِّأُ بأنه متى وصل الى بطرسبرج ستركنى ليمضى الى صاحبتة أرملة الكابتن • أعترف لك بأننى سأدع له عامداً أن ينصرف ، وبأننا متفقان على أن نفرق متى وصلنا بطرسبرج ليكون حظنا من النجاح فى التقاط فردشتشكو بطرق مختلفة ووسائل شتى ، أكبر • سأدع له اذن أن ينصرف ، ثم أسقط عليه عند أرملة الكابتن على حين فجأة ، متلبساً بالجرم المشهود ، لأننى أُنَتَوَى خاصةً أن أُخجله من نفسه ، مذكراً اياه بواجباته كـرب أسرة ، وبكرامته كإنسان عامة •

قال الأمير بصوت خافت وقد استولى عليه قلق شديد :

— ولكن لا تحدث ضجةً يا ليديف ، لا تحدث ضجةً ، ناشدتك

الله ! ...

— لا ، لا ، اننى لا أقصد الا أن أُخجله ، وأن أرى كيف يكون وجهه حينذاك ، لأن الوجه يمكن أن يكشف عن أشياء كثيرة ، أيها الأمير المعظم ، و لاسيما فى رجل مثله ! آه يا أمير ! مهما تكن مصيبتى الآن كبيرة ، فاننى لا أستطيع ، حتى فى هذه اللحظة ، أن امتنع عن التفكير فيه

وفى اصلاحه • لى رجاء كبير أريد أن أتقدم به اليك أيها الأمير المعظم ؛
حتى اننى اعترف لك بأن هذا هو السبب الذى حضىنى على المجيء اليك •
انك تعترف أسرة الجنرال ، حتى لقد أقمت عندهم ، فليتك تقبل ، أيها
الأمير المعظم ، أن تبسّر لى عملى وتسهّل علىّ مهمتى فى سبيل مصلحة
الجنرال وسعادته لا أكثر

قال ليديف ذلك وهو يضم يديه احدهما الى الأخرى على وضع
الضراعة والابتهاال •

قال الأمير :

– ما هو الأمر ؟ فى أى شىء أستطيع أن أساعدك ؟ نق اننى أتمنى
جداً أن أفهم فكرتك وأن أدرك ما يدور فى ذهنك يا ليديف

– ان ثقتى هذه وحدها هى التى قادتنى اليك ! ان فى امكاننا أن نعمل
بواسطة نينا ألكسندروفنا لنحيط صاحب السعادة الجنرال برقابة محكمة
متصلة فى منزله نفسه • يؤسفنى أننى لست على صلة ثم ان نيقولاى
آرداليونوفتش ، الذى يحبك حباً يبلغ العبادة ان صح التعبير ، ويتعلق
بك تعلقاً فيه كل ما فى سنه الشابة من حرارة وحمياً ، يستطيع أن
يساعدنا ولا شك

– لا ! لا ! لا ! أتقحم نينا الكسندروفنا فى هذا الأمر ؟
وقانا الله شرّ ذلك ! لا ولا تقحم فيه كولىا •• ولكن لعلى
لما أنفذ الى فكرتك بعد يا ليديف •

صاح ليديف قائلاً وهو يشب عن كرسيه :

– لا شىء يحتاج الى نفاذ ! ما نحن فى حاجة الى أكثر من
العطف عليه والرفقة فى معاملته ! ذلك هو كل الدواء اللازم لمريضنا •
هل تسمح لى ، يا أمير ، أن أعدّه مريضاً ؟

— هذا يدل على طيب قلبك وسداد رأيك •

— سأستعين على شرح رأيي بمثال مستمد من المشاهدة ، التماساً
لزيد من الوضوح • انك ترى اى انسان هو هذا الرجل : ان ضعفه
الوحيد الآن هو ذلك التعلق الشديد بأرملة الكابتن التى لا يمكنه أن
يذهب اليها بغير مال ، والتى آمل أن أفاجئه عندها هذا اليوم نفسه فى سبيل
خيره • بل فلنفرض أنه لا يوصم بهذا الضعف وحده ، وانما هو متهم
بارتكاب جريمة أو بمقارفة فعل منافٍ للشرف (مع أنه لا يمكن أن يفعل
شيئاً من ذلك البتة) : أنا أقول ، حتى فى هذه الحالة ، ان فى امكاننا أن
نصل به الى كل ما نبغى له من خير ، لأننا نستطيع أن نناشد فيه مشاعر
الحنان النبل وعواطف الرقة الرفيعة ، فهو انسان حسّاس الى أبعد
الحدود • صدقنى اذا قلت لك انه لن يصمد خمسة أيام ، ثم اذا هو
يأخذ يتكلم ويعترف بكل شيء ذارفاً أحرّ الدموع ، ولا سيما اذا خاطبناه
بمهاره ونبل فى آن واحد ، واذا استطعتم ، أنت وأفراد أسرته ، أن
تراقبوا خطاه ان صحّ التعبير ، وأن ترصدوا جميع حركاته وسكناته •
ثم قال ليديف منتفضاً عن كرسيه كأنما هبط عليه وحى مفاجئ :
— أنا لا أجزم طبعاً أنه هو بغير شك ... وما أزال مستعداً لأن
أسفح فى سبيله كل دمي على الفور ... ولكن لا شك فى أنك توافقنى
على أن الفجور والسكر وأرملة الكابتن ، أن ذلك كله مجتمعاً يمكن أن
يمضى به الى بعيد جداً ...

قال الأمير وهو ينهض :

— ما زلت مستعداً لأن أساعدك فى هذه القضية بطبيعة الحال • لكننى
أعترف لك يا ليديف أن فى نفسى خشية رهيبه • عجيب أمرك : انك
لا تزال تقدّر أن ... أقصد ... انك تقول أنت نفسك ان اشتباهك
ينصرف الى السيد فردشتشكو ، أليس كذلك ؟

– فيمن أشبه اذا لم أشبه فيه، أيها الأمير المخلص الصادق ؟ فيمن
أشبه اذن ؟

كذلك عاد يقول ليديف مبتسماً ابتسامة عذبة ضاماً يديه احدهما
الى الأخرى برقة وملاطفة •

فاكفهر وجه الأمير ونهض • ثم قال :

– انك لتعرف يا لوكيان تيموفتتش أن الظن الخطأ في مثل هذه
الأحوال شيء فظيع • ان فردشتشكو هذا ••• أنا لا أريد أن أقول فيه
سوءاً ••• ولكن ••• ولكن فردشتشكو هذا ••• من يدري ؟ ربما كان
هو الفاعل ••• أقصد •• ربما كان أقدر من غيره على فعل هذا الأمر
دون تورع •

حملق ليديف بعينه وأرهف السمع بأذنيه • وكان الأمير يزداد
وجهه اربداداً ، وكان يذرع الغرفة طولاً وعرضاً ، محاولاً أن لا ينظر
الى محدثه • ثم قال وقد تفاقم ارتباكاه :

– هل تعلم ؟••• لقد قيل لى عن السيد فردشتشكو انه ، عدا ذلك ،
قد يكون رجلاً ينبغى للمرء أن يحذره فلا يقول بحضوره شيئاً •••
أكثر مما يجب أن يقال • هل فهمت ؟ أنا أنقل اليك هذا الكلام لأن
السيد فردشتشكو قد يكون ، بالفعل ، أقدر من غيره على أن ••• فأنا
أنقل اليك هذا الكلام اتقاءً لارتكاب خطأ ••• ذلك أن هذا هو الشيء
الأساسى ، فهمت ؟

قال ليديف سائلاً باهتمام قوى :

– ولكن من ذا الذى ذكر لك هذه الملاحظة عن السيد فردشتشكو؟

– همس لى أحدهم بها عرضاً • وأنا على كل حال لا أصدق من ذلك

شيئاً ••• وانه ليسوءنى أنى وجدت نفسى مضطراً الى أن أنقل اليك ذلك الحديث • أوكد لك أننى لا أولى هذا الكلام أى ثقة •• فهو لا يعدو أن يكون من باب الأقاويل السخيفة ••• آه ••• ما كان أغبائى حين نقلته !•••

قال ليديف وهو يرتجف من شدة الانفعال :

— هذا أمر هام جداً يا أمير ، هام جداً الآن ، لا فيما يخص السيد فردشتشكو ، بل من جهة المصدر الذى وصل منه هذا الأمر الى علمك •• كان ليديف ، وهو يقول هذا الكلام ، يركض حول الأمير ، جاهداً أن يوفق بين خطوه وخطوه •

وتابع يقول :

— اليك يا أمير ما يجب على أن أطلعك عليه الآن : فى هذا الصباح ، بينما كنا ذاهبين معاً ، أنا والجنرال ، الى ذلك الرجل الذى يسمى فيلكين أخذ الجنرال ، بعد أن حكى لنا قصة الحريق تلك ، أخذ يطلق ، على حين فجأة ، غمزات فى حق السيد فردشتشكو ، وكان ما يزال يرتعش استياءً بطبيعة الحال • لكن الكلام الذى قاله فى حق فردشتشكو قد بلغ من التفكك والاضطراب أننى لم أستطع أن أمنع نفسى من القاء بعض الأسئلة عليه • فأقمتنى أجوبته بأن جميع تلك المعلومات التى أوردها صاحب السعادة الجنرال انما لفقها واخترعها هو نفسه ••• تلك ثمرة من ثمرات حبه للكلام والافضاء والبوح • فهو اذا كذب ، لا يكذب الا لأنه لا يستطيع أن يكظم ميله الى الافصاح عما يمتلئ فى قلبه • وانى لألقى عليك الآن هذا السؤال طالباً منك أن تقضى فى الأمر بنفسك : اذا كان الجنرال قد كذب ، وهذا ما أنا مقتنع به ، فكيف أمكن أن تصل كذبه الى مسمعك ؟ لاحظ ، يا أمير ، أن ذلك الحديث انما كان ابن لحظته ، انما كان من وحي

تلك اللحظة ، فمن ذا الذي أمكنه أن يطلعك عليه ؟ هذه نقطة هامة ***
انها ، ان صح التعبير ***

— كوليّا هو الذى نقل الى ذلك الكلام ؛ والملاحظة ذكرها له أبوه
الذى صادفه فى حجرة المدخل بين الساعة السادسة والساعة السابعة ،
بينما كان خارجاً لا يدرى أحد لماذا ...

وقصَّ الأمير على لبيدیف كل شيء تفصيلاً •
قال لبيدیف وهو يفرك يديه سروراً ويضحك ضحكاً صامتاً :

٢٠٠ - آ ... هذا ما يصح أن يسمى أثراً يجب اقتفاؤه ... ذلك ما كنت أقدره ! معنى ذلك أن صاحب السعادة الجنرال ، في الساعة السادسة من الصباح ، قد قطع نومه البريء ، خصيصاً ، ليمضي يوقظ ابنه الحبيب ويبلغه أن صحبة السيد فردشتشكو تعرض المرء لخطر خارق ! فما أكبر خطر فردشتشكو بعد ذلك في نظر الابن ، وما أعظم العناية الأبوية التي يظهرها صاحب السعادة ! هيء هيء هيء ...

قال الأمير قلقاً أشد القلق :

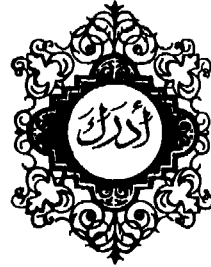
- اسمع يا ليديف ، اسمع : يجب أن تعمل برفق وهندوء .
لا تحدث ضجة ! أرجوك يا ليديف ، أضرع اليك . . . فاذا تقيدت بهذا
الشرط ، فيمينا لأساعدتك . ولكن يجب أن لا يعرف شيئا أى انسان ،
أى انسان !

هتف لیدیف یقول بالهام حاسم ونشوة کبری :

– ثق أيها الأمير المخلص الكريم أن هذا كله سيُدفن في قلبي
النيل دفناً + يجب أن نسير متكاتفين بخطى لا يُسمع لها صوت ! نعم ،
متكاتفين بخطى لا يُسمع لها صوت ! اتنى مستعد لأن أهب دمي كله ++

أيها الأمير العظيم • ان لي نفساً خسيصة وفكراً منحطاً • ولكن اسأل أي
انسان منحط ، بل اسأل أي وغد حقير - هو يفضل أن يتعامل مع وغد من
نوعه أم هو يؤثر أن يتعامل مع انسان مثلك يتمتع بكمال النفس وعظمة
القلب ، أيها الأمير المخلص ؟ لسوف يجيبك بأنه يفضل الثانية • هنا انما
تتنصر الفضيلة ! أستودعك الله أيها الأمير المجلل ! بخطي ليس لها صوت
••• بخطي ليس لها صوت ••• متكاتفين !

الفصل العاشر



الأمير أخيراً لماذا كان يتجمد كلما مدَّ يده الى تلك الرسائل الثلاث ، ولماذا كان يرجي قراءتها الى المساء . في الصباح ، حين استلقى على مضجعه دون أن يستطيع أن يعزم أمره على فض أى ظرف من ظروف الرسائل الثلاثة ، كان قد نام نوماً ثقيلاً مضطرباً ، ووافاه حلم آخر مزعج أليم رأى فيه تلك « المجرمة نفسها » مقبلة عليه ، متقدمة نحوه . كانت تنظر اليه والدموع تلتصع على أهدابها الطويلة ، وكانت تدعوه من جديد أن يتبعها ، وكما حدث له في الليلة الماضية ، استيقظ على ذكرى ذلك الوجه الأليمة ، فأراد أن يذهب « اليها » فوراً ، ولكنه لم يقوَ على ذلك ؛ وانهى به الأمر ، بعد أن استولى عليه ما يشبه أن يكون يأساً ، الى أن يفض الرسائل ويأخذ في قراءتها .

ان تلك الرسائل تشبه ، هي أيضاً ، أن تكون حلماً . ان المرء يرى في بعض الأحيان أحلاماً غريبة ، لا تخطر بالبال ولا يتصورها الحيال ، أحلاماً تخالف الطبيعة ؛ فاذا استيقظ تذكرها واضحة جلية ، فاستغرب أمرها كل الاستغراب . انك تتذكر خاصة أن عقلك لم يبارحك في أية لحظة من لحظات الحلم ، بل انك لتتذكر أنك تصرقت بكثير من براعة المكر وحسن الحيلة وسلامة المنطق ، خلال مدة طويلة ، بينما كان القتل يحدقون بك ويمدون لك الفخاخ ، ويدبرون المكائد ، ويخفون

أهدافهم ؟ حتى لقد يتوددون اليك ، على حين أن أسلحتهم موهبة ، وأنهم لا ينتظرون الا اشارة لينقضوا عليك • وانك لتذكر ما عمدت اليه من براعة المكر ، لتخدعهم عن أنفسهم ، وتتواري عن أبصارهم ؟ ولكنك تحزر بعد ذلك أنهم يعرفون حيلتك ، فهم يتظاهرون بجهل مخبئك تظاهراً ؟ فتلجأ عندئذ الى مخادعة أخرى ، وتظفر بتضليلهم مرة ثانية • ذلك كله تتذكره تذكرأ واضحاً ولكن كيف تتصور أن عقلك ، خلال تلك الفترة من الوقت ، قد أمكنه أن يسلم بسخافات واستحالات تبلغ من وضوح سخفها واستحالتها ما تبلغه تلك الأمور التي يزخر بها حلمك ؟ ان واحداً من القتلة قد تحول الى امرأة على مرأى منك ، ثم تحولت هذه المرأة الى قزم ماكر كريبه أمام عينيك ، فسرعان ما سلّمت أنت بهذا كله تسليمك بواقع ، دون أى اندهاش تقريباً ، بينما كان عقلك في الوقت نفسه يبذل جهداً قوياً وطاقة عظيمة فيحسن المكر ، ويجيد الفهم ، ويدرك تسلسل الأحداث ومنطق الأمور ؟

ولماذا أيضاً ، حين تستيقظ من النوم وتعود الى الاندماج في الحياة الواقعية ، لماذا تشعر ، في جميع الأحوال تقريباً ، وبقوة خارقة احياناً ، أنك بخروجك من ميدان الحلم قد خلّفت وراءك لغزاً لم يُحل ؟ انك تبسم استهزاءً بسخافة حلمك واستحالاته ، ولكنك تحس في الوقت نفسه بأن ذلك الركام من الأباطيل المتداخلة المتشابكة ينطوى على نوع من فكرة ••• فكرة واقعية تنتمي الى حياتك الراهنة ، ينطوى على شيء يوجد في قلبك وقد وُجد دائماً في قلبك ؟ فكأن كشفاً من كشوف النبوة قد تنزّل عليك في حلمك وكنت تنتظره ! انك تحتفظ منه بانفعال قوى ، انفعال فرح أو انفعال ألم ، ولكنك لا تستطيع أن تفهمه ، ولا أن تتذكر تذكرأ واضحاً ماذا كان !

ذلك هو على وجه التقريب ما جرى في فكر الأمير بعد قراءة تلك

الرسائل الثلاث • ولكنه ، حتى قبل أن يفضّها ، كان قد شعر بأن وجودها وحده ، بأن امكان وجودها وحده ، هو في ذاته أشبه بأن يكون حلماً ثقيلاً ، كابوساً أليماً • قال يسأل نفسه وهو يتجول في المساء وحيداً (دون أن يتذكر أين ، في بعض الأحيان) : كيف « هي » قررت أن تكتب « إليها » ؟ كيف أمكنها أن تكتب « في هذا الموضوع » ، كيف أمكن أن ينبت في رأسها حلم يبلغ هذا المبلغ من الطيش والجنون ؟ ولكن هذا الحلم كان قد صار الى حقيقة واقعة : والأمر الذي أدهش الأمير أكثر من ذلك أيضاً ، أثناء قراءة الرسائل ، أنه هو نفسه لم يكن بعيداً عن الاعتقاد بأن هذا الحلم ممكن وبأنه مشروع • نعم ، لا شك في أن هذا حلم ، في أنه كابوس ، في أنه جنون • غير أن نمة كذلك شيئاً مؤلم – الواقعية ، قاسى الصحة والصدق ، يسوّغ الحلم والكابوس والجنون ، ويجعلها كلها مشروعة •

ولبت الأمير عدة ساعات في حالة قريبة من الهذيان ، وهو يتذكر ما قرأ • انه يتذكر بعض العبارات بغير انقطاع ، فيقف عليها فكره ويمضى يتأملها ملياً • حتى لقد كان يهم أن يقول لنفسه في بعض الأحيان انه أوجس هذا كله من قبل وانه تنبأ به • كان يخيّل اليه أنه سبق له أن قرأ هذه الرسائل في ماضٍ بعيد ، وأن هذه الرسائل هي بذور كل ما عانى منذ ذلك الحين من أنواع القلق وفنون العذاب وألوان المخاوف •

كانت الرسائل الأولى تبدأ هكذا :

« حين ستفضين هذه الرسالة ، ابحتى أولاً عن التوقيع الذى يذيلها • ان هذا التوقيع سيقول لك كل شيء ، وسيُفهمك كل شيء ، فلا أكون في حاجة الى أن أبرر نفسى ، ولا أن أعتذر عن عملى ، فلو كنت أساويك أقلّ مساواة لكان فى وسعك أن تستائى من جرائى ، ولكن ما أنا بالقياس اليك ؟ أين أنا منك ؟ اتنا لنبلغ من شدة التعارض ، واتى

لأبلغ من فرط الصغر بالنسبة اليك ، أنتى لا أستطيع أن أودى كرامتك
ولو نويت أن أفعل ، *

وهى تكتب بعد ذلك قائلة :

« لا ترى فى أقالى حماسة مرضية تصدر عن فكر مختل اذا أنا
قلت لك اننى أرى فيك الكمال كله مجسداً . لقد رأيتك ، وانى لأراك
فى كل يوم . لاحظى أنتى لا أقضى فيك برأى . فليس التفكير هو الذى
يقودنى الى اعتبارك كاملة ، وانما يقودنى الى ذلك ايمان بسيط . ولكننى
مخطئة فى حقت : اننى أحبك . وما ينبغي للمرء أن يحب الكمال ؛ وانما
حسبه من الكمال أن يعرف أنه كمال وكفى ، أليس هذا صحيحاً ؟ ومع
ذلك أشعر نحوك بحب . صحيح أن الحب ينشأ مساواة بين الناس .
ولكن لا تقلقى : فانتى حتى فى أخفى خفايا تفكيرى لم أنزلك الى
مستواى ، ولا قرنت نفسى بك فى يوم من الأيام . قلت الآن : « لا تقلقى » ،
ولكن هل يمكن أن تشعري أنت بقلق ؟ .. لو أمكن ذلك لقبلك الأرض
التي تدوسها قدماك . آه ... اننى لا أعد نفسي نداء لك بحال من
الأحوال . انظرى الى التوقيع الذى أذيل به هذه الرسالة ، أسرعى
فانظرى اليه ! ، *

وهى تكتب فى رسالة أخرى :

« ألاحظ مع ذلك أنتى أجمع بينكما دون أن أكون قد ألفت على
نفسى فى يوم من الأيام هذا السؤال : هل تحينه ؟ لقد أحبك هو ، يوم
لم يكن قد رآك الا مرة واحدة . فكانت صورتك فى خياله صورة
«الضياء» . ذلك هو التعبير الذى استعمله . سمعت هذا التعبير من فمه .
على أنتى لم أكن فى حاجة الى هذا لأدرك أنك الضياء فى نظره . لقد
عشت بقره شهراً كاملاً ؛ وفى تلك الأثناء انما فهمت أنك تحينه أيضاً .
فاتما فى نظرى واحد لا اثنان ، *

« ما معنى هذا ؟ مررت أمس بفريقك ، فتزأى لى أنك تحمرين ؟
 مستحيل • لا يمكن أن يكون هذا الا احساساً خطأ • أنت لو أخذوك الى
 أحط المواخير ، وأروك الرذيلة عارية كل العرى ، لما أمكن أن تحمرى :
 أنت لا يمكن أن تغضبى من اساءة أو اهانة • قد تغضين جميع السافلين
 المنحطين ، ولكنك لا تغضينهم من حقد شخصى عليهم ، بل من رافة
 بالآخرين ومن عطف على الآخرين الذين ينالهم أولئك باساءة أو اهانة •
 لأنك أنت لا يستطيع أحد أن يجرح كرامتك أو أن يؤذى شعورك •
 حتى اننى أحس - هل تعلمين ؟ - أنك لا بد أن تحينى • أنت فى نظرى
 ما أنت فى نظره : روح من ضياء • والملاك لا يمكن أن يهض ، بل
 ولا يملك الا أن يحب • هل يستطيع المرء أن يحب جميع اقارنه البشر
 بغير استثناء ؟ ذلك سؤال طرحته كثيراً على نفسى • فكان جوابى : لا ،
 حتماً ! حتى ان ذلك ينافى الطبيعة • وما حب الاساية الا معنى مجرد ،
 من خلاله لا يجب المرء الا نفسه • ولكن اذا كان هذا الحب يستحيل علينا
 نحن ، فليس يستحيل عليك أنت • اذ كيف يمكن أن لا تحبى جميع
 البشر ، ما دمت فوق جميع البشر ، فما من أحد يرقى الى مستواك ،
 وما من اهانة يمكن أن تنالك ، وما من استياء يمكن أن يساور نفسك !
 أنت وحدك تستطيعين أن تحبى بغير أنانية • أنت وحدك تستطيعين أن
 تحبى لا من أجل نفسك بل من أجل من تحبينه • آه ••• لسوف يؤلنى
 أفسى الألم أن أعلم أنك بسببى تشعرين بخجل أو غضب ! فلو حدث
 هذا لكان فيه ضياعك ، لأنك تهبطين عندئذ الى مستوى !•••»

« أمس ، بعد أن لقيتك ، عدت الى منزلى وتخيلت لوحة • ان
 الفنانين يرسمون المسيح دائماً على أساس المعلومات الواردة فى الانجيل •
 أما أنا فلو كان على أن أرسم المسيح لصورته غير هذا التصوير • لو كان
 على أن أرسم المسيح لصورته وحيداً (لقد كان يريدوه يتركونه وحيداً

فى بعض الأحيان على كل حال) ، ولما وضعت بقربه الا طفلاً صغيراً .
والطفل يلعب من حوله . ولعل الطفل قد قصَّ عليه بلغته الساذجة شيئاً
من الأشياء ، فأصغى اليه المسيح فى أول الأمر ، لكنه الآن يتأمل ، وماتزال
يده مستريحة على الشعر الوضىء من رأس الصبى بحركة نسيان لم
يقصدها . وهو ينظر الى بعيد ، الى الأفق . وفى عينيه تنعكس فكرة رحية
رحابة الكون . ووجهه حزين . لقد صمتَ الطفل . انه واضحٌ كوعيه
على ركبتى المسيح ، مسندٌ خده الى يده الصغيرة ، رافعٌ رأسه يحرق
الى المسيح بنظرة ثابتة ، وقد لاح على وجهه ذلك التفكير الذى يلاحظ
أحياناً فى وجوه الصغار الصغار . والشمس تغرب تلك هى اللوحة
التي كان يمكن أن أرسماها . انك نقية ، وكمالك كله فى نقائك . آه
... تذكرى هذا وحده ! لا يهمنك هيامى بك ! أنت بعد اليوم لى ،
وسأبقى قريبة منك طول حياتى . سوف أموت وشيكاً ،

وكتب فى الرسالة الأخيرة تقول :

« لا تسيئ الظن فىَّ ، ناشدتك الله ! لا ولا تحسبى اننى أذلُّ نفسي
بالكتابة اليك على هذا النحو لأننى من أولئك البشر الذين يجدون فى
خفض أنفسهم لذّةً بل ويلتمسون فيه عجباً وزهواً . لا . ان لى
ما يعزىنى . ولكن يصعب علىَّ أن أشرحه لك ؟ بل لقد يصعب علىَّ أن
أدركه أنا نفسى ادراكاً واضحاً ، رغم أن هذا يعذبنى . لكننى أعلم أننى
لا يمكن أن أذلَّ نفسى حتى بدافع فرط العجب والزهو . أما المذلة
التي تنشأ عن نقاء القلب فأنا عاجزة عنها . معنى ذلك أننى لا أذل نفسي
لا بهذه الصورة ولا بتلك .

« لماذا أريد أن أجمع بينكما ؟ أمن أجلكما أم من أجلى ؟ من أجلى
طبعاً . كل شئ يترد الى هذا فيما يتعلق بى ؟ قلت ذلك لنفسى منذ مدة
طويلة . لقد علمت أن أختك آديلايد قالت فى ذات يوم ، وهى تنظر الى

صورتى ، ان المرء يستطيع بجمال كهذا الجمال أن يحدث فى العالم ثورة • ولكننى عدلت عن العالم ، عزفت عن العالم • لا بد أن يبدو لك مضحكاً أن أكتب هذا الكلام بينما أنت تصادفينى مكسوة باللباس المخرّمة ، مزدانةً بالحلى الثمينة ، فى صحبة سكرّين وأوغاد ، أليس كذلك ؟ لا تلقى بالاً الى هذا • أنا منذ الآن لا وجود لى تقريباً ، وانى لأعرف ذلك ولا أجهله • الله يعلم من ذا الذى احتلّ فى ذاتى مكانَ شخصى • اننى أقرأ مصيرى كل يوم فى الأعين الرهية المحدثّة الىّ دائماً ، حتى حين لا تكون أمامى • ان تلك الأعين « تصمت » الآن (تصمت دائماً) ، لكننى أعرف سرّها • ان منزله قائم كالحج من الضجر • ان هذا المنزل يخفى سرّاً • انا مقتنعة أن عنده ، فى درج من الأدراج ، سكيناً قد لُفّ نصلها بالحريز كسكين ذلك القاتل من موسكو ، الذى كان يعيش هو أيضاً مع أمه ويفكّر فى ذبح عنقى • لقد ظلمت أحس ، طوال الوقت الذى قضيته فى منزلهم ، أنه لا بد أن تكون مخبأةً ، فى مكانٍ ما ، تحت الأرض ، جنةً لعل أباه خبأها هناك ملفوفةً بقماش مشمّع ، كتلك الجثة التى اكتشفت بموسكو ، وأحيطت كذلك بقوارير من اكسير جدانوف ؛ بل اننى لأستطيع أن أدلك على الركن الذى لا بد أن تكون الجثة مخبأةً فيه • انه يصمت دائماً ، ولكننى أعلم حق العلم أن توله بى يبلغ من القوة أنه لا يمكن الا أن يستحيل الى كره • سيتم زواجكما وزواجنا فى يوم واحد • هذا ما تمّ عليه الاتفاق بيننا ، وليس لدى سرّ بالنسبة اليه • اننى قد أقتله من شدة الخوف ••• لكنه سيقطنى قبل أن أعزم أمرى على ذلك ••• لقد ضحك الآن حين رأتى أكتب هذا الكلام ؛ وهو يزعم أننى أهذر • وهو يعلم أننى اليك أكتب • • •

لقد ضمت الرسائل أفكاراً أخرى هاذية كثيرة • وكانت احدى هذه

الرسائل الثلاث - وهى الثانية - تملأ بكتابة دقيقة جداً أربع صفحات كبيرة .

خرج الأمير أخيراً من ظلمة الحديقة التى طوّف فيها مدة طويلة كما فعل البارحة . بدا له الليل الشاحب الشفاف أوضح مما يكون فى العادة . قال يسأل نفسه : « هل يمكن أن لا يكون قد انقضى من الوقت زمن طويل ؟ » (كان الأمير قد نسى أن يحمل ساعته) . وخيّل اليه أنه يسمع موسيقى بعيدة . فقال يحدث نفسه مرة أخرى : « لعلها فى الفوكسهول . لا شك أنهم لم يذهبوا اليوم الى هناك . » . وانه ليقول لنفسه هذا الكلام ، اذا هو يلاحظ أنه أمام منزلهم . لقد كان يقدر حقاً أن الطواف كان سينتهى به أخيراً الى هناك . واجتاز الشرفة منهار القلب .

الشرفة خالية . لم يأت للقائه أحد . انتظر لحظة ، ثم فتح الباب الذى يفضى الى الصالة . أسرع يقول لنفسه : « هذا الباب لا يُغلق أبداً » . الصالة خالية . يكاد يكون الظلام فيها كاملاً . وقف الأمير فى وسط الغرفة متردداً . وفيما هو كذلك ، اذا بباب يُفتح فتدخل الكسندرا ايفانوفنا حاملةً بيدها شمعة . فلما رأت الأمير بدرت منها حركة استغراب ودهشة ، وتوقفت توقف من يسأل ويستفهم . طبعاً ، لم تكن تريد الكسندرا الا أن تجتاز الصالة من باب الى باب ، ولم تكن تتوقع أن تجد أحداً .

قالت أخيراً :

.. ما جاء بك الى هنا ؟

.. دخلت عابراً .

.. ماما متعبة ، وكذلك آجلايا . وآديلايد توشك أن ترقد على

سريرها ، وذلك ما سأفعله أنا أيضاً • لقد بقينا بالمنزل وحدنا طول
السهرة • بابا والأمير « شئت ••• » في بطرسبرج •
- أتيت اليكن ••• أتيت اليكن •• الآن •••
- هل تعلم كم الساعة الآن ؟
- لا •••

- هي الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل • ونحن ننام دائماً
في الساعة الواحدة •
- ها ••• وأنا الذى كنت أظن أن الساعة هي التاسعة والنصف •
قالت ضاحكة :
- لا ضير ! ولكن لماذا لم تجيء قبل هذا الوقت ؟ أظن أنك كنت
تتظر •

تمتم يقول وهو ينصرف :
- كنت ••• أقدّر ••• كنت •• أظن •••
- الى اللقاء ! سيضحك الجميع من هذا فى الغد •
رجع الأمير الى بيته سالكاً الطريق الذى يدور حول الحديقة • كان
قلبه يخفق ، وكانت أفكاره مضطربة مشوشة ، وكان كل شيء يكتسى فى
نظره مظهر الحلم • وفجأةً ، ظهرت لعينيه تلك الرؤيا نفسها التى سبق
أن ظهرت له مرتين حين كان يستيقظ من النوم • تلك المرأة نفسها خرجت
من الحديقة ، ووقفت جامدةً أمامه ، كأنما كانت مرابطةً فى ذلك المكان
تنتظره • ارتمش ووقف • تناولت يده ، وشدت عليها شداً قوياً • « لا ،
ليست هذه رؤيا ! ليس هذا طيفاً ! » •

ها هي ذى معه أخيراً ، وجهاً لوجه ، لأول مرة بعد افتراقهما • انها
تكلمه ، ولكنه ينظر اليها صامتاً • انه يشعر بألم فى قلبه الطافح • لن

ينسى هذا اللقاء فى يوم من الأيام ، وسيظل يشعر بذلك الألم نفسه كلما تذكر هذا اللقاء • ركعت على ركبتيها أمامه فى وسط الطريق كمنجونة • تراجع مذعوراً الى وراء ، بينما هى تحاول أن تمسك يده لتقبّلها • وكما سبق أن رأى ذلك قبل اليوم فى الحلم ، ها هى ذى دموع تتلألأ على أهدابها الطويلة •

همس يقول لها خائفاً وهو يحاول انهاضها :

- قومى ، قومى ، قومى بسرعة !

فقال تسأله :

- هل أنت سعيد ؟ هل أنت سعيد ؟ قل لى كلمة واحدة : هل أنت

سعيد الآن ؟ اليوم ؟ فى هذه اللحظة ؟ هل ذهبت اليها ؟ ماذا قالت لك ؟

لم تنهض ، ولم تصنع اليه • كانت تسأله مرتجة محمومة ، وكانت تتكلم بلهجة سريعة متعجلة ، كأن أحداً يلاحقها ويطاردها • تابعت تقول :

- سأسافر غداً ، كما أمرت • ولن أظهر بعد اليوم أبداً ••• أراك

الآن آخر مرة ، آخر مرة ! هى الآن آخر مرة فعلاً !

قال الأمير بلهجة تدل على غاية الكرب :

- هدئى نفسك ! قومى ! انهضى !

وكانت تتأمله بشراهة وتعانق يديه • وقالت أخيراً :

- وداعاً !

ونتهضت ، وابتعدت مسرعة تكاد تركض ركضاً • ورأى الأمير

روجوين ينبجس الى جانبها فجأة ، فيمسك يدها ويقناده •

وصاح روجوين يقول للأمير :

- انتظرنى يا أمير ، سأرجع بعد خمس دقائق •

وعاد بعد خمس دقائق فعلاً ، وكان الأمير ينتظره في ذلك المكان

• نفسه •

قال روجوين :

– أركبتها العربية • العربية تنتظرها هناك ، في ناحية الطريق ، منذ الساعة العاشرة • كانت تقدر أنك لا بد أن تقضى السهرة كلها عند الأخرى • لقد أبلغتها ما كتبته الىّ منذ قليل ، بدقة • فلن تبعث اليها بعد اليوم رسائل • هذا وعد • وستنفذ رغبتك فتغادر بافلوفسك غداً • أرادت أن تراك مرةً أخيرةً ، رغم علمها بأنك سترفض لقاءها اذا هي طلبت ذلك ، فانتظرك هنا ، على هذه الدكة التي كان عليك أن تمر بها في طريق عودتك الى بيتك •

سأله الأمير :

– أهى التي جاءت بك ؟

فأجاب روجوين :

– لم لا ؟ ان ما رأيته هنا لم يطلعننى على جديد • ألم تقرأ اذن

رسائلها ؟

فسأله الأمير وقد بغتته هذه الفكرة :

– وأنت ، هل قرأتها حقاً ؟

– هى نفسها أطلعتنى عليها كلها • هل تذكر الاشارة الى السكين؟

هى • هى • ! •

صاح الأمير يقول وهو يعقف يديه أسفاً :

– انها مجنونة !

فقدم روجوين يقول بصوت خافت ، كأنه يخاطب نفسه على

حدة •

— من يدري ؟ قد لا تكون مجنونة •

فلم يجب الأمير •

قال روجوين :

— هيّا ! وداعاً ! أنا أيضاً مسافر في الغد • لا تحمل ذكرى

سيئة عني !

ثم أضاف قائلاً وهو يستدير على حين فجأة :

— ولكن قل لي يا عزيزي : لماذا لم تجب عن سؤالها ؟ أأنت سعيد

أم لا ؟

فصاح الأمير يقول معبراً عن لوعة كبيرة :

— كلا ، ثم كلا ، ثم كلا !

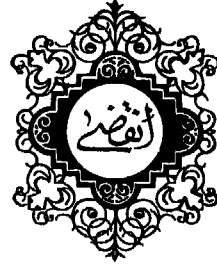
فقال روجوين وهو يضحك ساخراً :

— لا ينقص الا أن تقول لي « نعم » !

وانصرف دون أن يلتفت الى وراء •

المجلد الرابع

الفصل الأول



زهاء أسبوع على اللقاء الذى تمَّ بين بطلَى قصتنا
عند الدكة الخضراء •
وفى ذات صباح مشرق ، خرجت باربارا
الكسندروفنا بتسسينا تقوم بزيارة بعض صاحباتها
ثم رجعت الى منزلها كاسفة البال حزينة النفس فى نحو الساعة العاشرة
والنصف من النهار •

هناك أناس يصعب على المرء أن يقول فيهم شيئاً يصفهم ويصورهم
دفعاً واحدة فى أبرز ما يخصهم وأوضح ما يميزهم • أولئك هم الذين
اصطلح على تسميتهم باسم « العاديين » ، وهم أكثرية المجتمع فى الواقع •
ان الأدباء يجهدون ، فى رواياتهم وأقاصيصهم ، أن يختاروا نماذج
اجتماعية وأن يرسموا هذه النماذج الاجتماعية فى أقوى صورة جذابة
وأجمل أداء فنى • وهذه النماذج لا توجد فى الحياة كاملةً ذلك الكمال
الا استثناءً ، غير أن هذا لا ينفى أن الأفراد الذين يصورون هذا التصوير
هم أقرب الى الواقع من الواقع نفسه ان صح التعبير • ان شخصية
بودكوليوسين * قد تشتمل على مبالغة من حيث هى نموذج ، ولكنها ليست
وهماً صنعه الخيال • ما أكثر الأذكىاء الذين ما ان عرفوا شخصية
بودكوليوسين التى صورها جوجول فى مسرحيته حتى وجدوا بين
أصدقائهم ومعارفهم عشرات بل مئات من الأفراد يشبهون هذه الشخصية
كما تشبه قطرة من الماء قطرة من الماء ! بل ان هؤلاء الأذكىاء كانوا ،

حتى قبل قراءة جوجول ، يعرفون أن أصدقاءهم يشبهون بودكوليوسين .
وانما كان الشيء الذى يجهلونه هو الاسم الذى يجب أن يسمى به هذا
النموذج . فى الواقع ، يندر أن يهرب خطيبٌ من النافذة لحظة الزواج ،
ذلك أن هذه الحركة لا يستطيعها كل فرد من الناس ، بصرف النظر عن
أى اعتبار آخر . ومع ذلك ما أكثر العرسان من أناس يستحقون التقدير
ولا يعوزهم الذكاء ، الذين أحسوا لحظة زواجهم بالحالة النفسية التى
أحسها بودكوليوسين . كذلك لا يصرخ جميع الأزواج فى كل مناسبة
قائلين : « لقد أردتها يا جورج داندان * » . ومع ذلك ما أكثر ملايين
وملايين المرات التى كرر فيها أزواج الكون بأسره تلك الصيحة الصادرة
عن القلب ، بعد انقضاء شهر العسل أو حتى غداة يوم الزفاف !

لا حاجة بنا الى الافاضة فى الكلام على هذه المسألة ، وحسبنا أن
تقرر أن الخصائص البارزة المميزة التى تتصف بها هذه الشخصيات تكون
فى الحياة الواقعية أقل تنوعاً ، ولكن جميع أمثال جورج داندان وجميع
أشباه بودكوليوسين موجودون فى الواقع : يضطربون من حولنا
ويسعون أمام أعيننا ، ولكن بسمات مخففة وملامح مطففة . ويجب أن
نضيف الى ذلك ، لنختم هذه القضية ونستنفذ هذا الموضوع ، أن النموذج
الكامل لجورج داندان ، على نحو ما خلقه مولير ، يمكن أن يصادف فى
الحياة فعلاً ، ولكن نادراً . ولنختم هنا هذا الكلام الذى يوشك أن يصير
الى مقال فى النقد الأدبى .

غير أن هناك سؤالاً يطرح نفسه علينا دائماً : ما الذى يجب أن
يفعله كاتب الرواية الذى يقدم لقرائه اشخاصاً « عاديين » تماماً ، فى
سبيل أن يثير اهتمام هؤلاء القراء بهم ولو قليلاً ؟ انه ليستحيل على كاتب
الرواية أن يحذفهم من قصته ، لأن هؤلاء الناس العاديين هم فى كل لحظة
وفى أكثر الأحوال النسيج الذى لا غنى عنه ، والذى عليه تتسلسل وقائع

الحياة وأحداث الأيام ؟ فإذا حذفناهم كنا نجرد الرواية من صفة الصدق ونحرمها من ميزة الانطباق على الحقيقة . هذا عدا أن ملء الروايات بنماذج أو حتى بشخصيات غريبة خارقة إنما يعيدها عن الواقع فلا تحظى بتصديق القارئ وقد لا تثير شوقه . وفى رأينا أن الكاتب يجب عليه أن يحاول اكتشاف ألوان طفيفة فيها إثارة للاهتمام وفيها إحياء والهام ، حتى لدى الأشخاص العاديين . ولكن حين يحدث مثلاً أن تكون الصفة الأساسية لبعض الأشخاص العاديين هي أنهم عاديون على نحو ثابت دائم مستمر ، أو أنهم رغم جميع جهودهم التي يبذلونها للخروج من العادية والعامة ما ينفكون يرجعون الى العادية والعامة رجوعاً لا براء منه ، فإن هؤلاء الأشخاص العاديين يكتسبون بذلك صفة النموذج ، ويصبح لهم ما للنموذج من قيمة ، فهم عندئذ يمثلون العادية التي لا تريد أن تبقى ما هي ، وإنما تهدف الى بلوغ الأصالة بأى ثمن ، وتسمى الى تحصيل الاستقلال مهما كلف الأمر ، دون أن تملك للوصول الى ذلك أية وسيلة من الوسائل .

فالى هذه الفئة من الناس « العامين » أو « العاديين » ينتمى بعض أشخاص قصتنا هذه ، الذين اعترف بأن القارئ لم يوضّحوا له حتى الآن . أولئك هم على وجه الخصوص باربارا آرداليونوفنا بتسينا ، وزوجها السيد بتسين ، وأخوها جبريل آرداليونوفتش .

لا شيء أدعى الى انزعاج المرء ، مثلاً ، من أن يكون غنياً ، وابن أسرة كريمة ، وحسن الهيئة ، وعلى جانب من ثقافة ، وغير غنى ، بل وطيباً ، ولكنه لا يملك أية موهبة ، ولا ينفرد بأية سمة شخصية ، حتى ولا بأية صفة مميزة ، وأن لا يكون له أى تفكير خاص ، أى يكون شخصاً « كسائر الأشخاص » تماماً : فهو غنى ولكنه ليس مثل روتشيلد ، وهو ذو اسم محترم لكنه لم يتميز فى يوم من الأيام بشيء يجعله مرموقاً ؛

وهو حسن الهيئة لكنه لا يحدث فيمن يراه أثراً كبيراً ؛ وهو قد نال حظاً مناسباً من التعليم لكن هذا التعليم لا يجديه نفعاً في شيء ؛ وهو لا يخلو من ذكاء لكنه لا يملك أفكاراً شخصية ؛ وهو صاحب قلب حساس لكنه لا يتمتع بنفس كبيرة عظيمة ، وهكذا دواليك من جميع النواحي •

وبين الناس عدد كبير من هذا النوع من الأفراد ، أكبر كثيراً مما يمكن أن تتصور • وهم ينقسمون كسائر البشر الى فئتين أساسيتين : فأما الأولى فهي فئة الأفراد المحدودين وأما الفئة الثانية فأفرادها « أكثر ذكاء » • ان أفراد الفئة الأولى أسعد من أفراد الفئة الثانية • ان الانسان « العادى » المحدود الذكاء يستطيع بسهولة أن يظن أنه فذٌ وأنه أصيل ، ويمكن أن يطمئن الى هذا الظن ويسعد به • لقد كفى بعض آسائنا أن يقصصن شعرهن ، وأن يضعن على أعينهن نظارات زرقاء ، وأن يعلنن أنهن من أنصار المذهب العدمى ، حتى يقتنعن فوراً بأن هذه النظارات الزرقاء تهب لهن « آراء » شخصية ، و « اعتقادات » خاصة • وكفى فلاناً من الناس أن يكشف في قلبه ذرة عاطفة انسانية وطيبة حتى يتأكد فوراً من أنه لا أحد يشعر بمثل هذه العاطفة وأنه رائد من رواد التقدم الانسانى • وكفى فلاناً الآخر أن يتمثل فكرة سمعها من أحد الناس أو قرأها في أحد الكتب دون أن تكون لها بداية أو نهاية ، حتى يتخيل أن هذه الفكرة خاصة به ، نابعة منه ، قد نبئت في فكره وخرجت من رأسه • هذه حالة مدهشة يمكن أن نصفها بأنها وقاحة السذاجة ان صح التعبير • ونحن نصادفها دائماً ، رغم ما قد يبدو من أنها لا يُصدّق وجودها في الواقع • ان هذا النوع من الايمان الساذج المتكبر الذى يلاحظ لدى رجل أحرق لا يساوره شك في نفسه ولا في موهبته ، قد وصفه جوجول وصفاً رائعاً في النموذج المدهش ، نموذج الليوتان بيروجوف * • ان بيروجوف لا يراوده شك في أنه عبقرى بل أكثر من عبقرى • وهو يبلغ

من قلة شكه فى هذا أن السؤال كله أنه لا يطرحه على نفسه أصلاً ؛ عدا أنه لا شك لديه البتة . وقد رأى الكاتب الكبير نفسه مضطراً ، آخر الأمر ، الى أن يؤدبه بعقوبة الجلد ، ارضاءً للشعور الأخلاقى لدى القارئ . ولكنه لاحظ أن بطله لم تؤثر فيه العقوبة كير تأثير ، ولم يزد بعدما على أن نفخ جسمه ، وأخذ يأكل فطيرة صغيرة استرداداً لقواه ، لذلك لم يملك الكاتب الا أن يهز كتفيه ويترك قراءه حيث هم . لعلنا أسفت على أن جوجول جعل رتبة بطله بيروجوف رتبةً منخفضة ، ذلك أن هذا الشخص يبلغ من امثلته بنفسه أنه لا شئ يمنعه من أن يظن نفسه قائداً عظيماً على قدر ما تضخم الشارات على كتفيه بحكم القدم فى الخدمة والارتقاء فى الوظيفة .

ماذا قلت ؟ أقلت يظن نفسه ؟ ألا انه كان سيؤمن بذلك ايماناً لا يراوده فيك أى شك : فما الذى ينقصه ، اذا هو سُمى جنرالاً ، من أن يكون قائداً عظيماً ؟ وما أكثر الذين يخفقون بعد ذلك اخفاقاً رهيباً فى ساحات المعركة ؟ وما أكثر أمثال بيروجوف الذين وُجدوا بين الأدباء والعلماء وأصحاب الدعوات منا ! وُجدوا ؟ بل وما زالوا يوجدون حتماً !!!

ان جبريل آرداليونوفتش ايفولجين ، وهو أحد أبطال روايتنا هذه ، ينتمى الى الفئة الثانية من العاديين ، فئة العاديين الذين أوتوا « ذكاء أكبر » ، وان يكن قد ظل من أخمص قدميه الى قمة رأسه يحترق رغبةً فى أن يكون رجلاً ذا أصالة وتفرد . لقد ذكرنا من قبل ان أفراد هذه الفئة الثانية أشقى كثيراً من أفراد الفئة الأولى . ومردُّ ذلك الى أن الانسان « العادى » الذى يملك « ذكاء » ، حتى وان ظن نفسه فى بعض الظروف (بل وطوال حياته) انساناً أوتى عبقرية وأصالة ، يظل محتفظاً

فى قرارة قلبه بدودة شك تظل تأكله الى أن ترميه أحياناً فى هوة اليأس الكامل • فان أذعن مع ذلك متسماً بعاطفة الغرور المكبوح المكظوم • على أننا أخذنا هنا حالة قصوى • أما فى أغلب الأوقات فان مصير هذه الفئة « الذكية » من الرجال العاديين لا يكون فاجعاً الى هذا الحد • وكل ما يحدث لهم فى أكثر تقدير هو أن يصابوا بمرض فى الكبد بعد عدد من السنين ، فالى هذا يصير عذابهم كله • ومع ذلك فانهم قبل أن يهدأوا وأن يذعنوا يظلون ، خلال مدة طويلة ، منذ سن الشباب الى سن النضج ، يرتكبون حماقات تلو حماقات ، لا يدفعهم الى ذلك شىء غير الرغبة فى التفرد والبحث عن الأصالة •

حتى لنرى حالات غريبة • قرب أناس منهم يتصفون بالشهامة ولكنهم يتوقون الى الأصالة ، فاذا هم لا يتورعون أحياناً عن ارتكاب حقارة من الحفارات • هذا واحد من هؤلاء الأشقياء يمكن أن يعد رجلاً شريفاً بل وطيباً ، وهو عند أسرته أشبه بالناية الالهية ، يعول بعمله وحده لا ذويه فحسب ، بل أناساً غرباء أيضاً • فماذا يحدث له ؟ انه لا يهدأ له بال ولا تطمئن له نفس طوال حياته ! فشعوره بأنه قام بواجباته على أكمل نحو لا يصل به الى راحة القلب وسكينة الضمير • بالعكس : فهو حين يفكر فى ذلك يفضب ويسخط • انه يقول لنفسه : « ذلك ما ضيعت حياتى فى سبيله ! ذلك ما حال بينى وبين اختراع البارود ! فلولا تلك الواجبات والالتزامات ، لكان يمكننى أن اخترع البارود أو أن اكشف أمريكا • لا أدري ما الذى كان فى وسعى أن أكتشفه ، ولكننى كنت سأكتشف شيئاً من الأشياء قطعاً ! » •

ان أبرز ما يميز هؤلاء الناس هو أنهم يقضون حياتهم فعلاً دون أن يتوصلوا الى معرفة ما يجب عليهم أن يكتشفوه معرفة دقيقة ، وأنهم يظلون ينتظرون أن يكتشفوا شيئاً فى الغد : البارود أو أمريكا ! غير أن

حينئذ المعذب الى تحقيق هذا الاكتشاف يمكن أن يكون في الحقيقة كافياً
لرجل مثل كولومب أو مثل جاليله •

كان جبريل آرداليونوفتش قد دخل في هذا الطريق ، ولكنه لم
يسر فيه الا الخطوات الأولى في يوم من الأيام • كان يمتد أمامه أفق بعيد
من الآمال ممثلة بالأشياء المتعارضة المتناقضة • وهو منذ طفولته تقريباً
كان قلبه قد قرّحه شعورٌ عميق مستمر بأنه انسان عادي ، مع رغبة
قوية عارمة في أن يقنع نفسه بأن له استقلالاً تاماً • كان فتى جسوداً ،
عنيف الرغبات ، وكأنه خلق عصبياً نزعاً • وكان يحسب عرامة اندفاعاته
قوة وطاقة • وكان طمعه المسعور في أن يتميز وأن يكون شخصاً مرموقاً
يدفعه أحياناً الى التفكير في القيام بأعمال طائشة ، ولكنه ما ان يهيم أن
يثب حتى ينتصر العقل ويتغلب الذكاء دائماً • كان هذا يقتله • ولعله كان
يمكن اذا سنحت الفرصة أن يقرر اقتراف أخطر الحفارات والدنات
لتحقيق هذا الحلم أو ذاك من أحلامه • لكنه كان متى اقتربت اللحظة
الحاسمة يمتنع عن اجتراح مثل تلك السفالة لأن الشعور بالشرف كان
ينتصر في نفسه (ومع ذلك كانت الأفعال الدنيئة الصغيرة تلقى منه قبولاً
دائماً في الواقع) • وكان الفقر والهوان اللذين هوت اليهما أسرته
يوقظان في نفسه الاشمئزاز والكراهة • فكان يصطنع التعالي والاحتقار حتى
ازاء أمه ، رغم شعوره الكامل بأن ما تتمتع به أمه من سمعة طيبة وما تنعم
به من طبع قوى هو الآن سنده الأول ودعامته الأساسية في حياته وعمله •
وما ان دخل في خدمة أسرة ايبانشين حتى قال لنفسه : « ما دامت الأعمال
الحقيرة لا بد منها ، فلنرتكبها الى آخرها ، شريطة أن أجنى منها نفعاً ! » •
ولكنه كان لا يرتكب تلك الأعمال الدنيئة الى آخرها أبداً • ثم : لماذا
رسخ في رأسه أن عليه أن يقوم بأعمال سافلة حتماً ؟ ان أجابا لم تزد
برفضها على أن أخافته • ولكنه ما يزال يطمع في الفتاة ، وما يزال ينتظر

فرصة من الفرص صابراً ، دون أن يعتقد جاداً مع ذلك بأنها يمكن أن تتنازل فتقبل تقربه منها وتودده اليها •

ثم ارتأى فجأةً ، أثناء قصته مع ناستاسيا فيليوفا ، أن المال هو الوسيلة الوحيدة للوصول الى « كل شيء » • وفي ذلك الأوان كان لا ينقضى يوم دون أن يردد على نفسه قوله : « اذا كان لا بد من اقتراف دناءة ، فلنقتربها ! » • وكان اذ يستعمل هذه اللغة يشعر برضى يداخله شيء من خوف • فكان لا ينفك يكرر في كل لحظة من أجل أن يتشجع : « اذا لزمتم دناءة فلتمض الدنائة الى آخرها • ان الروتين يتردد في مثل هذه الحالة ، أما نحن فلن نتردد ! » •

واذ أخفق مع آجلايا وأرهقته الظروف ، فقد كلَّ شجاعة ، وحل الى الأمير المال الذي رمته اليه امرأة مجبونة بعد أن أخذته من رجل لا يقل عنها جنوناً • وقد ندم بعد ذلك ألف مرة على أنه ردَّ المال ، لكنه لم يكفَّ عن الشعور من ذلك بافتخار واعتزاز • لقد ظل يبكي فعلاً خلال الأيام الثلاثة التي قضاها الأمير ببطرسبرج • ولكنه خلال هذه المدة أيضاً انما نصبح كرهه للأمير وحقده عليه • انه لن يغفر للأمير أنه نظر اليه مشفقاً حين رآه « يقوم بعمل لا يجرؤ كثير من الناس أن يقوموا به » ، ألا وهو رد مبلغ ضخم كهذا المبلغ •

وكان يعترف لنفسه بصدق ونبل أن السبب الوحيد لكل ما يعانیه من قلق وغم هو هذا التمزق المتصل المستمر في غروره ، فكان هذا الشعور يعذبه عذاباً أليماً • ولم يستطع الا بعد مدة طويلة أن يدرك وأن يقتنع بأن أموره كانت ستجرى مجرى خطيراً مع انسانيته تبلغ ما تبلغه آجلايا من براءة وطهارة وغرابة ، فأخذ الندم عندئذ يهدء هداً ، فترك العمل وسقط في هوة الكآبة والانهياء •

انه يعيش الآن عند بتسين الذى يعوله كما يعول أباه وأمه • وهو

يظهر الاحتقار لصهره بتسين ، ولكنه يتبع نصائحه ، بل ويملك من التعقل والحكمة ما يحضه على التماس هذه النصائح منه دائماً . كان ثمة شيء يغضبه بين الأشياء الأخرى التي تغضبه ، وهو أن يرى أن بتسين لا يعنيه أن يصبح رجلاً مثل روتشيلد ، ولا يضع لطموحه هذا الهدف . « ما دمتَ مرابياً ، فكن مرابياً الى النهاية ؛ اعصر الناس اعتصاراً ، اسلبهم ما لهم ، كن قوياً الشكيمة ؛ صرْ ملكاً في اسرائيل » .

وكان بتسين رجلاً متواضعاً مسالماً مودعاً : فكان يكفي بالتبسم . ومع ذلك رأى في ذات يوم أن من الضروري أن يصارح جانياً وأن يناقشه مناقشة جادة ، ففعل ذلك بشيء من الرصانة والوقار ، مبنياً له أنه لا يأتي عملاً غير شريف ، فلا داعي الى وصفه بأنه يهودي ؛ وأنه اذا كانت نسبة الفائدة عالية فلا شأن له هو في ذلك ؛ وأن طريقته في المعاملة سليمة صادقة شريفة ؛ وأنه على وجه الاجمال ليس الا وسيطاً في هذا النوع من الأعمال ، وأنه بفضل تقيده بالمواعيد وصدقه في المعاملة قد أخذ يتمتع بشهرة ممتازة لدى أناس محترمين مرموقين ، وأن ميدان أعماله قد أخذ بسبب ذلك يتسع ويتسع . وأضاف يقول مبتسماً : « لن أصبح مثل روتشيلد ، ولا حاجة بي الى أن أصبح مثل روتشيلد ، ولكنني سأملك منزلاً وربما منزليْن في ليتانيا ، وحسبي هذا ! » . وكان يقول بينه وبين نفسه : « ومن يدري ؟ قد أملك ثلاثة منازل » ، لكنه كان لا يفصح عن هذا الحلم ، بل يحتفظ به سراً مكتوماً في قرارة نفسه . ان الطبيعة تحب هذا النوع من الناس وتدللّه ، ولسوف تكافئ بتسين لا بثلاثة منازل بل بأربعة ، لأنه منذ طفولته أدرك أنه لن يصبح مثل روتشيلد . ولكن الطبيعة في مقابل ذلك لن تمضي في الاغداق على بتسين الى أبعد من هذا الحد ، وهو امتلاك أربعة منازل ، وستكون هذه المنازل الأربعة كل ثروته .

أما أخت جبريل آرداليونوفتش فقد كان لها طبع يختلف عن هذا الطبع كل الاختلاف . انها هي أيضاً ذات رغبات مصطبخة عنيفة ، ولكن رغباتها تتصف بالعناد والثبات أكثر مما تتصف بالجموح والعرامة . كانت باربارا آرداليونوفتش تملك كثيراً من سلامة الحس وسداد الرأى فى قيادة عمل من الأعمال ، ولا تهجر هذا العمل حين يشارف على نهايته . الحق أنها كانت ، هي أيضاً ، من أولئك الناس «العاديين» الذين يحلمون بالتفرد والأصالة . ولكنها ، فى مقابل ذلك ، لم تلبث أن أدركت أنها لا تملك شيئاً من أصالة ، ولم يحزنها هذا حزناً بالغاً يجاوز الحدود . ومن يدري ؟ لعل ذلك كان نمرة شعور خاص بالكبرياء والزهو . لقد خطت خطواتها الأولى فى الحياة العملية بكثير من العزم والحزم فتزوجت السيد بتسين . لكنها لم تقل لنفسها فى هذه المناسبة : « ما دامت الأعمال الدينية ضرورية ، فلنمض فيها الى النهاية ، شريطة أن أنال بغيتى وأحقق هدفى » ، كما كان لا بد أن يقول مثل هذا فى مثل هذه الحالة أخوها جبريل آرداليونوفتش (ان هذه الكلمات هي تقريباً الكلمات التى قالها لأخته حين وافق ، كأخ أكبر ، على أن تتزوج بتسين) . أكثر من ذلك أن باربارا آرداليونوفنا انما تزوجت بعد أن تأكدت من أن زوجها المقبل رجل متواضع ، مريح ، مثقف تقريباً ، عاجز عن اقتراف حقارة ضخمة بحال من الأحوال . أما الحقايات الصغيرة فلا خير فيها ولا خوف منها ، فهي سفاسف وترهات ، ومن المبرر منها على كل حال ؟ ان المرء لا يستطيع أن يطمع فى المثل الأعلى ! وكانت باربارا آرداليونوفنا تعلم ، عدا ذلك ، أنها بزواجها تضمن مأوى لأهلها وأبيها وأخوتها . فهي حين رأت أخاها شقياً أرادت أن تساعد ، رغم كل ما حدث فى الأسرة قبل ذلك من أنواع سوء التفاهم . وكان بتسين يحض فانيا ، بمودة وصداقة طبعاً ، على أن يلتبس وظيفة فى الحكومة . وكان يقول له فى بعض الأحيان

بلهجة الزاح : « أنت تحقر الجنرالات ورتبة الجنرال • ولكن أنتم النظر : « انهم » جميعاً يتتهون الى أن يصبحوا هم أيضاً جنرالات • لسوف ترى اذا عشت ! • فكان جانيا يسأل نفسه ساخراً : « ولكن من أين جاءهم اننى أحقر الجنرالات ورتبة الجنرال ؟ » •

ومن أجل أن تستطيع مساعدة أخيها ، قررت باربارا آرداليونوفنا أن توسّع ساحة تأثيرها • فتسللت الى أسرة ايباتشين ، معتمدة في الدرجة الأولى على ذكريات طفولة • لقد لعبا ، هي وأخوها ، مع الآسات ايباتشين حين كانا في سنّ الطفولة • يجب أن نلاحظ هنا أنها لو كانت تلاحق وهماً من الأوهام أو حلماً من الأحلام حين سعت الى أن تستقبل في منزل آل ايباتشين ، لكان يمكن أن تخرج من الفئة التى انتسبت هى نفسها اليها والتحقّت بها • ولكن الواقع أن باربارا لم تكن تلاحق وهماً أو حلماً • وانما كان يقود خطاها حساب معقول كانت تقيمه على أساس معرفتها بطبيعة هذه الأسرة وطريقة حياتها • لقد ظلت تدرس طبع آجلايا بغير توقف ، ثم أخذت على عاتقها مهمة أن تجمع بين اثنين ، أخيها وآجلايا • ولعلها حصلت على بعض النتائج • ولعلها أيضاً قد ارتكبت خطأ الاسراف في الاعتماد على جانيا ، فانتظرت منه ما لم يكن فى وسعه أن يفعله فى أى وقت ولا على أى شكل • ولكنها ، على كل حال ، قد أحسنت الحيلة والتدبير لدى آل ايباتشين : قضت أسابيع طويلة لا تذكر أمامهم اسم أخيها ولا تشير اليه ؛ أظهرت استقامة تامة وصدقا كاملاً فى جميع الأحيان ؛ وكان وضعها يتسم بالبساطة لكنه يتصف كذلك بالرصانة والكرامة • وكانت باربارا آرداليونوفنا لا تخشى أن تبش قرارة ضميرها ، اذ ليس فيه ما يمكن أن تلوم عليه نفسها ، فكان ذلك يهب لها مزيداً من القوة • كل ما هنالك أنها كانت تكتشف أحياناً أن بها هى أيضاً شيئاً من الميل الى الغضب ، وأنها هى أيضاً تزخر بالكبرياء الجريجة ، وربما

بالغرور المدوس • كانت تلاحظ هذا فى بعض الأحيان خاصة ، ومن تلك
الأحيان ، اللحظات التى تخرج فيها من عند آل ايباتشين •

ها هى ذى ، فى هذه المرة أيضاً ، تعود من عندهم معتكرة المزاج
حزينة النفس ، كما قلنا ، غير أن سخريه مرة تخالط الآن ذلك المزاج
الحزين •

كان بتسين يقيم ببافلوفسك فى منزل خشبى حقير المظهر لكنه
رحب السعة ، يطل على شارع كثير التراب • ان هذا المنزل سثول ملكيته
الى بتسين بعد قليل ، حتى انه قد شرع منذ الآن فى بيعه لشخص ثالث •
حين اجتازت باربارا آرداليونوفنا درجات المدخل ، سمعت صخباً
شديداً خارقاً ، فى الطابق الأعلى • لقد كان أبوها وأخوها يتصايحان •
فلما دخلت الصالة رأت جانبا يركض فى الغرفة من طرف الى طرف ،
أصفر اللون من شدة الغضب ، يكاد ينزع شعر رأسه شداً • فأكفهر
وجهاً حين رأت هذا المشهد وتهاكت على ديوان متعبة الهيئة مهددة
القوى ، دون أن تخلع قبعتها • وكانت تعلم أنها اذا صمّت دقيقة واحدة
أخرى ولم تسأل عن سبب هذا الاضطراب ، ستغضب أخاها حتماً ؛
لذلك أسرع تسأله قائلة :

— أهى الحكاية نفسها ؟

فصاح جانبا يقول :

— الحكاية نفسها ؟ لا ••• ليست هى الحكاية نفسها • الأمر الآن
أمر آخر ! العجوز أصبح مسموراً ، والأم لا تكف عن البكاء • أرجوك
يا فاريا ، فكّرى كما تشائين ، ولكننى سأرميه وراء الباب •••

ولكن لعله لاحظ أن المرء لا يجوز له أن يطرد أحداً من بيت ليس
بيته ، فأضاف يقول مستدركاً :

– أو ... أترككم أنا ...

دمدمت فاريا تقول :

– يجب على المرء أن يتصف بالتسامح •

ردّ جانيا يقول مشتعلًا بالغضب :

– التسامح في ماذا ؟ التسامح مع من ؟ التسامح تجاه نذالاته ؟ لا ،

لا ، لك أن تقولى ما تشائين ... هذا مستحيل ، مستحيل ، مستحيل ،

مستحيل ! ... ويا لها من أساليب ! ... الذنب كله ذنبه ، ثم هو يصرخ :

« لا أريد الدخول من الباب ... هدّم الحاجز ! » • ولكن ما بك

يا فاريا ؟ ان وجهك منقلب مربد !

أجابت فاريا غاضبة :

– ليس في وجهي شيء خارق •

فتفرس فيها جانيا بمزيد من انعام النظر ثم سألتها فجأة :

– هل كنت هناك ؟

– نعم •

– انتظري لحظة • استؤنف الصراخ • يا للعار ! وفي مثل هذه

اللحظة أيضاً !

– في مثل هذه اللحظة ؟ لا تتميز هذه اللحظة بأى شيء خاص •

حدّق جانيا الى أخته بنظرة فيها مزيد من التفاد • وسألتها :

– هل علمت شيئاً ؟

– لم أعلم شيئاً غير منتظر • علمت أن كل ما كان يُفترض

صحيح • لقد كان زوجي أبصر منا كلينا • ان ما تنبأ به منذ البداية قد تحقق الآن • أين هو ؟

— خرج • ما الذي تحقق ؟

— أصبح الأمير خطيباً رسمياً • انتهى الأمر • الأختان الكبيرتان قالتا ذلك لى • وافقت آجلايا • حتى ان الأمر لم يبق سرّاً مكتوماً (قبل الآن كان كل شيء هناك يحاط بجو السر) • وقد أُرجىء زواج آديلايد حتى يتم زفاف العروسين معاً فى يوم واحد • يا له من شعر ! هذه قصيدة حقاً ! أوتر لك أن تنظم قصيدة تهنئة بالعرس على أن تركض فى الغرفة دون طائل • سيستقبلون فى مساء هذا اليوم بيلوكونسكيا • لقد وصلت فى الوقت المناسب • سيكون هناك مدعوون • وسوف يُقدّم الأمير الى الأميرة بيلوكونسكيا ، وان كانت تعرفه من قبل • يظهر أنهم سيعلمون نبأ الحطبة فى هذه المناسبة • لكنهم يخشون عليه اذا هو دخل الصالون الذى يحفل بالمدعوين أن يسقط على الأرض شيئاً أو أن يكسر آنية ، أو أن ينبطح هو نفسه على الأرض • لا يُستغرب ذلك من مثله !

أصغى جانبا باهتمام شديد ، ولكن ما كان أشد دهشة أخته حين لاحظت أن هذا النبأ الذى كان ينبغى أن يصعقه صعباً لم يلق منه انشداهاً خارقاً •

قال بعد لحظة تفكير :

— نعم ••• كان ذلك واضحاً •••

ثم أضاف يقول وهو يتسم ابتسامة غريبة ويرمق أخته بنظرة مأكرة وهو ما يزال يندرج أرض الغرفة طويلاً وعرضاً ، ولو باضطراب أقل :

— اذن انتهى كل شيء !

قالت فاريا :

- يسعدنى أن أراك تستقبل الأمر كما يستقبله فيلسوف • حقاً ان هذا ليريحنى كثيراً •

- نعم ، تخلّص المرء من هذا الموضوع ؟ أنت على الأقل ...
- أظن أنني خدمتك صادقةً مخلصه ، دون أن أناقشك ، ودون أن أزعجك • أنا لم أسألك ما هى السعادة التى كنت تعوّل على أن تجدها مع آجلایا •

- ولكن هل أنا ... نشدت السعادة مع آجلایا ؟

- دعك من هذا الكلام ، أرجوك • لا تمثل دور الفيلسوف !
لا شك فى أن الأمر كان كذلك • ولكن حسابنا صُفّى : خُدعنا •
أعترف لك بأننى لم أنظر الى هذا الزواج فى يوم من الأيام على أنه جد •
ولئن شُغلت به فلقد فعلت ذلك من باب « تجريب الحظ » ، معتمدةً على طبع آجلایا الغريب الشاذ • وانما أردت خاصةً أن أسرك • كان نصيب هذا المشروع من الاخفاق تسعين فى المائة • وما زلت حتى الآن لا أعلم أنا نفسى ماذا كنت تنتظر منه أو تتوقع له ؟

- الآن ستحضانى أنت زوجك على التماس عمل والسعى الى وظيفة؟
سأسمع خطباً ومواعظ عن فائدة الدأب وقوة الارادة وضرورة الاكتفاء بالقليل ، وهلمّ جرا ... حفظت هذا الكلام على ظهر القلب ! ...

كذلك قال جانيا وهو ينفجر ضاحكاً •

قالت فاريا تخاطب نفسها : « ان فى رأسه فكرةً جديدة ! » ،
وسألها جانيا فجأة يقول :

- والأبوان هناك ، كيف ينظران الى الأمر ؟ أهما مسروران ؟

- لا يبدو عليهما السرور كثيراً • على كل حال ، تستطيع أن تحكم

فى ذلك بنفسك • اذا كان ايفان فيدوروفتش راضياً ، فان الأم تراودها مخاوف • ولقد كانت من قبل لا تحب أن ترى فى الأمير خطيباً لابنتها • ذلك معروف •

– ليس هذا ما يهمنى • ان الأمير خطيب مستحيل ، خطيب لا يتصور الخيال أن يكون خطيباً • هذا واضح • لكننى أتكلم عن الوضع الحالى : الى أين وصلا ؟ هل أبدت موافقتها القطعية ؟

– حتى الآن لم تقل « لا » • ذلك كل شئ • لكن الأمر لا يمكن أن يجرى معها غير هذا المجرى • أنت تعلم أنواع الأعمال العجيبة التى دفعها اليها خجلها وحيائها حتى الآن ! كانت فى طفولتها تحبس نفسها فى الخزان فتظل لاطيةً فيها ساعتين أو ثلاثاً ، لا لشيء الا رغبتها فى تحاشي الظهور للناس • وقد كبر بعد ذلك جسمها ، لكن طبعها لم يتغير • هل تعلم ؟ يخيّل اليّ أنه لا بد أن يكون ثمة شئ خطير هناك ، حتى من جهتها « هى » • يبدو عليها أنها تسخر من الأمير ما استطاعت أن تسخر ، من الصباح الى المساء ، حتى لا تُظهر أنها تجد السبيل حتماً الى أن تقول له كل يوم بضع كلمات خفية ؟ ذلك أنه يبدو مشرقاً وضاءً كمن ينتزه فى السماء !... يُقال انه مضحك ! منهمن انما سمعت هذا الكلام • ولقد ظهر لى أيضاً أن الأختين الكبيرتين تسخران منى صراحةً •

أخيراً أخذ وجه جانيا يكفهر • لعل فاريا قد تعمدت الافاضة فى هذا الموضوع لتسبر فكر أخيها ، وتعرف ما يدور فيه من خواطر • ولكن العياط والزياط استؤنفا فى الطابق الأعلى •

زأر جانيا يقول وكأنما سرّه أن يجد متنفساً لغضبه :

– سأطرده من الدار •

– فيمضى يستأنف الشكوى منا والتشهير بنا والاساءة الى سمعتنا فى

كل مكان ، كما فعل أمس ؟

سألها جانبا مرتاعاً من جديد :

— كيف أمس ؟ ما مضى هذا ؟ هل ...

فأجابت فاريا :

— ها ... أنت لا تعلم ؟

فصاح جانبا يقول وقد احمر وجهه احمراراً شديداً من الشعور
بالمار والغضب :

— كيف ؟ ... اذن ... ذهب الى هناك ؟ رباه ! ... ولكن أنت
التي ترجعين الآن من عندهم ، هل علمت شيئاً ؟ هل ذهب العجوز اليهم ؟
أذهب أم لا ؟

قال ذلك واسرع نحو الباب • فاندفعت فاريا وراءه ، وأمسكته من
يديه ، وقالت له :

— ماذا ؟ الى أين تذهب ؟ اذا طردته فى هذه اللحظة ، فلسوف
يفعل أسوأ مما فعل • سيمضى يفضحنا لدى جميع الناس ! ...

— ماذا فعل هناك ؟ ماذا قال ؟

— لم يستطعن أن يكررن لى ما قاله بوضوح ، لأنهن لم يفهمنه •
ولكننى أعلم أنه أخافهن جميعاً • كان آتياً الى ايفان فيدوروفتش ، ولكن
هذا كان غائباً عن البيت • فطلب أن يرى اليزابت بروكوفينا • فلما لقيها
بدأ يرجوها أن تجد له عملاً ، أن تبحث له عن وظيفة فى الحكومة ؛ ثم
أخذ يشكوها اليها ، يشكونى أنا ، ويشكو زوجى ، ويشكوك أنت خاصة
... قال كلاماً كثيراً •

سألها جانبا وقد مزته ارتعاشة متشنجة :

— ألم تستطعي أن تعرفى ماذا قال ؟

– ليس هذا بالأمر السهل • أغلب الظن أنه لم يكن يفهم ماذا يقول • ولعلمهن لم يقصصن على كل شيء •
أسسك جانبا رأسه بيديه ، وركض نحو نافذة • وجلست فاريا قرب النافذة الأخرى •
قالت فاريا فجأة :

– مضحكة آجلايا هذه ! لقد استوقفتني لتقول لى : « انقلى الى أبويك أصدق مشاعر الاعتبار منى • ولن يفوتنى أن انتهاز فرصة لرؤية أبيك فى يوم من الأيام القليلة القادمة » • وقد نطقت ذلك بلهجة فيها كثير من الجد ! غريب جداً ...

– ألم يكن ذلك سخرية ؟ أأنت واثقة بأن ذلك لم يكن سخرية ؟
– لا ، لم يكن ذلك سخرية ، وهذا وجه الغرابة •
– أهى على علم بقصة العجوز أم لا ؟ ما رأيك ؟

– القصة مجهولة هناك • ذلك أمر لا أشك فيه • ولكنك تجعلنى أقدر الآن أن آجلايا قد تكون على علم بالقضية ، قد تكون وحدها على علم ، لأن أختيها دُهِشتا هما أيضاً حين سمعناهما تحملنى تحية الى أبينا ، جادة ذلك الجد كله ؟ ولولا أنها على علم ، فما الذى يمكن أن يحضها على ارسال تحية اليه هو ؟ واذا كانت على علم بالقضية ، فإن الأمير يكون هو الذى رواها لها •

– لا حاجة بالمرء الى كثير من المكر حتى يعرف من الذى رواها لها !
لص ! سارق ! لم يكن ينقصنا الا هذا ! لص فى أسرتنا ، لص هو « رب أسرتنا » !

هتفت فاريا تقول غاضبة :

– دعك من هذه السخافات ! لا يعدو الأمر أن يكون حكاية

سكّير ! ومن الذى اخترعها ؟ ليديف ، الأمير ... يا للشخصيات
العظيمة ، يا للأذكاء العبقرة ! ... اتنى لا أقيم لهذا الحادث أى وزن !

تابع جانبا كلامه يقول بمرارة :

— أبونا لص وسكير ؟ وأنا متسول شحاذ ؟ وزوج أختى مراب .
ان لدينا ما نفرى به آجلايا : أسرة عظيمة حقاً ! ...

— ان زوج أختك هذا ، ان هذا المرابى ي ...

— يطعمنى ، أليس كذلك ؟ لا تتخرجى من قول ما تريدن قوله ،
أرجوك !

قالت قاريا وقد ثابت الى صوابها ، وسيطرت على نفسها :

— لماذا تزعل ؟ انك لا تفهم شيئاً . أنت تلميذ مدرسة حقاً ! أظن
أن هذا كله قد أساء اليك فى نظر آجلايا ؟ انك لا تعرف طبعها . انها
لا تتورع عن أن تدير ظهرها لأحسن الحاططين فى سبيل أن تهرب الى
طالب من الطلاب مغتبطة ، وأن تموت معه جوعاً فى غرفة تحت السطح !
ذلك هو حلمها ! انك لم تستطع أن تفهم فى يوم من الأيام مدى ما كان
يمكن أن تثيره فيها من الاهتمام بك والانجذاب اليك لو أنك عرفت كيف
تتحمل وضعنا بصلاية وكبرياء . ان الأمير لم يصطدها الا لأنه من جهة
أولى لم يحاول قط أن يستولى عليها ، ولأنه من جهة ثانية يُعدُّ أبله فى
نظر جميع الناس . يكفيها أن تقلب حال الأسرة عالياً سافلها مبتهجة !
هيه ! انكم معشر الرجال لا تفهمون من هذه الأمور شيئاً البتة !

دمدم جانبا يقول بهيئة ملغزة :

— طيب . سنرى هل نحن نفهم أم نحن لا نفهم . ولكننى كنت أود
مع ذلك أن لا تعرف عن قصة العجوز شيئاً . لقد ظننت أن الأمير سيصون

لسانه فلا يذيع شيئاً • لقد استطاع أن يمنع ليديف عن التحدث في الأمر • ولم يرض أن يقول لى ، أنا نفسى ، كلَّ شيء ، رغم الحاحى • • هانت ذا ترى اذن بنفسك أن كل شيء قد عُلِمَ بدون أن يتدخل • ولكن ما بالك تهتم هذا الاهتمام كله الآن ؟ ماذا تأمل ؟ واذا بقى لك أمل ، فلن يهب لك هذا فى نظرها الا هالة شهيد !

– دعيك من هذا الكلام • فانها ، رغم كل هذه الرومانسية ، كان يمكن أن تخاف من الفضيحة • ان لكل شيء حدوداً ؟ وان لكل امرئ حدوداً لا يتجاوزها • أتئن جميعاً كذلك •
– آجلايا تخاف ؟

كذلك صاحت فاريا وهى ترشق أخاها بنظرة احتقار • ثم تابعت كلامها تقول :

– ان نفسك لديئة حقاً ! لا أحد منكم خير من أحد • انتم جميعاً سواء • أن تعدّوا آجلايا شاذة غريبة الأطوار ، فهذا جائز • ولكنها فى مقابل ذلك أنبل طبعاً وأسمى نفساً منا جميعاً !
فدمدم جانيا قائلاً بلهجة الاكتفاء مرة أخرى :
– طيب • لا بأس • لا تزعلى !

وتابعت فاريا كلامها فقالت :
– لكننى أرئى لحال أمى • اننى أخشى أن تكون قصة أبى قد بلغت سمعها • اننى خائفة حقاً !
قال جانيا :

– لا شك فى أنها تعرفها !
كانت فاريا قد نهضت لتصعد الى الطابق الأعلى ، الى عند نينا

ألكسندروفنا • فلما سمعت ما قاله أخوها توقفت ونظرت اليه متحيرة ،
وسألته :

— من ذا يمكن أن يكون قد حكى لها القصة ؟

لعله هيبوليت • اننى أقدرّ أنه منذ أقام عندنا لم يكن له من هم
مستجمل الا أن يروى لأمنّا الحكاية •

— ولكن قل لى أرجوك ، كيف يمكنه أن يعلم بهذه القضية ؟ ان
ليديف والأمير قد اتفقا على أن لا يتحدثا عنها الى أحد ؟ كما أن كوليّا
نفسه يجهلها •••

— هيبوليت ؟ لقد عرف هذا كله بنفسه • لا تستطيعين أن تصوّري
مدى ما يتصف به هذا المخلوق من مكر وخبت وميل الى الوشاية
والنميمة ؟ ولا تستطيعين أن تتخيلي مدى ما يتمتع به من قوة حاسة الشم
التي تمكنه من أن يكتشف بنفسه جميع الحكايات السيئة ، وجميع ما له
طابع الفضيحة والجرسة ! لك أن تصدقي وأن لا تصدقي ، لكننى أعتقد
أنه استطاع أن يقبض على ناصية آجلايا بيديه • واذا لم يكن هذا قد
حدث فسوف يحدث • حتى روجوين أصبح على علاقة به • كيف
لا يلاحظ الأمير هذا ؟ وما أشد ما يضطرم فى نفس هيبوليت الآن من
رغبة قوية فى أن يدبر لى مكيدة ! انه يعدنى عدواً شخصياً • لقد أدركت
ذلك منذ زمن طويل • ولكننى أتساءل ما الفائدة التي يجنيها من هذا
انسانٌ أصبح فى مرحلة الاحتضار ؟ ذلك ما لا أفهمه • ولكنك سترين:
سترين اننى سأنتصر عليه • لن تكون الكلمة الأخيرة له بل لى •

— لماذا أتيت به الى هنا ، اذا كنت تكرهه هذا الكرم كله ؟ وهل
يستحق الأمر أن تنتصر عليه ؟

— أنتِ نصحتنى أن آتى به الى هنا •

— كنت أقدر أن ينفعنا • ولكن هل تعلم أنه هو نفسه موله بحب
آجلايا ، وأنه كتب اليها ؟

لقد سُئِلت في هذا الموضوع ••• وكاد يكتب الى الزبات
بروكوفينا •

قال جانيا وهو يضحك ضحكاً ساخراً فيه مكر :

— من هذه الناحية ، ليس خطراً • ثم ان الأمر لا بد أن يكون غير
هذا • أن يقع في غرام آجلايا ، فهذا جائز ، لأنه صبي ! ولكنه ••• لن
يبعث رسائل غير موقعة الى العجوز • انه فتى حقير تافه شرير ، ومغرور
بنفسه أشد الغرور ! ••• انى لعل ثقة ، انى لعل يقين من أنه صورنى
لها شاباً محتالاً متآمراً • بهذا انما بدأ • اعترف بأننى كنت غيباً أشد
الغباء حين أطلقت لسانى حراً معه • كنت أظن أنه سيخدم مصالحى ،
ولو انتقاماً من الأمير على الأقل • انه شخص ماكر • كشفت خبيثة
نفسه ! أما مسألة السرقة تلك فقد عرفها من أمه ، أرملة الكاشن • من
أجل تلك المرأة انما قرر أبونا أن يفعل فعلته • لقد أعلمنى هيوليت
فجأةً ، بدون أى سبب ، أن « الجنرال » وعد أمه باربعمائة روبل •
أعلمنى هذا من تلقاء نفسه ، بدون مبالاة ، بدون تحرج • عندئذ فهمت
كل شيء • كان يحدّق الى عينيّ متلذذاً • ولا شك أنه قال هذا الكلام
نفسه لأننا ، لا لشيء الا التلذذ بتمزيق قلبها • ولماذا لا يموت ؟ هلاّ
قلت لى هذا ، من فضلك ؟ ألم يتعهد بأن يموت فى غضون ثلاثة أسابيع ؟
لقد سمن منذ أقام عندنا • وأخذ سعاله يهدأ • حتى لقد قال فى مساء
أمس انه أصبح منذ يومين لا يبصق دماً •

قالت فاريا :

— اطرده •

فأجاب جانبا متعالياً :

- اننى لا أكرهه ، بل أحترمه !

ثم لم يلبث أن صاح يقول فجأة وقد استولى عليه غضب قوى :

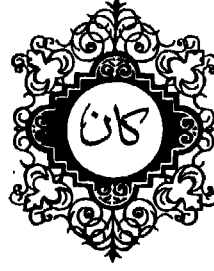
- ثم نعم اننى أكرهه .. أكرهه ! لأقولنَّ له هذا فى وجهه ، ولو كان يلفظ أنفاسه الأخيرة ! ليتك استطعت أن تقرئى اعترافه ! ما أغربها من وقاحة ساذجة ! انه الليوتان بيروجوف ، انه نوزدريوف * على مأساة ! وهو خاصة صبي ! ما أعظم اللذة التى كان يمكن أن أشعر بها لو ضربته على قفاه حينذاك ، لا لشيء الا أن أدهشه ! انه يريد الآن أن ينتقم من الجميع لاختفائه فى ذلك اليوم !... ولكن ماذا يجرى هناك ؟ ان الجلبة قد اشتدت فوق ! وبعد ؟ أما لهذا من آخر ؟ ما معنى هذه الضوضاء ؟ لن أسمع بهذا !

صاح بهذه الجملة الأخيرة مخاطباً بتسين الذى دخل الغرفة فى تلك اللحظة . وتابع كلامه يقول :

- ماذا يحدث فى بيتنا ؟ الى أين نمضى أيضاً ؟ هذا ... هذا ...

ولكن الضجة كانت تقترب بسرعة . وفُتح الباب فجأة ، ودخل المعجوز ايفولجين طافح الغضب محتقن الوجه مضطرب النفس خارجاً عن طوره ، واندفع هو أيضاً نحو بتسين . ووراء دخلت نينا ألكسندروفنا ، ودخل كولا ، ثم دخل أخيراً هيبوليت .

الفصل الثاني



هيوليت قد أقام في منزل بتسين منذ خمسة أيام • وقد تمّ الفراق بينه وبين الأمير على نحو طبيعي دون خصام أو نقاش أو شجار أو شقاق بل كأنهما افترقا وهما على أحسن حال من المودة والصداقة • وقد ذهب جبريل آرداليونوفتش الذي عادى هيوليت كل تلك المعاداة أثناء السهرة ، التي سبق الحديث عنها ، ذهب يزوره في بيته بعد الحادث بيومين ، فأغلب الظن أنه انما ذهب يزوره تنفيذاً لحطة مبيتة كانت قد راودته على غير توقع • كما أن روجويين أخذ يتردد الى المريض ، لا يدرى أحد ما الذي يحضه على ذلك • وقد قدّر الأمير في البداية أن « الفتى المسكين » قد يجد من تلقاء نفسه أن انتقاله من عنده فيه خير له • ولكن هيوليت ذكر للأمير حين غادر المنزل أنه سيقم عند بتسين الذي « تكرّم فعرض عليه أن يؤويه » • وكأنه تعمد أن لا يقول انه سيسكن عند جانبا ، مع أن جانبا هو الذي ألحّ على ايوائه في المنزل • وقد لاحظ جانبا ذلك ، فبقيت هذه الاهانة تنخر في قلبه •

كان جانبا على حق حين قال لأخته ان المريض تتحسن الآن صحته • لقد كانت صحة هيوليت تتحسن فعلاً ، وكان في وسع المرء أن يلاحظ ذلك من أول نظرة •

دخل هيوليت الى الغرفة غير متمجّل، وراء الآخرين ، وقد ارتسمت

على شفتيه ابتسامة ساخرة خبيثة ، وكانت هيئة نينا الكسندروفنا تدل على أنها مذعورة ذعراً قوياً (لقد تغيرت تغيراً كبيراً وهزلت. هزالاً شديداً أثناء هذه الأشهر الستة الأخيرة • انها منذ فوجئت ابتتها وجاءت تسكن عندها أصبح يبدو عليها أنها لا تتدخل فى شئون أولادها) • وكان كوليأ مهموم البال ، قلقاً مرتبكاً متحيراً • ان أشياء كثيرة من هذا « الجنون الذى أصاب الجنرال » تفوته فلا يفهمها ، على حد تعبيره ، لأنه كان يجهل ، بطبيعة الحال ، الأسباب الحقيقية لهذه البلبلة الجديدة التى اجتاحت المنزل . لكنه وهو يرى أباه ميالاً الى المشاجرة فى كل لحظة وكل مناسبة ، قد اتضح له أن أباه اعتراف تغير مفاجئ فكأنه شخص آخر • وكان مجرد انقطاع العجوز عن الحجرة منذ ثلاثة أيام انقطاعاً كاملاً يذكى قلقه ويفاقمه • لقد علم أن أباه قطع الصلة بينه وبين ليديف ، وقطع الصلة بينه وبين الأمير ، حتى انه تشاجر معهما • وها هو ذا كوليأ قد وصل الى المنزل حاملاً نصف زجاجة فودكا ، اشتراها بقروش يملكها ، وقال لأمه حين كان الجميع ما يزالون فى الطابق الأعلى :

— أؤكد لك يا أمى أن من الأفضل أن يشرب • انه منذ ثلاثة أيام لم يشرب شيئاً • وذلك هو سبب اعتكار مزاجه ، واسوداد نفسه • حقاً ان من الأفضل أن يشرب • لقد كنت أحمل اليه خمرة حتى حين كان فى السجن بسبب الديون •••

فتح الجنرال الباب واسعاً ووقف على العتبة • كان يرتعش استياءً وغضباً •

صرخ يقول لصهره بتسعين بصوت مرعد :

— أيها السيد العزيز ، اذا كان حقاً انك قررت أن تضحى فى سبيل هذا الولد الغر وهذا الملحد الزنديق بأبيك الشيخ المحترم ، أو قل بوالد زوجتك الذى خدم امبراطوره مخلصاً ، فاعلم اننى منذ هذه اللحظة لن

تطأ قدماى أرض مسكنك • فاختر أيها السيد ، اختر فى هذه اللحظة
نفسها : فاما انا واما هذا ••• المسمار !•• نعم •• هذا المسمار ! خطر
ببلى هذا الاسم مصادفة ••• لكن الصبى مسمار حقاً ••• لأنه يثقب
قلبى كمسمار فعلاً ••• بدون أية مداراة أو مراعاة ••• كمسمار
تماماً !•••

قال هيوليت :

– لماذا لا تسمينى فتّاحة قناني ؟

– لا ، لست فتّاحة قناني ، لأننى لست قنينة بل جنرالاً • أنا أحمل
أوسمة وأملك ألقاب شرف ، أما أنت فليس لك شيء • اما هو ، واما أنا !
قرّر أيها السيد ، قرر حالا !

كذلك صرخ الجنرال من جديد ، مهدداً بتسين بلهجة نزفة •
فأدنى منه كوليا كرسياً ، فتهاك الجنرال على الكرسي خائر القوى •
جمعهم بتسين يقول مصعوقاً :

– الحق أن الأفضل أن تنام قليلاً •••
وهمس جانبا قائلاً لأخته :

– وما يزال يجرؤ أن يهدد •••
صاح الجنرال قائلاً :

– أنام قليلاً ؟ أنا لست سكران يا سيدى العزيز ، وأنت تهينينى
وتشتمنى •

ثم تابع صياحه قائلاً وهو ينهض :

– أرى أن كل شيء وكل انسان هنا يناصبنى العداء ! كفى ! لقد
سئمت ! أنا ذاهب ••• ولكن ألا فلتعلم أيها السيد العزيز ، ألا فلتعلم ••

لكن الجنرال أجلس قبل أن يكمل جملته ، وضُرع اليه أن
يهديء نفسه •

وانسل جانبا الى ركن من الأركان غاضباً حانقاً • وكانت نينا
ألكسندروفنا ترتجف وتتحبب •

قال هيوليت كاشفاً عن أسنانه بلهجة ساخرة :

– ولكن ماذا صنعتُ به ؟ مممَّ يشتكى ؟

فتدخلت نينا ألكسندروفنا فجأة تقول :

– أتدعى أنك لم تفعل به شيئاً ؟ أنت الذى يجب عليك أن تشعر
بالحجل والعار ... انها لقسوة أن يعذب المرء شيخاً ... ولا سيما حين
يكون فى مثل وضعك ! ...

– فما هو وضعى أولاً ؟ يا سيدتى ؟ اننى أحمل لك احتراماً عظيماً ،
لك أنت خاصة ، لك أنت شخصياً ، ولكن ...

هتف الجنرال يقول :

– انه مسمار ! انه يتقب روحى وقلبى ! انه يريد أن يلحقنى
بمذهب الاتحاد ! ألا فلتعلم أيها الولد الغر أنتى كنت غارقاً فى الأمجاد
حين لم تكن أنت قد وُلدت ! ... ما أنت الا دودة ياكلها الحسد ، دودة
مشطورة شطرين ، دودة تسعل ... وتموت بغضاً وزندقة ... لماذا أتى
بك جانبا الى هنا ؟ الجميع يعادوننى ، من الغرباء الى ابنى فلذة كبدى ...

صرخ جانبا يقول :

– كفى تمثيلاً • لقد كان الآولى بك أن لا تلتطخ شرفنا وأن
لا تجلنا بالحزى والعار فى المدينة كلها ...

- كيف ؟ أنا أُلطخ شرفك أيها الولد ؟ أُلطخ شرفك أنت ؟ أنا
أُشرفك ، لا أُلطخ شرفك ...

كان الجنرال قد وثب وهو يقول هذا الكلام • أصبح لا يمكن
صدّه • ولكن كان واضحاً أن جبريل آرداليونوفتش قد جاوز الحدود
هو أيضاً •

صاح جبريل آرداليونوفتش يقول بمكر وخبت :

- ولا يستحي أن يتكلم عن الشرف !

فقال الجنرال يسأله بصوت مرعد وقد اصفر وجهه غضباً وتقدم
الى الأمام خطوة :

- ماذا قلت ؟

فأجاب جانبا فجأة بقوله :

- قلت اننى يكفى أن أفتح فمى حتى ...

ولكنه لم يكمل جملته •

هما الآن يقفان أحدهما أمام الآخر ، وجهاً لوجه ، وقد استولى على
كل منهما أشد الغضب ، ولا سيما جانبا •

صاحت نينا ألكسندروفنا قائلةً وهى تندفع لتصد ابنها :

- جانبا ، ماذا تفعل ؟

وهتفت فاريا تقول مستاءةً مستعزة :

- ما هذه الا سخافات من الطرفين كليهما • هيّا يا أماء ! هددنى

روعاك !

وتشبثت بأماها •

قال جانبا مخاطباً أباه بلهجة الفاجعة :

- اذا كنت أنترقى بك ، فانتى لا أفضل ذلك الا مراعاةً لأمى •

فزأر الجنرال قائلاً وقد بلغ ذروة الغضب :

- تكلم ! تكلم والا حلّت عليك لعنة أبيك ... تكلم ! ...

- هه ! ألا انى لأخاف لعنتك حقاً ! من المذنب اذا كنت قد أصبحت

منذ ثمانية أيام كالجنون ؟ أقول : منذ ثمانية أيام • هل سمعت ؟ اننى

أعرف اليوم ... فلا تخرجنى عن طورى ، فتدفعنى دفماً الى أن أقول

كل شيء • لماذا جررت نفسك أمس الى بيت آل ايباتشين ؟ أقود بعد

ذلك أن يحترم أحد شيخوختك وشعرك الأسيب وكرامتك كرب أسرة؟

كلام جميل ! ...

- اسكت يا جانكا ! اسكت يا أحق !

وعاد هبوليت يسأل ملحاً بلهجة ما تزال تقارب الوقاحة :

- بأى شيء أسأت اليه ؟ لماذا يصفنى باننى مسمار • هل سمعتموه ؟

انه هو الذى يتشبث بى ويصدع رأسى : لقد أأتانى منذ قليل يحدثنى عن

قصة رجل برتبة كابتن اسمه ياروبياجوف • اننى لا أحرص أى حرص

على صحبة مجتمعك يا جنرال • وأنت نفسك تعلم أننى كنت أتجاسها •

فيم يعينى الكابتن ياروبياجوف ! اعترف أنت نفسك ! ... اننى لم أسكن

هنا من أجل الكابتن ياروبياجوف • ثم اننى ولم أزد على أن أعربت عن

رأى صراحة فى أن هذا الكابتن ياروبياجوف لعله لم يوجد فى يوم من

الأيام • عندئذ ثار غضبه •

قال جانبا بلهجة قاطعة :

- لا شك فى ذلك : ان هذا الكابتن لم يوجد فى يوم من الأيام •

ارتج على الجنرال • وألقى على ما حوله نظرات مهوطة • ان كلمات

ابنه قد جمده ما تشتمل عليه من تأكيد قاطع وثقة قاسية • لم يسعفه فكره

بكلمة واحدة يرد بها • غير أن ملاحظة جانيا جعلت هيبوليت ينفجر ضاحكاً •

قال هيبوليت :

— هل سمعت ؟ ان ابنك نفسه يقول انه لم يوجد فى يوم من الأيام كابتن اسمه ياروبياجوف •

— أنا تكلمت عن كابيتون ياروبياجوف ، لا عن كابتن ••• انه كابيتون ••• هو ليوتنان كولونيل محال على التقاعد ••• ياروبياجوف •• كابيتون •

فعاد جانيا يقول خارجاً عن طوره :

— لا ولا وُجد أحد اسمه كابيتون !

فتمتم الجنرال يسأل وقد أخذ وجهه يصطبغ بالحمرة :

— كيف ••• لماذا لم يوجد ؟

فتدخل بتسين وفاريا قائلين :

— طيب ••• هدىء نفسك •

وصرخ كوليا يقول من جديد :

— اسكت يا جانيا !

ولكن هذه التدخلات ردّت الى الجنرال ثبات جأشه ، فقذف ابنه بهذا السؤال أطلقه مهدداً :

— كيف لم يوجد ؟ ولماذا يمتنع أن يكون قد وجد ؟

— لأنه لم يوجد ! هذا كل شيء ! انه لم يوجد • ذلك مستحيل كل الاستحالة • أقول لك هذا ، فلا تصر ، ولا تلح •

- ثم أعدده ابني .. ابني الذي أ .. آه .. يا رب ! .. هو ابني ،
ويجرو أن يزعم أن ياروبياكوف، أن ياروشكا * ياروبياكوف لم يوجد!
قال هبوليت :

- طيب طيب * منذ قليل كان اسمه كابتوشكا * . والآن أصبح
اسمه ياروشكا !

- أنا أقصد كابتوشكا ، يا عزيزي السيد الصغير ، لا ياروشكا !
أقصد كابيتون ، كابيتان ألكسيقتش ، أعني كابيتان .. الليوتان كولونيل
... المحال على التقاعد .. الذي تزوج ماريا .. ماريا بتروفا سو ..
سو .. أقصد صديقي ورفيقي سوتوجوف .. لقد كنا معاً في المدرسة
السكرية . أهرقت من أجله دمًا ... حميته بحسبي ... لكنه قتل .
كيف يجرو أحد أن يقول انه لم يوجد أحد اسمه كابتوشكا
ياروبياجوف ؟

كان الجنرال يطلق هذا الكلام حاتفاً أشد الحق ، ولكن المرء يحس
أن انفعاله نابع من غير المسألة المختلف فيها والمتنازع عليها . الحق أنه كان
يمكن أن يتحمل افتراضاً أقسى وقملاً في النفس وأعمق جرحاً للشعور
من افتراض ان كابيتون ياروبياجوف لم يوجد . كان يمكن لولا ذلك
أن يصرخ وأن يثير فضيحة وأن يندفع اندفاعاً قوياً ، ثم ما يلبث أن يصعد
الى الطابق الأعلى لينام . أما في هذه المرة فان الكيل قد طفع عنده - ألا
ما أغرب قلب الانسان ! - طفع من مجرد أن وجود ياروبياجوف قد
وضع موضع الشك ، رغم أن هذه الاساءة طفيفة تافهة لا قيمة لها البتة !
لقد اصطخب وجه الشيخ بحمرة شديدة كلون الأرجوان ، ورفع ذراعيه
نحو السماء ، وأعول يقول هاتفاً :

- كفى ! لعنتي عليكم ... أنا خارج من هذه الدار ! يا نيقولاى ،
خذ حقيبة سفرى ... انى راحل .

قال ذلك وهرع يخرج بالغاً ذروة الغضب • فاندفعت وراءه نينا
ألكسندروفنا وكوليا وبتسين •

قالت فاريا لأخيها :

— ماذا فعلت ؟ قد يرجع الآن الى هناك ! يا للعار ! يا للعار !

فصرخ جانبا قائلاً وهو يكاد يختنق من شدة الغيظ والحلق :

— لم يكن عليه الا أن لا يسرق •

والتقت نظرتة فجأة بنظرة هيوليت ، فاجتاحه نوع من الارتعاش

فجأة • وصاح يقول :

— أما أنت أيها السيد العزيز ، فلقد كان ينبغي لك أن تتذكر أنك

تقيم تحت سقف غيرك على كل حال ، وأنتك اذ تتمتع بحسن الضيافة

لست من ينبغي له أن يغيظ شيخاً أصبح من الواضح أنه فقد عقله وصار

مجنوناً •

أوشك هيوليت أن يندفع هو أيضاً ، ولكنه سرعان ما سيطر على

نفسه ، فقال بهدوء :

— لا أشاركك الرأي في اعتبار أبك مجنوناً • هذه دعوى باطلة •

حتى اننى أرى أنه الآن أعقل مما كان في الآونة الأخيرة • يميناً ان هذا

هو شعورى • ألا تصدقنى ؟ لقد أصبح أكثر تعقلاً وحذراً • انه يرصد

كل ما يقال ويزن كل كلمة تصدر منه • وحين كلمنى عن كاييتوشكا

انما كان يرمى الى هدف معين : تصور أنه كان يريد أن يحملنى على

الكلام عن •••

— عن الشيطان ••• لا يهمنى أن أعرف ما الذى كان يريد أن

يحملك عليه ! وأرجوك أن لا تحاول المكر والماربة معى ، أيها السيد •

كذلك قال جانبا بصوت صارخ • وتابع كلامه يقول :

- اذا كنت تعرف أنت أيضاً السبب الحقيقي الذى يجعل هذا الشيخ فى مثل هذه الحالة (ولقد أحسنت التجسس عندى خلال هذه الأيام الخمسة ، فلا بد أنك استطعت أن تعرف ذلك السبب) ، فان عليك أن تمتنع امتناعاً صارماً عن إثارة حنق هذا ... الشقى ، وعن تعذيب أمى بتضخيم قضية ليس لها شيء من خطورة الشأن ، فما هى القضية سكيرين لا أكثر • فضلاً عن أنها لم يثبت صدقها ولم يقم دليل على صحتها ، ولست أوليها أى اهتمام ... ولكنك امرؤ لا تستطيع الا أن تفسد كل شيء ، ولا يمكنك الا أن تتجسس ، لأنك ... لأنك ...

- لأننى مسمار •

بهذا أكمل هيبوليت جملة جانيا وهو يضحك ساخراً • وتابع جانيا كلامه فقال :

- لأنك انسان شرير • لقد عذبت الناس خلال نصف ساعة ، وحاولت أن تفقدهم صوابهم منظاراً بمحاولة الانتحار بمسدس كان خالياً • لقد مثلت مسرحية مخجلة مخزية • يا مدعى الانتحار ... يا كيس حقدٍ فوق ساقين ! لقد استضفتك فى هذا البيت ، فتحسنت صحتك : سمعتَ وزايلك السعال ، فانظر كيف تعترف بالجميل ، وانظر كيف ...

- اسمح لى بكلمتين ، أرجوك • أنا هنا ضيف باربارا آرداليونوفنا ، لأن ضيفك أنت • أنت لم تفضل علىّ بأية ضيافة ، بل أظن أنك أنت نفسك تتمتع بضيافة السيد بتسين • ولقد رجوت أمى منذ أربعة أيام أن تبحث لى عن مسكن فى بافلوفسك، وأن تجيء تقيم هى نفسها فى بافلوفسك، لأن صحتى تتحسن هنا فعلاً ، وان لم أسمن و لا انقطع سعالى • فأعلمتى أمى مساءً أمس أن المسكن قد تهيأ • لذلك أبادر فأبلغك أنا أيضاً أنتى

سأنتقل اليه في هذا اليوم نفسه بعد أن أشكر أمك وأختك • لقد اتخذت
قرارى هذا منذ مساء أمس • اغفر لى أننى قاطعتك • فانك ، اذا لم
يخطئنى ، كنت تريد أن تقول أشياء أخرى كثيرة •
قال جانبا مرتعشاً :

– اذا كان الأمر كذلك •••

فقاطعه هيوليت بقوله :

– اذا كان الأمر كذلك ، فاسمح لى أن أجلس ، لأننى مريض على
كل حال •

قال هيوليت هذا وهو يحتل ، بهدوء ، الكرسي الذى كان يشغله
الجنرال • ثم أضاف :

– الآن أصبحت مستعداً لأن أصغى الى كلامك ، لا سيما وأن هذا
الحديث بيننا قد يكون آخر حديث ، وقد يكون هذا اللقاء آخر لقاء •
شعر جانبا فجأة بخزى • وقال :

– صدّق أننى لن أخفض قدرى الى حيث أٌجرى معك تصفية
حساب ، واذا كنت •••
فقاطعه هيوليت قائلاً :

– تخطئ اذا تعاليت هذا التعالى • أنا من جهتى قد آليت على نفسى
منذ اليوم الذى وصلت فيه الى هنا ، أن لا أحرم نفسى من لذة صفحك
متى وجب أن نفترق • وهذا أوان تنفيذ هذا المشروع ، بعد أن تنهى
كلامك طبعاً •••

– وأنا من جهتى أرجوك أن تخرج من هذه الغرفة •
– الأفضل أن تتكلم ، والا فقد تندم بعدئذ على أنك لم تقل كل
ما كان يعتمل فى قلبك ويثقل صدرك !•••

قالت فاريا :

- كفى يا هبوليت ! هذا كله مخجل مخزٍ • كُفَّ ، من فضلك !
فنهض هبوليت ، وقال ضاحكاً :

- اذا كففت فانما أكف احتراماً لسيدة • لك ما تشائين يا باربارا
آرداليونوفنا • فى سيلك لا مانع عندى من اختصار هذا الحديث ، ولكن
من اختصاره فحسب • ذلك أن المكاشفة بينى وبين أخيك قد أصبحت
ضرورة مطلقة ، ولن أقبل بأية حال من الأحوال أن أخرج قبل ازالة
سوء تفاهم •

هتف جانبا يقول :

- بل قل انك نمام ، فلا تستطيع أن تعزم أمرك على الانصراف قبل
أن تقذف من فمك ما يمتلئ به من أقوال خبيثة •

قال هبوليت ببرود :

- ها أنت ذا ترى أنك فقدت سيطرتك على نفسك • بصراحة :
سوف تشعر بندامات كثيرة اذا لم تفصح عن كل ما تريد الافصاح عنه •
أعود فأقول لك : اننى أتنازل لك عن دورى فى الكلام • وسأتكلم بعدك •
لم يجب جبريل آرداليونوفتش ، ونظر الى هبوليت باحتقار •

فقال هبوليت :

- لا تريد أن تتكلم ! تفضّل أن تبرهن على الصلابة والقوة حتى
النهاية ! لك ما تشاء • على كل حال ، سأكون من جهتي موجزاً أكبر
الايجاز • لقد سمعتُ اليوم مرتين أو ثلاث مرات لوماً وتقريباً على الضيافة
التي قُدِّمت لى • هذا ظلم • انك حين دعوتنى الى السكنى هنا ، كانت
نيتك أن تصطادنى بشباكك • كنت تفترض اننى أريد الانتقام من الأمير •
وقد سمعتَ عدا ذلك أن آجلايا ايفانوفنا أظهرت مودةً لى وأنها قرأت

اعترافى • فخطر ببالك حينذاك أنتى سأقف نفسى على تحقيق مصالحك •
 لعلك أملت أن تتخذنى مساعداً لك • لا أقول أكثر من هذا • لا ولا
 أطلب منك اعترافاً بصحته أو تأييداً لصدقه • يكفينى أن أعرف اننى
 أضحك أمام ضميرك ، وأنتا تتفاهم الآن تفاهماً تاماً •

هتفت فاريا تقول :

– انك تصنع قصةً كبيرة من أمر بسيط ...

فقال جانبا :

– هو كما قلت لك : « صبى ونمام » •

– اسمحى يا باربارا آرداليونوفنا : اننى أكمل كلامى • طبعاً ،
 أنا لا يمكن أن أحب الأمير ولا أن أحترمه • ولكنه انسان طيب حقاً ، وان
 يكن •• غريب الأطوار مضحكاً ... فليس هناك اذن أى سبب يحملنى
 على أن أكرمه ، ومع ذلك لم أظهر لأخيك أنه كان يحرضنى على الأمير •
 كنت أنتظر الحاتمة ليتاح لى أن أضحك • كنت أعلم أن أخاك لن يلبث
 أن يكشف عن حقيقة نفسه وأن يرتكب أكبر الخطأ فى حقى فأضعه فى
 موضع سىء مضحك • وذلك ما حدث • اننى مستعد لأن أترفق به الآن ،
 ولكننى لا أفعل ذلك الا مراعاةً لك يا باربارا الكسندروفنا • ومع ذلك
 فاننى بعد أن استبان لك أن ابقاعى فى الفخ ليس بالأمر السهل الى تلك
 الدرجة ، أريد أيضاً أن أشرح لك السبب الذى يحدونى الى وضع
 أخيك فى موضع مضحك حرج ازائى • ألا فاعلمى اننى فعلت ذلك عن
 كره وبغض ، اعترف بذلك صادقاً • لقد قدّرت اننى حين أموت
 (وسوف أموت على كل حال ، رغم اننى سميت كما تدعون) ، سوف
 أذهب الى الجنة بهدوء أعظم وطمأنينة أكبر اذا استطعت أن أضع فى
 موضع الهزء والسخرية شخصاً واحداً على الأقل يمثل أفراد تلك الفئة
 الكبيرة من الناس الذين اضطهدونى طوال حياتى ، والذين كرهتهم

وأبغضتهم طوال حياتي • ان أخاك المدهش هو الصورة الواضحة لهذا النوع من الناس • اننى أكرهك يا جبريل آرداليونوفتش ؟ وقد يدهشك أن تعرف اننى لا أكرهك الا لأنك النموذج التام ، أو التجسيد الكامل، أو التشخيص الصادق للعادية النافهة الوقحة الصلابة البشعة الكريهة المنفّرة ! أنت العادية المتفخخة ، التى لا يساورها شك فى شئ والتى تنعم بسكينة أولمبية • أنت الروتين ؟ أنت روتين الروتين ! لن تثبت فى فكرك أو قلبك أية فكرة شخصية ولن يومض فيهما أى معنى أصيل فى يوم من الأيام • ولكن حسدك لا حدود له • أنك مقتنع اقتناعاً قاطعاً جازماً بأنك عبقري من الطراز الأول • ومع ذلك فان الشك يستولى عليك ويحاصر نفسك فى لحظات الكتابة ، فتشعر عندئذ بنوبات قوية من الغضب والحسد • آه ... وان نقطاً سوداً تلوح فى الأفق الذى ينبسط أمام عينيك ، نقطاً سوداً لن تغيب الا يوم تصبح غيباً غباوة كاملة ، وذلك ما ستصير اليه فى مستقبل غير بعيد • على أنك ستحيا حياة طويلة متنوعة • لست أزعم أنها ستكون حياة فرحة • ويسرنى أن لا تكون كذلك • وأقول لك قبل كل شئ آخر : انك لن تحظى بيد الانسان التى تطعم فيها •

صاحت فاريا تقول :

— هذا لا يُحتمل • هلاًّ انتهيت أيها الشّتّام الدنيء ؟

وكان جانبا ملتزماً الصمت ، وقد اصفر وجهه وارتعش جسمه • وسكت هيبوليت ، وحدّق الى بنظرة ثابتة ، مبتهجاً بارتباكها ، ثم نقل عينيه الى فاريا وابتسم ، ثم حيّاً وخرج دون أن يضيف كلمة واحدة • كان من حق جبريل آرداليونوفتش أن يشكو قدره وأن يتبرم من سوء حظه •

ولبت فاريا بضع لحظات لا تجرؤ أن تخاطبه بكلمة • حتى انها لم تنظر اليه بينما كان يذرع الغرفة أمامها بخطى واسعة • وأخيراً اقترب

من النافذة وأدار ظهره لأخته • خطر ببال فاريا المثل الروسى : « لك
عصا طرفان » • وسُمت جلبة فى الطابق الأعلى من جديد •
قال جانبا لأخته فجأة حين رآها تنهض :
- أتذهين ؟ انتظرى : انظرى فى هذا !
وتقدم نحوها ورمى على الكرسى أمامها ورقة صغيرة مطوية كما
تطوى رسالة •
صاحت فاريا تقول وهى ترفع ذراعها :
- رباه !

وكانت الرسالة مؤلفة من سبعة أسطر تماماً :
« جبريل آرداليونوفتش ، اننى وقد اقتنعت بعواطفك الطيبة نحوى ،
قررت أن أستشيرك طالبةً نصحك فى قضية تمنى • فأتمنى أن ألقاك
غداً فى الساعة السابعة تماماً عند الدكة الخضراء • ليس المكان بعيداً عن
منزلنا • ان باربارا آرداليونوفنا التى يجب أن تصحبك حتماً تعرفه
جيداً • آ • ا • ، •

قالت باربارا آرداليونوفنا وهى تعبر عن دهشتها بمباعدة يديها :
- فافهمها بعد هذا إذا كنت تستطيع أن تفهم !
ورغم أن جانبا لم يكن مهياً لأن يتخذ هيئة الانتصار فانه لم يستطع
أن يخفى شعوره بالظفر ، ولا سيما بعد التنبؤات القاتلة التى قالها
هيبوليت • وها هى ذى ابتسامة صادقة تعبر عن رضى الغرور تضى وجهه •
وكانت فاريا نفسها مشرقة المحيّا من الفرح • قالت :
- ويحدث هذا فى اليوم الذى يعلنون فيه خطبتها عندهم ! فحاول
أن تعرف ما الذى تريده ان استطعت الى ذلك سبيلاً !...
سألها جانبا :

– في رأيك ، عمّ تريد أن تكلمنى غداً ؟

– ليس هذا بالأمر الهام • فأنما الأمر الهام أنها لأول مرة منذ ستة أشهر تعرب عن رغبة فى أن تراك • اسمع يا جانيس : أياً كان الأمر ، وكيفما تمت هذه المقابلة ، فيجب عليك أن تتذكر أن هذا شيء « هام » ، هام الى أبعد الحدود • فلا ترتبك هذه المرة • لا تقترف خطيئة ، ولكن لا تكن خجولاً أيضاً • افتح عينيك ! هل يمكن أن لا تكون قد أدركت الهدف الذى سعت أنا اليه بالتردد اليهم خلال هذه الأشهر الستة ؟ تصور أنها لم تقل لى اليوم كلمة واحدة عن هذه المقابلة ! لم تظهر شيئاً البتة ! يجب أن أذكر لك اننى كنت قد دخلت خلصة • كانت العجوز لا تعلم بوجودى • ولولا ذلك لكان يمكن أن تطردنى • من أجلك انما جازفت • كنت أريد أن أعرف بأى ثمن ...

تعالى الصباح والضجيج فى الطابق الأعلى من جديد • وهؤلاء عدة أشخاص يهبطون السلم •

هتفت فاريا تقول مرتاعة متقطعة الأنفاس :

– لا يجوز أن نسمح الآن بهذا مهما يكن من أمر • يجب أن لا تحدث أية فضيحة ! امض اليه ، واطلب منه الصفع !

لكن رب الأسرة كان قد بلغ الشارع • وكان كوليا يسير وراء حامللاً له حقيبة • وكانت نينا ألكسندروفنا واقفة على درجات سلم الباب تبكى ناشجة منتحبة • انها تود لو تركض وراء زوجها ، لكن بتسعين ممسك بها يمنعا من ذلك ، قائلاً لها :

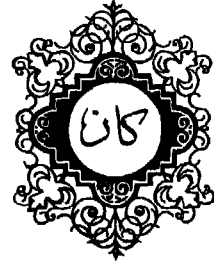
– سوف تزيدين احتياجه • وليس له مكان يذهب اليه • فسنعديه بعد نصف ساعة • لقد تحدثت فى هذا مع كوليا • دعيه يفعل ما تشاء له نزواته المجنونة •

صرخ جانبا يقول له من النافذة :
- ما هذه الحذقات ؟ الى أين عساك تذهب ؟ انك لا تدري حتى الى
أين تمضى !

وصاحت فاريا تقول :
- ارجع يا أبت ! ان الجيران يسمعون !
توقف الجنرال ، والتفت الى وراء ، وبسط يده وقال بتأثر :
- ألا فلتتصبّ لعنتى على هذا المنزل !
فججم جانبا قائلاً وهو ينفلق النافذة بقرعة :
- لا بد له أيضاً من أن يقول هذا الكلام بلهجة مسرحية !!
وكان الجيران يرقبون ويرصدون ما يجرى فعلاً • وخرجت فاريا
من الغرفة بسرعة •

فلما انصرفت تناول جانبا الرسالة من على المائدة ، وحملها الى
شفتيه ، وتلمظ ، وهمّ أن يشب عن الأرض كمن يرقص •

الفصل الثالث



يمكن أن لا يكون للفضيحة التي أثارها الجنرال أية نتيجة في وقت غير هذا الوقت • ولقد سبق أن كان بطل حوادث شاذة مفاجئة من هذا النوع، ولو في أحوال نادرة • ذلك أنه في الواقع انسان مسالم موادع جداً • يغلب على ميوله أنها طيبة • ولعله حاول مائة مرة أن يكافح عادات التحلل التي اعتادها خلال السنين الأخيرة • كان يتذكر على حين فجأة أنه رب أسرة • فيصالح امرأته ويذرف دموعاً صادقة • انه يحمل لزوجه نينا ألكسندروفنا احتراماً يبلغ حد العبادة • لأنها تغفر له أشياء كثيرة دون أن تقول كلمة واحدة • وتظل تحنو عليه رغم الانحلال التي سقط فيه • ورغم ما صار اليه من حال تبعث على السخرية والضحك ! غير أن ذلك الكفاح العظيم الذي كان يخوض غماره ضد اضطراب حياته وفوضى سلوكه كان لا يدوم مدة طويلة • انه هو أيضاً • في نوعه • أشد اندفاعاً وأقوى عزيمة من أن يستطيع احتمال حياة التوبة والفراغ التي يحيها في أسرته • فكان ما يلبث أن يتمرد • وكانت تتناوب في تلك الأحيان نوبات غضب حائق لعله يلوم نفسه عليها في نفس اللحظة التي ينقاد فيها لها • ولكنه لا يملك القوة اللازمة للتغلب عليها • كان في تلك الأحوال يسعى الى مشاجرة ذويه • ويأخذ يفيض في الكلام والخطابة بحماسة تدعى البلاغة والفصاحة • يطالب بأن يحترم احتراماً يتجاوز الحدود ولا يمكن تخيله • ثم يختفي آخر الأمر • حتى ليمضي غالباً عن البيت في بعض الأحيان

زمناً طويلاً • وقد أصبح منذ سنتين لا يملك الا فكرة غامضة عما يجري في البيت ، أو لا يطلع على ما يجري في البيت الا عن طريق السماع لا العيان • لقد انقطع عن الدخول في هذه التفاصيل التي أصبح لا يولها أى اهتمام •

ولكن الفضيحة اكست في هذه المرة شكلاً غير معهود • كأن حادثاً قد وقع ، فالجميع على علم به ولكن ما من واحد يجرؤ أن يتكلم عنه • ان الجنرال لم يرجع الى الأسرة « رسمياً » الا منذ ثلاثة أيام ، أعنى لم يرجع الى نينا ألكسندروفنا ! ولكنه بدلاً من أن يظهر المذلة والندامة كما كان يفعل في « رجائه » السابقة ، فقد ظهرت عليه في هذه المرة علامات احتياج شديد ، وحنق سريع خارق • كان كثير الكلام مضطرباً ، يتجه الى كل قادم بخطب ملتهبة ، حتى كان يهجم على محدثيه هجوماً ، ولكنه يتحدث في مسائل تبلغ من التنوع ومن الغرابة التي لا يتوقعها المرء أنه كان يستحيل على السامع أن يكتشف الموضوع الحقيقي الذي هو مدار قلقه ومحل اضطرابه • واذا استثنينا لحظات من فرح ومرح كانت توافيه من حين الى حين ، فقد كان في أكثر الأوقات شارد اللب حتى ليجهل هو نفسه ما الذي يستغرق فكره • كان يأخذ مثلاً في سرد حكاية عن أسرة ايباتشين ، وعن الأمير ، وعن ليديف ، ثم اذا هو يقطع حديثه فجأة ، ويتوقف عن الكلام توقفاً تاماً • ويردُّ بإسماة بلهاء طويلة على أولئك الذين يسألونه عن تمة القصة ، وكأنه لا يلاحظ أن أحداً يلقي عليه سؤالاً • لقد قضى الليلة الأخيرة في تهد وأنين ، وأرهق نينا ألكسندروفنا ارهاقاً شديداً ، فكانت لا تنى تسخن له لصقائه ؛ حتى اذا طلع الصباح غفا على حين فجأة ، ولكن استيقاظه من النوم بعد أربع ساعات قد أعقبته تلك النوبة الشديدة المضطربة من الوسواس التي أدت الى تشاجره مع هيبوليت ، وانهت بصبّه « اللعنة على ذلك المنزل » •

وقد لوحظ أيضاً خلال تلك الأيام الثلاثة أنه هوى الى حالة متصلة من الزهو والغرور تعبر عن نفسها بشدة التأذى وسرعة الاستياء . وقد أكد كوليا لأمه ملحاً أن هذا المزاج الحزين الذى يعانى منه أبوه انما يرجع الى حرمانه من الشراب ، وربما كان يرجع أيضاً الى غياب ليديف الذى كان الجنرال قد ارتبط به ارتباطاً حميماً فى الآونة الأخيرة . فقد حدث بين الرجلين منذ ثلاثة أيام شقاق لم يكن متوقفاً ، شقاق ألقى الجنرال الى غضب شديد . حتى أن نوعاً من شجار وقع بينه وبين الأمير . وقد توسل كوليا الى الأمير أن يشرح له سبب ما وقع ، فأدرك أخيراً أن الأمير يكتنم عنه أمراً من الأمور هو أيضاً . وفى وسعنا أن نفترض أن ما افترضه جانيا صحيح ، وأن حديثاً خاصاً قد جرى بين هيبوليت ونيئا ألكسندروفنا . ولكن يبدو غريباً عندئذ أن يكون هذا الشخص الشرير الذى نعته جانيا صراحةً بأنه نمام ، لم يمتنع نفسه بلذة اطلاع كوليا على الأمر . من الجائز جداً أن لا يكون هيبوليت ذلك الصبيّ السىء الذى صورّه جانيا فى حديثه الى أخته ، وان يكون الشر الذى فى نفسه شراً من نوع آخر . ومن جهة أخرى ، اذا كان هيبوليت قد أطلع نيئا ألكسندروفنا على شيء ، فلعله لم يفعل ذلك متنبهاً « تمزيق قلبها » فحسب . يجب أن لا ننسى أن دوافع أعمال الانسان هى فى العادة أشد تعقداً وأكثر تنوعاً مما تتصور حين نريد تحليلها . انه لمن النادر أن نستطيع الاحاطة بها احاطة دقيقة . وأفضل ما يفعله القصاص فى بعض الأحيان أن يقتصر على عرض الأحداث وسرد الوقائع . وذلك ما سنفعله فى ايضاحاتنا المقبلة عن النازلة التى ألت بالجنرال فقلبت حياته رأساً على عقب ، لأننا نجد أنفسنا الآن مضطرين اضطراراً مطلقاً الى أن نولى هذه الشخصية الثانوية من الاهتمام والمكان أكثر مما أوليناها فى قصتنا هذه حتى الآن .

لقد تعاقبت الأحداث متسلسلة على النظام التالى :

ان ليديف ، بعد جولته فى بطرسبرج سعيًا وراء العثور على فردشتشسكو ، قد رجع الى بافلوفسك مع الجنرال فى ذلك اليوم نفسه . ولم يطلع الأمير على أى شىء خاص . فلولا أن الأمير كان ذاهلاً هو أيضاً فى ذلك الوقت ، وكان غارقاً فى مشاغل تهمه أكبر الاهتمام ، لاحظ أن ليديف ، فضلاً عن أنه لم يزوده بأى إيضاح خلال اليومين اللذين أعقبا عودته ، كان يتحاشى أيضاً لقاءه . فلما لاحظ الأمير ذلك أخيراً ، تذكر على دهشة منه ، أنه رأى ليديف ، خلال هذين اليومين ، حين كان يلقاه عرضاً ، رآه مشرق المزاج منبسطة الأساور ، وأنه فى صحبة الجنرال دائماً . كان الصديقان لا يفترقان أبداً . وكان الأمير يسمع فى بعض الأحيان أحاديث صاخبة حامية تدور فوق غرفته ، ويسمع مناقشات مرحة تقطعها انفجارات ضحك . حتى انه فى ذات مرة ، فى ساعة متأخرة جداً من السهرة ، وصلت الى مسامعهم أصداً أغنية غيز متوقعة ، من الأغاني التى يغنيها الجنود حين يشربون الخمر ؛ فتعرف صوت الجنرال الحفيظ المبجوح ، ولكن الأغنية انقطعت فجأة وأعقبها صمت . ثم قامت مناقشة حارة بلهجة مخمورة ، واستمرت المناقشة حامية خلال قرابة ساعة . وكان لا يعجز السامع عن أن يحزر أن الصديقين اللذين يسمران فوق قد تعانقا بعد قليل ، وأن أحدهما أخذ يبكى آخر الأمر . ثم لم تلبث أن نشبت مشاجرة عنيفة على حين فجأة ، ثم هدأت المشاجرة بعد برهة وجيزة .

فى أثناء تلك الآونة كلها ، كان كوليا فى حالة هم شديد . وكان الأمير لا يكاد يمكث فى البيت لحظة أثناء النهار ، وكان فى بعض الأحيان لا يعود الا فى ساعة متأخرة جداً من الليل . فكان يقال له عندئذ ان كوليا ظل يسعى اليه ويسأل عنه طوال اليوم . ولكن الفتى كان اذا لقي

الأمير لا يبدو عليه أن لديه شيئاً خاصاً يريد أن يفضي به إليه ، اللهم الا أن يقول له انه « مستاء » من الجنرال ومن سلوكه الحالى أشد الاستياء ، « فانهما لا ينفكان يمشيان فى الطريق ، ويسكران فى حانة قريبة ، ويتعاقان فى وسط الشارع ، ويتشائمان على مرأى ومسمع من الناس ، ويهيج كل منهما صاحبه ، ولا يستطيعان أن يفترقا » . فلما قال له الأمير ان ذلك ليس الا تكراراً لما كان يجرى قبل ذلك كل يوم تقريباً ، لم يعرف كوليما بماذا يجب ، وعجز أخيراً عن تحديد موضوع قلقه

الراهن .

وفى غداة الليلة التى سمع فيها الأمير الأغنية والمشاجرة ، كان الأمير يتهايم للخروج فى نحو الساعة الحادية عشرة ، فاذا بالجنرال يظهر أمامه بفتة ، وهو فى حالة انفعال شديد حتى ليكاد يرتجف ارتجافاً .

- انتى منذ مدة طويلة اترقب فرصة الحصول على شرف لقائك يا ليون نيقولا يقتش المبجل . نعم ، منذ مدة طويلة ، طويلة جداً ، طويلة جداً جداً .

بهذا جمجم الجنرال وهو يضغط على يد الأمير ضغطاً يوشك أن يكون موجعاً . فدعا الأمير أن يجلس .

- لا ، لن أجلس ، ثم انتى لا أريد أن امنعك من الخروج سأجىء فى مرة أخرى . أظن انتى أستطيع أن أهتك بتحقيق أمنيات قلبك .

- أمنيات قلبى ؟

اضطرب الأمير . لقد كان يبدو له ، كما يحدث هذا لأكثر الذين يكونون فى مثل حالته ، أن أحداً لا يرى ولا يحزر ولا يفهم شيئاً .

قال الجنرال :

— اطمنن بالآ ! لا أحب أن أضايك في ألطف مشاعرك وأرهف عواطفك . لقد مرت أنا بمثل هذه الحالة ، وأعرف أنه ما ينبغي لغريب أن يدس أنفه ... ان صح التعبير .. على حد قول المثل ... حيث لا يجب أن يدسه ! هذه حقيقة أعانيها كل صباح . وانما أنا جئت إليك لشأن آخر ، شأن هام ، هام جداً يا أمير .

رجاه الأمير مرة أخرى أن يجلس ، وسبقه الى الجلوس ليحملة على الاقتداء به . قال الجنرال :

— لا بأس . لحظة قصيرة ... لقد جئت أسألك نصيحة . لا شك في أن حياتي تنقصها أهداف عملية ، ولكنني ، احتراماً مني لنفسى ، وبوجه عام ... اهتماماً مني بتلك الروح العملية التي حرّم منه الروسى حرماناً شديداً .. أود أن أهىء لنفسى ، ولزوجتى ، ولأولادى ... وضعاً يمكننا ... الخلاصة : جئت ألتمس منك نصحاً يا أمير ...

فنهأه الأمير تهتة حارة على هذه النية وهذا العزم .

وأسرع الجنرال يضيف قائلاً :

— غير أن هذا كله لا قيمة له . وانما أنا جئت لأمر أخطر شأنًا . لقد قررت أن أفتح لك قلبى يا ليون نيقولايفشس ، كما أفتح قلبى لانسان تبلغ تقى بصدقه وكرمه أن ... أن ... ألا تدهشك أقوالى يا أمير ؟

لئن لم يكن الأمير مدهوشاً دهشة عظيمة ، فلقد كان يلاحظ ضيفه مع ذلك بكثير من الانتباه والاستطلاع . كان الشيخ شاحباً بعض الشحوب ، وكانت تلم بشفتيه رعشة خفيفة فى بعض اللحظات ، وكانت يده ترتجفان بغير انقطاع . لقد جلس منذ بضع دقائق ، ولكنه نهض أثناء ذلك فجأة مرتين ، ثم أسرع يجلس ثانية ، دون أن يبدو عليه أنه يلاحظ ما هو فيه من اضطراب . وكان على المائدة كتب ، فتناول واحداً

منها أثناء كلامه ، وفتحته ، وألقى نظرة عليه ، ثم عاد يطويه فوراً ويرده الى مكانه . ثم تناول كتاباً آخر لم يفتحه لكنه ظل قابضاً عليه بيده اليمنى طول الوقت ، يهزه بغير انقطاع .

وهتف فجأة يقول :

- حسبي هذا ! أرى أنني أزعجتك كثيراً .
- لا ، أبداً ، لم تزعجني أرجوك أكمل كلامك !
بالعكس : انتي أصنى اليك باهتمام ، وأحاول أن أدرك
- يا أمير ، أريد أن يكون لي مركز يفرض الاحترام أريد أن أحصل على احترام نفسى وحقوقى

- ان من يرغب هذه الرغبة لهو جدير بكل احترام منذ الآن .
نطق الأمير بهذه الجملة المستعارة الشائعة معتقداً اعتقاداً جازماً بأنها ستحدث فى نفس الجنرال أثراً حسناً . كان يحسن ، بغيريزته ، أن جملةً من هذا النوع ، جوفاء سارّة فى آن واحد ، تستطيع اذا هى قيلت فى الوقت المناسب ، أن تدخل الهدوء والطمأنينة الى نفس انسان مثل الجنرال ، ولا سيما فى الحالة التى هو عليها . ومهما يكن من أمر ، فما كان يجوز استئذان زائر كهذا الزائر بالانصراف الا بعد التخفيف عنه ، ومواساته . تلك هى المسألة .

أعجب الجنرال بالجملة كثيراً ، ووجد فيها مديحاً وعدّها مؤثرة ؛ فرتق قلبه ، واهتزت عاطفته ، وسرعان ما غيّر لهجته وانطلق يقدم شروحاتاً طويلة مستفيضة تشتمل حماسة . لكن الأمير لم يفهم من كلامه شيئاً رغم ما بذل من جهود الاصغاء التام والانتباه الشديد . لقد تكلم الجنرال قرابة عشر دقائق ، بتدفق سريع وتعجل عظيم ، كما يفعل انسان لا يتسع وقته لأن يعبر عن الحواطر التى تزدهم فى رأسه ازدحاماً

قويًا ؟ حتى لقد أخذت تترقق في عينيه دموعٌ آخر الأمر • ولكن جميع العبارات التي نطق بها كانت لا رأس لها ولا ذنب ، كانت أقوالاً عجبية غير متوقعة ، وخواطر متاثرة مفككة تتصادم وتتضارب في حديثه المضطرب المشوش •

وختم الجنرال كلامه فجأة بقوله وهو ينهض :

— هذا يكفي ! لقد فهمت عنى فأنا الآن أشعر براحة وطمأنينة وهدوء • ان قلباً كهذا لا يمكن الا أن يفهم انساناً يتألم • يا أمير ، انك تملك نبل المثل الأعلى • ما الآخرون اذا قيسوا بك ؟ ولكنك شاب ، فهنا ذا أحب لك بركتي • الخلاصة انني جئت اليك ألتمس أن تحدد لي ساعةً لحديث هام : فعلى هذا الحديث انما أعقد الأمل وأعلق الرجاء • اني لا أئشد الا صداقةً وقلباً يا أمير • أنا لم أستطع أن أسيطر على مطالب قلبي في يوم من الأيام •

قال الأمير يسأله :

— ولكن لماذا لا نجرى الحديث الآن ؟ انني مستعد لأن أصغي اليك •••

فقاطعه الجنرال بقوة وعنف :

— لا يا أمير ، لا ! لا الآن ! أنا الآن في حلم ! ان القضية خطيرة الشأن جليلة القدر ! ان الساعة التي سنجرى فيها ذلك الحديث ستقرر مصيري • ان تلك الساعة ستكون لي « أنا » ، ولا أحب في لحظة مقدسة كذلك اللحظة ، أن تعرض لأن يقطع علينا حديثنا أحد ، لا أحب أن يقطع علينا حديثنا أول قادم وقع •

وهنا مال الجنرال على الأمير فهمس في أذنه يقول بلهجة السر وبما يشبه الرعب :

— وقع لا يساوى نعل ... نعل قدمك ... يا حبيبي الأمير !
 لست أقول قدمي أنا • لاحظ جيداً أن الأمر ليس أمر قدمي أنا ، لأننى
 أشد احتراماً لنفسى من أن أتحدث عن قدمي أنا رأساً بغير مواربة وبغير
 لف ودوران ! ولكنك وحدك قادر على أن تفهم أننى اذ امتنع فى مثل
 هذه الحالة عن ذكر نعل قدمي ربما كنت أبرهن على عزة شديدة وكبرياء
 عظيمة • ما من أحد غيرك يستطيع أن يفهم هذا ؟ و « هو » ، « خاصة » ،
 أعجز من غيره على فهم ذلك • « هو » لا يفهم شيئاً يا أمير • انه عاجز
 عن الفهم عجزاً مطلقاً ! لا بد للمرء من قلب حتى يمكن أن يفهم !

شعر الأمير أخيراً بضيق يشبه أن يكون خوفاً • فضرب للجنرال
 موعداً هو مثل هذه الساعة من الغد • وخرج الجنرال قوياً منتعشاً قد
 سرّى عنه وكاد يهدأ بالاً • وفى المساء ، بين الساعة السادسة والساعة
 السابعة ، أرسل الأمير يرجو ليديف أن يجيء اليه لحظة •

فهرع ليديف الى الأمير مسرعاً أشد الاسراع ، وقال وهو يدخل
 « انه لشرف عظيم » له أن يلبي طلب الأمير وأن يمثل بين يديه • كان
 كمن أصبح لا يتذكر أنه اختبأ عن الأمير خلال ثلاثة أيام ، وأنه تحاشى
 لقاءه عامداً •

جلس ليديف على حافة كرسى وهو يتكلف التبسم ، ويصطنع
 وجهه حركات تودد ، وتفتعل عيناه المتفرستان تعبيراً عن الضحك ، ويفرك
 يديه ، ويظهر بمظهر انسان ساذج كل السذاجة يتهاى لأن يسمع نبأ
 هاماً انتظره زمناً طويلاً ، وأحس به جميع الناس منذ مدة •

انزعج الأمير من هذا الوضع الذى يتخذه ليديف • لقد أصبح
 واضحاً له أن جميع من حوله قد أخذوا يأملون منه شيئاً على حين فجأة ،
 أصبحوا ينظرون اليه على نية أن يزجوا اليه التهشة بحادث عليه مدار

تلك التلميح والابشامات والغمزات • لقد مرّ به كيللر ثلاث مرات، هو أيضاً ، مسرعاً متعجلاً ، راعباً رغبةً واضحة في أن يزجي اليه التهتهة ، فكان في كل مرة يندفع مسترسلاً في كلام متحمس غامض ثم يقطع حديثه فجأة وينصرف قبل أن ينتهي • (لقد أصبح كيللر في الأيام الأخيرة يفرط في الشراب مزيداً من الأقرط ، والناس يرونه في قاعة من قاعات البلياردو يحدث ضجيجاً ويثير جلبه شديدة) • وكوليا نفسه ، رغم حزنه ، قد اندفع ، مرتين أو ثلاث مرات ، يلمّع في حديثه مع الأمير ملغزة •

اتجه الأمير الى ليديف يسأله بلهجة قاطمة وبشء من الخلق عن رأيه في الحالة التي آل اليها الجنرال ، وفي مصدر القلق الذي يعاني منه الجنرال الآن • ووصف له بكلمات مقتضبة المشهد الذي جرى بينه وبينه • فأجاب ليديف يقول بلهجة جافة :

- لكل امرئ همومه يا أمير ! ولا سيما في عصر عجيب معذّب كهذا العصر الذي نعيش فيه • هذه هي المسألة !

قال ليديف ذلك ثم صمت كما يصمت رجل أُنسى اليه وخاب ظنه فيما كان ينتظره خيبة قاسية •

قال الأمير مبتسماً :

- يا لها من فلسفة !•••

- الفلسفة قد تكون لازمة ، قد تكون لازمة جداً لمصرنا هذا من الناحية العملية ، ولكن الناس يهملونها • هذا واقع ! أما أنا ، أيها الأمير المبجل ، فقد أوليتي ثقتك في حالة تعرفها ، ولكنك قصرت هذه الثقة على حد معين ، وقصرتها على الوقائع الملحقة بهذه الحالة ••• انني أفهم هذا ولا اشتكى منه البتة !

قال الأمير :

— لكأن هناك شيئاً قد أغضبك يا ليديف ، هه ؟

فهتف ليديف يقول بحماسة وهو يضع يده على قلبه :

— لا ، أبداً . بالعكس : لقد أدركت فوراً أنني كنت لا أستحق أن تشرفني بتقنك السامية التي كنت أتطلع اليها ، كنت لا أستحقها لا بحكم وضعي في المجتمع ، ولا بحكم ذكائي وأخلاقي ، ولا بحكم ثرائي ، ولا بحكم ماضي ، ولا بحكم معارفي . وإذا أمكنتني أن أخدمك فانما أنا أخدمك كما يخدم عبد أو متنفع ، لا أكثر من ذلك . أنا لست زعلان ، بل حزين .

— دعك من هذا يا لوكيان تيموفتشس !

— لا أكثر من ذلك ! وهذا هو شأني الآن ، في الحالة الراهنة . لقد كنت أقول لنفسى حين ألقاك ، وحين أتبعك بقلبي وفكرى : « أنا لا أستحق أن يفضى إلىّ بما يفضى به صديق إلى صديقه ، ولكننى ، بصفتى صاحب الدار ، قد أتلقي منه ، في اللحظة المناسبة ، فى تاريخ محدد ان صحَّ التعبير ، أمراً من الأوامر ، أو قد أتلقي منه على الأقل رأياً من الآراء بشأن ، يعض التبديلات الوشيكة المتوقعة . . . » ،

كان ليديف ، وهو ينطق بهذه الكلمات ، ما ينفك يحدّق بعينيه الصغيرتين اللابتين ، الى الأمير الذى كان يتأمل مدهوشاً . لم يكن قد فقد أملة فى اشباع فضوله .

هتف الأمير يقول بلمهجة توشك أن تكون غضباً :

— لا أفهم شيئاً البتة . . . وانك لأقطع من رأيت فى حياتى من أصحاب الدساتس والمكائد . .

قال الأمير هذه الجملة الأخيرة وهو ينفجر ضاحكاً ضحكاً صريحاً
على حين فجأة •

فأسرع ليديف يشاركه الضحك • وكان واضحاً من نظرتة
المشرقة أن آماله قد قويت بل وازدادت • قال الأمير :

— هل تعلم ماذا سأقول لك يا لوكيان تيموفتشس ؟ لا تزعل : اننى
مدهوش من سذاجتك وسذاجة أشخاص آخرين أيضاً ! ان ما تظهرونه
من سذاجة فى توقع أن أكتشف لكم عن أمر من الأمور ، فى هذه
اللحظة ، فى هذه الدقيقة ، يبلغ من الشدة ما يجعلنى أشعر بحرج
وخجل حين ألاحظ أن ليس هنالك شيء أبلغكم اياه فأرضيكم • ومع ذلك
أحلف لك أن ليس ثمة أى أمر أقضى به اليك • تستطيع أن تكون على
تقة بهذا •

وعاد الأمير يضحك •

واصطنع ليديف هيئة الجذ والرصانة والوقار • صحيح أن فضوله
يتصف أحياناً بفرط السذاجة وقلة التكتيم ، ولكن هذا لا ينفي انه كان
رجلاً ماكرآ يحسن اللف والدوران والتمرج ، حتى انه قادر فى بعض
الأحيان على أن يلتزم صمتاً يبلغ غاية المكر • وقد حملته الأمير برودود
الفضلة المستمرة على أن يعتبره أشبه بعدو • ولكن لئن كان الأمير يخاشنه،
فانه لم يكن يفعل ذلك احتقاراً له ، بل لأن فضول ليديف ينصب على
موضوع حرج دقيق • لقد كان الأمير ، قبل بضعة أيام ، ينظر الى بعض
أحلامه نظرتة الى جريمة ، بينما كان لوكيان تيموفتشس لا يرى فى رفضه
الكلام الا دليلاً على كره له وشك فيه، فكان ينصرف مقروح القلب حافداً،
وكان يحسد كوليا وكيللر بل ويحسد أيضاً ابنته نفسها ، فبرا لوكيانوفنا •
ولعله كان فى هذه اللحظة نفسها يرغب رغبة صادقة فى أن ينقل الى

الأمير نبأً لعله يحظى من الأمير بأكبر الاهتمام ، لكنه انطوى على نفسه
ولزم صمتاً كاملاً واحتفظ بأسراره لنفسه •

قال ليديف أخيراً بعد صمت :

— فى أى شىء يمكن أن أخدمك أيها الأمير المعظم ، ما دمت أنت
الذى ... استدعيتى ؟

ظل الأمير شارد الذهن برهةً من الزمن هو أيضاً • ثم قال :

— كنت أريد أن أتكلم عن الجنرال ، وعن ... تلك السرقة التى
كلمتني فيها ...

— أية سرقة ؟

— عجيب أمرك • لكأنك أصبحت الآن لا تفهم ! حقاً انك لانسان
غريب يا لوكيان تيموفتش ! ما هذا التمثيل الذى تعتمد اليه وتحرص
عليه دائماً ؟ انتى أقصد المال ... المال ... الأربعمئة روبل التى فقدتها
منذ أيام مع المحفظة ، وجئت تحدثني عنها هنا فى الصباح ، قبل أن تذهب
الى بطرسبرج • هل فهمت عنى أخيراً ؟

فقال ليديف عندئذ بصوت بطىء كأنه لم يدرك ما يُسأل عنه الا فى
هذه اللحظة :

— آ ... تقصد تلك الاربعمئة روبل ! أشكرك ، يا أمير ، على
اهتمامك الصادق هذا بى • ان هذا الاهتمام ليسعدنى ويشرفنى ، ولكننى
... وجدت المبلغ منذ مدة طويلة !

— وجدته ؟ آ ... الحمد لله !

— ان حمدك هذا يصدر عن قلب نبيل ، لأن الأربعمئة روبل ليست
أمراً هيناً بالنسبة الى انسان شقى لقى عناءً كبيراً فى جنى رزقه ورزق
أيتامه ...

قال الأمير مصححاً :

ـ ما عن هذا أكلملك ! يسرنى طبعاً أن تكون قد وجدت مالك ،
ولكن ... ولكن كيف وجدته ؟

ـ على أيسر نحو : وجدته تحت الكرسي الذى كان ردنيجوتى معلقاً
عليه . فلا شك أن المحفظة انزلت من جيب الردنيجوت وسقطت
هنالك .

ـ تحت الكرسي ؟ مستحيل .. لقد قلت لى انك بحثت عن المحفظة
فى كل مكان . فكيف لم تراها فى الموضع الذى هو أبرز موضع يمكن
أن تسقط فيه ؟

ـ لقد نظرت فى ذلك الموضع فعلاً . أتذكر أننى أمعنت النظر .
جنوت حتى صرت أمشى على أربع ، ثم لم أتكلم على عينيّ وحدهما بل
أزحت الكرسي وتلمست المكان بيديّ . فلم أجد الا فراغاً كراحة يديّ ،
وظلمت مع ذلك أتلمس . ان هذه الترددات تستولى دائماً على فكر من
يبحث عن شيء ويصر أن يعثر عليه ... حين يكون الشيء المفقود هاماً
أو حين يكون فقد مدعاة حزن له : فهو يرى أن ليس نعمة شيء فى المكان
الذى يبحث فيه عن الشيء ، ومع ذلك ينظر فى المكان نفسه خمس عشرة
مرة .

دمدم الأمير يقول متحيراً :

ـ طيب ... ولكن كيف أمكن أن يحدث هذا ؟ ... لقد قلت
فى البداية ان المال لم يكن هناك ، ثم اذا أنت تجده هناك فى ذلك المكان
نفسه فجأة ! فكيف يمكن هذا ؟

ـ نعم ، وجدته هناك فجأة !

حدّق الأمير الى ليديف بنظرة غريبة ، ثم سأله على حين بفتة :

- والجنرال ؟

فأجاب ليديف وهو يصطنع من جديد هيئة من لا يفهم :

- الجنرال ؟

- غريب أمرك • انتنى أسألك ماذا قال الجنرال حين عثرت على
محفظتك تحت الكرسي ؟ ألم تقوما بالبحث في أول الأمر معاً ؟
- نعم ، في أول الأمر • ولكننى فى هذه المرة لم أقل له شيئاً ،
أعترف لك بذلك • آثرت أن يبقى جاهلاً بأننى عثرت على محفظتى
وحدى •

- ولكن ... لم هذا ؟ • • • وهل كان المال تاماً لم ينقص منه شيء ؟
- عددت ما كان فى المحفظة فلم افتقد شيئاً • لم ينقص من المال
روبل واحد •

قال الأمير شارد الذهن :

- كان فى وسعك أن تخبرنى بهذا على الأقل •
- خشيت أن أزعجك يا أمير ، فإن لك من مشاغلك الشخصية
وهيومك الخاصة ما قد يكون خارقاً اذا جاز لى أن أقول هذا • ثم لقد
تظاهرت أنا نفسى بأننى لم أعثر على شيء ؛ فبعد أن فتحت المحفظة وعددت
المال الذى كان فيها فتحققت من تمامه طويتها ثانية وأرجعتها الى مكانها
تحت الكرسي •

- لماذا ؟

قال ليديف وهو يضحك ضحكاً ساخراً على حين فجأة ويفرك
يديه سروراً :
- هى فكرة ساورتتنى • كان يشوقنى أن أرى ما قدت يحدث
بعد ذلك •

— فهل المحفظة ما تزال تحت الكرسي منذ يومين ؟

— لا . لم تبق تحت الكرسي الا أربعاً وعشرين ساعة . كانت رغبتى
هى أن يعثر عليها الجنرال هو أيضاً . قلت لنفسى : ما دمت قد انتهيت الى
العثور عليها ، فلا يمكن الا أن يلاحظ الجنرال ، هو أيضاً ، شيئاً ظاهراً
للعيان الى هذا الحد ، شيئاً ينب الى البصر من تحت الكرسي وثباً ان صح
التعبير . وقد نقلت الكرسي وغيّرت موضعه مراراً بحيث يصبح المرء
مضطراً الى رؤية المحفظة اضطراباً ، ومكراً على الانتباه اليها اكرهاً ،
ولكن الجنرال لم يبصر شيئاً . دام ذلك أربعاً وعشرين ساعة . لا بد
أنه فى هذه الآونة ذاهل شديد الذهول . أمر لا يمكن فهمه : انه يتكلم ،
ويروى قصصاً ، ويضحك ، ويقهقه قهقهة شديدة فى بعض الأحيان ، ثم
اذا هو ينتابه غضب عنيف منى على حين فجأة ، لا أدري لماذا ! خرجنا
أخيراً من الغرفة ، ولكننى تعمّدت أن أترك الباب مفتوحاً . فرأيت
الجنرال يتردد لحظة وكأنه يريد أن يقول لى شيئاً . فأغلب الظن أنه قد
روّعه أن تترك هنالك محفظة فيها مبلغ ضخّم كذلك المبلغ . ولكنه بدلاً
من أن يشير الى هذا ، غضب على حين فجأة ، واحمر وجهه احمراراً
شديداً . فما ان صرنا فى الشارع وقطعنا بضع خطوات حتى تركنى ومضى
فى اتجاه آخر . ثم لم نلتق بعد ذلك الا مساءً فى الحانة .

— ولكن هل سمّيت المحفظة من تحت الكرسي أخيراً ؟

— لا ، أبداً . وانما هى اختفت من ذلك المكان فى الليل .

— وأين هى الآن ؟

— هى ذى . . . لقد وجدتها هنا فجأةً ، فى حافة رديجوتى ، انظر

. . . جُسمها اذا أردت أن تتأكد من الأمر بنفسك .

بهذا هتف لىديف فجأةً وهو ينهض قائماً وينظر الى الأمير

متودداً .

كانت الحافة اليسرى من الردنجات منتفخة من الأمام اتفاحاً يلفت النظر حقاً • فإذا جسَّ المرء ذلك الموضع أدرك فوراً وجود محفظة من الجلد انزلت تحت البطانة من ثقب فى الجيب •

قال لبيديف :

- لقد أخرجتها لأدقق النظر فيها ، فرأيت المال كاملاً لم ينقص منه شيء ، فعدت أدرسها فى موضعها نفسه ؛ وهكذا ترانى أحملها منذ صباح أمس • حتى انها تلطم ساقى •

- وتظاهر بأنك لم تلاحظ ذلك ؟

- أنا لا ألاحظ شيئاً ، هىء هىء ! واعلم ، أيها الأمير المبجل ، اعلم ••• رغم أن هذا الموضوع لا يستحق أن يلفت انتباهك ، اعلم أن جيوبى تكون فى حالة حسنة دائماً • فما هى الا ليلة واحدة حتى كانت احداها مثقوبة ! لقد أنعمت النظر فى الثقب متمعداً ، فرأيت أنه يشبه أن يكون خرقةً أُحدث بسكين • أمر لا يصدق العقل ، أليس كذلك ؟

- و ••• الجنرال !

- ظل غاضباً طول النهار ، أمس واليوم • ان استياءه رهيب • على أن نشوة الحمرة تجعله شديد المراعاة والمجاملة أحياناً ، ثم اذا هو يصبح رقيق العاطفة حتى لتسيل دموعه على خديه ، ثم اذا هو يشور على حين فجأة ثورةً عارمة تبث الرعب فى قلبى ، والحق يقال !••• ذلك اننى ، يا أمير ، لست رجل قتال وحرب • وأمس ، بينما كنا معاً فى الحانة ، وقعت حافة ردنجاتى تحت بصره بما يشبه المصادفة ، وكانت ترسم حدة ظاهرة كل الظهور ، فرمقها الجنرال بطرف عينه ، واجتاحه الغضب • لقد أصبح منذ مدة طويلة لا ينظر الى وجهاً لوجه ، الا حين يكون فى نشوة سكر أو يقظة عاطفة • ولكنه نظر الى أمس مرتين فكان فى عينيه من

الشرر ما أجرى في ظهري رعدة • على كل حال ، أنا أنوى أن أعثر على المحفظة غداً ، ولكنني الى أن أفعل ذلك أحب أن أسلى به ليلةً أخرى •

صاح الأمير يقول متعجباً :

- لماذا تعذبه هذا التعذيب ؟

فأجاب ليديف يقول بحرارة :

- أنا أعذبه يا أمير ؟ لا ! انني أحبه حباً صادقاً مخلصاً ، و ... واحترمه • لك أن تصدّق أو لا تصدّق : لقد أصبح الآن أغلى في قلبي وأعزّ في نفسي مما كان • أصبحت اعتبره مزيداً من الاعتبار •

قال ليديف هذه الكلمات وهو يصطنع هيئة فيها من فرط الجذ والاخلاص ما أثار استياء الأمير • فقال يسأل ليديف :

- أتجبه ثم تعذبه هذا التعذيب ؟ اسمع : انه منذ أعاد المحفظة المفقودة الى مكان بارز : تحت الكرسي أولاً وفي حافة رديجوتك ثانياً ، قد برهن على أنه لا يريد أن يمكر معك ، وبرهن على أنه يسألك الصفع والعفو • هل سمعت ؟ انه يطلب منك أن تصفع عنه ! معنى هذا أنه يعتمد على رفاقة عواطفك ، وأنه يثق بصداقتك له • فكيف تجيز لنفسك بعد هذا أن تذلل انساناً ... شريفاً الى هذا الحد ؟

قال ليديف وقد التمت عيناه :

- أيها الأمير الشريف ، أيها الأمير الشريف جداً • أنت وحدك أيها الأمير النبيل ، استطعت أن تقول كلاماً صادقاً هذا الصديق كله ، عادلاً هذا العدل كله ، لذلك تراني مخلصاً لك متفانياً في سبيلك الى حد العبادة ، رغم كل عفونة الرذائل التي تعشنش في نفسي ! لقد اتخذت

قرارى • سوف اكتشف المحفظة الآن ، فى هذه اللحظة نفسها ، لا أنتظر
الغد • انظر : هأنا ذا أخرجها أمام بصرك • هى ذى • هذا هو المبلغ
كاملاً ، خذه أيها الأمير النبيل واحتفظ به الى غد • سوف استرده منك
غداً أو بعد غد • ولكن هل تعلم يا أمير أن هذا المال لا بد أن يكون قد
قضى الليلة الأولى فى مكان ما تحت شجرة بحديقتنا الصغيرة ؟ ما رأيك
فى هذا ؟

— لا تقل له دفعةً واحدة انك عثرت على المحفظة • دعه يلاحظ
أن حافة ردنجاتك قد خلت من المحفظة ، فيفهم بنفسه •
— هل هذه فكرة حسنة ؟ أليس الأفضل أن أبلغه أنتى وجدت
المحفظة ، متظاهراً باننى قبل ذلك لم يخطر ببالى شيء ؟
أجاب الأمير واجماً مفكراً :

— لا أظن ذلك • لا • فات الأوان • هذا أشد خطراً • حقاً ان
الأفضل هو أن لا تقول شيئاً ! كن رقيقاً لطيفاً فى معاملته ، ولكن ...
يجب أن لا يظهر عليك أنك ... تمثل دوراً محفوظاً ، ... و ...
و ... أنت تعلم ...

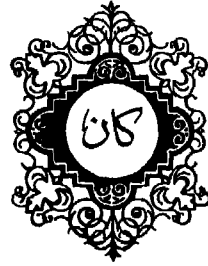
— أعلم يا أمير ، أعلم • أقصد ... أعلم أنتى لن أفعل شيئاً من
ذلك ، اذ لا بد أن يكون للمرء قلب كقلبك حتى يتصرف بهذا التصرف •
ثم انه قد أصبح هو نفسه سريع الاحتياج سىء الطبع • هو الآن يشغلنى
فى بعض الأحيان من رأى الى قدمى ، تارةً ينتحب ويقبلنى ، وتارةً
يأخذ يذلى ويهيننى ويعاملنى باحتقار على حين فجأة • وفى لحظة من
تلك اللحظات سأبرز له حافة ردنجاتى عامداً ليراها ... هـى هـى ! ...
الى اللقاء يا أمير ... أظن أنتى حبستك عن الخروج ، وأنتى ...
أهم عواطفك ، اذا جاز لى أن أقول ...

• - ولكن احفظ السر ، ناشدتك الله ، كما فعلت من قبل •

• - بخطي لا وقع لها ، بخطي كخطي الذئب !... •

رغم أن الأمر انتهى ، فقد بقي الأمير مهموماً ربما أكثر مما كان
مهموماً من قبل • انه ينتظر ، نافذَ الصبر ، اللقاء الذي يجب أن يتم غداً
بينه وبين الجنرال •

الفصل الرابع



موعد اللقاء بين الساعة الحادية عشرة والنصف وبين الساعة الثانية عشرة • ولكن الأمير أخره عنه ظرف طارئ لم يكن في الحسبان • فلما وصل الى البيت كان الجنرال ينتظره • وقد لاحظ من النظرة الأولى أن الجنرال كان سستاءً ، ولعله كان مستاءً من هذا الانتظار نفسه •

اعتذر الأمير عن التأخر وأسرع يجلس ، لكنه كان يشعر بوجل غريب فكأن الزائر خزف يخشى عليه الأمير أن ينكسر في كل لحظة • انه لم يشعر قبل ذلك في يوم من الأيام بوجل كهذا الوجمل ازاء الجنرال ، بل ولا كان يمكن أن تخطر بباله فكرة كهذه الفكرة • ولم يلبث أن لاحظ أن أمامه الآن رجلاً يختلف كل الاختلاف عن رجل الأمس : فالجلجل والذهول قد حلت محلها الآن لدى الجنرال رصانة خارقة ، فكأنه قد اتخذ قراراً قاطعاً لا سبيل الى الرجوع عنه • ورغم أن هدوء الأعصاب هذا كان ظاهرياً أكثر مما كان واقعياً ، فان ذلك لا ينفي أن وضع الجنرال كان فيه نبل وحرية وانطلاق ، على شيء من الشعور بكرامة مكبوتة ووقار مكظوم ؛ حتى لقد بدأ يكلم الأمير بلهجة فيها شيء من التنازل والتواضع كاللهجة التي يصطنعها أولئك الذين يخالط انطلاقتهم الحرّ شعور باساة ألحقت بهم ظلماً • وكان يتحدث بنبرة لطيفة ودود ، على شيء من المראה في صوته •

قال بوقار وهو يومئ يده الى المائدة :

ـ اليك المجلة التى أخذتها منك فى ذلك اليوم • شكراً •

ـ آآآ ••• نعم •• هل قرأت تلك المقالة يا جنرال ؟ كيف وجدتھا ؟
ما رأيك فيها ؟ شائقة ، هه ؟

كذلك قال الأمير مسرعاً الى انتهاز هذه الفرصة للتحديث فى موضوع
كهذا الموضوع لا يثير النفس ، ولا يهز العاطفة •
فأجاب الجنرال بقوله :

ـ قد تكون المقالة شائقة ، لكنها كُتبت كتابةً رديئة ، وهى باطلة
حتماً ، حتى ليتمكن أن يقال انها محشوة بالأكاذيب •
كان الجنرال يتكلم بلهجة فيها سلطة ، وفيها شيء من بطء مقصود •
قال الأمير :

ـ نعم ، هى قصة ساذجة جداً : ان كاتبها جندى قديم شهد احتلال
الفرنسيين لموسكو واقامتهم بها ، فروى أموراً شائقة • ثم ان مذكرات
شهود العيان ثمينه دائماً ، مهما تكن شخصية الكاتب • أليس كذلك ؟
ـ لو كنت فى مكان رئيس التحرير ، لما نشرت هذا الكلام • أما
عن مذكرات العيان بوجه عام فان الناس أميل الى تصديق كاذب متبجح
لكنه مشوقٍ مسلٍ منهم الى تصديق رجل له قيمته ومزايه • اتنى أعرف
مذكرات عن عام ١٨١٢ هـ ••• يا أمير ، لقد عزمت أمرى واتخذت
قرارى : اتنى مغادر هذا المنزل ، منزل السيد ليديف •
قال الجنرال ذلك ، وألقى على الأمير نظرة مهية •
فأبرى الأمير يقول على غيرى هدى وهو لا يعرف بماذا يجب :
ـ ان لك مسكنك فى بافلوفسك صند •• عند ابنتك •

وتذكر فى تلك اللحظة أن الجنرال انما جاء ليستشيريه فى أمر
يتوقف عليه مصيره •

قال الجنرال :

— بل عند زوجتى ، أى فى بيتى وبيت ابنتى •

— معذرة : اننى •••

— اننى مفادر منزل ليديف يا عزيزى الأمير ، لأننى قطعت علاقاتى
بهذا الرجل • قطعتهما فى مساء أمس ، أسفاً على أننى لم أفعل ذلك قبل
هذا الأوان • اننى أطلب الاحترام يا أمير ، وأرغب فى الاحترام حتى من
الأشخاص الذين أهب لهم قلبى ان صح التعبير • يا أمير ، اننى كثيراً
ما أهب قلبى ، فأُخدع فى جميع الأحيان تقريباً • ان هذا الرجل لم يكن
جديراً بصداقتى •

فقال الأمير بتحفظ :

— انه يتصف بشيء من الفوضى فعلاً ، وان له كذلك بعض الخصال
التي ••• ولكن له قلباً رقيقاً ، كما ان له فكراً مائلاً ، وهو خفيف الظل
أحياناً •

ان هذه التعابير المنتقاة المختارة التي استعمالها الأمير ، وتلك اللمجة
التي تدل منه على تقدير وتوقير ، قد أرضت غرور الجنرال ، رغم أن
ومضات من ريب ما تزال تلتصع فى عينيه • ولكن نبيرة الأمير كان فيها من
الانطلاق الطبيعى الواضح ما لم يبق معه مجال لشك •

قال الجنرال مستأنفاً كلامه :

— أما أن له مزاياء أيضاً ، فلقد كنت أول من اعترف بذلك حين
أوشكت أن أهب صداقتى لهذا الانسان • ذلك اننى فى غير حاجة لا الى
بيته ولا الى ضيافته ، لأن لى أسرته أنا أيضاً • لست أحاول أن أبرء

نفسى من عيوبى • أنا امرؤ مفرط لا يعرف الاعتدال • ولقد شربت معه خمرأ ، فيا ليتنى لم أرتكب ذلك الخطأ ! ولكن الحمرة لم تكن الشئ الوحيد الذى ربطنى به وشدنى اليه (اغفر فجاجة اللفة عند انسان مقروح القلب يا أمير !) • وانما أغررتنى به تلك المزاياف نفسها التى أشرت اليها • غير أن لكل شئ حداً ، حتى المزاياف • فحين تبلغ به الجرأة حد الادعاء فجأة بأنه سنة ١٨١٢ ، أيام طفولته ، قد فقد ساقه اليسرى ودفنها فى مقبرة فجانكوفو * بموسكو ، فان كلامه هذا يتجاوز الحدود ، ويدل على استهتار ، ويبرهن على وقاحة •

— لعل ذلك لم يكن منه الا مزاحاً أو حكاية يهدف منها الى الاضحاك !

— أنا أفهم هذا • ان حكاية بريئة يخترعها صاحبها للاضحاك ، حتى ولو كانت فظة غليظة ، لا تجرح قلب الانسان • حتى لقد يرى المرء أناساً يكذبون عن شعور بالصدقة ان صح التعبير ، وذلك ليسرّوا محدثيهم • ولكن اذا اشتمل ذلك على قلة احترام ، واذا كان المقصود من قلة الاحترام هذه أن يقال لك بالتلميح ان صداقتك أصبحت ثقيلة على الصدر ، فليس يبقى لرجل نبيل فى مثل هذه الحالة الا أن يشيح بوجهه ، وأن يقطع جميع العلاقات ، وأن يردّ الشخص الذى صدرت منه الاساءة المهينة الى مكانه وأن يقفه عند حدوده •

وكان الجنرال قد احمر وهو يتكلم • قال الأمير :

— ثم ان ليديف لا يمكن أن يكون قد وُجد بموسكو سنة ١٨١٢ ، فهو أصغر سنّاً من أن يكون ذلك صحيحاً • دعوى مضحكة !

— ذلك من جهة الأولى • ولكن هب أنه كان فى ذلك الزمان قد

وُلد منذ مدة • فكيف يستطيع أن يزعم لك جهاراً أن جندياً فرنسياً من جنود المدفعية قد صوّب إليه مدفعه ، فقطع بقنبلة إحدى ساقه ليتسلى بذلك ؟ فما كان منه إلا أن التقط ساقه المقطوعة فنقلها الى بيته ثم دفنها في مقبرة فاجانكوفو • وهو يقول فوق ذلك انه بنى لها ضريحاً كتب على أحد جانبيه ما يلي : « هنا ترقد ساق الموظف لبيديف » ، وكتب على الجانب الآخر : « استرح أيها الرفات الغالى الى أن يطلع الصباح المشرق الوضاء » ؛ ويقول أخيراً انه يُقيم قداساً على روح ساقه (وهذا وحده تجديد) ، ويسافر الى موسكو لهذه الغاية كل عام • وهو يدعوني ، تأييداً لكلامه ودعماً لدعواه ، أن أصحبه الى موسكو ليرينى الضريح ، وليرينى ، فى الكرملين ، ذلك المدفع الفرنسى نفسه الذى أخذ من العدو ، مؤكداً أنه المدفع الحادى عشر بعد الباب ، وأنه مدفع صغير من طراز عتيق •

قال الأمير وهو ينفجر ضاحكاً :

– وما يزال مع ذلك بساقين واضحتين • أؤكد لك أنها مزاحة بريئة ، فلا تغضب منها ***

– ولكن اسمح لى أن يكون لى أنا أيضاً رأى : فلأن يظهر أن له ساقين اثنتين فهذا لا يقطع بأن قصته لا يمكن أن تطابق الواقع • فهو يؤكد أن له ساقاً صناعية من عند تشرنوسفيتوف •

– صحيح : يظهر أن فى امكان المرء أن يرقص بساق من عند تشرنوسفيتوف •

– أعرف هذا ، لأن تشرنوسفيتوف حين اخترع ساقه الصناعية قد هرع يرينها على الفور • ولكن هذا الاختراع أحدث كثيراً من ذلك التاريخ *** ثم ان لبيديف يؤكد أن زوجته المرحومة لم تعرف

فى يوم من الأيام ، أثناء زواجها ، أن له ساقاً من خشب • وقد أوضحت له جميع ما تشتمل عليه قصته هذه من وجوه الاستحالة والسخف • فأجابنى بقوله : « اذا ادعيت أنك كنت وصيف نابوليون سنة ١٨١٢ ، فاسمح لى أنا أيضاً بأن أكون قد دفنت ساقى فى مقبرة فاجانكوفو » •

قال الأمير وقد وقف متحيراً :

— كيف ؟ هل أنت ...

فظهر الاضطراب على الجنرال أيضاً ، لكنه سرعان ما سيطر على نفسه ، ونظر الى الأمير بتعالٍ يخالطه شيء من سخر ، وقال له بصوت قاطع :

— أكمل فكرتك يا أمير ، أكملها ، اننى متسامح • قل كل شيء : انه ليدو لك أمراً مضحكاً أن ترى أمامك انساناً سقط الى هذا الحضيض من الذل و ... العقم ، وأن تعلم أن هذا الانسان كان هو نفسه شاهد أحداث كبرى • ألم يعمد « هو » الى الوشاية بى والنميمة علىّ لديك حتى الآن ؟

— لا ، لم يقل لى ليديف شيئاً ، اذا كان ليديف هو من تقصد ••

— هم •• كنت أظن غير هذا • والحق أن حديثنا قد بدأ بالكلام على تلك ... المقالة الغريبة التى ظهرت فى مجلة « الأرشيف » * • لقد أشرت أنا الى بطلان تلك المقالة ، لأننى شهدت بنفسى الأحداث التى ترويها • أرى أنك تبسم وتتفرس فىّ يا أمير ، هه ؟

— لا ، أبداً ... اننى ...

تابع الجنرال حديثه بلهجة بطيئة جداً :

— اننى أبداً صغير السن ، ولكننى أكبر سناً مما أبداً • فى سنة

١٨١٢ كنت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري • أنا لا أعرف سني على وجه الدقة • لقد صغروه في سجل الخدمة ، وارتضيت أنا لنفسي ، عن ضعف مني ، أن أُنقص منه سنوات •

– أؤكد لك يا جنرال أنني لا أرى أية غرابة في أن تكون قد وُجِدَت بموسكو سنة ١٨١٢ ، و ••• طبعي أن تكون لك ذكريات تستطيع أن ترويها ••• كسائر أولئك الذين وُجِدوا في ذلك العهد • ان أحد الذين سجلوا ذكريات حياتهم قد افتتح كتابه بذكر أنه كان سنة ١٨١٢ طفلاً رضيعاً وأن الجنود الفرنسيين أطعموه خبزاً بموسكو •

قال الجنرال متنازلاً متسامحاً :

– هأت ذا ترى يا أمير أن قصتي ، وإن لم تكن استثناءً ، فهي تخرج عن نطاق المألوف مع ذلك • انه ليحدث كثيراً أن تبدو الحقيقة بعيدة عن الواقع صعبة التصديق • وصيف الامبراطور • ذلك يلوح غريباً كل الغرابة طبعاً • غير أن حادثاً خارقاً يقع لطفل في العاشرة من عمره ربما كان يفسره أنه إنما كان طفلاً • ما كان لهذا الحادث أن يقع لي في الخامسة عشرة من عمري ؛ وذلك لسبب بسيط هو أنني في الخامسة عشرة من عمري ما كان لي أن أهرب من منزلنا الخشبي في شارع « باسمانيا القديمة » ، يوم دخول نابوليون الى موسكو • ما كان أن أتمرد على سلطة أمي التي فاجأها دخول الفرنسيين فكانت ترتعد خوفاً • فلو كنت في الخامسة عشرة من عمري لأشاركها رعبها • أما في العاشرة فقد كنت لا أخشى شيئاً ، فتسللت بين الجمهور حتى بلغت درجات مدخل القصر ، لحظةً كان نابوليون ينزل عن حصانه •

قال الأمير يؤيد كلامه خجلاً :

– فعلاً ، لقد أصبت حين لاحظت أن سن العاشرة هي السن التي يكون فيها المرء أشد ما يكون جرأة وتهوراً •••

وكان يعذب الأمير أن يتصور أنه سيحمر وجهه • قال الجنرال :

— طبعاً ••• ولقد جرى كل شيء على نحو بسيط طبيعي لا يوجد مثله الا في الحياة الواقعية • فلو كتب هذه القصة روائي لخرجت من بين يديه ترهات باطلة وأموراً لا يصدق العقل أنها يمكن أن تطابق الواقع •

هتف الأمير يقول :

— حقاً ! لقد خطفت هذه الفكرة اتباهي أنا أيضاً ، ومنذ مدة قصيرة •
اننى أعرف قضية واقعية عن جريمة قتل كان الدافع اليها سرقة ساعة •
وقد تحدثت الجرائد عن هذه الجريمة منذ وقعت • فلو أن روائياً تخيل هذه الجريمة ، لانبرى الناس الذين يعرفون حياة الشعب يصيحون قائلين مع النقاد : هذا لا يمكن أن يكون واقعاً • ولكنك حين تقرأ حكاية هذا الحادث فى الجرائد تحس أنه واحد من تلك الحوادث التى تملك حقائق الحياة الروسية •

وختم الأمير كلامه قائلاً بحرارة وقد سرّ أنه لم يظهر عليه احمرار الوجه :

— انك قد أجدت ملاحظة هذه الظاهرة يا جنرال !

فهتف الجنرال يقول وقد سطعت عيناه سروراً :

— أليس كذلك ؟ هذا طفل ، هذا صبي لا يشعر بالخطر ، يتسلل خلال الجمهور ليرى بهاء الموكب وسناء البنات العسكرية ويرى الرجل العظيم الذى طالما سمع الناس يتحدثون عنه ؛ ذلك أن العالم كان قد أصبح منذ عدة سنين لا يتكلم الا عن نابوليون • لقد ملأ اسمه الدنيا وشغل الناس ، حتى ليمكننى أن أقول اننى رضعت اسمه مع حليب أمى • ويمرّ نابوليون على بعد خطوتين منى ، فاذا ببصره يقع على نظرتى مصادفة • كنت ارتدى ثياب طفل من أبناء النبلاء • كان أهلى يكسوننى بأجمل الملابس • وكنت

بين ذلك الحشد الكبير ، الشخص الوحيد الذى يرتدى ثياباً من هذا المستوى ، فتصور أنت نفسك ما عسى يكون أثر ذلك فى نفسه ...

- لا شك أن ذلك خطف بصره وبرهن له على أن الناس لم ينفذوا جميعاً ، حتى ان أفراداً من النبلاء قد لبثوا بموسكو مع أولادهم .

- تماماً ! كانت هذه هى فكرته : أن يجتذب إليه النبلاء ! فحين حدّق الى بنظرته التى تشبه نظرة النسر ، فلا بد أنه رأى جواباً يسطع فى عينى . قال : « هذا صبي يقظ . من أبوك ؟ » (بالفرنسية) فأجبتة فوراً بصوت يكاد يخفقه الانفعال : « جنرال قضى فى ساحة الشرف ذاتاً عن وطنه » . قال : « ابن نبيل ، نبيل وشجاع فوق ذلك ! أحب النبلاء ! هل تحبني يا صغير ؟ » (بالفرنسية) . كان السؤال سريعاً ، ولكن جوابي لم يكن أقل سرعة ، فانتى لم ألبث أن قلت له : « ان قلب الروسى يقدر أن يعرف الرجل العظيم ولو كان عدو وطنه ! » . الحلق انتى لا أتذكر هل كان جوابي بهذه الكلمات حرفاً حرفاً ... لقد كنت طفلاً ... ولكن لا شك أن هذا كان هو المعنى الذى عبّرت عنه أقوالى .

« أخذ نابوليون . وفكّر لحظة ثم قال لرجال حاشيته : « أحب كبرياء هذا الفتى ! ولكن اذا كان جميع تفكير جميع الروس هو هذا التفكير ، فان ... » . ولم يكمل جملته ودخل القصر . وأسرت اختلط بحاشيته وأركض وراءه . فكان رجال الموكب يفسحون لى طريقاً منذ ذلك الوقت ، لأنهم أصبحوا يعدوننى أميراً عنده ، محبباً الى قلبه . حدث هذا كله فى طرفة عين ... ولكننى أتذكر أن الامبراطور ، حين بلغ القاعة الأولى ، توقف فجأة أمام صورة الامبراطورة كاترين ، فتأملها ملياً شارد الذهن حالم الهية ، وهتف يقول أخيراً : « كانت امرأة عظيمة ! » . ثم مضى فى طريقه .

« ما اتقضى يومان الا كان كل من فى القصر وفى الكرملن يعرفوننى .

وكانوا يلقبوني « النيل الصغير » (بالفرنسية) • وكنت لا أرجع الى البيت الا لقضاء الليل • وكاد أهلى أن يجنوا من ذلك • وغداة غد مات وصيف نابوليون ، البارون بازانكور ، مرهقاً من المشاق التى عاناها أثناء الحملة • فتذكرنى نابوليون ، فجاءوا يبحثون عنى ويأخذونى دون أى شرح أو تفسير • ألبسونى بزة المتوفى الذى كان فتى فى الثانية عشرة من العمر ، وأدخلونى على الأمبراطور مرتدياً تلك البزة • فأوماً برأسه ، فأبلغونى عندئذ أنني فزت برضى الامبراطور عن تسميتى وصيفاً لصاحب الجلالة • شعرت بسعادة ، لأننى كنت أحس منذ زمن طويل بعاطفة قوية نحوه • ثم • • • لا شك أنك تقدّر ما فى البزة اللامعة من قوة الاغراء لطفل • أصبحت أرتدى فراكاً أخضر قاتم الخضرة ، تزيينه أزرار مذهبة ، مع ذيول ضيقة طويلة وأكمام ذات حواش حمراء ؛ وكانت تطريزات الذهب تغطى الحواف والأكمام والياقة ، وكانت الياقة عالية مستقيمة مفتوحة • أما السروال فملتصق بالجسم ، أبيض اللون ، مصنوع من جلد الشاموا ؛ وفوق السروال صديرة من حرير أبيض ؛ والجوربان من حرير أيضاً ، وللحذاءين عرى وأزرار • • • فاذا قام الامبراطور بنزهة على الحصان وكنت أنا فى حاشيته ، ألبست حذاءين لهما ساقان عاليتان على طريقة الفرسان • ورغم أن الحالة لم تكن حسنة ، ورغم أن كوارث ضخمة كانت متوقعة ، فقد كانت قواعد الآداب تراعى مراعاة صارمة فى حدود الامكان ، حتى لقد كانت الدقة فى مراعاتها على قدر قوة الاحساس بأن الكوارث قريبة •

تمتم الأمير يقول بلمهجة تكاد تكون يائسة :

– نعم ، طبعاً • • • لا شك أن مذكراتك سيكون لها شأن •

أغلب الظن أن الجنرال كان يردد على مسامع الأمير ما قاله أمس لصاحبه ليبيديف • فلذلك كانت أقواله تسيل غزيرة • لكنه فى تلك

اللحظة ألقى على الأمير نظرة جديدة فيها ارتياب + ثم استأنف كلامه يقول بمزيد من الكبرياء :

- مذكراتي ؟ تكلمني عن تدوين مذكراتي ؟ ان هذا لم يغرنى يا أمير ! أو قل ان شئت انها مدونة منذ الآن ، ولكنني أخفيها مقفلاً عليها بالمفتاح + فلتنشر بعد أن يغطي التراب عيني + وسوف تترجم عندئذ الى عدة لغات حتماً ، لا لقيمتها الأدبية طبعاً ، بل لخطورة الأحداث الضخمة التي كنت شاهد عيان لها ، رغم أنني طفل + بل نستطيع أن نقول أكثر من ذلك : ان صغر سني هو الذي أتاح لي أن أنفذ الى أخفى خفايا ما يجري في غرفة « الرجل العظيم » ! كنت في الليل أسمع أنات ذلك « العملاق في الشقاء » + لم يكن ثمة سبب يدعو الى اخفاء أناته ودموعه عن طفل ، رغم انني كنت قد أدركت أن سبب عذابه هو صمت الامبراطور الكسندر .

قال الأمير خجلاً :

- صحيح + لقد كتب اليه رسائل + + + يعرض عليه الصلح +

- الواقع أننا لا نعرف ماذا تضمنت رسائله من عروض ، ولكنه كان يكتب يكتب كل يوم ، في كل ساعة ، رسالة تلو رسالة ! كان مضطرباً اضطراباً رهيباً + وكنا وجدين في ذات ليلة من الليالي فأمرعت اليه مخضلاً العينين بالدموع (آه + + + كم كنت أحبه !) وقلت له صارخاً :

« اطلب المغفرة من الامبراطور الكسندر ، اطلب عفوه ، + كان يجب على طبعاً أن أقول : « اعقد صلحاً مع الامبراطور الكسندر » ، لكنني طفل ، فكنت أعبر عن تفكيري كله بسذاجة + أجنبي وهو يذرع الفرقة طولاً وعرضاً : « آه يا بني ! آه يا بني ! أنا مستعد لأن أؤثم قدمي الامبراطور الكسندر ، (لكأنه نسي أنني لا أبلغ من العمر الا عشرة أعوام ، حتى لقد كان يجد لذة في محادثتي) ولكنني في مقابل ذلك قد نذرت كرهاً خالداً ومقتاً أبدياً للملك بروسيا وامبراطور النمسا ، و + +

على كل حال ... أنت لا تفهم من أمور السياسة شيئاً ، • لكأنه تذكر فجأة أنه يخاطب طفلاً ، فصمت ، ولكن عينيه ظلنا ترسلان شرراً خلال مدة طويلة • فصور الآن ، تصور أنني أدون هذه الوقائع كلها ، أنا الذى شهدت أضخم الأحداث ، وأنتى أنشرها : وتصور عندئذ انواع النقد وصنوف الغرور الأدبى ، وألوان الحسد ، وروح التحيز ، و ... آه ... لا ... لا ... أشكرك أجزل الشكر ! •

أجاب الأمير برقة ولطف بعد لحظة تفكير :

- فيما يتعلق بروح التحيز ، فانك على حق تماماً ، وأنا أؤيد قولك كل التأكيد • من ذلك اننى قرأت فى الآونة الأخيرة كتاب شاراس * عن معركة واترلو • ان الكتاب جاد ولا ريب • والاختصاصيون يقطعون بأن كاتبه مطلع اطلاقاً واسماً • ولكنك تلاحظ فى كل صفحة من صفحاته تلذذاً بخفض قيمة نابوليون • حتى لكأن المؤلف كان يمكن أن يسره أعظم السرور أن ينكر على نابوليون أى ظل لموهبة ، حتى فى المعارك الأخرى • فلا شك أن هذا التحيز لا يليق بكتاب جاد الى هذا الحد • هل كان وقتك كله مشغولاً بالعمل قرب ... الامبراطور ؟

طار الجنرال فرحاً • ان ملاحظة الأمير هذه قد بددت بما فيها من رصانة وبساطة آخر ما كان يساوره من شكوك •

- شاراس ! آ • أنا أيضاً ، أثار استيائى ، حتى لقد كتبت اليه عندئذ ، ولكننى لا أتذكر الآن على وجه الدقة ... أتسألنى هل كان عملى يستغرق كل وقتى ؟ لا ، لا ! لقد سُميت وصيفاً للامبراطور ، لكننى منذ ذلك الحين لم آخذ الأمر مأخذ الجد ؛ ثم ان نابوليون لم يلبث أن فقد كل أمل فى تقارب بينه وبين الروس ؛ وكان لا بد له والحالة هذه من أن ينسانى ، لأنه لم يجتذبنى اليه فى الأصل الا لأغراض سياسية ، هذا اذا لم يكن قد تعلق بى تعلقاً عاطفياً شخصياً مع ذلك ... الآن أقول هذا

صراحة • أما أنا فان القلب هو الذى كان يدفعنى اليه • ولم أكن أطلب بعمل • كل ما هنالك انتنى كان علىَّ أن أجيء الى القصر من حين الى حين ، وأن أصحب الامبراطور فى نزحاته على الحصان • ذلك كل شيء • كنت أجد ركوب الخيل • وقد اعتاد أن يخرج الى التزهة قبل العشاء • وكانت حاشيته تتألف من دافو ، والملوك رستان ، وأنا ••

أضاف الأمير على غير شعور منه تقريباً !

– وكوستان أيضاً •

فقال الجنرال :

– لا ، لم يكن كوستان من الحاشية • كان قد ذهب يحمل رسالة ••• الى الامبراطورة جوزيفين • فحلَّ محله ضابطان من ضباط الحرس ، وبضعة فرسان بولنديين • تلك كانت حاشيته كلها ، بالإضافة – طبعاً – الى الجنرالات والمارشالات الذين كان نابوليون يصطحبهم لدراسة الأرض وتوزيع الجيوش ، ولاستشارتهم • واذا صدقت ذاكرتى الآن ، فان دافو هو الذى يصحبه أكثر من أى شخص آخر : كان دافو ضخيم الجسم بديناً ، وكان هادئ الطبع بارد الأعصاب ، وكان يضع على عينيه نظارتين ، وكانت له نظرة غريبة ••• فمع دافو انما كان الجنرال يحب أن يتشاور أكثر مما كان يحب أن يتشاور مع أى شخص آخر • كان يحترم آراءه • أذكر أنهما فى ظرف من الظروف ظلا يبحثان معاً خلال عدة أيام متتالية • كان دافو يأتى صباحاً ومساءً ، وكانت تجرى بينهما مناقشات كثيرة • وأخيراً بدا أن نابوليون أصبح على أهبة أن يسلم • كانا فى المكتب معاً • وكنت أنا ثالثهما ، ولكنهما كانا لا يتبهايان الىَّ ؟ ووقع بصر نابوليون علىَّ مصادفة على حين فجأة ، فانعكست فى عينيه فكرة غريبة • فقال يسألنى بغتة : « ما رأيك أيها الصبي ؟ أنذا اعتنقت الديانة الارثوذكسية وحررت أقتانكم ، يتبعنى الروس ؟ » فهتفت أقول له مستاءً : « لن يتبعوك فى يوم

من الأيام ! ، ، شُدّه نابوليون من جوابى • قال : « فى ويمض الوطنيه
الذى التمع فى عينى هذا الصبى ، قرأت الآن رأى الشعب الروسى كله •
كفى يا دافو ! ما هذا كله الا خيال ! أرنى مشروعك الآخر ! » •
قال الأمير مهتماً اهتماماً قوياً :

– لكن ذلك المشروع الذى عدل عنه يشتمل على فكرة عظيمة • هل
تعتقد أن ذلك المشروع كان من صنع دافو ؟
– اتفقا عليه فى أقل تقدير • لا شك أن الفكرة جاءت من نابوليون •
انها فكرة سر • ولكن المشروع الثانى كان يشتمل أيضاً على فكرة •••
انه مشروع « مجلس الأسد » * المشهور ، كما سمى نابوليون ذلك
المشروع فيما بعد ؟ وهو أن يعتصم بالكرمين مع الجيش كله ، وأن يقيم
فيه أبنية من خشب ، ومنازل قوية ، وأن يصف فيه سريّات مدفعية ،
وأن يذبح أكبر عدد من الخيول ليصنع من لحومها قديداً ، ثم أن يقتصب
من السكان جميع ما لديهم من غلال ليستطيع الصمود حتى الربيع • فاذا
طلع الربيع حاول أن يشق طريقاً بين الروس • ولقد فُتِن نابوليون بهذه
الخطّة • فكنا نقوم كل يوم بجولات على صهوات الحيل حول الكرملن ،
فيشير نابوليون الى الأماكن التى يجب فيها الهدم ، والى المواضع التى
ينبغى فيها البناء ، والى حيث يجب وضع نظارة ، أو الى حيث يجب تعزيز
تحصين أو الى حيث يجب اقامة أبراج • ما كان أسرع خاطره وأثبت
بصره وأحزم قراره ! وسوّى أخيراً كل شئ • وكان دافو يلح من أجل
أن يصدر اليه الأمر الحاسم النهائى • وعادا يجتمعان فى خلوة لا يشاركما
فيها ثالث غيرى • وعاد نابوليون يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً ، عاقداً ذراعيه
على صدره • فكنت لا أستطيع أن أحول عينيّ عن وجهه ، وكان قلبى
يخفق خفقاناً قوياً • قال دافو : « أنا ماض أباشر العمل » • فسأله
نابوليون : « الى أين ؟ » ، فأجاب دافو : « أمر بتعليق القديد » • فارتجف

نابوليون • كان المصير يتقرر • سألتني نابوليون فجأة : « ما رأيك في خططنا يا فتى ؟ » • طبعى أنه وجّه الىّ هذا السؤال كما يعتمد عقل عظيم في آخر لحظة الى استعمال طريقة « اليا نصيب » • فبدلاً من أن أجيب نابوليون التفت نحو دافو وقلت له بما يشبه الوحى أو الالهام : « سافروا الى بلادكم بسرعة يا جنرال » • تهدّم المشروع • هزّ دافو كتفيه وخرج مدمماً : « أمر عجيب • أصبح يؤمن بالخرافات * » • وفى الغداة صدر الأمر بالانسحاب •

قال الأمير بصوت خافت جداً :

– هذا كله شائق جداً ••• اذا كانت الأمور قد جرت هنا على هذا النحو •••

ثم أسرع يقول مصححاً بقوة :

– بل قل ••• أقصد •••

كان الجنرال قد بلغ من النشوة بالقصة التى رواها أنه أصبح لا يستطيع أن يحجم عن التورط فى أى تهور • وها هو ذا يهتف قائلاً :

– آ ••• أمير ••• انك تقول : « اذا كانت الأمور قد جرت هنا على هذا النحو ••• » • ولكننى أقسم لك صادقاً لا حاشاً أن ما قصصته عليك هو أقل من الواقع ، أقل من الواقع ، أقل كثيراً من الواقع ! ان كل ما رويته لك لا يتصل الا بأمور سياسية يسيرة الشأن • غير أننى أكرر أننى قد شهدت الدموع يسكبها فى الليل ذلك الرجل العظيم ، وسمعت الأنات تخرج من صدره فى جوف الظلام • ما من أحد يستطيع أن يروى ما أروى وأن يصف ما أصف • صحيح أنه أصبح فى نهاية الأمر لا يبكى ، فقد نضبت دموعه ، وأصبح لا يزيد على أن يشن من حين الى حين • وكان وجهه يزداد عبوساً وجهامة ، واكفهراراً وتقطياً • لكن الأبدية قد مدّت

جناحها عليه منذ ذلك الحين • وكنا فى بعض الأحيان نقضى فى الليل ساعات بكاملها وحيدين صامتين ، بينما الملوك روستان يغط بالفرقة المجاورة فى نوم عميق • ألا ما كان أعرق نوم ذلك الرجل ! وكان نابوليون يقول اذا تحدث عنه : « لكنه فى مقابل ذلك مخلص لى وفى لعرشى ! » •

« وفى يوم من الأيام كنت مثقل القلب ، فرأى الامبراطور دموعاً فى عيني • فظفر الى بحنان وقال متعجباً : « تشاركنى أحزاني ؟ لعلك الولد الوحيد الذى يشاطرني ألمي ، عدا ابني ، ملك روما * • أما الآخرون فإنهم جميعاً يكرهوننى • حتى اخوتى سيكونون أول من يخونوننى أمام أعدائى » • فأخذت أبكى ناشجاً وهرعت اليه ، فأصبح لا يستطيع كظم ما فى نفسه ، فتعانقنا وامترجت دموعنا • قلت له باكية : « اكتب رسالة الى الامبراطورة جوزفين » • فارتعش نابوليون ، وفكر لحظةً ، ثم قال ييجينى : « لقد ذكرتنى بالقلب الثالث الذى يحبني • شكراً يا صديقى ! » • وكتب على الفور رسالة الى جوزيفين حملها كونيستان فى الغداة •

قال الأمير :

— أحسنت جداً • فانك ، فى وسط الأفكار السيئة التى كانت تغزوه وتحاصر نفسه قد أيقظت فى قلبه عاطفة جميلة نبيلة •

هتف الجنرال يقول متحمساً :

— تماماً ! ما أحسن تعبيرك عن هذا وأنت تستسلم لاندفاعات قلبك !

والأمر الغريب أن دموعاً قد انبجست عندئذ من عينيه حقاً حينذاك • وتابع كلامه يقول :

— نعم يا أمير ، كانت لذلك المشهد عظمتة • هل تعلم أنتى أوشكت أن أصحبه الى باريس ؟ ولو فعلت ذلك لتبعته حتماً الى « مفاه فى الجزيرة

المدارية * « • ولكن مصيرنا كانا مقترقين ، وا أسفاه ! فانفصلنا ، فأما هو فرحل الى تلك الجزيرة المدارية التي لعله تذكر فيها ، أثناء لحظة من لحظات حزن قاس وألم ممض ، دموع ذلك الفتى المسكين الذى عانقه وسامحه بموسكو ؟ وأما أنا فأرسلت الى مدرسة الضباط الفتيان حيث لم أجد الا نظاماً قاسياً ورفاقاً غلاظاً ••• وا أسفاه !••• وانهار كل شيء بعد ذلك !•••

« لقد قال لى نابوليون فى يوم الانسحاب : « لا أريد أن انتزعك من أمك لأصطحبك • لكننى أتمنى أن أفعل شيئاً لك • • » وكان قد امتطى صهوة جواده • فقلت له خجلان : « اكتب لى كلمة فى ألبوم أختى للذكرى » ؛ ذلك أنه كان مظلم الوجه شديد الاضطراب • فعاد أدراجه ، وطلب منى قلماً ، وتناول الألبوم ، وقال يسألنى ممسكاً بالقلم : « كم عمر اختك ؟ » فأجبته : « ثلاث سنين » فقال : « هى اذن بنت صغيرة * » • وكتب على الألبوم :

اياك والكذب *

نابوليون ، صديقك المخلص *

أرأيت يا أمير ؟ نصيحة كهذه النصيحة ، فى لحظة كتلك اللحظة ••• ما رأيك ؟
قال الأمير :

- نعم ••• لهذا دلالاته البليغة !•••
- وقد وضعنا تلك الورقة من الألبوم وراء زجاج فى اطار • واحتفظت بها أختى طوال حياتها فى صالونها ، معلقة اياها فى أكرم مكان من منزلها • وماتت أختى أثناء ولادة ••• ومنذ ذلك الحين لا أدرى ماذا حلّ بتلك الورقة •• ولا أين صارت !••• ياه !••• الساعة الآن هى الثانية ! ••• لقد احتجزتكم مدة طويلة يا أمير ! ذلك أمر لا يُغتفر •

تمتم الأمير يقول :

- بالعكس ... لقد أسرت لبي ... و ... وان لما رويته لقيمة كبيرة ، فأنا ممتن أشد الامتنان .

مرة أخرى شدَّ الجنرال على يد الأمير شدّاً قوياً الى حد الايلام .
وحدّق اليه بعينين ساطعتين ووجه انسان ثاب الى نفسه فجأة وومضت
في رأسه فكرة مباغتة . قال :

- يا أمير ، انك تبلغ من طيبة القلب وبساطة العقل أنني أشفق عليك
في بعض الأحيان . انني أتأملك بعاطفة وحنان . أسأل الله أن يباركك !
انني أتمنى لك أن تبدأ حياتك أخيراً وأن تزدهر .. في الحب . أما حياتي
أنا فقد انتهت ! آه ... مغفرة ! مغفرة !

وأُسرع يخرج مخفياً وجهه في يديه .

لم يستطع الأمير أن يشك في صدق انفعال الجنرال . وقد أدرك
أيضاً أن الشيخ انصرف منتشياً بما حقق من نجاح . ولكنه كان يحس
احساساً غامضاً بأنه ازاء واحد من أولئك المتشدين الذين يبلغون من
تلكهم بكذبهم أنهم ينسون أنفسهم ولكنهم يظنون مع ذلك في أشد حالات
نشوتهم يشعرون شعوراً صميماً بأن الناس لا يصدقونهم ولا يمكن أن
يصدقوهم . لقد كان الشيخ ، وهو في مثل تلك الحالة النفسية ، يمكن أن
يعود الى نفسه وأن يثوب الى رشده بعد تلك التوبة من نوبات الكذب الذي
لا حياة فيه ، فيشعر بأنه قد أهين اذا هو تصوّر أن الأمير أحسن نحوه
بشفقة شديدة . لذلك تساءل الأمير قلقاً : « ألم أرتكب خطأ حين تركت
له أن يتحمس ذلك التحمس وأن يندفع ذلك الاندفاع ؟ » . وما هي الا
لحظة حتى انطلق الأمير يضحك على حين فجأة ضحكاً استمر عشر دقائق .
وأوشك بعد ذلك أن يلوم نفسه على ذلك المرح الشديد والضحك القوي ،

لكنه عدل عن رأيه وأدرك أنه ما ينبغي له أن يؤاخذ نفسه على شيء ،
ما دام يحمل للجنرال ذلك العطف كله وتلك الشفقة كلها •

وقد صدقت تنبؤاته • ففي ذلك المساء نفسه تلقى من الجنرال بطاقة
غريبة هي رسالة مقتضبة لكنها جازمة ، فيها يعلن له الجنرال أنه يقطع
صلته به الى الأبد ، فهو ما يزال يضمّر له الاعتبار والشكر ، ولكنه
يرفض من جهته أن يقبل « تلك الشفقة التي تقتل كرامة انسان عانى حتى
الآن من صنوف الخطوب وأنواع المحن ما يكفيه » •

حين علم الأمير أن الجنرال أصبح يعيش معتكفاً عند نينا ألكسندروفنا
زال قلقه عليه تقريباً • ولكن الجنرال ، كما أسلفنا ، مضى يفعل جرسه
عند اليزابت بروكوفيتنا • اتنا لا نستطيع أن نروى هنا تفاصيل ما وقع •
وحسبنا أن تشير بكلمتين الى موضوع الحديث الذي جرى بينهما • ان
اليزابت بروكوفيتنا ، بعد أن روتها ثمرات الجنرال التي تشبه أن تكون
هذياناً ، قد استبد بها استياء قوى حين سمعته يبدى آراء شديدة المرارة
في حق جانيا • فلم يكن منها الا أن أمرت باخراجه من البيت مطروداً
مجللاً بالعار • لذلك قضى الليل كله والصباح مهتاجاً احتياجاً بلغ من
الشدة أنه فقد كل سيطرة على نفسه فاذا هو يندفع في الشارع أخيراً
كأنما اصابه جنون •

كان كولا لا يدرك ما يجري الا بعض الادراك ، وكان لا يزال
يأمل أن يؤثر في أبيه بالتخجل • قال له :

— هيه ! أين سنطوّف الآن ؟ ما رأيك يا جنرال ؟ ألا تريد أن
تذهب الى الأمير ؟ لقد حدث شقاق بينك وبين ليديف • وليس معك مال •
وأنا لا يكون معي مال أبداً • وما نحن في وسط الشارع نخبط خبط
عشواء !

قال الجنرال مدممداً :

— لأن يكون المرء مع نساء ، خير من أن يخطب هنا وهناك خبط عشواء • لقد كفلت لى هذه القافية * نجاحاً قوياً ••• فى نادى الضباط سنة ٤٤ ••• نعم سنة الف وثمانمائة •• وأربع وأربعين !•• أصبحت لا أتذكر على وجه الدقة •• آه •• اننى لا أتذكر •• لا أتذكر ••• لا تحدثنى فى هذا الأمر • « أين شبابى ؟ أين شبابى ؟ أين نضارتى ؟ ، كما كان يهتف ••• من الذى كان يهتف بهذا يا كوليا ؟

— نعم ••• هذه كلمات مستمدة من كتاب جوجول «النفوس الميتة»
يا أبت •

بهذا أجاب كوليا وهو يرمق أباه بنظرة سريعة قلقة •

قال الجنرال :

— النفوس الميتة ؟ آ ••• نعم •• الميتة ! ••• حين ستدفنوتنى ،
اكتب على قبرى : « هنا ترقد نفس ميتة ! » •
« العار يلاحقنى فى كل مكان »

— من قال هذا يا كوليا ؟

— لا أعرف يا ابتاه !

— يا روبياجوف لم يوجد ! يا روشكا ياروبياجوف !••

كذلك صاح يقول الجنرال بلهجة حاتقة وهو يقف فى وسط الشارع • وتابع كلامه قائلاً :

— ان ابنى ، ابنى نفسه هو الذى يكذبنى هذا التكذيب •
ياروبياجوف الذى ظل لى أخاً حقاً خلال أحد عشر شهراً ، والذى من أجله خضت تلك المباراة ••• لقد قال له رئيسنا الأمير فيجورسكى ،

ذات يوم ، بينما كنا نشرب : « اسمع أنت يا جريشا * ! وددت لو أعرف من أين حصلت على صليبك ، صليب القديسة آنا ؟ » فأجابه قائلاً : « من ساحات معارك وطني انما حصلت عليه ! » . وهتفت أنا أقول : « مرحى يا جريشا ! » . فكان ذلك سبب مبارزة . ثم تزوج ماريا بتروفنا سوتوجين ، وقتل بعد ذلك في ميدان القتال لقد وثبت رصاصة عن الصليب الذي كنت أحمله على صدري ، وثبت الى جبينه فقتلته . وهتف قائلاً قبل أن يموت : « لن أنسى أبداً » ثم سقط ميتاً . اننى خدمت خدمت وطني بشرف يا كوليا ، خدمت وطني بنبل واخلاص ولكن « العار يطاردني فى كل مكان ! » . ستأتان أنت وأمك الى قبرى نينا المسكينة ، كذلك كنت أسميها فى الماضى يا كوليا ، منذ زمن طويل ، فى الآونة الأولى ، وكان ذلك يسرها نينا ! نينا ! ماذا صنعت بحياتك ؟ كيف يمكنك أن تحيينى ، أيتها النفس الصابرة المنزعجة ؟ ان أمك لها نفس ملاك يا كوليا . هل تسمعنى ؟ ان لها نفس ملاك !

— أعرف هذا يا بابا ! حييى بابا ! فلنمد الى البيت ، الى ماما ! لقد أرادت أن تركض وراءنا . لما تردد ؟ لكأنك لا تدرك كفى يا بابا ! لماذا تبكى ؟

وكان كوليا نفسه يبكى ويلثم يدي أبيه .
قال له أبوه :

— أتلتهم يدي أنا ؟

— نعم ، يدك أنت ، يدك أنت ! أتى هذا ما يدهش ؟ كفى ، كفى ! ما بالك تبكى فى وسط الشارع ، أنت الجنرال ، أنت المقاتل ، أنت رجل الحرب ؟ تعال !

— بارك الله فيك يا بنى الصغير ، لأنك ما تزال تحترم أباك الشيخ الساقط ، رغم العار ، رغم العار الذى يجعله ! أسأل الله أن يجعل لك

ولدا مثلك ... « ملك روما » * ... اه ... « ألا فلتحل لعنة الله على هذا المنزل ! » •

صاح كوليا مندفعاً يقول :

– ولكن ماذا جرى ؟ ماذا حدث ؟ لماذا أصبحت لا تريد ان تعود الى البيت ؟ هل فقدت عقلك ؟

– سوف أشرح لك ، سوف أشرح لك ... سوف أقول لك كل شيء • لا تصرخ ، والا سمعنا الناس ... « ملك روما » * .. أواه ! اننى احس باشمزاز وحزن •

« أين قبرك يا من اوضعتنى ؟ »

من قائل هذا يا كوليا ؟

– لا أعرف من ذا الذى أمكن أن يقول هذا الكلام • فلنذهب فوراً الى البيت ، فوراً ! • لآقطن جانياً ارباً ارباً اذا لزم الأمر ... ولكن الى أين تمضى أيضاً ؟

كان الجنرال يجبره نحو درجات المدخل من منزل مجاور •

– الى أين تذهب ؟ ليس هذا البيت بيتنا !

كان الجنرال قد جلس على درجات المدخل جاذباً اليه كوليا من يده ، ودمدم يقول له :

– احن على ، احن على ... سأقول لك كل شيء ... سأشرح لك عارى ... ميل على ... اصنع بسمك الى ... سأقول لك ذلك فى أذنيك •

صاح كوليا يقول مرتاعاً ، ولكنه يصيح بسمعه مع ذلك :

– ماذا أصابك ؟ ما الذى حل بك ؟

قال الجنرال مدمماً وهو يرتجف ارتجافاً شديداً :

— « ملك روما ، ... »

— ما هذا الذى تقول ؟ ماذا دهاك حتى أخذت تحدث عن ملك روما طول الوقت ؟ ... ما معنى هذا ؟ .

عاد الجنرال يتمتم قائلاً وهو يتشبث بكنف « صغيره » مزيداً من التشبث :

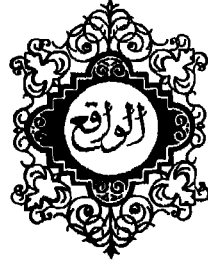
— أ ... أ ... أريد ... أريد أن أقول لك كل شيء ... ماريا ... ماريا ... بتروفنا ... سو ... سو ... سو ...

تخلص كوليا من عنقه وأمسكه من كنفه ونظر اليه مشدوهاً •
كان المعجوز قد احمر وجهه احمراراً شديداً ، وازرقت شفتاه وأخذت تلم بوجهه تشنجات خفيفة • وتهاوى فجأة متهاكاً على ذراعى كوليا برفق •
فأعول كوليا صارخاً فى اتجاه الشارع :

— سكتة قلبية •

لقد أدرك الواقع أخيراً •

الفصل الخامس



أن باربارا آرداليونوفنا ، حين حدث أخاها ،
 قد بالفت بعض المبالغة في ادعاء الصحة والدقة
 للمعلومات التي توافرت لديها عن خطبة الأمير
 وآجلايا ايباتشيننا . من الجائز أيضاً أن تكون
 من شدة حسرتها على تبدد حلم ساورها (حلم لعلها لم تصدقه هي
 نفسها في يوم من الأيام) لم تستطع أن تمنع نفسها عن التمتع بتلك اللذة
 التي يستطيعها الطبع البشرى وهي لذة تضخيم الشقاء الذي ألمَّ والكارثة
 التي نزلت ، وأن تسكب في قلب أخيها قطرة جديدة من مرارة .
 ومهما يكن من أمر ، فانها ما كانت لتستطيع أن تحصل من صديقاتها ،
 الآنسات ايباتشين ، على معلومات تبلغ ذلك المبلغ من الوضوح والدقة .
 فان الأمر قد اقتصر على اشارات ، وجمل ناقصة لم تكتمل ، ووقفات عن
 الكلام وصمت ، وألغاز أسرار . من الجائز كذلك أن تكون أختا آجلايا
 قد اندفعتا متعمدتين في البوح ببعض الأمور بغية أن تستدرجا باربارا
 آرداليونوفنا الى الكلام وأن تستخرجا منها شيئاً . وليس بالمستبعد على كل
 حال أن تكونا قد انقادتا لتلك اللذة التي يستطيعها طبع النساء فناكدتا
 صديقتيهما قليلاً رغم أنها من صديقات طفولتهما حقاً . فلا بد أنهما قد
 أدركتا ، بعد كل ذلك الوقت ، الهدف الذي كانت تسعى إليه المرأة
 الشابة ، أو بعض هذا الهدف على الأقل .

ومن جهة أخرى ، فلعل الأمير قد أخطأ هو نفسه ، ولو عن سلامة

نية ، حين زعم للبيديف أنه ليس ثمة ما ينقله اليه أو يبلغه اياه وأن حياته لم يطرأ عليها أى شىء خاص • الواقع أن كل واحد كان ازاء ظاهرة غريبة • لا شىء حدث فعلاً ، ولكن جميع الأمور تجرى كما لو كان قد حدث أمر هام جداً • ذلك ما حزرته باربارا آرداليونوفنا بما تملك من غريزة المرأة وصدق حدسها الذى لا يخطئ •

من الصعب جداً مع ذلك أن نعرض عرضاً منطقياً كيف أدرك جميع أفراد أسرة ايبانتشين ، فى وقت واحد ، أن حدثاً هاماً قد طرأ على حياة آجلايا وأنه سيقدر مصيرها • ولكنهم ، منذ أن قامت هذه الفكرة فى أذهانهم ، قد أحسوا جميعاً ، على الفور ، أنهم كانوا قد توقعوا هذا الأمر بل تنبأوا تنبؤاً واضحاً بهذا الاحتمال الذى أصبح جلياً منذ حادثة « الفارس الفقير » ، وربما قبل ذلك ؟ غير أنهم كانوا يرفضون فى ذلك الألوان أن يصدقوا سخافة كهذه السخافة •

ذلك ما كانت تؤكده أختا آجلايا • وطبعى أن اليزابت بروكوفينا كانت قد تنبأت بكل شىء وفهمت كل شىء قبل غيرها ، « حتى أن قلبها شعر من ذلك بألم شديد » • ولكن سواء أكان ذلك الادراك النافذ قد تأتى لها منذ مدة طويلة أم قصيرة ، فإن الأمير قد أصبح لا يوقظ فى ذهنها الا فكرة منفرة غير محببة ، لأنها فكرة تحيّر عقلها • كان هناك سؤال يقتضى حلاً على الفور • ولكن المسكينة اليزابت بروكوفينا لم تكن عاجزة عن حل هذا السؤال حلاً حاسماً فحسب بل كانت عاجزة كذلك حتى عن طرحه على نفسها طرحاً واضحاً • ان الأمر خرج دقيق : « هل الأمير زوج مناسب للفتاة أو لا ؟ هل المشروع حسن أم هو سئ ؟ واذا كان سيئاً (وذلك ما كان يبدو ثابتاً لا سبيل الى الشك فيه) فلماذا هو سئ ؟ واذا كان حسناً (وهذا يبدو ممكناً كذلك) فما هو الأساس الذى يمكن بناء هذا الحكم عليه ؟ » •

أما رب الأسرة ، ايفان فيدوروفتش ، فقد أظهر دهشته في أول الأمر طبعاً ، ثم اعترف يقول انه « في الحقيقة قد اشتبه هو أيضاً في المسألة وانه كان يحس أن هناك شيئاً ما ، طوال تلك المدة ، ولو من حين الى حين أو في الفينة بعد الفينة ! واذ شعر بثقل نظرة قاسية كانت زوجته تلقيها عليه ، سكت عن الكلام ولم يزد شيئاً . ولكن ذلك لم يدم الا نهاراً ، ذلك أنه اذ خلا الى امرأته في المساء ورأى نفسه مضطراً الى أن يتكلم ، عزم على أن يشرح ما بنفسه ، وتجراً فأبدى آراء لم تكن متوقعة . قال : « ما هو الأمر في الواقع ؟ » (برهة صمت) ... لا شك أن هذا كله عجيب غريب اذا صحَّ أنه صادق فعلاً ... (برهة صمت أخرى) ... ومن جهة ثانية ، اذا نظرنا الى الأمور نظرة سليمة وواجهناها مواجهة صحيحة ، رأينا أن الأمير فتي طيب جداً ، والله ! ... ثم ... ثم ... انه يحمل اسماً ينتمى الى أسرتنا . وذلك كله من شأنه ... أن يعلى مقام اسمنا في المجتمع ... من وجهة نظر المجتمع طبعاً ... لأن ... على كل حال ... المجتمع هو المجتمع ! ... ثم ان الأمير ، مهما يكن من أمر ، يملك ثروة ، وان لم تكن ثروة طائلة ... انه ... و ... و ... »

هنا نضبت بلاغة ايفان فيدوروفتش ونفدت فصاحته ، فسكت عن الكلام .

وئارت نائرة اليزابت بروكوفينا وخرجت عن طورها اذ رأت زوجها ينظر الى الأمور هذه النظرة . كان رأيها أن كل ما جرى انما هو « حماقة لا يمكن اغفارها ، بل حماقة مجرمة ، بل خيالات سخيفة دنيئة . » . فمن جهة أولى يجب أن نتذكر أن هذا « الأمير الصغير رجل مريض ، رجل أبله . ويجب أن نتذكر من جهة ثانية أنه انسان غبي لا يعرف المجتمع ولا يستطيع أن يكون له فيه مكان : لمن تقدمه ؟ الى أين ندخله ؟ هذا شخص ديموقراطي غير لائق ، محروم من كل رتبة

طبقية ... ثم ... ثم ... ما عسى تقول بيلوكونسكايا ؟ أهذا هو الزوج
الذى حلمنا به لابتنا آجلانيا ؟ » •

وكانت هذه الحجة الأخيرة قاطعة دامنة بطبيعة الحال • لقد كان قلب
الأم ينزف ويرتعش حين تخطر ببالها هذه الفكرة التى تستهطل دموع
عينيها ، رغم أن ذلك القلب نفسه ، كان يصعد منه ، فى اللحظة نفسها ،
صوت يسألها : « فى أى شىء لا يستحق الأمير أن يكون الصهر المنشود ؟ »
كانت اعتراضات ضميرها نفسه هى التى ثبت فى اليزابت بروكوفينا أكبر
الهم وأشد القلق •

أما أختنا آجلانيا فكانتا لا تنظران الى زواج آجلانيا بالأمير نظرة
سيئة ، حتى لقد كانتا لا تريان فيه أية غرابة • الخلاصة أنهما كان يمكن
أن تتحازا الى تأييد هذا الزواج انحيازاً مبالغاً لولا أنهما عاهدتا نفسيهما
على التزام الصمت • يجب أن نذكر أن المحيطين باليزابت بروكوفينا
كانوا قد لاحظوا منذ زمن طويل أنها على قدر اصرارها وعنادها وحماسها
فى محاربة مشروع من المشروعات العائلية التى يجرى حولها نقاش ،
يكون اقتناعها فى كثير من الأحيان بصواب هذا المشروع •

وكان لا يمكن اعفاء الكسندرا ايفانوفنا من أن تقول شيئاً • لقد
ألفت أمها منذ مدة طويلة أن تستشيرها وتستصحها ، فها هى ذى ما تنفك
تستوضحها رأيها ، وتسألها عن ذكرياتها خاصة : « كيف جرت الأمور
حتى وصلت الى ما وصلت اليه ؟ لماذا لم يلاحظ أحد شيئاً من قبل ؟ كيف
لم يجر كلام حول هذا الموضوع ؟ ماذا كانت تعنى تلك المزاحة الدنيئة عن
« الفارس الفقير » ؟ لماذا قُضى عليها ، هى اليزابت بروكوفينا ، أن تنفرد
بحمل الهم عن الجميع ، أن تلاحظ كل شىء ، وأن تدرك كل شىء ،
بينما لا يزيد الآخرون على أن ينظروا الى الأمور بغير اكتراث ؟ »
النخ النخ النخ ...

استمرت ألكسندرا ايفانوفنا على تحفظها في أول الأمر ، واكتفت بأن ذكرت أنها توافق أباه على رأيه في أن زواج أمير من أسرة ميشكين وآتسة من آل ايباتشين أمر يمكن أن ينظر اليه المجتمع نظرة احترام كبير ؛ ثم تشجعت شيئاً فشيئاً وتجاوزت فأضافت الى ذلك أن الأمير ليس رجلاً « محدود العقل » ولا كان محدود العقل في يوم من الأيام ؛ أما عن وضعه الاجتماعى فلا أحد يستطيع الآن أن يعرف الأسس التى قد بنى عليها المجتمع ، بعد بضع سنين ، رأيه في قيمة رجل من الرجال في روسيا ، لا ولا يستطيع أحد أن يعرف هل ستقاس قيمة الرجل في المستقبل بما يحققه من نجاح في وظيفة رسمية أم هى ستقاس بمقياس آخر . فسرعان ما أجابت الأم غاضبةً بأن ألكسندرا فتاة « تحررية » وأن الذنب في ذلك كله انما هو ذنب تلك القضية المشثومة التى يسمونها قضية المرأة . • وما انقضى نصف ساعة حتى مضت اليزابت بروكوفينا الى المدينة ، ومنها ذهبت الى كامنى أوستروف * لترى بيلوكونسكايا التى كانت قد وصلت الى بطرسبرج منذ برهة وجيزة ولكنها لا تنوى أن تمكث فيها الا وقتاً قصيراً . • لقد كانت الأميرة بيلوكونسكايا عرابة آجلايا .

أصفت « السيدة العجوز » الى جميع مسارات اليزابت بروكوفينا ، المحموعة اليايسة ، ولكنها بدلاً من أن تؤثر فيها تلك الدموع السخينة التى ذرفتها الأم الحزينة ، وتلك المخاوف الشديدة التى عبرت عنها الزائرة اليايسة ، لم تزد على أن ألقت نظرة ساخرة مستهزئة . • لقد كانت الأميرة بيلوكونسكايا تتصف باستبداد واضح وطفيان قوى . وكانت ترفض أن تساوى بينها وبين الأشخاص الذين تربطها بهم ولو صداقة قديمة . • وكانت تتعمد أن تعامل اليزابت بروكوفينا معاملتها لامرأة هى « حاميتها » * ، كما كانت تفعل ذلك قبل خمسة وثلاثين عاماً ، ولاستطيع أن تألف ما تبديه هذه من أوضاع فيها اندفاع واستقلال . • وقد لاحظت ،

فيما لاحظت ، أن « هاته السيدات يضخمن الأمور دائماً ، فيجعلن من الذبابة فيلاً ويتصورن الحبة قبة » . ان ما سمعته الآن من الزبات بروكوفينا لا يكفي لاقناعها بأن حادثاً هاماً خطير الشأن قد حدث فعلاً . أليس من الأفضل للمرء أن يصبر ويتنظر فيرى ما يجرى به المستقبل ؟ وكان من رأيها أن الأمير « شاب لائق ، وان يكن مريضاً وخيالياً وتافهاً الى أقصى حدود التفاهة ؟ وأنكى ما في الأمر أنه يعول خيلة » . ادركت الزبات بروكوفينا حق الادراك أن الأميرة بيلوكونسكايا كانت مثالة من الاخفاق الذي منى به أوجين بافلوفتش رغم أنها زكته وأوصت به خيراً .

عادت الزبات بروكوفينا الى بافلوفسك وهي أشد حنقاً وأقوى احتياجاً منها حين تركتها ، وسرعان ما أظهرت ذلك لذويها حين قالت لهم « انهم قد فقدوا عقولهم » ، وان احداً لا يسرّ أمره بهذه الطريقة ، وان ما تراه لا وجود له الا في بيتها . « لماذا هذا التعجل ! ماذا جرى ؟ اننى ، مهما أبحث ، لا أجد أى سبب يدعو الى أن نظن أن شيئاً قد وقع بالفعل ! فاصبروا وانتظروا فتروا الأحداث بالأعين ! ان أشياء كثيرة يمكن أن تخطر بال ايفان فيدوروفتش ! هل يجب أن نجعل من الذبابة فيلاً وأن تصور الحبة قبة ؟ » ، النخ النخ النخ ...

وكانت النتيجة هي أن عليهم أن يسكنوا وأن يواجهوا الموقف بهدوء وأن يصبروا . ولكن الهدوء لم يدم عشر دقائق ، وا أسفاه ! فان قصة ما جرى في الليلة البارحة ، بينما كانت الأم فى كامنى أوستروف ، سببت أول اخلال بالقاعدة التى نصحت بها الأم وهي هدوء الأعصاب . (ان زيارة الزبات بروكوفينا للأميرة بيلوكونسكايا قد تمت فى الصباح . وفى العشية انما كان الأمير قد جاء بعد نصف الليل ظاناً أن الساعة هي

العاشرة) • فحين ساءلت الأم بنتها محموعةً عن هذا الموضوع ذكرت لها أختا آجلانيا تفاصيل كثيرة • لقد قالتا فى أول الأمر « ما من شيء حدث البتة » ثم مضتا تسردان ما وقع • قالتا ان الأمير جاء • فجعلته آجلانيا ينتظر نصف ساعة قبل أن تظهر له • ثم ما ان دخلت حتى اقترحت عليه أن يلعبا بالشطرنج • وكان الأمير لا يعرف هذه اللعبة فسرعان ما غلب • وفاضت نفس آجلانيا فرحاً بهذا الانتصار ، فمَيرته بجهله ، وبلغت من الضحك عليه أن منظره أصبح يثير الشفقة • ثم اقترحت عليه أن يلعبا بالورق لعبة « المهبول » ، غير أن ما حدث هذه المرة كان تقيض ما حدث قبل ذلك : فان الأمير كان يجيد هذه اللعبة كما يجيدها ••• استاذ ! كان فيها أستاذاً حقاً ! وقد لجأت آجلانيا الى الفش والاحتيال فكانت تبذل أوراقها خلسةً ، وكانت تسترق النظر الى أوراقه ، ورغم ذلك كله كانت تظل هى « المهبول » ••• وتكرر هذا خمس مرات أو ستاً • فغضبت آجلانيا غضباً شديداً حتى فقدت كل سيطرة لها على نفسها ، وأخذت تصب على رأس الأمير الفاظاً تبلغ من الغلظة والنبو والوقاحة أنه كف عن الضحك ، بل اصفر وجهه اصفراراً شديداً حين سمعها تقول « انها لن تطأ قدماها هذه الغرفة ما كان هو فيها ، وان مجيئه اليهن ، فى منتصف الليل ، كان وقاحةً منه بعد كل ما جرى * » • وقد قالت آجلانيا هذا الكلام ثم خرجت من الغرفة صافقةً وراءها الباب صفقاً أحدث قرعة شديدة • فانصرف الأمير بوجه كوجه الموتى صفرةً رغم كل ما بذلته الأختان من جهود للملاطفة ومواساته والتسرية عنه •

وبعد انصرافه برقع ساعة عادت آجلانيا تنزل من الطابق الأعلى الى الشرفة فجأةً ، وقد بلغت من السرعة والعجلة فى نزولها أنها لم يتسع وقتها حتى لمسح عينيها اللتين يرى فيهما الناظر آثار دموع • وانما هرعت هابطةً هذا الهبوط السريع لأن كوليا قد جاء ومعه قنفذ • فأخذت البنات

جميعاً تنظر في الحيوان الصغير • وسألته عن القنفذ فقال انه ليس له بل لرفيقه بالمدرسة كوستيا ليديف ، وانهما قد اشتريا من فلاح صادفاه ، كما اشتريا من هذا الفلاح في الوقت نفسه فأساً • وقد بقي كوستيا في الشارع لأنه لم يجرؤ أن يدخل حاملاً فأسه • وكان الفلاح في أول الأمر لا يريد أن يبيع الا القنفذ ، وقد طلب خمسين كوبكاً ثمناً له ، ولكنهما أقنعا بأن يبيع أيضاً فأسه التي يمكن أن تنفعهما والتي كانت فأساً جيدة كل الجودة على كل حال •

أخذت آجلانيا تضرع الى كوليا أن يبيعهما القنفذ فوراً ، وبلغت من الحاحها أنها خاطبته بقولها : « عزيزى كوليا » ، وقد قاوم الفتى مدة طويلة ، لكنه لم يصد الى النهاية ، فنادى كوستيا ليديف ، فصعد هذا حاملاً فأسه بيده ، مرتبكاً أشد الارتباك • وعلم عندئذ على حين فجأة أن القنفذ ليس لهما ، وانما هو لرفيق ثالث من رفاق المدرسة اسمه بتروف عهد اليهما بمبلغ صغير من المال ليشتريا له به « تاريخ » شلوسر * الذى كان رفيق رابع يحاول أن يبيعه بثمان بخص لحاجته الى المال • فلما مضى الى شراء الكتاب استسلما للغواية أثناء الطريق ، فاشتريا القنفذ ، فهما الآن يأتیان بتروف بالحيوان والفأس بدلاً من أن يأتياه بكتاب التاريخ الذى ألفه شلوسر • لكن آجلانيا بلغت من عنادها فى الاصرار على أخذ القنفذ • أن الصبيين لم يسعهما الا ينصاعا لها فباعاها القنفذ • فما ان امتلكته حتى وضعت بمساعدة كوليا فى سلة مضمفورة وغطته بمنشفة وعهدت الى تلميذ المدرسة بأن يحمله الى الأمير على الفور راجية منه أن يقبله « هدية » تعبّر عن عميق تقديرها له • • فقبل كوليا أن يقوم بهذه المهمة مسروراً ، ووعد بأن يتولى انفاذاها على أحسن وجه ، ولكنه أسرع يسأل آجلانيا عما تعنيه هذه الهدية ، الى أى شىء يرمز القنفذ ؟ فأجابته آجلانيا بأن هذا ليس من شأنه ، فرد قائلاً ان هدية كهذه الهدية لا بد أن يكون لها دلالة

رمزية، ففضبت آجلابا وقالت له انه صبي شقى مغتّر ، لا أكثر من ذلك .
فأجابها قائلاً : لولا أنه يحترم فيها المرأة ولولا أن مبادئه تصدّه لأراها
فوراً كيف يستطيع أن يردّ اهانة كهذه الاهانة . ولكن ذلك لم يمنعه
أخيراً من أن يقوم بالهمة متحمساً ، فمضى يحمل القنفذ الى الأمير ووراءه
كوستيا ليديف . ولم تحقد عليه آجلابا . فحين رآته يهز السلة هزاً
قوياً صاحت تقول له : « أرجوك يا عزيزى كوليا ، حذار أن تسقط السلة
من يدك ! » . وكذلك كان شأن كوليا ، فانه هو أيضاً قد نسى انهما قد
تشاجرا منذ قليل ، وأسرع يقف ليجيها متحمساً بقوله : « لا ، لن أضع
للسلة أن تسقط من يدي يا آجلابا ايفانوفنا . اطمئنى بالآ ! » ثم استأنف
سيره بخطى واسعة . وانفجرت آجلابا تضحك ، وعادت تصعد الى غرفتها
مشرقة الوجه منبسطة الأسارير ، ولبت على هذه الحال من انشراح
المزاج طوال النهار .

هزّت هذه الأنباء الزيات بروكوفينا هزاً قوياً وشت في نفسها
اضطراباً شديداً . ولم يكن ثمة داع الى ذلك فيما يبدو . ولكن حالتها
النفسية كانت لا تتيح لها أن ترى الأمور رؤية أخرى . لقد بلغ قلقها
ذروته . وكان القنفذ هو الذى يذكى هذا القلق خاصة . ما معنى ارسال
القنفذ الى الأمير ؟ أليس هذا اشارة متفقاً عليها ؟ أليس اصطلاحاً يضمّر
معنى خبيثاً ؟ فما هو معناه اذن ؟ هل هذا نوع من البرقية ؟ وقد حضر
المسكين ايفان فيدوروفتش مسالة بنتيه ، فلما أدلى بدلوه محاولاً
الاجابة ، أخرج الزيات بروكوفينا عن طورها أخيراً . قال ان ارسال
القنفذ لا يشتمل فى رأيه على أية رسالة متفق عليها . والأبسط من هذا
ان نقول ان « القنفذ قنفذ لا أكثر ، وقد يرمز الى الصداقة ، أو الى نسيان
الاساءات ، أو الى المصالحة ، وليس ارساله ، على كل حال ، الادعابة
بريئة ومزاحاة طارئة » .

يجب أن نذكر ، عابرين ، أن الجنرال كان على صواب • فان الأمير قد عاد الى بيته ، بعد أن أهاتته آجلها وطردته ، مستسلماً لأعمق اليأس ، فلما رأى كوليأ على حين فجأة بعد نصف ساعة من حزن شديد وكرب مظلم ، أضاءت السماء فوراً أمام عينيه ، فكأنه بُعث الى الحياة بعثاً جديداً بعد موت • وأخذ يسائل كوليأ متلقفاً كل كلمة تنفرج عنها شفتا الصبي ، مكرراً السؤال الواحد عشر مرات ، ضاحكاً كطفل ، شاداً على يدي التلميذين في كل لحظة ، وكان الصبيان يضحكان هما أيضاً ، وينظران اليه فرحين كل الفرحة • ان هناك أمراً أصبح ثابتاً محققاً لا مراء فيه : هو أن آجلها قد صفحت عنه وغفرت له فأصبح في وسعه أن يعود اليها في هذا المساء نفسه • كان هذا هو الأمر الأساسي في نظره ، بل كان هذا أكثر من ذلك أيضاً ، كان هذا عنده كل شيء !

وصاح يقول أخيراً وهو في ذروة الفرحة والنشوة :

– كم نحن أطفال حتى الآن يا كوليأ !... و ... وما أحسن أن يكون المرء طفلاً !... !

فأجابه كوليأ بلهجة تعبّر عن السلطة والسطوة وخطورة الشأن :

– انها هائلة بحبك ... ذلك هو الأمر كله يا أمير !

فاحمر وجه الأمير ، لكنه لم يجب هذه المرة بكلمة واحدة • وأخذ كوليأ يضحك صافقاً يديه احدهما بالأخرى • فما هي الا لحظة حتى شاركه الأمير مرحه ؛ وأخذ ، منذ ذلك الحين حتى المساء ، ينظر في ساعته كل خمس دقائق ليرى كم مضى من الزمن وكم من الوقت بقي عليه أن ينتظر •

ولنعد الى اليزابت بروكوفينا • لقد تغلبت حالتها النفسية في تلك اللحظة على كل شيء • أصبحت لا تستطيع السيطرة على نفسها ، وأوشكت

أن تصيها نوبة عصبية • وها هي ذى ، رغم اعتراضات زوجها وبشيتها ، ترسل فى طلب آجلايا فوراً لتلقى عليها سؤالاً أخيراً ولتحصل منها على جواب واضح قاطع شافٍ • « يجب أن نفرغ من هذه القضية مرة واحدة ، فلا نتكلم عنها بعد اليوم أبداً » • قالت ذلك ثم أضافت : « والا فلن أظل حية الى هذا المساء ! » وعندئذ انما أدرك الجميع مدى البلبلة التى بلغتها الأمور • وقد استحال انطاق آجلايا بكلمة واحدة ؛ فانها لم تزد على أن أظهرت دهشة عميقة ، فاستياءً شديداً ، ثم انفجرت ضاحكة ، وتهكمت على الأمير ، واستهزأت بجميع الذين كانوا يسألونها • ومضت اليزابت بروكوفينا الى سريرها لتضطجع قليلاً ، ثم لم تعد الى الظهور الا ساعة الشاى ، فى اللحظة التى يفترض أن الأمير يصل فيها • فكانت ترتعش من شدة الانفعال بانتظار مجيء الأمير ، حتى اذا وصل أوشكت أن تصاب بنوبة عصبية •

أما الأمير فقد دخل خائفاً وجللاً ، كمن يخطو متلمساً طريقه فى الظلام • وكان يتسم ابتسامة غريبة وهو ينظر الى الحضور حتى لكأنه يسألهم لماذا لا يرى آجلايا فى الغرفة • لقد دُهِش أشد الدهشة حين لاحظ منذ وصوله أن الفتاة غائبة • وكان الجمع لا يضم الا أهل الدار فما من غريب بينهم • حتى الأمير « شتت • • • » ، كانت قد احتجزته فى بطرسبرج أمور نشأت عن وفاة عمّ أوجين بافلوفتش • وقد أسفت اليزابت بروكوفينا على غيابه • « لو كان هنا لوجد شيئاً يقوله حتماً ! » • وكانت هيئة ايفان فيدوروفتش تدل على هم عميق وغم شديد • وكانت أختا آجلايا رصيتين رزيتين تلتزمان الصمت كأنهما تعاهدتا على ذلك • لم تعرف اليزابت بروكوفينا من أى طرف تبدأ الحديث • وها هي ذى تفرغ غضبها فجأةً بمناسبة الكلام على السكك الحديدية ، وترشق الأمير بنظرة تحمل معنى التحدى •

واأسفاه ! ان آجلانيا لم تجيء بعد ، فها هو ذا الأمير يحس بأنه ضائع هالك ! كان يشعر بارتباك شديد وحيرة بالغة ، وحاول بتمتمة مضطربة أن يقول ان اصلاح شبكة السكك الحديدية يمكن أن يكون ذا فائدة كبيرة ، ولكن آديلايد أخذت تضحك على حين فجأة ، فاذا هو يرى نفسه أعزل مرة أخرى ، فقد انتزع منه هذا الضحك كل سلاح • وفي تلك اللحظة دخلت آجلانيا هادئة رصينة وقورة ، فردت على تحية الأمير رداً فيه أبهة واحتفال ، ومضت تجلس ببطء مهيب في أبرز مكان مرموق حول المائدة المستديرة • ثم ألقت على الأمير نظرة مستفهمة سائلة • فأدرك الجميع أن لحظة تبديد جميع أنواع سوء التفاهم قد حانت •

قالت آجلانيا تسأل الأمير بلهجة واقعة توشك أن تشتمل على قسوة :
- هل وصلك قنفذى ؟

فأجاب الأمير وقد احمر احمراراً شديداً وشعر بانهايار :
- نعم •

- فقل لنا على الفور ماذا ترى في هذا • ذلك أمر لا بد منه ولا غنى عنه حتى يهدأ بال أمى ، وحتى يهدأ بال أسرتنا كلها •
فهتف الجنرال فجأة يقول بقلق :

- آجلانيا ... ما هذا الكلام ؟
وأردفت اليزابت بروكوفينا تقول مرتاعة :
- هذا يتجاوز كل حد من الحدود !
فردت الفتاة على كلام أمها تقول بشيء من الشدة :

- ليست المسألة مسألة حدود يا ماما • لقد بعثت اليوم الى الأمير قنفذاً ، فأريد الآن أن أعرف ما الذى يراه هو فى هذا من رأى • اننى مصغية اليك يا أمير •

قال الأمير يسألها :

— ماذا تقصدين بكلمة « الرأى » هنا يا آجلالا ايفانوفنا ؟

— أقصد رأيك فى أمر ارسال القنفذ اليك طبعاً !...

— بتعبير آخر ... أنا أقدر يا آجلالا ايفانوفنا ... أنك تريدين

أن تعرفى كيف استقبلت أنا فكرة ارسالك القنفذ الى ... أى كيف

نظرت الى الأمر ... أعنى كيف فمحت مسألة إرسال قنفذ ... فإذا

صدق ظنى ، فأننى افترض ... باختصار ...

وانقطعت أنفاسه فصمت *

فاستأنفت آجلالا استجوابها قائلة له بعد خمس ثوان :

— هيه ... ما أراك قلت شيئاً ذا بال !... طيب ... أنا أوافق على

أن ندع أمر القنفذ جانباً * ولكن يسرنى ويرىحنى أن أستطيع أخيراً أن

أضع حداً لجميع اللباسات التى تجمعت حتى الآن وتراكم بعضها فوق

بعض * فاسمح لى أن أعرف من فمك أأنت تنوى أن تخطبنى

للزواج أم لا ؟

صاحت اليزابت بروكوفينا تقول :

— آه ... رياه !...

وارتتش الأمير وقام بحركة تقهقر الى وراء * وتجمد ايفان

فيدوروفتش شدهاً * وقطبت الأختان حواجبهما *

— لا تكذب يا أمير * قل الحقيقة ! انهم بسبيك يصدعوننى بأسئلة

غريبة * فهل لاستفساراتهم وتحقيقاتهم هذه من أساس يقوم عليه ؟ تكلم !

أجاب الأمير وهو يتحسس فجأة :

— أنا لم أطلبك للزواج يا آجلالا ايفانوفنا * ولكنك ... تعرفين

بنفسك مدى حبنى لك وثقتى بك ... حتى فى هذه اللحظة ...

قالت آجلايا :

- لقد طرحت عليك سؤالاً : أتخطبني للزواج أم لا ؟

فأجاب الأمير بصوت منطفيء :

- بل أخطبك •

قال ايفان فيدوروفتش وقد انفعل انفعالاً قوياً :

- ما هكذا تُعالج هذه الأمور يا صديقي العزيز !... وأنت

يا جلاشا * اذا كان ما تريد من الوصول اليه هو هذا ، فأمرك غريب

اذن !... معذرة يا أمير ، معذرة يا صديقي العزيز •

ثم أضاف ينادي زوجته مستجداً بها :

- اليزابت بروكوفينا ... ينبغي ... ينبغي أن نفهم ...

فصاحت اليزابت بروكوفينا تقول بحركة انكار :

- أنا أرفض ... أنا أرفض ..

- اسمحي لي يا ماما أن أقول كلمتي أنا أيضاً • أعتقد أن لي حقاً

في الادلاء بصوتي في موضوع من هذا النوع : هذه لحظة حاسمة في حياتي

(تلك هي الجملة التي قالتها آجلايا بهذه الألفاظ نفسها) ، فأريد أن

أعرف أنا نفسي أين موقعي ، ويسرني عدا ذلك أن تكونوا كلكم شهوداً

على ... فاسمع لي أن أسألك اذن ، يا أمير ، ما هي الوسائل التي تنوي

أن تحقق لي بها سعادتي « ما دمت قد عقدت العزم على أن تخطبني » ؟

قال الأمير :

- الحقيقة أنني لا أعرف بماذا أجيبك يا آجلايا ايفانوفنا !... ماهو

الجواب الذي يمكن أن يجاب به عن هذا السؤال ؟ ثم ... أهذا

ضروري حقاً ؟

— انك تبدو لى مضطرباً مختنق الأنفاس ، فاسترح لحظةً واستردّ
قواك : اشرب كأساً من الماء • على أنك ستؤتى بشيء من الشاى حالاً •
— أحبك يا آجلایا ایفانوفنا ، أحبك كثيراً ••• ولا أحب غیرك •
لا تمزحى ، أرجوك • أنا أحبك كثيراً •

— ولكن القضية قضية هامة • نحن لسنا أطفالاً ، ويجب أن ننظر
الى الأمر نظرة وضعية ••• هلاًّ تفضلت فذكرت لنا الآن مقدار الثروة
التي تملكها !

تمتم ایفان فیدوروفتش يقول مشدوهاً :
— كفى ! كفى يا آجلایا ! ماذا أصابك ؟ ما هكذا •• لا •• لا •••
حقاً ! •••

وهمست الیزابت بروكوفینا تقول بصوت يمكن أن يُسمع :
— يا للعار !

وأضافت ألكسندرا تقول بتلك اللهجة نفسها :

— هى مجنونة •

وسألها الأمير مدهوشاً :

— ثروتى ؟ تقصدين المال الذى أملكه ؟

— نعم ، تماماً •

تمتم الأمير يقول وقد احمر وجهه :

— أملك •• أملك الآن مائة وخمسة وثلاثين ألف روبل •••

فقال آجلایا معبرة عن دهشتها بصراحة دون أن تحجر البتة :

— لا أكثر ؟ على كل حال ، ليس هذا بالأمر الهام كثيراً اذا عرف

المرء كيف يقصد فى نفقاته ••• هل تنوى الحصول على وظيفة ؟

- كنت أريد أن أقدم امتحاناً لأصبح معلم أطفال •
 - فكرة عظيمة • هذه وسيلة مضمونة لزيادة مواردنا • هل يمكنك
 أن تصبح من رجال البلاط ؟
 - من رجال البلاط ؟ لم أفكر في هذا من قبل قط ، ولكن ...

نفدت قدرة الأختين في هذه المرة على كظم ما في نفسيهما فانفجرتا
 تضحكان ضحكاً تحاولان خنقه • كانت ألكسندرا قد لاحظت منذ مدة ،
 من بعض التقبضات العصبية في وجه آجلایا ، علامات ضحك تحاول
 آجلایا حبسه ولكنه لن يلبث أن ينطلق انطلاقاً لا سبيل إلى مغالته •
 وأرادت آجلایا أن تصطنع هيئة تهديد ازاء ضحك أختيها ولكنها لم تستطع
 أن تتمالك نفسها ثانية واحدة فاستسلمت لنوبة ضحك مجنون يوشك أن
 يكون هسترياً • ثم نهضت في النهاية بوثبة واحدة ، وخرجت من الغرفة
 راكضة •

هتفت آديلايد تقول :

- كنت أعلم حق العلم أن ذلك كله سينتهي بانفجارات ضحك •
 لقد تنبأت بذلك منذ البداية ، منذ حكاية القنفذ •
 فصاحت اليزابت بروكوفينا تقول وقد اعترتها نوبة غضب شديد :
 - لا ، هذا لن أسمع به ، لن أسمع به •
 واندفعت في اثر آجلایا •

وتبعها بتأها مسرعين • ولم يبق في الغرفة الا الأمير ورب الأسرة •
 قال الجنرال بقتة ، ولكن دون أن يبدو عليه أنه يعرف هو نفسه
 ماذا يريد أن يقول على وجه الدقة :
 - اسمع يا ليون نيقولايفتش ، هل كان يمكنك تصور شيء كهذا ؟
 لا ، حقاً لا ... هه ؟

أجاب الأمير حزيناً :

— أرى أن آجلًا يا ايفانوفنا قد سخرت منى وضحكت على •

— انتظر يا صديقي ، سأذهب الى هناك • ابق انت هنا ••• لأن ••
 قل لى أنت على الأقل يا ليون نيقولايفتش كيف وقع ذلك كله وما معنى
 هذا الأمر فى جملة ان صح التعبير ؟ عليك أن تعترف يا صديقي اننى
 أنا الأب • ومع ذلك ، رغم اننى الأب ، فانتى لا أفهم من الأمر شيئًا البتة !
 فأشرح لى أنت على الأقل !

— اننى أحب آجلًا يا ايفانوفنا ؟ وهى تعرف ذلك ••• تعرفه منذ
 زمن طويل فيما أظن •

رفع الجنرال منكبيه • وقال :

— غريب ••• غريب !••• وهل تحبها كثيرًا ؟

— أحبها كثيرًا •

— غريب • هذا كله يبدو لى غريبًا • أقصد ••• مفاجأة كهذه
 المفاجأة ••• حب مباغت كهذا الحب ••• اسمع يا صديقي ••• أنا ليست
 الثروة هى التى تهمنى (رغم اننى كنت أقدر أن تكون ثروتك أكبر
 كثيرًا من المبلغ الذى ذكرت) ••• ولكننى أفكر فى مستقبل ابنتى •••
 الخلاصة •• هل أنت قادر ، ان صح التعبير ، على أن تحقق لها تلك ••
 السعادة ؟ ثم ••• ما هو الأمر ؟ أمزاحة منها أم تصريح صادق ؟ عنك
 أنت لا أتكلم • ولكن ماذا من جهتها ؟

فى تلك اللحظة سُمع صوت ألكسندرا ايفانوفنا وراء الباب : كانت
 الفتاة تتأدى أباه •

— انتظرنى يا صديقي العزيز ، انتظرنى • انتظر وفكر ، سأرجع
 حالاً •

وركض يلبي نداء ألكسندرا شبه مذعور •

فوجد هنالك امرأته وابنته تذرفان دموعاً غزيرة وقد ارتمت كل
منهما فى ذراعى الأخرى • كانت دموعهما دموع سعادة ، وحنان ،
ومصالحة • وكانت آجلالاً تقبّل يدى أمها وخديها وشفتيها • كانت
المرأتان تحضن كل منهما الأخرى بحرارة •
قالت اليزابت بروكوفينا مخاطبة زوجها :

— هى ذى يا ايفان فيدوروفتش ، انظر اليها الآن ، انها هى ، انها
هى بكاملها !

حوّلت آجلالاً وجهها عن صدر أمها • انه مبلل بالدموع ولكنه
مشرق بالسعادة • نظرت الى أبيها ، وانطلقت تضحك ضحكة رنانة ، ثم
اندفعت نحوه فاحتضنته بذراعيها احتضاناً شديداً وقبّلت عدة مرات • ثم
ارتمت على أمها من جديد ، فدفت وجهها فى صدرها حتى لا يراه أحد ،
وعادت تبكي • ففطنتها أمها بطرف شالها •

— هيه ! ماذا ؟ انك لتديقتنا الوائاً من العذاب ايتها البنت الصغيرة
القاسية !

كذلك قالت الأم لابنتها ، ولكنها قالت هذا الكلام فى هذه المرة مع
تعبير عن الفرح ، حتى وكأنها تتنفس بحرية أكبر •
فصاحت آجلالاً تقول فجأة :

— قاسية ! نعم ، قاسية ! أنا فتاة شريرة ، طفلة أفسدها الدلال !
قولى هذا الكلام لأبى ! ••• هو ذا هنا • أأنت هنا يا بابا ؟ هل
سمعت ؟

بهذا خاطبت أباه ضاحكة من خلال الدموع •
فقال الجنرال وقد أسكرته النشوة وراح يلثم يد ابنته :

- عزيزتى ... مبدوتى ! أأنت تحيين اذن هذا ... الفتى ؟
فصرخت آجلايا تقول فجأة وهى تنصب رأسها :
- كلا ثم كلا ثم كلا !... أنا لا أطيقه .. فتاك هذا ! لا أطيقه !
واذا تجرأت أن تقول لى مرة أخرى يا بابا ... اعرف أنتى أكلمك
جادة لا هازلة . هل سمعت ؟ انتى أكلمك جادة !
وكانت آجلايا تتكلم جادةً بالفعل ، حتى لقد كانت محمرة أشد
الاحمرار وكانت عيناها قدحان شرراً .
صمت الأب مرتاعاً ، ولكن اليزابت بروكوفينا أوامت له من وراء
آجلايا ، فأدرك أن تلك الایعامة تعنى « أن عليه أن لا يسألها عن شىء »
قال :
- إذا كان الأمر كذلك يا ملاكى فليكن ما تشائين . افعل ما يحلو
لك . ولكنه ينتظر هناك وحيداً . أقلل يجب افهامه بالحسنى واللفظ أنه
لم يبق له إلا أن ينصرف ؟
وأوما الجنرال لامرأته ، هو أيضاً ، بغمرة من عينيه .
قالت الفتاة :
- لا ، لا ، لا داعى الى هذا . لا لزوم لاصطناع « اللطف » .
امض اليه انت . وسأجىء بعدك فوراً ، سوف أستغفر هذا ... الشاب ،
لأننى أسأت اليه .
قال ايغان فيدوروفتش مزايداً بهيئة جادة رصينة :
- بل أسأت اليه اساءةً بالغة .
- اذن ... فابقوا جميعاً هنا . أذهب اليه أنا أولاً ، ثم تلحقون
بى فوراً . هذا أفضل .

فما ان وصلت الى الباب حتى استدارت فجأة وقالت لهم بلهجة
حزينة :

- أحس أنتى سوف أضحك • أحس أنتى سوف احترق شوقاً الى
الضحك ورغبةً فيه !

ولكنها لم تلبث أن عادت تسعى الى الأمير راکضة •
سأل ايفان فيدوروفتش امرأته متعجلاً :

- هيه ؟ على أى شىء يدل هذا ؟ ما رأيك ؟

فأجابته اليزابت بروكوفيتنا بتلك اللهجة المتعجلة نفسها :

- أخاف أن أقول رأيى • الأمر فى نظرى واضح •

- وهو واضح فى نظرى أنا أيضاً • واضح كالنهار • انها تحب •

- بل قولاً انها مولّثة حباً ! ولكن ألم يكن فى وسعها أن تجد
خيراً منه زوجاً ؟

كذلك قالت الكسندرا ايفانوفنا •

قالت اليزابت بروكوفيتنا :

- اذا كان هذا هو قدرها فليباركها الله !

قال الجنرال مؤيداً :

- نعم ، هذه هى الكلمة : انه قدرها • ولا مفرّ للانسان من قدره !

وعاد الجميع الى الصالون حيث كانت تنتظرهم مفاجأة جديدة •

ان آجلانيا ، حين لقيت الأمير ، لم تضحك كما كانت تخشى ذلك ؟

حتى انها خاطبته بلهجة تكاد تكون نخجلى • قالت له :

- اغفر لفتاة حمقاء طائشة ، لطفلة أفسدها الدلال (قالت له ذلك

وتناولت يده) ، وثق ثقة تامة بأننا جميعاً نحمل لك احتراماً كبيراً • فاذا

كنتُ قد سمحت لنفسى بأن أجعل براءتك الطيبة وسذاجتك الكريمة محلَّ استهزاء وتهكم ، فاصفح عنى ولا تعدد ذلك منى الابعثاً من عبث الأطفال . اغفر لى اننى ألححت على أمر سخيف لا يمكن تحقيقه طبعاً ..

قالت آجلایا هذه الكلمات الأخيرة بنبرة خاصة .

وقد دخل الأب والأم والأختان الى الصالون فى اللحظة المناسبة تماماً ، فسمعوا تلك الجملة التى أذهلتهم : « أمر سخيف لا يمكن أن يتحقق طبعاً ... » . وقد ذُهلوا خاصةً من اللهجة الجادة التى قالت آجلایا بها تلك الجملة . فنظرت الأعین الى الأعین يسأل بعضها بعضاً . ولكن الأمير لم يكن يبدو عليه أنه فهم ، وكان مشرق الوجه متهملاً الأسارير .

ودمدم يقول :

— لماذا تتكلمين هكذا ؟ لماذا ... أنت ... تستغفرتينى ؟

حتى لقد أراد أن يضيف أنه ليس جديراً بأن يُستغفر . من يدري ؟ لعله كان قد أدرك معنى تلك الجملة : « أمر سخيف لا يمكن أن يتحقق طبعاً » . ولكن طبيعة فكره كانت خاصةً جداً بحيث أن تلك الكلمات نفسها لعلها غمرتة فرحاً . وما من شك فى أنه قد بلغ ذروة السعادة منذ قدّر أنه سيكون فى وسعه أن يعود فىرى آجلایا ، وأنه سيُسمح له بأن يكلمها ، وأن يبقى الى جانبها ، وأن يتزهد فى صحبتها . لعل هذا الأمل وحده كان يكفيه لحياته كلها ! (ولقد كان يبدو على اليزابت بروكوفينا أنها تخشى بغيريتها ذلك الطبع المسامر الذى أدركته فيه ، فكانت تشعر بمخاوف صميمة ما كان لها أن تستطيع الافصاح عنها) .

يصعب على المرء أن يصف ما أظهره الأمير فى ذلك المساء من حرارة وحماسة وتآلق وسطوع . لقد بلغ من المرح أن مرحه انتقل الى

أولئك الذين كانوا يرونه • هذا ما قالته أختنا آجلانيا فيما بعد • لقد كان متدفقاً في الكلام ، وذلك أمر لم يحدث له منذ ستة أشهر ، أى منذ ذلك الصباح الذى تعرف فيه الى آل ايباتشين • ولقد كان واضحاً أنه منذ عودته الى بطرسبرج قد قرر عامداً أن ينطوى على نفسه وأن يلتزم الصمت • حتى انه قبل ذلك المساء بزمان قصير قد قال للأمير « شئت • • » على مرأى ومسمع من الجميع انه يعتقد أن عليه أن يلتزم الصمت ، لأنه لا يحق له افساد الفكر والخط من قدره بسوء أسلوبه فى التعبير • أما فى ذلك المساء فانه كاد يكون الشخص الوحيد الذى تكلم • كان حاضر البديهة طلق اللسان يجيب عن جميع الأسئلة بوضوح كامل واتشراح تام وافاضة مسهبة • ومن جهة أخرى ، لم يشتمل حديثه على أى شيء يشف عن عواطف حبه • انه فى البداية لم يعبر الا عن أفكار جديدة وآراء رصينة كانت فى بعض الأحيان عويصة • وأبدى كذلك ملاحظات شخصية ونظرات خاصة • ولقد كان يمكن أن يكون هذا كله محل هزء وتهكم لولا أن الأمير كان يتكلم « بلغة منتقاة » ويعبر عن فكره بالفاظ مختارة ، كما شهد له الحضور بذلك فيما بعد •

ولئن كان الجنرال يجب حديث المواضيع الجدية ، فقد وجد هو واليزابت بروكوفيتسا أن أحاديث الأمير مسرفة فى الجد ، حتى أن وجهيهما قد تجهما قيل نهاية السهرة •

ولكن الأمير بلغ من الانتعاش والحيماً أنه أخذ يروى فى النهاية حكايات فكهة ونوادر مضحكة كان هو أول من يضحك لها ، فبأخذ الآخرون يضحكون لا لأن الحكايات والنوادر مضحكة فحسب ، بل كذلك لان عدوى المرح كانت تسرى اليهم منه قوة لا تغالب •

أما آجلانيا فانها لم يكذب يفتر نغرها عن ابتسامه طوال السهرة •

ولكنها في مقابل ذلك لم تنقطع عن الاصغاء الى الأمير لحظة واحدة
وكانت تتأمله بنهم ما ينفك يشتد ويقوى •

قالت اليزابت بروكوفينا لزوجها :

— انظر كيف تتأمله ! انها لا تحوّل بصرها عنه لحظة • انها تشرب
كل كلمة من كلماته • انها كالفتونة أو كالمسحورة • فاذا قال لها أحد
انها تحبه قلبت الدنيا رأساً على عقب ، وجعلت كل شيء غاليه سافله •
أجاب الجنرال قائلاً وهو يرفع منكبيه :

— ما العمل ؟ هذا هو القدر !

وظل الجنرال مدة طويلة يكرر هذا الجملة التي كان يجب أن
يردها •

يجب أن نضيف الى هذا أن الجنرال ، من حيث هو رجل أعمال ،
كان ينتظر نظرة عدم الارتياح الى كثير من جوانب الموقف الراهن ،
ولا سيما خلوه من الوضوح • ولكنه كان قد قرر أن يصمت ، وأن يفكر
في الأمور على نحو ما تفكر • • • اليزابت بروكوفينا •

لم تدم نشوة الأسرة الامدة قصيرة ، ففي الغداة وقعت بين آجلايا
وبين الأمير مشاجرة جديدة ، وتكرر ذلك في كل يوم من الأيام التي
تلتها • فكانت آجلايا تظل تستهزئ بالأمير وتسخر منه حتى لتكاد تعامله
كما يعامل مهرّج •

صحيح أنهما كانا في بعض الأحيان يتنزهان في الحديقة تحت
العريشة • ولكن لوحظ أن الأمير كان في مثل هذه الأحوال يقرأ لها
جريدة أو كتاباً طول الوقت تقريباً •

وبينما كان يقرأ لها الجريدة ذات يوم ، قاطعته قائلة :

— غريب ! لقد لاحظت منذ مدة طويلة أن ثقافتك ناقصة نقصاً يدعو

الى الأسف الشديد حقاً ؟ فإذا سئلت عن أمر من الأمور عجزت عن أن تقول ماذا فعلت الشخصية الفلانية ، ومتى وقع الحادث الفلاني ، وما هو موضوع الكتاب الفلاني . ذلك أمر يدعو الى الشفقة عليك والراء لك فعلاً .

فأجابها الأمير :

ـ قلت لك ان حظى من التعليم ضئيل .

ـ فعماذا بقى لك اذن ؟ اى اعتبار يمكن أن أحمله لك بعد هذا ؟

هياً واصل القراءة ، بل كفى الآن ، اكفف عن القراءة .

وفى ذلك المساء نفسه أثارت أزمة جديدة سريعة بدت للجميع لغزاً لا يفهم . فحين عاد الأمير « شتت . . . » ، أظهرت له كثيراً من المودة واللفظ ، وسألته طويلاً عن أوجين بافلوفتش (لم يكن الأمير ليون نيقولايفتش قد وصل بعد) . وفجأة أباح الأمير « شتت . . . » لنفسه أن يلمح الى « تغير جديد قريب سيحدث فى الأسرة » ، وذكر فكرة كانت قد أفلتت من اليزابت بروكوفينا هى أنه ربما كان من الأفضل ارجاء زواج آديلايد قليلاً لىتم الاحتفال بالزفافين فى آن واحد معاً . فلما سمعت آجلانيا هذه الكلمات غضبت غضباً شديداً فظيماً لا يتصوره الخيال ، ووصفت هذا كله بأنه « اقتراضات سخيفة » ، بل مضت الى أبعد من ذلك فقالت فيما قالت : « انها لا تتنوى أن تحل محل خليلات أى انسان » .

فوجيء الجميع بهذه الكلمات ، وفوجيء بها الأوبان خاصة . وألحت اليزابت بروكوفينا ، أثناء اجتماع سرى مع زوجها ، على ضرورة أن يسأل الأمير ايضاحاً حاسماً فى أمر ناستاسيا فيليوفا .

فحلف ايفان فيدوروفتش على أن ما قالته آجلانيا لم يكن الا « اندفاعاً » أثارها فيها شعور بالحياء و « الحفر » ؛ وأن هذه الاندفاع

ما كان لها أن تحدث لولا أن الأمير « شتد » تكلم عن الزواج ، لأن آجلانيا تعرف هي نفسها حق المعرفة أن الكلام عن علاقة بين الأمير وناستاسيا فيليوفنا ليس الانميمة كاذبة ، وأن ناستاسيا فيليوفنا ستزوج روجوين . وأضاف الجنرال الى ذلك أن الأمير لا شأن له في هذا الموضوع كله ، وأن الصلة التي زعم بعضهم أنها قامت بينه وبين ناستاسيا لا وجود لها الآن ، بل ولم يكن لها وجود في يوم من الأيام اذا أردنا أن نقول الحقيقة كلها .

أما الأمير فانه لم يفقد شيئاً من صفاء مزاجه وبهجة نفسه وظل يتمتع بهنائه وسعاده . صحيح أنه كان يلاحظ في بعض الأحيان تعبيراً عن الحزن وعن نفاد الصبر في عيني آجلانيا ، ولكنه كان يمزو هذا التعبير الى بواعث أخرى ، فكانت هذه السحابة تغيب عن بصره من تلقاء نفسها . كان قد اقتنع فلا يمكن أن يززع اقتناعه شيء . ولعله قد غلا في هدوء البال وطمأنينة النفس ، وهذا على الأقل ما شعر به هيوليت الذي لقيه ذات يوم في الحديقة العامة .

لقد استوقف هيوليت الأمير يومئذ وبدأ كلامه بأن قال له :

— هيه ! ألم أكن على حق يومَ قلت لك انك مولّه حياً ؟

فمدَّ الأمير اليه يده وهنأه على أن وجهه يدل على تحسن صحته . وكان يبدو على المريض نفسه أنه استرد بعض أمله وشجاعته ، وذلك ما يحدث للمصدورين في كثير من الأحيان .

ولقد كان هيوليت يتنوى خاصة ، حين اقترب من الأمير ، أن يقول له كلاماً جارحاً عن هيئة السعادة التي تبدو عليه . ولكنه سرعان ما زايته هذه الفكرة وأخذ يتكلم عن نفسه ، فأفاض في ارسال الشكايات تلو الشكايات متكررة لا نهاية لها ولا اتساق بينها . وختم كلامه قائلاً :

- لا تستطيع أن تتصور مدى ما يتصفون به هناك من شدة النزق والصغار وسرعة الاحتياج وقوة الأثرة وحب الظهور وتفاهة النفوس . هل تصدق أنهم قبلوا ايوائى على شرط صريح هو أن أموت بأقصى سرعة ممكنة . لذلك تراهم الآن غاضبين غضباً شديداً لأننى لم ألفظ آخر أنفاسى بل تحسنت صحتى . يا للمهزلة ! أراهن على أنك لا تصدق كلامى !

امتنع الأمير عن الاجابة .

وأضاف هيوليت يقول باهمال :

- حتى ليخطر ببالى أحياناً أن أعود أسكن عندك ! أنت لا تصدق اذن أنهم لا يتورعون عن ايواء انسان بشرط أن لا يتأخر موته ، هه ؟ قال الأمير :

- كنت أتصور أنهم حين دعوك اليهم كانوا يسمعون الى هدف آخر وينفذون خطة أخرى .

- هىء هىء ! ما أنت بالبسيط الى الحد الذى يحلو للناس أن يزعموه ! لم يحزن الحين بعد ، والا لكشفت لك بعض الأمور عن جانبها الصغير هذا وعن الآمال التى تملأ رأسه . انهم يحاولون نسفك يا أمير . وهم يبذلون فى سبيل ذلك جهوداً كبيرة لذلك يشفق عليك المرء ويرئى لحالك حين يراك تنام نوماً هادئاً هذا الهدوء . ولكن من المؤسف أنك لا تستطيع أن تكون غير هذا ! سأله الأمير ضاحكاً :

- أهذا ما يجعلك ترئى لحالى ! هل ترى اذن اننى أكون أسعد حالاً اذا كنت أكثر قلقاً ؟

- خير للانسان أن يكون تيساً و « عارفاً » ، من أن يكون سعيداً و مخدوعاً . يبدو أنك لا تخشى منافسة من تلك الجهة ، هه ؟

– ان تلميحائك الى المنافسة فيها شيء من الاستهتار يا هيوليت •
يؤسفنى أنتى لا يحق لى أن أجيبك • أما جبريل آرداليونوفتش ، فلا بد
أن تسلّم لى بأنه يصعب عليه أن يحافظ على الهدوء بعد كل ما فقد ، هذا
اذا كنت تعرف شئونه ولو بعض المعرفة • يخيل الىّ أن من الأفضل أن
يُنظر الى الأمور من هذه الزاوية • ما يزال فى وسعه أن يصلح نفسه •
ان أمامه سنين طويلة ، وان الحياة غنية بالدروس غنى لا حدود له •••
على أن ••• على أن •••

هنا أخذ الأمير يتم متلعثماً وقد فقد تسلسل أفكاره فجأة ، فقال :
– ••• أما مسألة نفسى ••• فانى لا أفهم حتى ماذا تقصد •
الأفضل ترك هذا الحديث يا هيوليت •

– لتتركه الآن • لا سيما وأنك لا تستطيع أن تستغنى عن اظهار
كرمك والتدليل على سماحتك • نعم يا أمير ، أنت لا بد لك من أن تلمس
بيدك • وهبك لمست بيدك فانك لن تصدق • ها ها ! ••• ولكن قل لى :
ألا تحقرنى الآن احتقاراً عميقاً ؟

– لماذا ؟ لأنك تألم وتألم أكثر منا جميعاً ؟

– لا ، بل لأننى غير جدير بالامى •

– ان من أمكنه أن يتألم أكثر من الآخرين هو بهذا نفسه جدير
بتلك الزيادة من المحن • حين قرأت آجلايا ايفانوفنا اعترافك ، تمت أن
تراك ، ولكن •••

قاطعه هيوليت ، كأنما ليغتر مجرى الحديث بأقصى سرعة ، قاطعه
قائلاً :

– انها ترجى ••• ذلك مستحيل عليها ••• أفهم ، أفهم ! •••
بالمناسبة : يقال انك أنت الذى قرأت لها ، بصوت عالٍ ، كل تلك الثروة

المشوشة المضطربة • الحق أننى كُتبت ما كُتبت ... وفعلت ما فعلت ، فى نوبة هذيان • اننى لا أتصور كيف يستطيع امرؤ أن يكون - لا أقول قاسياً (فلو قلت ذلك لكنت أذل نفسى) بل أقول صيانياً ومعتراً وحقوقاً الى الحد الذى يمكنه فيه أن يؤاخذنى على هذا الاعتراف وأن يستعمله سلاحاً ضدى ! لا تخف ، فلست أتكلم عنك أنت ...

- ولكن يؤسفنى أن أراك تتبرأ من تلك الأوراق يا هيوليت ، فان فيها نبرة صدق واضحة ! حتى الفقرات السخيفة منها وهى كثيرة (هنا صغر هيوليت وجهه) ، انما يكفر عنها الألم ، لأن الادلاء بهذه الاعترافات قد أوجب هو نفسه مواجهة الألم أيضاً ... ولعله كان فعلاً كبيراً من أفعال البسالة . لا شك أن الفكرة التى انقذت لها كانت تستوحى عاطفة نبيلة ، مهما تكن المظاهر • كلما فكرت فى هذا مزيداً من التفكير ، اقتنعت به مزيداً من الاقتناع ، أحلف لك • اننى لا أحكم عليك • اننى أقول لك رأى ؟ ويؤسفنى اننى صمتُ حينذاك ...

احمر وجه هيوليت • وقد خطر بباله فى لحظة من اللحظات أن الأمير يهزل ، وأنه يمد له شباكاً أو ينصب له فخاً • ولكنه تأمل وجهه فلم يسهه الا أن يؤمن بأنه صادق مخلص • فعاد الهدوء الى أسارير وجهه • وقال :

- ويجب أن أموت !

وأوشك أن يضيف الى ذلك قوله : « كيف يجوز أن يموت رجل مثلى ؟ » • لكنه أمسك ، وتابع كلامه يقول :

- لا تستطيع أن تتخيل مدى القسعية التى يحدثها فى نفسى صاحبك جانبا ؟ لقد اعترض على ذات يوم قائلاً ان الذين سمعوا اعترافى قد يكون بينهم ثلاثة أو أربعة سيموتون قبل ! يا لها من فكرة ! هو يظن

أن هذا يمزيني • ها ها • هم أولاً لم يموتوا بعد • ثم هبهم نفقوا
 قبل فعلاً ، فلا شك أنك تسلم لي بأن ذلك لا يسرني غنى كثيراً • انه
 يقيس الناس بنفسه • على أنه مضى الى أبعد من ذلك أيضاً • لقد شتني
 قائلاً ببساطة : ان على المرء في مثل هذه الحالة ، اذا كان يحترم نفسه ،
 أن يموت صامتاً ، وان هذه القضية كلها لا تشتمل من جانبي الا على
 أنانية ! لقد غلا قليلاً ، هه ؟ والحق أن الأنانية فيه هو ! ما أنعم أنانية
 أمثال هؤلاء الناس ، بل قل ما أكثف أنانية أمثال هؤلاء الناس الذين
 لا يشعرون مع ذلك بأنهم أنانيون ! ••• هل قرأت ، يا أمير ، شيئاً عن
 موت رجل اسمه ستيفان جليوف * في القرن الثامن عشر ؟ لقد وقع
 تحت بصرى أمس مصادفة •••

— من هو ستيفان جليوف هذا ؟

— هو رجل رفيع على الخازوق في عهد بطرس الأكبر •

— آ ••• رباة ! عرفت من هو ! لقد ظل على الخازوق خمس عشرة
 ساعة ، في برد شديد ، لا يغطيه الا معطف على كتفيه ، ثم مات صامداً
 بقوة نفسية خارقة • نعم قرأت هذا ••• ولكن ما الذي تريد أن تقوله ؟

— أسأل الله أن يهب لبعض الناس ميتةً كذلك الميتة ! ولكن أن
 لا يهبها لنا نحن • أتراك تظن مع ذلك أنني غير قادر على أن أموت كما
 مات جليوف ؟

قال الأمير مرتبكاً :

— لا ، لا ، أبداً ••• كل ما أردت أن أعبر عنه هو أنك ••• بل
 قل انني لم أرد أن أزعج أنك لا تشبه جليوف ، وانما أردت أن أشير
 الى أنك ••• في ذلك الزمان يمكن أن •••

– حذرت : تريد أن تقول اننى فى ذلك الزمان يمكن أن أكون
مثل أوسترمان * لا مثل جليوف • أليس هذا ما تريد أن تقوله ؟

سأله الأمير مدهوشاً :

– أىَّ أوسترمان ؟

فتمتم هيوليت يقول متحيراً :

– أوسترمان ، الدبلوماسى أوسترمان ، الذى عاصر بطرس الأكبر •

وتبع ذلك صمت فيه ارتباك •

ثم قال الأمير بلهجة بطيئة بعد لحظة تأمل :

– لا ، ليس ذلك ما أردتُ أن أقوله • ليس يخيّل الى أنه يمكن
أن تكون مثل أوسترمان •••

اكفهر وجه هيوليت •

فأسرع الأمير يضيف مستدركاً :

– على كل حال ، سأقول لك الآن لماذا قامت فى ذهنى هذه الفكرة •
ان أناس ذلك الزمان (ويمينا ان هذا قد خطف انتباهى دائماً) كانوا
يختلفون اختلافاً كبيراً عن أناس العهد الذى نعيش فيه • لكنهم كانوا
من جنس آخر • نعم ، حقاً ، لكنهم ينتمون الى نوع انسانى غير النوع
الذى تنتمى اليه نحن • فى ذلك الزمان ، كان الانسان انسانَ الفكرة
الواحدة ان صح التعبير • أما معاصرونا فلأن أعصابهم أكثر توتراً ، ولأنهم
أكثر تطوراً وأشد حساسية فهم يستطيون أن يتبعوا فكرتين أو ثلاثاً فى
آن واحد ••• ان الانسان الحديث أوسع وأرحب • وانى أؤكد لك أن
هذا هو ما يمنعه من أن يكون كتلة واحدة متسقة الجوانب كما كان انسان

القرون الخوالي ... اننى ... اننى لم أقل كلامى الا بهذا المعنى ،
وليس ...

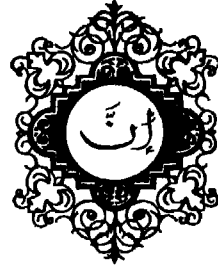
— انك تحاول الآن أن تعزىنى عن معارضتك اياى بتلك السذاجة .
هاً ها ! ... انك لطفل تماماً يا أمير ! على وجه العموم ، ألاحظ أنكم
جميعاً تعاملوننى كما يعامل فنجان من خزف ... لا بأس ! ... لست
أزعل . على كل حال ، لقد جرى حديثنا مجرى مضحكاً ! ... أنت فى
بعض الأحيان طفل حقاً يا أمير . واعلم من جهة أخرى يا أمير اننى
كنت أطمح فى أن أكون شيئاً أفضل من أوسترمان . لا يستحق العناء أن
يُبعث المرء حياً من بين الأموات فى سبيل أن يكون رجلاً مثل أوسترمان
... وعلى كل حال يجب فى رأى أن أموت بأقصى سرعة ممكنة ، والا
لرأيتنى أتمنى أنما نفسى أن ... دعنى ! الى اللقاء ! ولكن قل لى : ماهى
فى رأىك أفضل مية ؟ أقصد ... ما أقرب مية الى الفضيلة فى نظرك ؟
عجيب ! لماذا لا تجيب ؟

قال الأمير بصوت عذب :

— مُرَّ بقرىنا وأنت تغفر لنا سعادتنا !

— ها ها ها ! هذا بعينه ما كنت أفكر فيه ! لقد توقعت كلاماً من
هذا النوع حتماً ! ومع ذلك ، فانك ... فانك ... هياً .. هياً ...
طيب ! آه ! يا للناس البلغاء ! الى اللقاء ! الى اللقاء !

الفصل السادس



النبا الذي نقلته باربارا آرداليونوفنا الى أخيها
كان صحيحاً كل الصحة : ستقام سهرة في قبالا
آل ايباتشين ، ومن المتوقع أن تحضرها الأميرة
بيلوكونسكايا • لقد وجهت الدعوات لذلك

المساء فعلاً • لكن باربارا تكلمت في الأمر ، على عادتھا ، بحرارة تزيد
قليلاً عن الحد اللازم • صحيح أن السهرة قد تقررت بسرعة متعجلة ،
ووسط اضطراب شديد لا محل له • ولكن مردّ ذلك الى أنه « لا شيء
في هذه الأسرة يتم كما يتم في غيرها » ؛ وكل شيء يُفسّر بنفاد الصبر
لدى اليزابت بروكوفينا التي كانت « لا تريد أن تبقى في الشك » ، كما
يُفسّر بما يعانيه الأبوان من قلق وهم وخوف على سعادة ابنتهما الحبيبة •

ثم ان الأميرة بيلوكونسكايا كانت على وشك أن تسافر فعلاً ؛ واذ
أن لحمايتها وزناً كبيراً في المجتمع ، واذ كان المأمول أن تهتم كثيراً
بالأمير ، فقد كان الأبوان يعوّنان على ما تنعم به تزكيه « السيدة العجوز »
من قدرة كبيرة على فتح أبواب المجتمع الراقى أمام خطيب آجلایا • فاذا
كان في هذا الزواج جانب غير طبيعي أو غير عادی كان في وسع الحماية
التي تسبغها الأميرة بيلوكونسكايا عليه أن تخفي ذلك الجانب • ولقد
كانت عقدة العقد لدى الأبوين أنهما كانا لا يستطيعان أن يفصلا في هذا
السؤال : « هل يشتمل هذا الزواج على شيء غير طبيعي ، والى اى حد ؟
أم هو طبيعي جداً فلا غرابة فيه ؟ » • لذلك فان الرأي الصريح الصديق

الذى يمكن أن يقدمه أشخاص لهم قيمتهم وكفائتهم ووزنهم يمكن أن يكون موائياً جداً فى هذا الأوان الذى لم يُبرم فيه شئ حاسم بعد ، بفضل موقف آجلایا •

وعلى كل حال كان لا بد من ادخال الأمير ، عاجلاً أو آجلاً ، الى المجتمع الراقى الذى لا يعرف الأمير عنه شيئاً حتى الآن • ففى وسعك أن نقول بتعبير آخر ان المراد كان هو « عرض » الأمير • على أن ذلك لا ينفى أن السهرة ستحتفظ بطابع البساطة ، وأنها لن تضم الا « أصدقاء للأسرة » عددهم محدود جداً • والى جانب الأميرة بيلوكونسكایا كان يؤمل حضور زوجة شخص مرموق هو رجل من كبار أصحاب المناصب العليا • أما من بين الشبان فكان لا يُنتظر الا حضور أوجين بافلوفتش الذى كان عليه عند حضوره أن يرافق الأميرة بيلوكونسكایا •

ولقد علم الأمير ، قبل ثلاثة أيام ، أن هذه السيدة ستجىء ، لكنه لم يسمع عن السهرة الا قبل موعدها بيوم واحد • وقد لاحظ طبعاً ما كان يبدو على أفراد الأسرة من انشغال ، وأدرك من بعض الاشارات أنهم ليسوا واثقين بأنه سيحدث فى نفوس الناس أثراً حسناً • ولكن أفراد أسرة ايباتشين جميعاً كانوا يعدونه عاجزاً من شدة سذاجته وبساطته عن ادراك أنواع القلق التى يحدثها لهم ، لذلك كانوا فى قرارة أنفسهم ينظرون اليه شاعرين بغم وخوف •

أما هو فكان لا يكاد يهتم أى اهتمام بهذا الحديث ، وكان ما يشغل باله غير هذا تماماً • ان آجلایا تزداد نزقاً وجهامة وتكثر نزواتها ساعة بعد ساعة • فكان ذلك يقتله قتلاً • ولما علم أن أوجين بافلوفتش سيحضر الاستقبال أيضاً ، أظهر فرحاً شديداً وقال انه يود أن يراه منذ مدة طويلة • فاذا بهذه الكلمات ، لسبب لم يستطع أن يدركه ، تسوء الجميع وترعجهم ، واذا بآجلایا تخرج من الغرفة غاضبة • وفى وقت متأخر

من الليل ، بعد الساعة الحادية عشرة ، بينما كان الأمير بهم أن ينصرف ،
انتهزت آجلآيا هذه الفرصة فأعادته لتقول له بضع كلمات فى خلوة :

— أود أن لا تنجىء الينا غداً طوال النهار ، وأن لا تظهر الا فى
المساء ، بعد أن يلتئم شمل جميع المدعوين • هل تعرف أننا نقيم استقبالا ؟
قالت آجلآيا هذه الكلمات بلهجة فيها تملل وقسوة • هذه أول
مرة تشير فيها الى « السهرة » • كانت هى أيضاً تكره فكرة السهرة هذه
ولا تكاد تطيقها • لقد لاحظ الجميع ذلك • ولعلها كانت تشعر برغبة
مسعورة فى أن تختلق مشاجرة مع أبويها فى هذه المناسبة ، غير أن
شعوراً بالكبرياء والحياء صدّها عن ذلك • وقد أدرك الأمير فوراً أنها
توجس هى أيضاً بعض المخاوف فى شأنه ، لكنها لا تريد أن تعترف
بالداعى إليها والباعث عليها • وأحسّ هو نفسه فجأة بنوع من الرعب •
قال يحييها :

— نعم ، أعلم • انتى مدعو •

وأحست بحرج من المضى الى أبعد من ذلك •

قالت له وهى تتفجر غاضبة ، دون أن تدري لماذا ، ولكن دون أن
تستطيع السيطرة على نفسها :

— هل يستطيع المرء أن يكلمك جاداً ولو مرة واحدة فى حياتك ؟

— تستطيعين ذلك • انتى مصغر اليك • يسرنى هذا •

كذلك تتمم الأمير •

فصمت آجلآيا لحظة ، ثم قررت أن تتكلم ، ولكن بنفور واضح
لا يخفى • قالت :

— لم أشأ أن أناقشهم فى هذا الأمر : هناك حالات لا يستطيع المرء
فيها أن يسمعهم صوت العقل • لعلنا كرهت بعض القواعد التى تحكم

سلوك الناس في المجتمع الراقي والتي تخضع لها ماما بل تستعبد لها استعباداً • أنا لا أتكلم عن بابا : فان المرء لا يطالبه بشيء • ولا كذلك ماما ، فان لها خلقاً نبيلاً وطبعاً يتصف بالشهامة حتماً : حاول أن تطلب منها شيئاً دنيئاً فترى ! ولكنها تنصاع مع ذلك لهذا المجتمع الدنيء الذي هو المجتمع الراقي !... لا أتكلم عن الأميرة بيلوكونسكايا : فهذه عجوز شريرة وطبيعة سيئة رديئة ؛ ولكنها تملك شكيمة قوية فتعرف كيف تمسكهم جميعاً بيديها • ان لها هذه الحصلة على الأقل • آه ! يا للحظة ! والأمر مضحك حقاً : لقد كنا ننتمي دائماً الى الطبقة المتوسطة ، الى الطبقة المتوسطة كل التوسط • فما بالنا نريد دفع أنفسنا الى المجتمع الراقي ؟ ان اختي تهويان هما أيضاً الى هذه الآفة • لقد أفسد عقلهما الأمير « شتشه » لماذا سررت ذلك السرور كله حين عرفت أن أوجين بافلوفتش آت ؟

قال الأمير :

- اسمعي يا آجلايا • يخيل لي أنك تخافين كثيراً أن « أتبهدل » غداً •.. في ذلك المجتمع ؟

قالت آجلايا وقد احمرت احمراراً شديداً :

- أخاف عليك ؟ لماذا يجب أن أخاف عليك ؟ هل يهمني أنا أن •• تتجمل أنت بالحزى ؟ ما شأنني أنا وهذا ؟ ثم كيف يمكنك أن تستعمل مثل هذه التعابير ؟ ما معنى كلمة « تبهدل » ؟ هذا لفظ منحط عامي مبتذل ؟

- كلمة من كلمات ••• التلاميذ •

- نعم •• كلمة من كلمات التلاميذ • كلمة بشعة • واضح أنك تتوى استعمال ألفاظ من هذا النوع في الحديث غداً • ما عليك الا أن تبحث في المعجم ، متى عدت الى البيت ، عن ألفاظ أخرى من هذا الطراز : انك بذلك تضمن لنفسك أن تحدث في أثرأ رائعاً !... خسارة أنك

تجيد الدخول الى صالون ! أين تعلمت هذا ؟ هل تستطيع كذلك أن تحسن احتساء فنجان من الشاي حين ينظر الجميع اليك لبروا كيف عسى تفعل ذلك ؟

- أحسب اننى أستطيع •

- يؤسفنى هذا : لأنه يُفقدنى فرصة التندر عليك والضحك منك •
حطّم على الأقل اناء الخزف الصينى الموجود فى الصالون • انه غالى الثمن • هلاً سررتنى فحطمته ؟ انه هدية ؟ حطّمه فتُجنّ ماما وتطفق تبكى أمام الجميع من شدة تعلقها به وحرصها عليه • قم بحركة من تلك الحركات المعهودة فيك : اخبط الاناء واكسره • تعمد أن تجلس قربه •
- بالعكس • سأحاول أن أجلس بعيداً عنه الى أقصى حد • شكراً على أنك نبهتني الى هذا •

- هذا أنت خائف منذ الآن من حركاتك وإشارات يديك الكثيرة ! وأراهن على أنك ستختار « موضوعاً » للحديث تسترسل فيه مطناً مسهباً ••• موضوعاً جدياً ، ربيعاً ، يتاح لك فيه أن تنفيق ! ما أجمل ذلك !

- أعتقد أن هذا يكون غباءً ••• اذا لم يجيء فى محله ولم يناسب المقام •

قالت أخيراً وقد نفذ صبرها :

- اسمع ما سأقوله لك الآن مرة واحدة الى الأبد : اذا تكلمت فى موضوع كموضوع عقوبة الاعدام أو الوضع الاقتصادى فى روسيا ، أو النظرية القائلة بأن « الجمال سينقذ كل شيء » ••• فسيسرني هذا ، لأنه يتيح لى أن أستهزى به واضحك منه كثيراً ، ولكننى أحتذرك منذ الآن :

إذا فعلت شيئاً من هذا فلا تظهرن أمامي بعدئذ قط ! هل تسمعنني ؟ اننى
أتكلم جادة لا هازلة ، اننى أتكلم فى هذه المرة جادة !

وقد قالت هذا التهديد بلهجة « الجدة » فعلاً • حتى لقد كان فى
أقوالها وفى نظرتها تعبير غير معهود لم يسبق للأمير أن لاحظته فيها يوماً
حتى ذلك الحين ولا يشبهه رغبة فى مزاح حتماً !

— أرى أنك تتصرفين تصرفاً سيئاً سيئاً • صاب قطعاً بنوبة « ثرثرة »
• • • وقد أكسر اناء الخزف أيضاً • منذ قليل كنت غير خائف من شيء ،
أما الآن فقد أصبحت أخاف كل شيء • أنا الآن على يقين من أننى لن
أحدث فى نفوس الحضور أثراً حسناً •

— ما عليك اذن الا أن تصمت • اجلس وابق ساكناً ساكناً •

— مستحيل • اننى مقتنع بأن الخوف سيدفعنى الى الكلام وسيجعلنى
أكسر اناء الخزف • وقد تزل قدمى فأقع على الأرض أو أرتكب أية
خرافة أخرى من هذا النوع ، فقد سبق أن حدث لى ذلك • وسأظل أحلم
بهذا طوال الليل • لماذا كلمتنى فى هذا الأمر ؟

نظرت اليه آجلايا مظلمة الوجه •

فقال الأمير بلهجة قاطعة :

— هل تعلمين ؟ اننى أفضل أن لا أجيء غداً • استمريض وكفى !

فضربت آجلايا الأرض بقدمها واصفرَّ وجهها غضباً وقالت :

— رباه ! هل رأى أحد شيئاً كهذا فى يوم من الأيام ؟ يقرر أن
لا يجيء بينما السهرة مقامة من أجله هو ! آه • • • يا رب ! • • • ما أعظمها
سعادة أن يعامل المرء رجلاً مثل • • • أن يعامل المرء رجلاً يبلغ من البعد
عن العقل ما يبلغه هذا الرجل • • •

قاطعها الأمير بقوة قائلاً :

- طيب .. طيب .. ساجيء .. ساجيء .. لك على عهد أن
أجىء وأن لا أنطق بكلمة واحدة طوال السهرة . ذلك ما سأفعله .

- وسيكون هذا حسناً جداً . ولكنك قلت منذ برهة : «سأستمرض» ،
فمن أين تجيء بأمثال هذه التعابير ؟ أأنت تتعمد تعمداً أن تكلمنى بهذه
اللغة ؟ انك تقصد مضايقتى ومناكدتى ، أليس كذلك ؟

- عفوك . هذه أيضاً كلمة من كلمات التلاميذ ! لن أستعملها بعد
الآن . أنا أفهم حق الفهم أن تساورك مخاوف فى شأنى (لا .. لا تزعلنى) ،
وهذا يسرنى سروراً عظيماً . انك لا تستطيعين أن تتصورى مدى
ما أشعر به الآن من خوف ، ومدى ما تغمرنى به كلماتك من فرح . ولكن
ذلك الخوف كله لا قيمة له . وأؤكد لك أنه سخف . شهد الله يا آجلايا
أن الفرح وحده سيقى . اننى لأحب كثيراً أن أراك طفلة الى هذا الحد ،
طفلة تبلى هذا المبلغ من نبل النفس وطيب القلب ! آه يا آجلايا ...
ما أروعك !

كانت آجلايا على وشك أن تغضب ، غير أن عاطفة كانت هى نفسها
لا تتوقها قد اجتاحت كل روحها فى تلك اللحظة على حين فجأة . قالت
تسأله بغتة :

- ألن تلومنى ذات يوم ... فى المستقبل ... على هذه الأقوال
الفضة التى خاطبتك بها الآن ؟

- دعيك من هذا ! ماذا تظنين ؟ ولكن ما لى أرى وجهك يصطبغ
بالحمرة من جديد ؟ هذه نظرتك تعود الى الاظلام ! انها مظلمة مسرفة
فى الاظلام أحياناً يا آجلايا ! لم تكن لك هذه النظرة فى الماضى . اننى
أعرف مصدر هذا ...

- اسكت ... اسكت ...

- بل الأفضل أن أتكلم . اننى أريد أن أفتحك فى هذا الأمر منذ

مدة طويلة • وقد سبق أن كلمتك فيه ••• ولكن ذلك لم يكفِ ، لأنك
لم تصدقنى • ان هناك شخصاً يقف بيننا •••
- اسكت • اسكت • اسكت • اسكت !
هكذا قاطعته آجاليا بشدة ، ممسكةً ذراعه امساکاً قوياً عنيفاً ،
وقد اعتراها نوع من الرعب •
ونوديت فى تلك اللحظة ، فتركته وولّت هاربةً ، سعيدةً بهذا
المخرج •

أصيب الأمير بحمى طوال الليل • من الغريب أن الحمى أخذت
تجتاحه كل ليلة منذ بعض الوقت • وفى هذه المرة وصل الى حالة قريبة
من الهذيان ، فكانت تحاصره هذه الفكرة : ماذا لو أصابته نوبة صرع
فى الغد أمام جميع الضيوف ؟ ألم يسبق أن أصيب بنوبات فى حالة
اليقظة ؟ جمّدت هذه الفكرة رعباً • وظل طول الليل يرى نفسه فى
سهرة مدهشة لا مثيل لها وسط أناس غرباء • ان الشيء الأساسى هو أنه
أخذ يسهب فى الثروة • كان يعرف أن عليه أن يصمت ، ومع ذلك ظل
يتكلم طول الوقت محاولاً اجبار سامعيه على شيء ما • وكان أوجين
بافلوفتش وهبوليت بين المدعويين ، وكان يبدو أن بينهما علاقة وثيقة
حميمة •

واستيقظ بعد الساعة الثامنة على صداد وأفكار مشوشة ومشاعر
غريبة • ان رغبة عارمة جامحة لا يعرف لها سبباً معقولاً تستبد الآن به ،
وهى أن يرى روجوين • لماذا ؟ ليس يدري • ثم ها هو ذا يقرر أن
يذهب الى هبوليت دون أن يكون هنالك باعث واضح على ذلك • كان
قلبه قد بلغ من الاضطراب أن جميع أحداث هذا الصباح ، رغم أنها
أحدثت فى نفسه أثراً قوياً ، لم تستطع أن تستفد كل انتباهه • ومن
بين هذه الأحداث زيارة ليديف له •

لقد جاءه ليديف في وقت مبكر ، بعد الساعة التاسعة بقليل ، وكان
تملاً بعض الشيء . كان الأمير قد لاحظ ، رغم أنه أصبح في الآونة
الأخيرة قليل الانتباه ، أن ليديف صار رث الثياب منذ غادر الجنرال
ايفولجين بيته ، أى منذ ثلاثة أيام . ذلك أمر يخطف البصر ولا يحتاج
الى ملاحظة قوية . ان ليديف شديد الوساخة والرثانة الآن ، فملابسه
ملطخة بالبقع ، ورباط عنقه مقلوب ، وياقة رندجوته فيها تمزقات . وهو
يحدث في بيته كثيراً من الصخب والجلبة حتى ليسمع زعيقه من خلال
فناء الدار . وقد جاءت فيرا الى الأمير باكية في ذات يوم ، فروت له
أموراً شتى .

أخذ ليديف يتكلم أمام الأمير بلهجة غريبة كل الغرابة ، لاطماً
صدره متهماً نفسه بفعلته سيئة لا يدرى السامع ما عسى تكون وختم
كلامه قائلاً بلهجة المأساة :

- لقد حصل . . . وتلقيت جزاء خيانتى وحطتى . . . تلقيت صفة !
قال الأمير :

- صفة ؟ ممن ؟ . . . وفي مثل هذه الساعة المبكرة ؟

فأجاب ليديف وهو يتشم ابتسامة ساخرة :

- في مثل هذه الساعة المبكرة ؟ لا شأن للساعة في الأمر . . . حتى
ولو كانت العقوبة عقوبة جسمية . . . ولكنها عقوبة معنوية . . . عقوبة
نفسية لا جسمية ، تلك العقوبة التي تلقيتها ! . . .

قال ليديف ذلك وجلس فجأة دون احتفال في هذه المرة ، وأخذ
يروى قصته . واذ كانت القصة مفككة جداً ، فقد قطب الأمير حاجبيه
وتهاى للانصراف . غير أن بضع كلمات خطفت انتباهه على حين فجأة ،
فلبث في مكانه كالمتجمد من الدهشة لقد كان السيد ليديف يروى
أموراً غريبة .

يبدو أنه تكلم في أول الأمر عن رسالة ما ، ذكر بصدد اسم
 آجلایا ایفانوفنا • ثم أخذ ، دون أى تمهيد ، يتهم الأمير نفسه بالفاظ
 مرّة ، ويفهمه أن الأمير قد أهانه ، لأنه - أى الأمير - قد شرفه فى أول
 الأمر بأن محضه ثقته فى أمور تتعلق. « بشخص » ما (يقصد ناستاسيا
 فيليوفنا) ، ثم قطع صلته به قطعاً كاملاً وأبعده ابعاداً مشيناً مهيناً ، حتى
 لقد تملص تملصاً فظاً من الاجابة عن « سؤال برىء يتعلق باحتمال
 حدوث تغير قريب فى المنزل » • واعترف ليديف وهو يذرف دموعاً من
 دموع السكارى أنه بعد تلك الاهانة أصبح لا يطبق الصبر على هذا الوضع ،
 لا سيما وأنه كان يعرف ... أشياء كثيرة ، من روجوين ، ومن ناستاسيا
 فيليوفنا ، ومن صديقة لها ، ومن باربارا آرداليونوفنا ... وحتى من ..
 من آجلایا ایفانوفنا نفسها • « تصور أن هذا حدث بواسطة فيرا ، بواسطة
 بنتى الحبيبة فيرا ، بنتى الوحيدة ... نعم نعم ... على أنها ليست وحيدة ،
 ما دام لى ثلاث بنات • ولكن من ذا الذى كتب الى اليزابت بروكوفينا
 ليطلعها على الأمور فى سرية تامة ؟ هى ، هى ! من أعلمها بجميع الوقائع
 والحركات ... المتعلقة بناستاسيا فيليوفنا ؟ هى ، هى ، هى ! من هو ذلك
 المراسل الذى لم يذكر اسمه ، هه ؟ هلاً قلت لى ان كنت تعرف ! .. ،
 صاح الأمير قائلاً :

- هل يمكن أن تكون أنت ؟ ...

فأجاب ليديف برصانة السكير وكبرائه :

- نعم أنا ! وفى هذا اليوم نفسه ، فى الساعة الثامنة والنصف ، أى
 منذ نصف ساعة ... لا بل منذ ثلاثة أرباع الساعة ، أبلغت تلك الأم
 النبيلة جداً أن هناك مغامرة ... ذات دلالة • ابلتها ذلك ببطاقة نقلتها
 اليها الخادمة من باب الخدم • فاستقبلتنى •

سأله الأمير وهو لا يصدق أذنيه :

- رأيت الزبابت بروكوفينا منذ قليل؟

- رأيتها منذ برهة ، وتلقيت منها صفة ... صفة معنوية طبعاً •
فلقد ردت الى الرسالة بل لقد رمتها في وجهي دون أن تفضها ثم
أسكتت تلايبي وأخرجتني من الغرفة ... معنوية لا جسمية •• على أنها
أوشكت أن تفعل ذلك جسماً !

- ما هي تلك الرسالة التي رمتها في وجهك دون أن تفضها ؟

- ولكن أنا لم ••• هي هي هي ! كيف لم أقل لك ذلك بعد ؟
يبدو لي أنني ذكرت لك هذا من قبل ••• المسألة هي أنني كنت قد
استلمت رسالة لأوصلها الى الرسالة اليه •••

- رسالة الى من ؟ الى من ؟

لقد كانت بعض « ايضاحات » ليديف عسيرة الفهم الى أبعد الحدود،
وكان يصعب على المرء أن يستخرج منها أي شيء • كل ما استطاع الأمير
أن يميزه هو أن الرسالة كانت قد استلمتها فيرا ليديفا من خادمة بغية أن
توصلها فيرا الى الشخص المرسل اليه ••• « كما في السابق ، كما في
السابق ، لتوصلها الى شخص معين من الشخصية نفسها (انني أطلق كلمة
«الشخص» على احدى المرأتين ، واطلق اسم الشخصية على المرأة الثانية
اشارة الى صغار الأولى ، والى الفرق الكبير بين ابنة جنرال نبيلة جداً
وبين امرأة هي عادة كاميليا) • المهم أن الرسالة قد كتبتها « واحدة »
• يبدأ اسمها بحرف آ »

صاح الأمير قاتلاً :

- أهذا ممكن ؟ أتراها كتبت الى ناستاسيا فيليوفنا ؟ ذلك
مستحيل !•••

- حصل • كل ما هنالك أن الرسائل ان لم تكن قد أرسلت الى

ناستاسيا فيليوفا فقد أرسلت على الأقل الى روجويين ، والأمران واحد
... حتى ان هناك رسالة من تلك التي يبدأ اسمها بحرف « آ » قد بُعثت
الى السيد تيرتيف ليتولى ايصالها *

أضاف ليديف هذه الجملة الأخيرة وهو يغمز بعينه ويتبسم *

واذ كان ليديف يقفز فى كل لحظة من موضوع الى موضوع
وينسى ما كان بدأ يقوله ، فقد صمت الأمير ليتيح له أن يفرغ جعبته *
غير أن هناك نقطة ظلت غامضة جداً : أكانت الرسائل تُبعث بواسطته أم
بواسطة فيرا ؟ انه حين أكد أن الكتابة الى روجويين والكتابة الى ناستاسيا
فيليوفا سيان ، قد ترك للسامع أن يفهم أن هذه الرسائل ، اذا كان ثمة
رسائل ، لا تُنقل بواسطته * فما يزال يصعب على المرء أن يعرف ما هي
المصادفة التي جعلت تلك الرسالة تقع فى يديه * أغلب الظن أنه سرقها
من فيرا بطريقة من الطرق * حتى اذا تمَّ له الاستيلاء عليها بالاختلاس
حملها الى اليزابت بروكوفينا وهو يضمن نيةً ما * ذلك هو الافتراض
الذى انتهى به الأمر الى تصويره *

صاح يقول وقد اعتراه اضطراب شديد :

- لقد فقدت عقلك !

فأجابه ليديف بشيء من المكر :

- لم أفقده تماماً أيها الأمير المعظم ... والحق أن الفكرة الأولى
التي خطرت لى هي أن أعطيك أنت الرسالة ، خدمةً لك ... لكننى
فكرت فرأيت أن هذه الخدمة أولى أن تُقدَّم هناك ، وأن من الأفضل أن
أحمل كل شيء الى علم تلك الأم التي هي أنبل الأمهات طراً ... لا سيما
وأنتى سبق أن نبهتها مرةً فى كتاب لم أذيلهُ بتوقعى ولا ذكرت فيه
اسمى * وفى البطاقة التي بعثتها اليها فى الساعة الثامنة والنصف من هذا

الصباح وقَّعت هذا التوقيع أيضاً : « مراسلك المجهول » ، فسرعان
ما قبلوا باهتمام شديد أن أدخل من سلم الخدم على الأم التي هي أنبل
الأمهات طراً ...

- ثم ؟

- تعرف ' التهمة : لقد أوشكت أن تضربني ، حتى ليكاد يمكنني
أن أعدني مضروباً . أما الرسالة فقد رمتها في وجهي * صحيح أنها
تساءلت لحظة هل تحتفظ بالرسالة ، لكنني رأيت ... أو لاحظت أنها
عدلت عن هذه الفكرة ، فرمت الرسالة قائلة : « ما دام قد كلّف شخص
ملك بايصال الرسالة ، فهلمّ أوصلها ! » * حتى لقد شعرت بأنها
مهانة . فلو أنها شعرت بذلك لاستحت أن تقول مثل هذا الكلام أمامي .
انها امرأة شديدة الاندفاع .

- أين الرسالة الآن ؟

- معي : هذه هي !

قال لبيديف ذلك وأعطى الأمير رسالة آجلايا الى جبريل
آرداليونوفتش * انها البطاقة التي كان على جبريل آرداليونوفتش أن
يوصلها الى أخته منتصراً بعد ساعتين .

قال الأمير :

- لا يجوز أن تبقى هذه الرسالة في حوزتك .

فقال لبيديف بحرارة :

- انتي أعطيك اياها ، أعطيك اياها . أنا أعود الآن الى خدمتك
مخلصاً ، أنا الآن ملك يديك ، رأساً وقلباً . أعود الى خدمتك بعد خيانة
طارئة عارضة ! اطعن قلبي ، ولكن دع لي اللحية ، كما قال توماس
موروس * في انجلترا وفي بريطانيا العظمى . هذا ذنبي * ، كما قال
أبو روما ، أي بابا روما ، لكنني أسميه أنا دائماً « أبو روما » .

قال الأمير ملحاً :

- يجب ايصال هذه الرسالة فوراً * أنا أتولى ذلك *
- أليس الأفضل ، يا أيها الأمير اللطيف الاحساس ، المرفه الشعور ، المؤدب ، أن ...

قال ليديف ذلك وهو يجعد وجهه تجعدة غريبة مزعجة ، وتحرك على كرسيه كأن أحداً وخزه بابرّة فجأة ، وغمز بعينه غمزة مأكرة ، وأشار يديه الى شيء ما *

قال له الأمير بلهجة التهديد :

- ماذا تعنى ؟

فهمس ليديف يقول بلهجة المسارّة والبوح :

- يجب فتح الرسالة أولاً *

فوثب الأمير وقد عبّر وجهه عن غضب يبلغ من القوة أن ليديف أوشك أن يولى هارباً ، ولكنه حين بلغ الباب ، توقف ينتظر الصنح والنفوس .

هتف الأمير يقول بلهجة تعبّر عن حزن عميق :

- آه يا ليديف ! هل يمكن حقاً أن يبلغ امرؤ من الفوضى والحطة ما بلغت أنت ؟

استردت ملامح ليديف هدوءها * وسرعان ما اقترب من الأمير يقول لاطماً صدره ، والدموع فى عينيه :

- أنا منحط ! أنا منحط !

- هذه دناءات *

- بالضبط : دناءات * هذه هى الكلمة المناسبة *

- علام هذا السلوك ... العجيب ؟ ما أنت فى حقيقة الأمر الا

جاسوس ! لماذا تكتب رسالةً بغير توقيع ، لتروّع امرأة طيبة هذا الطيب
نبيلة هذا النبل ؟ ولماذا لا يكون من حق آجلانيا أن تكتب الى من تشاء
الكتابة اليه ؟ هل ذهبت اليوم الى هناك لتتشكى ؟ ماذا كنت تنتظر من هذه
الخطوة التي قمت بها ؟ ما الذي دفعك الى هذه الوساية ؟

- الفضول هو الذي دفعني اليها وورطني فيها ... وكذلك الرغبة
في أن أخدم انسانية نبيلة . نعم ...

كذلك تمت ليديف ثم أردف يقول :
- أما الآن فأنا لك وحدك ، أنا ملك يمينك من جديد . اشقني
اذا شئت !

سأله الأمير باستطلاع يمازجه اشمئزاز :
- هل ذهبت الى الزايت بروكوفينا وأنت على هذه الحال ؟
- لا ، لا ... كنت أنضر نفساً وأكثر انتعاشاً ، بل كنت كذلك
أسلم سلوكاً وأقوم أدباً . ولم أصبح على الحال التي ترائني فيها الآن الا بعد
تلك المهانة التي نالتني وذلك الاذلال الذي أصابني .
- طيب ، كفى ، دعني !

ومع ذلك اضطر الأمير أن يكرر هذا الرجاء عدة مرات قبل أن
يقرر زائره الانصراف . وحتى بعد أن فتح ليديف الباب عاد الى وسط
الغرفة سائراً على رءوس الأصابع ، واستأنف تبجيد وجهه محاكياً الحركات
الدالة على ضرورة فض الرسالة . ولكنه لم يجزؤ أن يقرن الإشارة
بالقول ، ثم خرج وعلى شقيقه ابتسامة وادعة ودود .

من كل ثورثته التي يصعب فهمها كثيراً ، تبرز واقعة رئيسية
خارقة : هي أن آجلانيا تعاني أزمة شديدة من قلق وحيرة واضطراب .
ان أمراً ما يعذبها عذاباً قوياً (همس الأمير يقول : « الغيرة ») . وهناك

ملاحظة أخرى تفرض نفسها هي أن أناساً سيئى النية لا بد أنهم يلقون
الروع فى نفسها ؛ وانه لغريب كل الغرابة أن تمحضهم كل هذه الثقة .
لا ريب فى أن أهدافاً خاصة ، أهدافاً لعلها مشئومة ... أهدافاً غريبة
على كل حال قد نبتت فى هذا الرأس الصغير الذى تعوزه الخبرة والتجربة
ولكنه شديد الحياء كثير الكبرياء ...

هذه الاستنتاجات أغرقت الأمير فى ذعر رهيب ، حتى بلغ من
الاضطراب أنه أصبح لا يدري ماذا يقرر . كان يحس أنه ازاء احتمال
يجب منعه بأى ثمن . ونظر مرة أخرى فى عنوان الرسالة المختومة :
آه ... انه من جهته لا يساوره شك ولا يخامرهم قلق ، فان ثقته تحميه
من ذلك . وانما يأتى الحوف الذى توقظه هذه الرسالة فى نفسه من أنه
لا يثق بجبريل آرداليونوفتش . ومع ذلك أوشك أن يقرر تسليم الرسالة
نفسه ، حتى لقد خرج من بيته وقد نوى هذه النية ، ولكنه عدل عن هذا
الرأى فى أثناء الطريق . وبمصادفة تشبه أن تكون عمداً اتفق أن لقي
كوليا حين كاد يبلغ بيت بتسين . فكلفه بأن يوصل الرسالة الى أخيه كما
لو كانت رسالةً اليه من آجلايا ايفانوفنا رأساً . ولم يُلَقَ كوليا أى
سؤال ، وحمل الرسالة الى أخيه ، فلم يخطر ببال جانبا أن الرسالة يمكن
أن تكون قد تقلت بين أيدي ذلك العدد كله من الوسطاء .

وحين عاد الأمير الى البيت رجا فيرا لوكيانوفنا بأن تجيء اليه وقال
لها ما كان يجب أن يقوله ليهدى روعها ويخفف اضطرابها ، ذلك أنها
كانت قد ظلت حتى ذلك الحين تبحث عن الرسالة باكية . وقد شُدهت الى
أبعد حدود الشده حين علمت أن أباه سرقها منها . (وقد باحت له فيما
بعد بأنها سبق أن توسطت عدة مرات سرّاً بين روجيين وآجلايا ايفانوفنا .
لم يكن قد دار فى خلد الفتاة أو خطر ببالها أن فى ذلك شيئاً مخالفاً
لمصالح الأمير ...) .

كان الأمير مبلبل الأفكار كثيراً • فلما هرعوا يقولون له نقلاً عن كوليّا ان الجنرال مريض ، لم يكذب يفهم ماذا يقصدون • ولكن انصرافه الى هذا الحادث أحسن اليه احساناً كبيراً • لقد قضى النهار كله ، حتى المساء ، فى بيت نينا ألكسندروفنا (الذى نقل اليه المريض طبعاً) • ولم يكن لحضوره أى فائدة تُذكر ، غير أن هناك أناساً يحب المرء أن يكونوا بقربه فى بعض الظروف الشاقة الصعبة • لقد كان كوليّا متأثراً أشد التأثير ، وكان يبكى بكاءً من أصابته نوبة عصبية • ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون فى عمل متصل طوال الوقت : فقد مضى يبحث عن طبيب ووجد ثلاثة أطباء ، وسعى راکضاً الى الصيدلى والى الحلاق • وأُنْعش الجنرال ، لكنه لم يسترد شعوره ، وقال الأطباء « انه فى خطر على كل حال » • لم تترك فاريا ونينا ألكسندروفنا المريض • وكان جانيا مضطرباً مصعوقاً ، ولكنه لا يريد أن يصعد ، حتى لقد كان يخاف أن يرى أباه • انه يعقف يديه ألماً وحسرة ، واستطاع فى حديث مفكك جرى بينه وبين الأمير أن يقول ان « هذه مصيبة تنزل فى مثل هذا الوقت بما يشبه العمد ! » وتراعى للأمير أنه فهم التلميح التى تتضمنها هذه الكلمات •

كان هيبوليت قد ترك منزل بتسين • وفى نحو المساء هرع ليديف • كان قد نام نوماً متصلاً منذ « الايضاح » الذى تم فى الصباح حتى هذا الوقت • وكان قد ذهب عنه سكره تقريباً ، وكان يذرف على المريض دموعاً صادقة كأنه أخوه • وكان يتهم نفسه بصوت عال دون أن يحدد الخطأ الذى ارتكبه ، وكان يتعب نينا ألكسندروفنا بما يكرره عليها فى كل لحظة من أنه وحده سبب كل شيء • ولا أحد سواه • • • • • وأن سلوكه لم تدفعه اليه الا لذة الفضول • • • • • بل أن « المرحوم » (لا يدري المرء لماذا كان يصير على أن يصف الجنرال بهذا مع أن الجنرال ما يزال حياً) كان رجلاً عبقرياً ! كان ليديف يلح على عبقرية الجنرال جداً جداً خاصاً ،

كان لهذه الواقعة فى اللحظة الراهنة شأنًا كبيراً وفائدة ضخمة • فقالت له نينا ألكسندروفنا أخيراً ، وقد رأت صدق دموعه ، قالت له بلهجة ودود دون أن يبدو عليها شيء من لوم : « طيب ... أسأل الله لك العون ! لا تبك ! لا تبك ! سيفر الله لك ! » فكان لهذه الكلمات واللهجة التى قيلت بها أثر كبير فى ليديف ، أثر بلغ من الشدة أنه لم يترك بعد ذلك نينا ألكسندروفنا طوال السهرة (وفى الأيام التالية ، الى أن مات الجنرال ، ظل يبقى عندهم من الصباح الى المساء تقريباً) • وقد أوفدت اليزابت فيدوروفنا من يسأل عن أبناء الشيخ مرتين أثناء ذلك النهار •

وفى الساعة التاسعة من المساء حين ظهر الأمير فى صالون آل ايباتشين الذى كان قد امتلأ بالمدعوين منذ ذلك الحين ، أخذت اليزابت بروكوفينا تسأل عن المريض فوراً باهتمام كبير ، حريصة على معرفة التفاصيل • فلما سألتها الأميرة بيلوكونسكايا : « من هو هذا المريض ؟ ومن هى نينا ألكسندروفنا ؟ » كان جوابها يشتمل على كثير من الجدل والوقار • فأعجب الأمير بهذه البادرة اعجاباً كبيراً • وكان هو نفسه ، فى الايضاحات التى قدمها الى اليزابت بروكوفينا ، يتكلم بطريقة «رائعة» كما عبّرت أختنا آجلاليا عن ذلك فيما بعد : لقد تكلم « بتواضع ، وهدوء ، ورواية ، ووقار ، دون أن يقول كلاماً زائداً لا محل له ولا داعى اليه ، ودون أن يحرك يديه بإشارات لا جدوى منها • وكان قد دخل الصالون دخولاً موفقاً كل التوفيق ، ناجحاً كل النجاح ، وكانت ثيابه لا تأخذ عليها البتة ! » • لم تتغر قدمه فيسقط على الأرض ، كما كان يخشى بالأمس !... حتى لقد أحدث فى نفوس جميع الحضور أجمل تأثير •

وقد لاحظ من جهته فوراً ، بعد أن جلس وتلفت ينظر فيما حوله ، أن هذا الجمع لا يشبه فى شيء ، الأشباح التى أخافته منها آجلاليا بالأمس ولا الكوابيس التى وافته فى الليلة البارحة • هذه أول مرة فى حياته

يكتشف فيها زاوية مما يُطلق عليه هذا الاسم المروّج : « المجتمع الراقى » . لقد كان منذ مدة طويلة ، بسبب ما انعقدت عليه نفسه من نيات ومشاريع وميول ، يحترق شوقاً الى دخول تلك الدائرة المسحورة ؛ وكان لذلك يتساءل متحيراً أشد التحير عن الاحساس الأول الذى سوف يحسه فى هذا المجتمع . وكان احساسه فاتناً رائعاً . لقد بدا له فى الوهلة الأولى أن هؤلاء الناس كافة انما خُلقوا ليُجتمعوا ، وأن آل ايباتشين لا يقيمون « سهرة » ، وأنه ليس ازاء مدعويين بل ازاء اصدقاء « حميين » ، وأنه هو نفسه فى موقف رجل يعود بعد فراق قصير الى أشخاص يحضنهم الود ويشاركنهم آراءهم . ان آداب سلوكهم التى تتميز بالفتنة والرقى ، وبساطتهم وصدقهم الظاهرى ، ان ذلك كله قد أحدث فى نفسه أثراً يشبه أن يكون سحرياً . لم يستطع حتى أن يخطر بباله أن هذه الطيبة وهذا النبل فى آداب السلوك وهذا السمو فى الفكر وهذا الشعور الرفيع بالكرامة ، أن ذلك كله قد لا يكون الا اخراجاً مسرحياً . والحق أن أكثر المدعويين كانوا رغم مهابتهم الظاهرية أناماً تافهين الى حد بعيد ، وكان غرورهم يمنهم من جهة أخرى أن يدركوا أن عدداً من مزايهم ليس لهم فيه أى فضل لأنه غير شعورى أو لأنه مستعار أو لأنه موروث ؛ بل ان الأمير ، فى غمرة افتتانه بالاحساس الأول ، لم يُغره حتى أن يفترض هذا الافتراض . انه ، على سبيل المثال ، يرى شيخاً من كبار موظفى الدولة (يمكن أن يكون فى السن جداً له) ، يقطع حديثه ليصنى الى كلام شاب غرٍ مثله ليس بذى خبرة . حتى ان هذا الشيخ لا يصنى اليه فحسب ، بل يبدو عليه أيضاً أنه يحترم رأيه ، فهو يظهر له كثيراً من الود واللطف ، وهو يبش له بشاشة فيها كثير من الصدق ، رغم أنهما لا يعرف أحدهما الآخر ، وانما يلتقيان أول مرة . لعل هذه التهذيب الناعم الرقيق هو الذى أثّر فى طبيعة الأمير الحارة الحساسة . ولعله حين جاء كان فى حالة نفسية تهيئه للتناول .

والحقيقة هي ان الروابط التي كانت تصل بين جميع هؤلاء الأشخاص وبين أسرة ايباتشين ، كما تربطهم بعضهم ببعض ، كانت أوهى كثيراً مما ظن الأمير حين قدّم اليهم وتعرّف بهم . ان بينهم أناساً ما كان لهم أبداً أن يعدوا آل ايباتشين انداداً لهم بحال من الأحوال . بل ان بينهم أناساً يكره بعضهم بعضاً أعمق الكره . ان العجوز بيلوكونسكايا كانت طوال حياتها «تزدري» امرأة ذلك الشيخ الذي هو من كبار موظفي الدولة . وكانت هذه الأخيرة من جهتها لا تحب الزبابت بروكوفينا .

ان « الموظف الكبير » الذي كان حامى الزوجين ايباتشين منذ منذ شبابهما والذي يحتل الآن فى بيتها مكان الشرف ، كان له فى نظر الجنرال ايباتشين شأن يبلغ من العلو والرفعة أن الجنرال ايباتشين ما كان يستطيع بحال من الأحوال أن يشعر ازاءه بعاطفة غير عاطفة التقديس والرهبة ؛ فلو ظن فى لحظات من اللحظات أنه ندٌ له فكفّ عن اعتباره الهاً من آلهة الأولب مثل جوبتر ، اذن لاحتقر نفسه صادقا مخلصاً .

وكان بين الحضور أيضاً أناس لم يلتق بعضهم ببعض منذ سنين ، ولا يحمل بعضهم لبعض من عاطفة غير عدم الاكرات ، هذا اذا لم يحمل بعضهم لبعض عداوة . ولكن هذا لا ينفى أنهم يلتقون الآن التقاء من كانوا بالأمس معاً ، فهم فى أشهى صحبة وأمتع مجالسة .

ولم يكن عدد المجتمعين كبيراً على كل حال . هناك ، عدا الأميرة بيلوكونسكايا ، و « الشيخ الجليل » الذى كان فى الواقع شخصية خطيرة الشأن ، وزوجته ، هناك رجل آخر يلفت الانتباه ، هو جنرال يحمل لقب بارون أو كونت ، واسمه ألماني . ان هذا الرجل الصموت الى حد خارق كان يشتهر بأنه يعرف شئون الدولة معرفة معجزة ، حتى لقد كان يعدُّ عالماً من العلماء ان صح التعبير . انه واحد من أولئك الاداريين الفطاحل الذين يعرفون « كل شيء » الا روسيا ، والذين يصدرون فى كل خمسة

أعوام « فكرة يهزُّ الناس عمقها ويكون لها دوىٌ كبير » والذين يذهب
كلامهم مذهب الأمثال ويصل الى مسامع أعلى الشخصيات مقاماً • انه واحد
من أولئك الموظفين الأعلين الذين يموتون في العادة بعد عمر في الوظيفة
طويل جداً (بل طويل طويلاً عجيباً) ، والذين يكونون قد وصلوا
الى رتب عالية واحتلوا مناصب رائعة وملكوا ثروة ضخمة ، دون أن
يكونوا قد قاموا مع ذلك بأية أعمال ساطعة باهرة ، حتى انهم يظهرون
بعض النفور من الأعمال الساطعة الباهرة •

ان هذا الجنرال هو ، في الوظيفة ، الرئيس المباشر لصاحبنا الجنرال
ايفان فيدوروفتش ايباتشين الذى كان بعاطفة الشكر الحارة وبدافع حب
الذات أيضاً يرى أن لرئيسه عليه أياذى بيضاء ويعتقد أنه مدين له بفضل
كبير ، رغم أن الآخر لم يكن يعد نفسه محسناً الى ايفان فيدوروفتش أو
منعماً عليه ، حتى لقد كان لا يكثر به كثيراً • وهو رغم رضاه عن
الخدمات التى يقدمها اليه ايفان فيدوروفتش ، مستعد لأن يستبدل به شخصاً
آخر على الفور اذا ظهر له أن ثمة اعتبارات ، ولو كانت ثانوية ، تجعل
الاستغناء عنه أمراً مناسباً •

وكان الحفل يضم شخصية أخرى خطيرة الشأن هى رجل متقدم
فى السن يبدو عليه أنه يموت بقربى الى اليزابت بروكوفينا ، ولكنه فى
حقيقة الأمر لا تربطه بها أية قرابة • ان له رتبة ومركزاً يُحسد عليهما
هو رجل غنى كريم المحدث ، قوى البنية ، مزدهر الصحة • وهو الى ذلك
محدث بارع • وقد اشتهر بأنه رجل مستاء (بالمعنى المقبول لهذه الكلمة) ،
بل أنه رجل ساخط (وتلك سمة كانت فيه ذات سحر وفتنة) وكانت
آدابه فى السلوك آداب رجل ارسطوقراطى انجليزى ، وكانت ميوله
وأذواقه انجليزية أيضاً (من ذلك أنه كان يحب أن يأكل الشواء دامياً ،
ويحب المركبات الفخمة ، ويحب الحدم بأزيائهم الرسمية) • وهو على

علاقة حميمة بالشيخ الجليل ، « الموظف الكبير » ، يبدل في سبيل تسليته كل جهد . وكانت اليزابت بروكوفينا ، من جهة أخرى ، تداعب خيالها فكرة غريبة هي أن هذا البارون (الذي كان لا يُعدُّ من المتسكين كثيراً بأهداب الفضيلة ، وكان يُعدُّ من هواة الجنس اللطيف) قد يريد ذات يوم أن يحقق سعادة ألكسندرا بطلب يدها .

وتحت هؤلاء المدعويين الذين هم أعلى أفراد الحفل مقاماً وأكثرهم مهابة ، تأتي فئة من المدعويين أصغر سناً ، لكن أفرادها أناس مرموقون أيضاً . فمن هؤلاء الأمير « شتت . . . » وأوجين بافلوفتش ، ومنهم الأمير « ن . . . » المعروف بما حقق من انتصارات مع النساء في أوروبا . انه في نحو الخامسة والأربعين من العمر ، فارح القامة مشوق القد ، يملك موهبة مدهشة في الحديث ويتمتع بقدرة عجيبة على سرد القصص ورواية الحكايات . وهو رغم أن ثروته تضاعفت قليلاً ، ما يزال يؤثر أن يقضى أيامه في الخارج محتفظاً بهذه العادة .

وهناك أخيراً فئةٌ ثالثة تضم أولئك الذين لا ينتمون الى « الدائرة المغلقة » من المجتمع ، ولكن يمكن أن نراهم فيها أحياناً ، فمن هؤلاء مثلاً أسرة ايباتشين نفسها . كان آل ايباتشين ، بما لهم من حس سليم ولباقة يستوجونها سلوكهم ، يجبون في المناسبات القليلة التي يقيمون فيها حفلات استقبال ، أن يجمعوا بين أفراد المجتمع العالي وبين أفراد طبقة أدنى تمثل صفوة « المجتمع المتوسط » . فكان الناس يحمدون لهم هذا الحسب ويصفونهم بأنهم يعرفون مكانهم ويحسنون التصرف ، وذلك رأى كان آل ايباتشين يعترفون به .

فالى تلك الطبقة المتوسطة كان ينتمى أحد المدعويين وهو مهندس برتبة كولونيل ، يتصف بالجد وتربيته بالأمير « شتت . . . » صداقة قوية ، فالأمير « شتت . . . » هو الذي عرفه بأسرة ايباتشين وأدخله الى بيتها .

وكان الرجل قليل الكلام فى المجتمع ، يزيّن ابهام يده اليمنى خاتم^٢
 ضخّم أغلب الظن أنه هدية امبراطورية •
 وأخيراً فقد كان بين الحضور أديب شاعر أصله ألماني لكن أدبه
 روسى • انه رجل فى نحو الثامنة والثلاثين من عمره ، لائق المظهر
 فلا خير فى ادخاله الى المجتمع الراقى • ان هيئته حسنة، رغم أن فى وجهه
 شيئاً يبعث على النفور • وهو يعنى بهندامه عناية كاملة ، وينتمى الى أسرة
 ألمانية ان تكن بورجوازية فانها تحظى باعتبار كبير • ولقد كان يحسن
 الاستفادة من الظروف واتهماز الفرص ليندس تحت حماية شخصية من
 الشخصيات العالية ، وأن يحافظ على الخطوة لديها • وقد ترجم فى الماضى
 عن اللغة الألمانية الى اللغة الروسية كتاب شاعر جرمانى كبير ، وصدر
 الكتاب المترجم باهداء مفيد • وكان يحسن الاتقاع بعلاقات الصداقة مع
 شاعر روسى شهير توفى الآن (ان هناك فئة كبيرة من الكتاب يحلو
 لأفرادها أن يعرضوا ما كان بينهم وبين مؤلف مشهور من صداقة حميمة ،
 متى مات ذلك المؤلف) ، وقد أدخلته الى أسرة ايباتشين منذ مدة قصيرة
 زوجة « الشيخ الجليل ، الموظف الكبير » • كانت هذه السيدة تُعدُّ
 حامية الأدباء والعلماء • والحق أنها قد دبّرت راتباً لكاتب أو كاتبين
 بواسطة أناس من اصحاب المناصب الرفيعة الذين كان لها عليهم نفوذ •
 ولقد كان لها فى الواقع تأثير ووزن • انها فى الخامسة والأربعين من
 عمرها (فهى اذن شابة بالنسبة الى زوجها الذى كان شيخاً) ، ولقد كانت
 جميلة وكانت ما تزال تحب - وذلك ميل شائع فى كثير من النساء اللواتى
 بلغن عمرها - أن ترتدى ملابس فيها كثير من البهرج • وكان ذكاؤها
 دون الوسط ، وكانت ثقافتها الأدبية مشكوكاً فيها • ولكنها كانت مولعة
 أشد الولع بحماية الأدباء ، كولها بارتداء أحلى الملابس • وكانت تهدى
 اليها كتب كثيرة وترجمات كثيرة • وقد نشر كاتبان أو ثلاثة ، بعد
 استئذانها ، الرسائل التى كانوا قد كتبوها اليها فى موضوعات هامة جداً •

ذلك هو المجتمع الذى حسبته الأمير فضة خالصة أو ذهباً نقياً بغير شائبة • وعدا هذا فقد اتفق أن كان جميع هؤلاء فى ذلك المساء ، زاحرين بالتفاؤل مفتئين بأنفسهم • كان كل واحد منهم مقتعاً بأن زياته تفرر أسرة ايباتشين فخرآ وشرفاً • ولكن الأمير ، وا أسفاه ، لم يكن يدرك هذه اللطائف ولا كانت تخطر له على بال • لم يدر فى خلدِه مثلاً أن آل ايباتشين ، وقد اخذوا قراراً يبلغ من الخطورة مبلغ هذا القرار الذى يتوقف عليه مصير ابنتهم ، ما كان لهم أن يتجرأوا على اعفاء أنفسهم من تقديمه ، هو الأمير ليون نيقولايفتش ، الى هذا الموظف الكبير الشيخ ، الذى يعد حامى أسرتهم ؛ وأن هذا الشيخ الذى يمكن أن يحتفظ بأكمل هدوئه وأنهم سكينته اذا علم أن كارثة كبيرة قد حلت بأسرة ايباتشين ، لا بد أن يستاء أشد الاستياء وأن يعد نفسه مهاناً الى أبعد حدود الاهانة لو زوج الأبوان ابنتهما دون أن يستشيراه ودون أن يحصلوا على موافقته ان صح التعبير • أما الأمير « ن • • • » ، هذا الشاب الفتيان ، الذى لا شك فى أنه يفيض مرحاً وصراحة ، فقد كان مقتعاً اقتناعاً مطلقاً بأن ظهوره هذه الليلة فى صالون أسرة ايباتشين حادث يشبه شروق الشمس • انه يضعهم فى موضع أدنى منه بمائة قدم ؛ ولا شك أن هذه الفكرة البريئة النبيلة هى التى كان يستمد منها طلاقته المحببة وبشاشته الودود فى معاملتهم • كان يعلم أنه سيجب عليه فى تلك السهرة أن يروى شيئاً ليبهج الحفل ويفتته ، فكان يستعد لهذا الأمر ويتهياً للقيام بهذا الدور وقد توقدت قريحته ووافاه الهامه • ان الأمير ليون نيقولايفتش حين أصغى بعد قليل الى ما حكاه هذا الشاب قد أحس أنه ما سمع فى يوم من أيام حياته شيئاً يمكن أن يقارن بهذه الفكاهة المتألقة ، وهذا المرح المدهش وهذه السذاجة التى تكاد تكون مؤثرة فى فم دون جوان مثل الأمير « ن • • • » • ليته عرف الى أى حد كانت هذه الحكاية قديمة عتيقة ، ذابلة ذاوية ، معادة مكرورة • ان هذه القصة التى رواها الأمير

• • • • • ، يمكن أن تعد عند آل ايباتشين السذج البسطاء فكاهة جديدة وارتجالاً متألّفاً يصدر صادقاً عفواً الخاطر عن محدث بارع فتان فكه ، ولكنها فى أى صالون آخر لا بد أن يُحكم عليها بأنها باعثة على أكبر الضجر وأشد الملل والسأم • وحتى الشويعر الألمانى ، رغم كل ما اصطنعه من تودد وتواضع ، كان يميل كذلك إلى الاعتقاد بأن حضوره يشرف الدار •

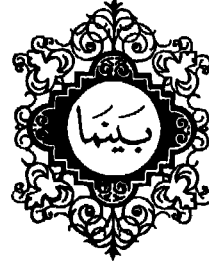
ولكن الأمير لم يلاحظ من الموقف الا وجهه الحسن ، أما وجوهه الأخرى فهو لا يراها • ولم تكن آجلايا قد تنبأت بذلك كله • حتى انها كانت هى نفسها فى ذلك المساء رائحة الحسن باهرة الجمال • كانت الفتيات الثلاث يرتدين ثياباً أنيقة ، ولكن بغير غلو واسراف ، وقد صفّفن شعورهن تصفيفاً جديداً غير مألوف لهن أو معهود فيهن •

وكانت آجلايا جالسةً قرب أوجين بافلوفتش تكلمه وتمازحه بلهجة حميمة جداً • وكان أوجين بافلوفتش أكثر رصانة مما عهد فيه ، ولا شك أن ذلك كان منه مراعاة ومداراة للشخصيات الرموقة التى يضمها الحفل • على أنه رجل معروف فى اجتماعات المجتمع الراقى منذ مدة طويلة ، وكان ينظر اليه على أنه واحد من أبناء ذلك المجتمع • وقد حضر فى ذلك المساء وعلى قبعته شريط أسود ، وهذا ما جلب له ثناء الأميرة بيلوكونسكايا : ففى ظروف كهذه الظروف ما كان لرجل آخر من أبناء المجتمع الراقى أن يفعل مثل هذا حداداً على وفاة عم كذلك العم • وقد أظهرت الزيات بروكوفينا رضاها عن ذلك وارتياحها له أيضاً • ولكن كان يبدو عليها كثير من الهم وانشغال البال •

ولاحظ الأمير أن آجلايا نظرت اليه مرة أو مرتين باتباه ، وبدا عليها الرضى عنه • وشيئاً بعد شئ أحس بقلبه يتفتح سعادةً • ان الحواطر «الخيالية» والمخاوف التى اجتاحتها من قبل (بعد حديثه مع ليبيديف) تبدو

له الآن ، من خلال تذكرها تذكرًا مفاجئًا ولكنه متكرر ، أشبه بأحلام
 لا صلة بينها وبين الواقع ، أحلام غير معقولة بل ومضحكة ! (وقبل
 ذلك ، طوال النهار ، كانت أعزُّ رغبة في قلبه ، وان تكن رغبة غير
 شعورية ، هي أن يبرهن لنفسه على أنه لم يكن ثمة مجال لتصديق تلك
 الأحلام) • وكان يتكلم قليلاً ، ويقتصر على الإجابة عن الأسئلة التي
 تُلقى عليه • وفي النهاية لزم صمتًا كاملاً ، وظل يصنئ الى الآخرين
 كأنسان بلغ قمة السعادة • شيئاً فشيئاً ، استولى عليه نوع من الإلهام
 مستعد لأن ينطلق في كل لحظة ••• ومع ذلك ، لئن عاد يتكلم فهو انما
 تكلم مصادفةً ليجيب عن سؤال ، دون أية نية مبيتة فيما يبدو •••

الفصل السابع



كان الأمير يتأمل آجلايا وقد غمرته السعادة ،
متابعاً مع الأمير « ن ٠٠٠ » ، وأوجين بافلوفتش
حديثاً مرحاً ، كان الرجل المسن الذي يصطنع
سلوكاً انجليزياً ، كان يتحدث في الطرف الآخر
من الصالون مع « الموظف الكبير » ، فاذا هو أثناء الاندفاع في الكلام
ينطق باسم نيقولا آندريفتش بافلتشيف فجأة • فالتفت اليهما الأمير على
الفور وأخذ يتابع حوارهما •

كان الكلام يدور على الأنظمة الجديدة وعلى مانشأ عنها من اضطرابات
في توزيع أملاك كبار المالكين بمقاطعة « ز ٠٠٠ » • ولا بد أن القصة التي
كان يرويها الرجل المشغوف بعادات الانجليز كانت في ذاتها باعثة على
الضحك لأن « الموظف الكبير » قد أخذ يضحك أخيراً حين سمع صاحبه
يعبرَ عما في نفسه من مرارة • كان الرجل المشغوف بعادات الانجليز
يتكلم بسهولة ويسر ، مصنفاً مطاً ألفاظه وتلين حروفه ، وكان يروى
كيف أن تلك النظم الجديدة قد أجبرته على أن يبيع بنصف الثمن أرضاً
رائعة كان يملكها في تلك المقاطعة ، رغم أنه لم يكن في حاجة الى مال ؛
وكيف احتفظ في الوقت نفسه بأرض خراب يباب لا يجنى منها الا
الحسارة، عدا اضطرابه الى ملاحقة دعوى في شأنها لدى القضاء • « ومن
أجل أن أتجشئ ملاحقة دعوى أخرى تتعلق بالأراضي التي خلّفها
بافلشيف ، آثرت أن أزهد بالميراث أصلاً • يكفي أن يثول الى ميراث

أو ميراثان من هذا النوع حتى تصير حالي الى دمار • لاحظ^٥ أن نصيبي من ذلك الارث كان يقدّر بثلاثة آلاف هكتار ، أطيّاناً ممتازة ! » •

لاحظ ايغان فيدوروفتش الاهتمام الشديد الذي كان ينصرف به الأمير الى ذلك الحديث ، فاقرب منه فجأة وقال له بصوت خافت :

- اسمع ••• ان ايغان بتروفتش يمت بقرابة الى المرحوم نيقولا أندريفتش بافلتشيف • أظن أنك تبحث عن أقرباء له ، أليس كذلك ؟

كان ايغان فيدوروفتش حتى ذلك الحين لا يتجه بنظره وعنايته الى أحد غير رئيسه الجنرال • لكنه وقد لاحظ منذ برهة أن ليون نيقولايفتش مهمل اهمالاً تاماً ، شعر من ذلك بشيء من القلق • لهذا حاول أن يشركه في الحديث بعض الاشراك بتقديمه الى «الشخصيات» مرة أخرى وبتركته لديها • فلما وقع بصره على ايغان بتروفتش قال :

- ان ليون نيقولايفتش انما نشأه نيقولا أندريفتش بافلتشيف ، حين مات عنه أبواه •

فأجاب ايغان بتروفتش بقوله :

- ت •• شر ••••• فنا • واني لأذكرك تذكرآ واضحاً • لقد عرفتك وتذكرت حتى وجهك منذ تولى ايغان فيدوروفتش تعريف كل منا بالآخر • الحق أنك لم تتغير كثيراً ، رغم أن عمرك لم يكن يتجاوز العاشرة أو الحادية عشرة حين رأيتك • حتى أن في ملامحك شيئاً رسخ في ذاكرتي •••

سأله الأمير بما يشبه الشده :

- عرفتي طفلاً ؟

فتابع ايغان بتروفتش كلامه يقول :

— منذ زمن بعيد جداً! ... كان ذلك فى زلاتوفرخوفو ، حيث كنت تقيم عند قريبائى • كنت فى ذلك العهد أكثر من الذهاب الى هناك • ألا تتذكرنى ؟ لا عجب ... لقد كنت عندئذ فى حالة مرضية لا أدرى ما هى ... حتى اننى أذكر أن دهشة شديدة قد اعترتني حين رأيته • •
قال الأمير مؤكداً بحرارة :
— أنا لا أنذكر شيئاً !

وأضاف ايفان بتروفتش ، بكثير من الرصانة والوقار ، بضعة أقوال أخرى أدهشت الأمير وأثرت فى نفسه • قال ان الآستين العجوزين اللتين تمثان بقرابة الى المرحوم بافلتشف وكانتا تعيشان فى أراضيه بزلاتوفرخوفو ، واللتين عهد إليهما بتربية الأمير ، هما فى الوقت نفسه قريبتان له • وكسائر الناس ، كان ايفان بتروفتش لا يكاد يعرف شيئاً عن البواعث التى خضع لها بافلتشف حين اهتم ذلك الاهتمام كله بالأمير الصغير الذى كفله بافلتشف وجعل نفسه وصياً عليه • « لم يخطر ببالى أن أسأل عن هذا الأمر فى ذلك الوقت » • كذلك قال ايفان بتروفتش • ولكنه برهن مع ذلك على أن له ذاكرة ممتازة ، فهو لم ينس حتى أن كبرى قريبته ، وهى مارتا نيكيتشينا ، كانت شديدة القسوة على الأمير الذى عهد به إليها ، وأضاف ايفان بتروفتش الى ذلك قوله : « حتى لقد بلغت من قسوتها اننى شاجرتها مرةً بسبك ، لأننى كنت أشجب أسلوبها فى التربية ، القائم على أن تلهب بالسياط جسم طفل مريض • • وهذا • • • كما تعلم • • • » ولا كذلك أختها الصغرى ناتاليا نيكيتشينا ، فقد كانت نفسها زاخرة بالحنان على الطفل المسكين • • • لا بد أن تكونا الآن كلتهما فى مقاطعة ز ، حيث أورثهما بافلتشف أرضاً ممتازة (ولكن أما تزالان على قيد الحياة ؟ لا أدرى) • أظن أن مارتا نيكيتشينا كانت تتوى أن تدخل الدير • على أننى لا أؤكد ذلك • من الجائز أن أكون

قد سمعت هذا الكلام عن امرأة أخرى . . . نعم . . . تذكرت . . .
لقد قيل لى هذا عن زوجة طيب . . . ،

كان الأمير يصفى الى هذه الأقوال وقد سطعت عيناه فرحاً ونشوة
وحناناً . وأعلن من جهته بحرارة شديدة أنه لن يغفر لنفسه فى يوم من
الأيام أنه تنقل فى داخل البلاد خلال هذه الأشهر الستة ثم لم يتج له
أن يمضى الى زيارة مربيته . لقد كان فى كل يوم ينوى أن يفعل ذلك ،
ثم تحول الظروف بينه وبين انفاذ ما يعقد النية عليه . . . غير أنه فى هذه
المرة قد قرر جازماً أن يذهب الى مقاطعة ز . . . وأضاف الأمير : « أنت
تعرف اذن ناتاليا نيكيتشينا ؟ يا لها من امرأة عظيمة ، قديسة ! وكذلك
مارتا نيكيتشينا . . . معذرة . . . يخيّل الى أنك تخطئ الظن فيها قليلاً
. . . صحيح أنها كانت قاسية ، ولكن يجب أن تُعذر . . . كيف
لا يُفقدّها صبراً طفلٌ أبله تماماً فى ذلك الأوان ؟ (هـ هـ !) .
اننى كنت أبله كل البلاهة حينذاك . ألا تصدق ؟ (ها ها !) . . . ثم . . .
ثم انك قد رأيتى فى ذلك العهد ، و . . . ألا تلاحظ أننى لا اتذكرك ؟
ألا يدل هذا على أننى . . . آه . . . يا رب ! أصبح أنك قريب نيقولا
آندريفتش يافلتشيف حقاً ؟

قال ايفان بتروفتش مبتسماً وهو يتفرس فى الأمير :

— أ . . . و . . . كد لك ذلك !

— أرجوك . . . ما أردت أن أقول اننى أشك فى صدق كلامك ! . . .

ثم . . . هل يمكن الشك فى هذا (هـ هـ !) . . . ولو قليلاً ؟ نعم ،
ولو قليلاً ؟ (هـ هـ !) . وانما أردت أن أقول ان المرحوم نيقولا
آندريفتش يافلتشيف كان رجلاً رائعاً ، كان انساناً عظيماً ! ما كان
أكرمه ! أحلف لك . . .

لا أقول ان الأمير كان يشعر باختناق ، بل أقول ان « امتلاء قلبه بالسعادة قد سدَّ حلقه » على حد التعبير الذى استعملته آديلايد فى الغداة حين تحدثت مع خطيبها الأمير « شتت * * * »

قال ايفان بتروفتش ضاحكاً :

- ولكن لماذا يستحيل أن أمت بقرابة لرجل كريم كرماء * * * ظيماً ؟

اضطرب الأمير وشعر بخجل شديد فأسرع يقول بتعجل وحرارة ما ينفكان يتزايدان :

- أنا * * * أنا * * * هذه حماقة جديدة أرتكبها * * * هذه سخافة جديدة أقولها * * * لأننى * * * لأننى * * * لأننى * * * يميناً ان لسانى قد خان فكرى ! ولكننى أعود فأسألك ما عسى تكون قيمة شخصى أنا بالقياس الى أمور كهذه الأمور ، بالقياس الى أمور ضخمة هذه الضخامة ؟ بالقياس الى رجل عظيم هذه العظمة ! ذلك أنه - شهد الله - كان أعظم الرجال * * * أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟

كانت أعضاء الأمير كلها ترتعش * أما من أين جاء هذا التأثر المبالغ ولماذا اجتاحت هذه العاطفة كلها فجأة ، دون تناسب بينها وبين موضوع الحديث ، فذلك أمر يصعب تعليله * ولكننا نستطيع أن نقطع بأنه بلغ من الانفعال فى تلك اللحظة أنه كان يحس بشعور الشكر كأولياً محرقة ، دون أن يعرف ماذا يشكر ولا من يشكر ، حتى لكأن الشكر لايفان بتروفتش نفسه ولسائر الحضور أيضاً * كان الأمير يفتح سعادة . نظر الى ايفان بتروفتش بمزيد من التفرس * وحدق اليه « الموظف الكبير » بكثير من الانتباه كذلك . وألقت عليه الأميرة بيلوكونسكايا نظرات تفيض غضباً وحنقاً ، وأخذت تقرص شفتيها * وتوقف الأمير « ن * * » ، وأوجين بافلوفتش ، والأمير « شتت * * * » ، والآنسات ، وسائر

الحاضرين ، توقفوا جميعاً عن الكلام وأصاخوا بأسماعهم • وكانت أجلايا تبدى اشارات رعب ، وكانت اليزابت بروكوفينا قد خرجت عن طورها حقاً • عجب أمر الأم وبناتها : انهن هن اللواتى قررن وارتأين أن من الأفضل أن يبقى الأمير صامتاً طوال السهرة ، فلما رأيته منعزلاً كل الانزال فى ركن من الصالون راضياً عن خطه مفتوناً به ، أخذ يساورهن الحوف ؛ حتى لقد خطر ببال آديلايد أن تقطع الغرفة كلها مقتربةً منه على حذر لتقوده الى جامعته التى تضم الأمير « ن • • • » قرب الأميرة بيلوكونسكايا • حتى اذا اندفع الآن فى الحديث تضاعف قلقهن وازدادت مخاوفهن •

قال ايفان بتروفتش بلهجة فخمة وقد كفّ عن التبسم :

– انك لعلى حق حين تصفه بأنه كان انساناً رائعاً • • • نعم ، لقد كان انساناً ممتازاً •

وأضاف بعد صمت قصير :

– انساناً ممتازاً وجديراً بالاعتبار •

– وزاد على ذلك بعد برهة أخرى فقال :

– بل ويمكن القول انه كان جديراً بكل احترام • ومما يثلج صدر المرء حقاً أن يرى أنك من جهتك • • •

قال « الموظف الكبير » وهو يحاول أن يستجمع ذكرياته :

– أليس بافتشيف هذا هو ذلك الرجل الذى كانت له حكاية • • خاصة • • • مع قس • • مع القس • • • نسبت اسمه • • ولكن انارت حكايته فى حينها لفظاً كثيراً • • ؟

قال ايفان بتروفتش :

- القس جورو ، رجل يسوعى • نعم ، أولئك هم رجالنا الممتازون الجديرون بالاعتبار ! ولكن بافلتشف كان نبيل المحتد وكان يملك ثروة ، وكان موظفاً بالبلاط ••• ولو بقي فى الوظيفة لأمكن أن ••• ولكنه ترك وظائفه وترك جميع علاقاته فجأة ليعتنق الديانة الكاثوليكية ويصبح يسوعياً حتى لقد فعل ذلك بما يشبه الحماسة • بصراحة : لقد مات فى الوقت المناسب • نعم • جميع الناس قالوا هذا حين مات •••

أصبح الأمير لا يستطيع كبح جماح نفسه ، فصاح يقول بلهجة مروعة :

- بافلتشف ••• بافلتشف اعتنق الكاثوليكية ؟ مستحيل !

فدمدم ايفان بتروفتش بلهجة رصينة :

- كيف « مستحيل » ؟ هذا كثير يا عزيزى الأمير • يجب أن توافق على أن •• ولكنك تقدر المتوفى قدرأ كبيرأ والحق أنه كان انسانأ ذا قلب كبير ، وذلك هو السبب الذى أعزو اليه خاصة كل ما حققه ذلك المحتال جورو من نجاح لديه • ولكن فى وسعك أن تسألنى أنا عن المتاعب والهموم التى أصابتنى فى أعقاب هذا الأمر •• ولا سيما مع جورو ذاك نفسه !

وأضاف ايفان بتروفتش يقول ملتفتأ نحو الرجل المعجوز مخاطبأ اياه :

- تصور انهم أرادوا حتى أن يدعوا حقوقأ فى الميراث • فاضطرت أن أعمد الى أشد الاجراءات لأسمعهم صوت العقل وأردهم الى الصواب • ذلك أنهم يعرفون ما يفعلون • هؤلاء أناس مدهشون ! ولكن •• الحمد لله ! لقد حدث الأمر بموسكو ، فاتجهت فورأ الى الكونت وأرجعناهم الى الرشاد •

هتف الأمير يقول من جديد :

- لا تستطيع أن تتصور مدى ما أحدثته في نفسي من ألم واضطراب!
- آسف . ولكن ذلك كله لم يكن في حقيقة الأمر ، الا سفاسف ،
وكان يمكن أن ينتهى بسلام ، كما يحدث عادة . انتى مقتنع بذلك .
ثم أضاف يقول مخاطباً العجوز من جديد :

- فى الصيف الماضى دخلت الكونتيسة ك أحد الأديرة
بالخارج ، فيما يقال . ان مواطنينا لا يملكون أية قدرة على المقاومة حين
تسلط عليهم أولئك المحتالون ، ولا سيما فى الخارج .

- أظن أن مرد ذلك كله الى أننا متعبون . ثم ان لأولئك الناس
أسلوباً فى التبشير يمتاز بكثير بكثير من الرشاقة والأناقة ، هذا عدا
أن لهم شخصية قوية ، فيعرفون كيف يخيفونك ويروّعونك . لقد
أخافونى أنا نفسى . اعترف لكم بذلك . حدث هذا سنة ١٨٣٢ بمدينة
فينيا . ولكننى لم أسقط بين أيديهم ، بل وليت هارباً . ها ها ! يميناً لقد
وليت هارباً !

هنا تدخلت الأميرة بيلوكونسكايا فجأة فقالت :

- لقد سمعت يا حديقى العزيز أنك فى ذلك الوقت قد هربت من
فينيا الى باريس فى صحبة امرأة جميلة هى الكونتيسة ليفيكي . فمن أجل
تلك المرأة ، لا تخلصاً من يسوعى ، انما تركت الخدمة .

أجاب العجوز مبتسماً لحلاوة تلك الذكرى الجميلة :

- طيب ولكن هذا لا ينفى أن ذلك حدث بسبب يسوعى . .

ثم أضاف يقول بلهجة لطيفة ودود ، مخاطباً الأمير ليون نيقولايفتش
الذى كان يصنى الى الحديث فاغر الفم من الدهشة ، وكان ما يزال يبدو
مصعوقاً :

- يبدو عليك أن لك عواطف دينية قوية جداً ، وذلك أمر يندر أن نراه الآن لدى الشباب •

كان واضحاً أن المعجوز يرغب في معرفة الأمير معرفة أكمل ، وأن هناك أسباباً تدفعه الى بدء الاهتمام به اهتماماً قوياً •
قال الأمير فجأة :

- كان بافلتشف رجلاً صافى الذهن راجح العقل ، وكان مسيحياً حقاً • فكيف يمكن أن يعتقد ديانة *** ليست مسيحية ؟ ذلك أن الكاثوليكية دين ليس من المسيحية في شيء !

كانت عيناه تسطمان وكان يجيل بصره على من حوله كأنه يريد أن يشمل الحضور كافةً بنظرة واحدة •

جمعهم المعجوز يقول وهو يرشق ايفان بتروفتش بنظرة تتم على الدهشة :

- أظن أن في هذا بعض الغلو !
وانبرى ايفان بتروفتش يسأل الأمير قائلاً له وهو يستدير على كرسيه :

- أفليست الكاثوليكية ديانة مسيحية ؟ فما هي اذن ؟
استأنف الأمير كلامه قائلاً بانفعال شديد ولهجة قاطعة الى أقصى الحدود :

- هي أولاً ديانة ليس فيها شيء من المسيحية • هذه نقطة أولى •
أما النقطة الثانية فهي أن المسيحية الرومانية أسوأ من الإلحاد نفسه في رأيي ! نعم ، ذلك هو رأيي ! ان الإلحاد يقتصر على المنادة بالعدم ، أما الكاثوليكية الرومانية فهي تمضي الى أبعد من ذلك : انها تبشر بمسيح

شوهته وأفسدت صورته وسوأت وجهه ، انها تبشر بمسيح هو نقيض الحقيقة . انها تبشر بنقيض المسيح ، أؤكد لكم ! هذه قناعتى الشخصية منذ زمن طويل ، وما أكثر ما عذبتى أنا نفسى . . ان الكاثوليكية الرومانية تؤمن بأن الكنيسة لا يمكن أن تبقى على الأرض ما لم تمارس سلطة سياسية شاملة ، وتكتب : « لا نستطيع » * ! بل ان الكنيسة الرومانية فى رأى ليست ديانة . وانما هى استمرار للإمبراطورية الرومانية الغربية . فكل شئ فيها خاضع لهذه الفكرة ؟ حتى الايمان . لقد استولى البابا على أرض ، وأصبح لك مُلك زمنى ، وأشهر السيف . ثم لم يتغير شئ منذ ذلك الحين ، اللهم الا أن يكون السيف قد أُضيف اليك الكذب والمكر والحديعة والتعصب والحرافة والسفالة . لقد عبثوا بأقدس عواطف الشعب وأنقاها وأكثرها سذاجة وبراءة ، وحماسة وحرارة . لقد باعوا كل شئ بالمال ، كل شئ باعوا كل شئ بسلطة زمنية حقيرة . فكيف لا تكون هذه العقيدة نقيض المسيحية ؟ وكيف يمكن أن لا تكون الكاثوليكية سبب الالحاد ؟ لقد خرج الالحاد من الكاثوليكية الرومانية نفسها ! وباتباع الكاثوليكية انما بدأ الالحاد : هل كان يمكن أن يصدقوا أنفسهم ؟ ثم قوى الالحاد بالكره الذى حملته لهم الناس . ان الالحاد ثمرة أكاذيبهم وعجزهم الأخلاقى . الالحاد ! ما يزال الالحاد فى بلادنا لا يرى الا فى بعض فئات المجتمع ، لا يرى الا لدى « المجتة جنودهم » على حد التعبير الموفق الذى استعمله أوجين بافلوفتش . أما هناك ، فى أوروبا ، فان جماهير كبيرة من الشعب قد بدأت تفقد الايمان . كان عدم تدبئها فى الماضى ناشئاً عن الجهل والكذب . أما الآن فهو ناشئ عن التعصب وعن كره الكنيسة والمسيحية !

توقف الأمير عن الكلام لاهتاً . لقد تكلم بتدفق شديد . هو الآن صاحب اللون مخفق الصدر . تبادل الحضور نظرات دهشة . وأخيراً

أخذ الشيخ الصغير يضحك ضحكاً صريحاً • وأخرج الأمير « ن • • » نظارته وأخذ يحدق بها الى الأمير ليون يقولوا يقتش • وترك الشويعر الألمانى الركن الذى كان قد تلبث فيه حتى ذلك الحين فاقرب من المائدة وعلى شفتيه ابتسامة عداوة •

قال ايفان بتروفتش بصوت ممطوط ، وقد لاح فى وجهه الضجر بل والانزعاج :

– أُن • • ت • • تبا • • لغ • • كثيراً ! ان تلك الكنيسة يمثلها كذلك رجال يستحقون كل احترام ، رجال فضلاء • • • •

– أنا لم أتكلم عن ممثلى الكنيسة كأفراد • وانما تكلمت عن الكنيسة الرومانية فى حقيقتها ، أنا انما تكلمت عن روما • هل يمكن أن تزول الكنيسة زوالاً تاماً ؟ أنا لم أقل هذا قط !

– موافق • ولكن كل ما تقوله معروف فلا داعى الى الكلام فيه • ثم ان هذا كله من اختصاص علم اللاهوت • • •

– لا ، لا ، ليس هذا من اختصاص علم اللاهوت وحده ، أؤكد لك ! هذا أمر يمسننا كلنا مساً أقرب كثيراً مما تتصور • هنا انما يكمن خطؤنا : ما يزال يصعب علينا أن نألف فكرة أن هذه المسألة ليست مسألة لاهوتية فحسب ! لا تنسوا أن الاشتراكية هى أيضاً ثمرة الكاثوليكية • فالاشتراكية ، كأخيها الاتحاد ، انما ولدت من اليأس • انها رد على الكاثوليكية • انها ترمى الى امتلاك السلطة الروحية التى فقدتها الدين ، تهدف الى ارواء الظمأ الشديد الذى يحرق النفس الانسانية ؛ وهى تشدد السلام لا فى المسيح بل فى العنف ! اننا نرى هنا ، كما نرى فى الكاثوليكية ، أناساً يريدون تأمين الحرية بواسطة العنف ، ويريدون تحقيق الاتحاد بالسيف والدم ! « ممنوع » الايمان بالله • ممنوع التملك •

ممنوع أن يكون للمرء شخصية • الأخوة أو الموت ، ولو قطع مليوناً رأس ، • وقديماً قيل : تعرفونهم من أعمالهم ! ألا لا يذهبن بكم الظن الى أن هذا كله لا أذى فيه ، ولا خطر علينا منه ! لا ••• يجب علينا أن نعمل ، وأن نعمل بأقصى سرعة • ينبغي لمسيحنا ، للمسيح الذى حافظنا عليه ولم يستطيعوا حتى أن يعرفوه ، ينبغي لهذا المسيح أن يشرق ويتألق فى مواجهة الغرب • علينا أن نتصب أمامهم ، لا لنعض صنارة اليسوعية فنصطادنا ، بل لننتف فيهم حضارتنا الروسية • ولا يقل أحد لنا انهم يعرفون كيف يبشرون باناقة ورشاقة ، كما قال واحد منا منذ برهة ••• أجاب ايفان بتروفتش قائلاً وقد لاح فى وجهه قلق شديد ، وأخذ يلقي على ما حوله نظرات دهشة ، بل وطفق يظهر علامات رعب :

- ولكن اسمح لى ، اسمح لى ••• لا شك أن آراءك آراء محمودة ، ولا شك أنها تزرخ وطنية ، ولكن ذلك كله فيه غلو كثير ، فمن الخير أن نقف عند هذا الحد لا نتجاوزه •••

- لا ، ليس ثمة شيء من غلو ، بل ان ما أقوله هو دون الحقيقة ، لأننى عاجز عن التعبير عن فكرى كله ، ولكن •••
- آ ••• اس ••• مع لى !

صمت الأمير جامبداً على كرسيه ، رافعاً رأسه ، راشقاً ايفان بتروفتش بنظرة مشتتة •

قال الشيخ الصغير بلهجة ودود دون أن يخرج عن هدوئه :

- يبدو لى أنك أخذت فعلة صاحبك المحسن اليك مأخذ الفاجعة • ان أعصابك مهتاجة ••• وربما كان مرد ذلك الى العزلة التى تعيش فيها • فلو عاشرت الناس (وأنا آمل أن يحسن المجتمع الراقي استقبال شباب

ممتاز مثلك) لهدأت نائرتك ولوجدت أن هذا كله أبسط كثيراً مما
تصور !... ثم ان هذه الحالات نادرة جداً ... وفي رأيي أن بعضها
يرجع الى شعبنا ، وأن بعضها الآخر يرجع الى ... السأم ..

صاح الأمير يقول :

— نعم ... هذا هو الأمر تماماً • هذه فكرة عظيمة ! انه «السأم» !
ان «سأنا» هو السبب • ليس الشعب هو السبب بل السأم ! هنا جافيت أنا
الصواب • فحن أناس عطاش لم يرتو ظمؤنا • بل قل أن ظمأً محموماً
يلتهمنا التهاماً ! و ... لا تظنوا أن ذلك ظاهرة تبلغ من تفاهة الشأن أنها
لا تستحق منا الا الضحك • معذرة ، يجب على المرء أن يحسن الاحساس
بالأمور قبل وقوعها ، والتنبؤ بالأشياء قبل حدوثها • ان مواطنينا متى لسوا
الشاطيء ، ومتى اطمأنوا الى أنه هو الشاطيء فعلاً ، بلغوا من السرور
والجور أنهم ما يلبثون أن يصلوا من ذلك الى أقصى التطرف • لم هذا ؟
ان حالة بافلتشف تدهشكم ، فاتم تتصورون أنه فقد عقله أو أنه هوى
من فرط طيبته • وليس الأمر كذلك في الحقيقة • ان تحمس النفس
الروسية في مثل هذه الظروف لا يثير دهشتنا نحن وحدنا ، بل يثير دهشة
أوروبا كلها • حين يتقل روسي الى الكاثوليكية فانه لا بد أن يصبح
يسوعياً ، و لابد أن يصبح من أكثر اليسوعيين تطرفاً وتعصباً • واذا
اعتنق الروسي مذهب الاتحاد ، فانه لا يتردد في المطالبة باستئصال الايمان
بالله بحد السيف ! فما سبب التعصب المفاجيء ؟ ألا تعرفون ذلك ؟ سببه
أن الروسي يعتقد أنه اكتشف وطناً جديداً ، لأنه لم يدرك أن له وطناً
هنا ، فاذا هذا الاكتشاف يملؤه فرحاً • لقد وجد شاطيء الأمان ، لقد
وصل الى البر • فما هو ذا يهرع اليه ويغمره بالقبالات ! انه لا يفعل ذلك
من باب الغرور ؟ ان الروس لا يصبحون ملاحدة أو يسوعيين لأن شعوراً
مسكيناً بالزهو قد سيطر على أنفسهم • وانما هم يصبحون ملاحدة أو

يسوعيين بتأثير ظمأ نفسى ، بتأثير حنين الى عالم أرفع وأسمى ، الى أرض ثابتة وطيدة ، الى وطن يحل محلّ الوطن الذى كفوا عن الايمان به لأنهم لم يعرفوه فى يوم من الأيام ! ان الشعب الروسى سهل الانتقال الى الاتحاد ، انه أسهل انتقالاً الى الاتحاد من أى شعب فى العالم . ومواطنونا لا يصبحون ملاحدة فحسب ، بل هم « يؤمنون » بهذا الاتحاد أيضاً ، كأنه دين جديد ، لا يلاحظون انهم بذلك انما يؤمنون بالعدم . فالى هذا الحد نحن عطاش الى الايمان . « من لم يكن تحت قدميه أرض ، لم يكن له اله أيضاً » . ليست هذه الفكرة منى أناء وانما عبّر لى عنها تاجر الثقت به فى سفر . الحقيقة أنه لم يقل هذا الكلام بنصه ، وانما قال : « من يجحد وطنه يجحد الهه أيضاً » . تصوروا أنه قد وجد فى روسيا أناس مثقفون ثقافة عالية اتّموا الى ملة « الحليين » * . . . والحق أننى أسألك لماذا نعد هذه الملة أسوأ من العدميين واليسوعيين والملحدين ؟ ألا ان عقيدتهم قد تكون أعمق من عقيدة هؤلاء . ولكن ذلكم ما يمكن أن يؤدى اليه قلق النفس ! . . . أروا رفاق كريستوف كولومب العطاش الملتهمين ، أروهم شواطئ « العالم الجديد » ؟ اكشفوا للانسان الروسى عن « العالم » الروسى ؟ أتيجوا له أن يجد ذلك الذهب ، ذلك الكنز الذى تخفيه الأرض عن بصره ؟ أظهروه على ما سيتحقق للانسانية كلها من تجدد وانبعث ربما بفضل الفكر الروسى والاله الروسى والمسيح الروسى ؟ افعلوا ذلك كله تروا أىّ عملاق قوى عادل ، حكيم حلیم ، سينتصب قائماً أمام العالم المذهول المروع . ذلك أنهم لا يتوقعون منا الا السيف ، السيف والعنف ، فهم اذ يقيسوننا بمقياس أنفسهم لا يستطيعون أن يتصوروا قوتنا فى صور غير صور الهمجية . ذلك ما كان حتى الآن ، ولسوف ينمو هذا الظن الخطأ مزيداً من النمو فى المستقبل . . . و . . .

غير أن حادثاً وقع فى تلك اللحظة فقطع كلام الخطيب على نحو لم يكن فى الحسبان .

ان هذا الحديث الطويل المحموم كله ، ان هذا السيل المتدفق من الكلام المضطرب المصطخب الذى يعبر عن فوضى من الأفكار المتحمسة المشوشة المتصادمة ، انما كان اذن علامة استعداد عقلى لدى الشاب ، استعداد خطر كل الخطر ، فار وعلى الآن على حين فجأة دون سبب ظاهر .

وقد دُهن من بين الحضور جميع أولئك الذين يعرفون الأمير (حتى لقد شعروا بخجل وخزى) ، دهشوا من اندفاعته هذه التى لاتتفق وما عهدوا فيه من وضع متخبط بل خجول يتسم فى جميع الظروف بكياسة نادرة ولباقة كاملة وشعور فطرى بما يليق التزامه من آداب . ولم يفلحوا فى فهم علة هذا الخروج عن عاداته المهودة فيه ، وهو خروج لا يمكن تعليله حتماً بما انكشف له من أمر بافلتشف . أما فى ركن السيدات فقد عدّ انساناً فقد عقله وأصابه جنون . وقد اعترفت الأميرة بيلوكونسكايا فيما بعد أنها « كانت ستهرب لو دام ذلك المشهد برهة أخرى » . وأما « الشيخان الصغيران » فقد كادا يفقدان سيطرتهما على نفسيهما منذ لحظة الشدة الأولى . اصطنع الجنرال الموظف الكبير هيئة الاستياء والقسوة دون أن يتحرك عن كرسيه . ولزم الكولونيل هدوءاً تاماً ، فلم يحرك ساكناً ولا اهتزت نفسه . وشحب لون الألمانى ، لكنه ظل يتسم ابتساماً زائفاً وهو ينظر فيما حوله ليرى كيف يتصرف الآخرون وبماذا عساهم يردون . وعلى كل حال ، كان يمكن أن تنتهى هذه الفضيحة كلها على أبسط نحو طبيعى ، ربما فى دقيقة واحدة . حتى لقد قام ايفان فيدوروفتش الذى شدّه شديداً قوياً ، ولكنه تاب الى نفسه واسترد هدوءه قبل الآخرين ، قام بعدة محاولات لوقف الأمير ، فلما لم يفلح اقترب منه بشات وعزم . فلو انقضت دقيقة واحدة أخرى لكان

من الممكن ، اذا اقتضت الضرورة ذلك ، أن يقرر اخراجه بلطف ومودة
وصداقة ، زاعماً له أنه مريض ، وذلك زعم قد يكون صادقاً ، وهو على
كل حال زعم كان ايفان فيدوروفتش من جهته مقتنعاً به كل الاقتناع
فلا يخالجه فيه ريب ... ولكن الأمور جرت مجرى آخر ! ...

كان الأمير ، منذ دخل الصالون ، قد مضى يجلس في أقصى مكان
عن اناء الحزف الصيني التي خوفته آجلايا من كسره ذلك التخويف
كله . شئ لا يكاد يصدق العقل : ان الأمير ، بعد الذي قالته له آجلايا
بالأمس ، قد ترسخ في نفسه اقتناع لا سبيل الى مغالته بأنه لن يستطيع
تحاشي كسر هذا الاناء مهما يبذل من جهد لتفادي هذه المصيبة . ذلك
توجس غريب لا يصدق . فاليكم ما حدث : في أثناء السهرة كانت قد
اجتاحت نفس الأمير مشاعر أخرى ، قوية ممتعة في آن واحد ، هي تلك
المشاعر التي سبق أن تحدثنا عنها . وقد صرفته هذه المشاعر عن توجسه
وأمنسته اياه . فلما سمع أحداً ينطق باسم بافلتشيف ، وقاده ايفان
فيدوروفتش الى ايفان بتروفتش ليقدمه اليه ويعرفه به مرة أخرى ،
اقترب من المائدة وجلس على مقعد قرب اناء الحزف الصيني ، الضخم
الرائع ، الموضوع فوق قاعدة في مستوى كوعه تقريباً ، ووراءه قليلاً .

وحين نطق بالكلمات الأخيرة من خطابه نهض فجأة ، وأجرى
ذراعه بحركة واسعة طائشة ، ولفت كفيه على غير ارادة منه ، فاذا ...
اذا بصرخة تدوى منطلقة من أفواه الحضور جميعاً ! لقد ترنح الاناء ،
وترجع في أول الأمر ولاح أنه يهم أن يسقط على رأس أحد الشخين
الصغيرين ، لكنه لم يلبث أن مال الى الجهة الأخرى التي كان فيها
الألماني ، فلولا أن أسرع الألماني يشب من مكانه مرتاعاً لسقط عليه ،
لكنه وقد استطاع الألماني أن يفر منه بمثل لمح البصر سرعة ، هوى على
الأرض ، فأحدث سقوطه قرعة شديدة ردت عليها الحضور بصيحات .

وتتأثر حطامه الثمين على السجادة هنا وهناك ! استولى على الحفل ذعر ودهشة • أما الأمير فمن الصعب بل ومن نافل القول أن نصف عواطفه ! لكننا لا نستطيع أن ننفي أنفسنا من الاشارة الى أن احساساً خاصاً قد اجتاحه في تلك اللحظة عينها وسرعان ما تميز عن احساسات أخرى غيره ، أليمة أو مرعبة • ان الاحساس الذى شدهه وآسره أكثر من أى احساس آخر ، لم يكن هو الشعور بالحجل أو الفضيحة أو الرعب أو المفاجأة ، بل هو الشعور بتحقيق النبوءة ! لو سأله أن يعلل لك ما يشتمل عليه ذلك الشعور من قوة الأسر لما استطاع أن يجيبك ولكنه كان يحس أن هذا الشعور قد حاصر قلبه وملأ نفسه برهبة تكاد تكون غيبية • وانقضت لحظة : بدا له أن كل شئ يتسع من حوله وأن الرهبة تتبدد أمام احساس بالضياء والفرح والنشوة والوجد • انقطعت من ذلك أنفاسه و... ولكن ذلك لم يدم الا مدة قصيرة • الحمد لله ! لم يكن الأمر ما كان يظن • استرد نفسه ، ونظر حوله •

لبث وهلة طويلة كمن لا يشعر بالاضطراب الذى يحيط به ؛ بل قل انه كان يفهم ويرى رؤية واضحة كل ما كان يجرى ، ولكنه كان يحس كأنه فى خارج الحادثة ، كشخص خفى من شخوص الحكايات الخرافية ، يرقب فى حجرة تسلل اليها أناساً غرباء يهيمه أمرهم • رأى حطام الاناء يجمع ، وسمع أحاديث سريعة ، وأبصر آجلايا محدقة اليه : كان وجه آجلايا شاحباً وكانت هيئتها غريبة ، غريبة جداً ، ولكن نظرتها لا تعبر عن أى كره ، ولا تعبر عن أى غضب • كانت تتأمله مرتاعة ، غير أن عينيها زاخرتان بالعطف والمحبة ، بينما هى تلقى على الآخرين نظرات ساطعة ••• فاجتاحت قلبه بهجة لذينة على حين فجأة •

وفى النهاية لاحظ مبهوتاً أن جميع الحضور قد جلسوا ، حتى لقد كانوا يضحكون فكأن شيئاً لم يحدث ! وانقضت دقيقة فاشتد الضحك •

انهم يضحكون الآن من انشدهاه ، ولكنهم يضحكون باشين مرحين ،
 يضحكون بمودة ومحبة • وهؤلاء أشخاص عدة يكلمونه بعبارات فيها
 كثير من الملاحظة ، ولا سيما اليزابت بروكوفينا التى تتكلم ضاحكة وتقول
 كلمات رقيقة غاية الرقة • وها هو ذا يحس بايفان فيدوروفتش يرت
 على كتفه فجأة بكثير من الصداقة • وكان ايفان بتروفتش يضحك هو
 أيضاً • ولكن الشيخ الصغير كان أكثر الحضور بشاشة ولطفاً ومحبة
 ومودة : انه يتناول يد الأمير ويشد عليها برفق ويربت عليها بيده الأخرى ،
 ويناشده أن يهدأ بالاً ويطيب نفساً ، كما يفعل المرء مع طفل اعتراه
 خوف ، فكان لذلك وقعٌ جميل فى نفس الأمير • أخذ الأمير يتأمل وجه
 الشيخ مفتوناً ، وبلغ من شدة الابتهاج أن أنفاسه تقطعت فهو لا يقوى على
 أن ينطق بكلمة واحدة •

وتمتم يقول أخيراً :

— كيف ؟ أصبح حقاً أنكم تغفرون لى ؟ و ... أنت أيضاً
 يا اليزابت بروكوفينا ؟

فاشتد الضحك ، وترقرقت الدموع فى عيني الأمير من التأثير •
 انه لا يستطيع أن يصدق بهجة كهذه البهجة •
 قال ايفان بتروفتش :

— لا شك فى أنه كان اثناءً رائعاً • اننى أعرفه منذ خمس عشرة
 سنة ... نعم ... منذ خمس عشرة سنة ...
 وقالت اليزابت بروكوفينا بصوت عال :

— أهذه كارثة ؟ ان الانسان نفسه الى زوال ، فلا يتحسر المرء على
 جرة من فخار !

ثم أضافت تقول وقد لاح فى وجهها تعبير عن الخوف :

- أصبح أن الأمر أحدث فيك هذا الاضطراب كله يا ليون
نقول لا يفتش ؟ هيّا يا صديقي ! كفاك كفاك ! انك لتخيفني حقاً !
سألها الأمير :

- وهل غفرتكم لى « كل شيء » ؟ لا كسر الاناء وحده ، بل
« كل شيء » أيضاً ؟

وهمّ الأمير أن ينهض ، ولكن الشيخ الصغير أمسك يده ، وأبى
أن يتركه .

همس يقول من فوق المائدة لصاحبه ايفان بتروفش ، ولكن صوته
لم يكن من الخفوت بحيث لا يسمعه الأمير :
- « أمر غريب جداً وخطير جداً » !
قال الأمير :

- ألم أسئ اذن الى أحد منكم ؟ انكم لا تستطيعون أن تتصوروا
مدى السعادة التى تعمرنى حين أتصور أننى لم أسئ الى أحد منكم ، ولم
أجرح شعور أحد منكم ! على أن الأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك :
فأنى لئلى أن يسئ الى واحد مثلكم ؟ ان مجرد افتراض هذا اهانة لكم !

- هدىء نفسك يا صديقي . انك تبالغ . لا داعى الى اظهار هذا
الشكر كله ، بل لا محل لهذا الشكر كله البتة . هى عاطفة جميلة ، لكنها
تتجاوز الحدود .

أنا لست شاكرآ لكم فحسب ، بل أنا معجب بكم أيضاً ، وانى لسعيد
بتأملكم . لعلنى أعبر عن شعورى تعبيراً غنياً ، ولكن لا بد لى من الكلام ،
لا بد لى من الافصاح عما يجول فى خاطرى ، ولو من أجل نفسى .

كانت تعترى الأمير حركات اندفاعية تدل على الاضطراب والحصى .
من الجائز جداً أن كلماته لم تعبر دائماً عما كان يود أن يقوله . كان

يبدو عليه أنه يريد أن يستأذن في الكلام • ووقع بصره على الأميرة بيلوكونسكايا •

قالت الأميرة بيلوكونسكايا :

— لا تخرج يا عزيزي ، لا تخرج • أكمل ، أكمل ، لا تلتفت •
ولكن تكلم بغير خشية أو رهبة • ان هؤلاء السادة قد رأوا أناساً كثيرين
أغرب منك وأعجب ، فلن تدهشهم • يعلم الله أن فهمك أمر عسير ،
لكنك قد كسرت هذا الاناء فأخفت الجميع •

كان الأمير يصفى إليها مبتسماً ، وفجأة سأل الشيخ الصغير قائلاً :

— أأنت الذى ألقذت من النفى ، منذ ثلاثة أشهر ، الطالب
بودكوموف والموظف شفابرين ؟

فاحمر الشيخ قليلاً ، وجمجم بكلام يدعو فيه أن يهدى نفسه •
وأردف الأمير يقول مخاطباً إيفان بتروفتش :

— وعنك أنت سمعت أنك فى مقاطعة ن قد وهبت أخشاب بناء
لفلاحين يسكنون فى أراضيك حين امتحنوا بحريق ، رغم أنهم بعد
انتاقهم كانوا قد أساموا معاملتك •

فقدم إيفان بتروفتش يقول :

— أوه ! هذه مبالغة !

على أن وجهه قد عبّر عن ارتياح واعتزاز • والحق أنه لم يخطئ •
فى هذه المرة حين تحدث عن مبالغة ، ذلك أن الأمر لم يكن الا شائعة
كاذبة وصلت الى مسامع الأمير •

واستأنف الأمير كلامه ملتفتاً الى الأميرة بيلوكونسكايا فقال لها وهو
يتسم ابتسامة مشرقة :

— وأنت يا أميرة ، ألم تكرمى وفادتى وتعاملينى معاملة الابن اعتماداً

على رسالة توصية من اليزابت بروكوفينا ؟ ألم تسدى الى كذلك نصيحة
لن أنساها ما حيت ، كما تصح أم ابنها ؟
قالت الأميرة فى غضب :

- ماذا أصابك ؟ انك لشاب طيب ولكنك مضحك . فاذا نفحك أحد
قرشين أخذت تكيل له الشكر كأنه أنقذ حياتك ؟ أنظن أن هذا حسن ؟
الواقع أن هذا مستقبح مستهجن !

وأوشكت الأميرة بيلوكونسكايا أن تغضب مزيداً من الغضب ،
ولكنها أخذت تضحك على حين فجأة ، وكان فى ضحكها هذه المرة بشاشة
ومودة . فهدأ وجه اليزابت بروكوفينا أيضاً ، وأشرق محياً لافان
فيدوروفتش .

تمتم الجنرال بلهجة الارتياح والفرح مردداً كلمات الأميرة
بيلوكونسكايا التى أثرت فيه تأثيراً كبيراً :

- لقد قلت حقاً أن ليون نيقولايفتش رجل يبلغ من ال ٠٠٠ رجل
يمكن أن ٠٠٠ على شرط أن لا يلتفت ويختلق أثناء الكلام ، كما نبّهت
الأميرة الى ذلك ٠٠٠

وكانت أجلايا وحدها تبدو حزينة . ومع ذلك كان وجهها ما يزال
مصطبغاً بحمرة ، ربما من أثر الاستياء .

كرر الشيخ الصغير يقول لافان بتروفتش :

- حقاً انه لطيف جداً .

كان الأمير فى حالة اضطراب ما ينفك يزداد . وها هو ذا يستأنف
الكلام فيقول بتدفق يتسارع أكثر فأكثر ، تدفق غير عادى ، تدفق مندفع
حار محمود :

- لقد دخلت الى هنا معذب القلب ، و ٠٠٠ وكنت خائفاً منكم ،

وكنت خائفاً من نفسي • كنت خائفاً من نفسي خاصة • حين عدت الى بطرسبرج كنت قد آليت على نفسي لأعرفن أناس الطبقة الأولى مهما كلف الأمر ، أولئك الذين ينتمون الى أسر عريقة أنتهى أنا الى واحدة منها بالوراثة • أنا الآن بين أمراء مثلى ، أليس كذلك ؟ كنت أريد أن أتعرف اليكم ••• كان ذلك أمراً لا بد منه ، لا بد منه قطعاً ! لقد طالما سمعت عنكم سوءاً كثيراً ، لقد سمعت عنكم من السوء أكثر مما سمعت عنكم من الخير • حدثت عن ضيق فكركم ، عن فقر اهتمامكم ، عن رجعية عقلكم ، عن ضحالة ثقافتكم ، عن سخافة عاداتكم • آه •• ما أكرر ما يكتب عنكم من أمور ! لذلك كنت زاحر النفس بحب الاطلاع وشدة القلق حين جئت الى هنا اليوم • كان ينبغي لى أن أرى بعينى ، وأن أفكر بعقلى ، وأن أكوّن لنفسي اقتناعاً شخصياً عن السؤال التالى : هل صحيح أن الطبقة العليا من المجتمع الروسى تافهة لا تساوى شيئاً ولا تصلح لشيء ، وأن زمانها قد مضى ، وأن حيويتها قد نضبت ، وأنها أصبحت عاجزة عن أى شيء الا أن تموت ، وأنها رغم ذلك ما تزال مصرة اصراراً عنيداً بدافع الغيرة الحفيرة على أن تحارب رجال ••• رجال المستقبل ، وأن تسدّ أمامهم الطريق ، دون أن تدرك أنها هى نفسها تُحتضر وتلفظ أنفاسها الأخيرة ؟ صحيح اننى كنت لا أصدق كثيراً هذه الآراء ، لأن بلادنا روسيا لم تضم فى يوم من الأيام طبقة ارسقراطية حقاً ، اللهم الا رجال البلاط الذين تميزوا بزيّهم الرسمى أو تميزوا بمصادفة • ولكن تلك الطبقة قد زالت الآن زوالاً تاماً ، أليس الأمر كذلك ؟

قال ايفان بتروفتش وهو يضحك ساخراً بخبث ومكر :

— دعك من هذا الكلام ! ليس الأمر كذلك !

فدمدمت الأميرة بيلوكونسكايا تقول نافذة الصبر :

— ها هو ذا يستأنف. . . .

فقال الشيخ الصغير بصوت خافت :

— دعوه يتكلم ! * ان جسمه كله يرتجف !

كان الأمير قد خرج عن حالته الطبيعية قطعاً . وانطلق يقول :

— فماذا رأيت هنا ؟ رأيت أناساً يفيضون لطاقة فكر ، وصراحة قول ، وقوة ذكاء . رأيت شيخاً وقوراً ينتبه الى صبيٍ مثل انتباهاً زاهراً بالمعاطفة والمحبة ، ويصنئ الى كلامه حتى النهاية . وأرى أناساً قادرين على أن يفهموا وأن يغفروا . وهؤلاء أناس روس طيبون لا يكادون يقلون طيبة وميلاً الى المودة والصدقة عن أولئك الذين لقيتهم هناك؛ وهم لا يقلون عنهم قيمة على كل حال . فهل ثمة مفاجأة أحلى من هذه المفاجأة ؟ آه اسمحوا لي أن أفصح عن شعوري هذا ! سمعت الناس كثيراً يقولون ان كل شيء في المجتمع الراقي لا يبدو أن يكون آداباً سطحية ومحافظة على الشكل البالية ، أما نسيج الحياة فقد جف . وكثيراً ما اعتقدت أنا بصدق هذا الكلام . ولكنني أرى الآن رؤية العين أن هذا لا يمكن أن يصدق على بلادنا . هل يمكن أن يصدق المرء أنكم الآن جميعاً يسوعيون ودجالون ؟ منذ قليل سمعت قصة الأمير ن : أليست تشتمل على فكاهة زاخرة بالصدق والعفوية ؟ أليست تشتمل على طيبة حقيقية ؟ هل يمكن أن تخرج أقوال كهذه الأقوال من فم رجل ميت ، من فم رجل جف قلبه ويبست موهبته ؟ هل كان في وسع أموات أن يستقبلوني كما استقبلوني ؟ أليس في هذا عنصر للمستقبل يجيز لنا أن نتصور أجمل الآمال ؟ هل يمكن أفراداً مثلكم أن لا يدركوا وأن يبقوا في خلف ؟

قال « الموظف الكبير » ، وهو يتشم ابتسامة فيها قليل من السخر :

— أرجوك • هدىء نفسك يا صديقى العزيز • ستتكلم عن هذا كله
فى يوم آخر ، وسيسررنى كثيراً أن ...

وتتنحى ايفان بتروفتش والتفت على مقعده • وعاد ايفان فيدوروفتش
يضطرب ويتحرك • ان رئيسه الجنرال شغل بالحديث مع زوجة الموظف
الكبير ، وأصبح لا يولى الأمير أى انتباه • ولكن السيدة تصنى الى الموظف
الكبير باحدى اذنيها ، وكثيراً ما كانت تنقل بصرها الى الأمير •

تابع الأمير كلامه يقول باندفاعه محمومة جديدة مخاطباً الشيخ
الصغير بلهجة الثقة بل وبلهجة المسارّة :

— لا ، لا ، ان الأفضل أن أتكلم ! ان آجلايا ايفانوفنا قد حظرت
علىّ بالأسس أن أتكلم ، حتى لقد حددت لى مواضيع يجب أن لا أقاربها ،
فهى تعلم أننى أكون مضحكاً حين أعالج أشال تلك المواضيع • أنا فى
السنة السابعة والعشرين من عمرى ، ولكنى أدرك أن سلوكى سلوك
طفل • لا يجوز لى أن أعبر عن فكرى • قلت هذا منذ زمن طويل •
لم أستطع أن أتكلم بصراحة ، مفتوح القلب ، الا فى موسكو ، مع
روجويين ... قرأنا بوشكين معاً ، قرأناه كاملاً • كان هو لا يعرفه ؟
كان لا يعرف حتى اسم بوشكين • ما زلت أخشى أن تفسد هيئتى المضحكة
فكرى ، وأن تحط من قدر « الفكرة الرئيسية » • ان حركاتى و اشاراتى
غير موفقة • انها تجيء فى غير محلها وأوانها ، فتثير الضحك وتفسد الفكرة •
ينقصنى أيضاً حس الاعتدال والقصد • وذلك أمر خطير ، بل هو أخطر
شئ ... أنا أعلم أن خير ما أفعله هو أن أبقى ساكناً لا أتحرك ، وصامتاً
لا أتكلم • فحين أسكن وأصمت يمكن أن أبدو للناس عاقلاً بل عاقلاً
جداً ، ويتاح لى غدا ذلك أن أفكّر • ولكن من الأفضل الآن أن أتكلم •
انكم تنظرون الىّ بترحيب كبير وبشاشة عظيمة ، لذلك قررت أن اتكلم •

ان فى ملامح وجوهكم فتنة رائحة • لقد وعدت آجلايا ايفانوفنا بالأمس أن
أصمت طوال السهرة ...

قال الشيخ الصغير وهو يتسم :

— « حقا » ؟

— غير أن هناك لحظات أقول فيها لنفسى ان هذا التفكير خطأ ،
فالصدق المخلص يساوى حركة موفقة • أليس كذلك ؟ أليس هذا
صحيحاً ؟

— أحياناً •

— أريد أن أشرح لكم كل شيء ، كل شيء ، كل شيء ! آ ...
نعم !... أتظنون اننى امرؤ خالى ؟ مثالى ؟ لا ، لا ؛ يميناً ان أفكارى
كلها بسيطة كل البساطة ... ألا تصدقوننى ؟ أتتسمون ؟ اسمعوا ...
أنا فى بعض الأحيان جبان لأننى أفقد الايمان بنفسى • منذ قليل ، حين
كنت آنياً الى هنا ، تساءلت : « كيف عسانى أكلهم ؟ ما هى العبارات التى
أستهل بها الحديث حتى يفهموا عنى ولو قليلاً ؟ » ، شعرت بخوف شديد ،
ومنكم أتم انما خفت • فهل كان من حقى أن أخاف ؟ ألم يكن خوفى
شيئاً مخجلًا معيياً ؟ أى ضير فى أن يوجد أمام انسان تقدمى جمهور
كبير من الرجعيين والشريرين ؟ على أن فرحى الآن ناشئ عن اقتناعى
بأن ذلك الجمهور لا وجود له فى الواقع ، وأن ليس ثمة الا عناصر
زاخرة بالحياة • ثم انه ما ينبغي لنا أن يث الاضطراب فى نفوسنا أن
تصور أننا مضحكون ، أليس كذلك ؟ الحق أننا مضحكون • فنحن خفاف
طاشون ، ونحن ذوو عادات سخيفة مؤسفة ، ونحن نضجر ونمل ،
لا نريد أن نرى ولا أن نفهم • نحن جميعاً هكذا ، جميعاً ، أتم ، وأنا ،
وهم أيضاً • آه ... لا يزعلنكم أن تسمعونى أقول لكم وجهاً لوجه

انكم مضحكون ؟ واذا كان الأمر كذلك ، أفلا يمكن أن تُعدّوا صنّاع
تقدم ؟ بل اننى لأقول لكم ان من الخير فى بعض الأحيان أن يكون المرء
مضحكاً ، فيكون الناس أميل الى الصفح والتواضع . انه لم يوهب لنا أن
نفهم كل شيء جملة واحدة ؛ والانسان لا يبلغ الكمال دفعةً واحدة ! فمن
أجل الوصول الى الكمال ، يجب فى أول الأمر أن لا يفهم المرء أشياء
كثيرة . فمن يدرك بسرعة مفرطة يدرك ادراكاً فاسداً فى أغلب الظن .
اننى أقول هذا لكم ، لكم أتمم الذين أمكن أن تفهموا أشياء كثيرة جداً
... دون أن تفهموها . لقد أصبحت الآن لا أخشى من جانبكم شيئاً .
فانكم تصغون بغير غضب الى صبي مثلى يكلمكم بهذه اللهجة ، أليس
كذلك ؟ قطعاً ! أوه ... لسوف تستطيعون أن تنسوا ... لسوف
تستطيعون أن تغفروا لأولئك الذين أساءوا اليكم ، ولأولئك الذين لم
يسئوا اليكم ، على حد سواء ؛ والأصعب أن تغفروا للذين لم يسئوا
اليكم فى شيء ، وذلك لسبب بسيط هو أنهم لم يذنبوا فى حقكم «البته» ،
وأن شكواكم منهم لا تقوم اذن على أساس . ذلكم ما كنت أنتظره من
أهل المجتمع الراقى ، ذلكم ما كنت أتعتجل أن أقوله لكم حين كنت آتياً
الى هنا دون أن أعرف العبارات التى يجب على أن أستعملها فى التعبير عنه
.. أتضحك يا ايفان بتروفتش ؟ أنت تعتقد أننى ديموقراطى ، اننى داعية
من دعاة المساواة ، اننى هنا محام « عنهم » ، وأننى « عليهم » خائف ، أليس
كذلك ؟ (أضاف الأمير هذا وهو يطلق ضحكة تشنجية ؛ ولقد كان فى
كل لحظة يطلق ضحكة صغيرة متقطعة متحمسة) . فاعلم اذن اننى عليكم
خائف ، عليكم جميعاً وعلينا جميعاً فى آن واحد . أنا نفسى أمير من سلالة
قديمة أجلس الآن مع أمراء . اننى أتكلم عن سلامتنا المشتركة ، عن
خلاصنا المشترك ، حتى لا تندثر طبقتنا وتغيب فى الظلمات بغير نفع ، لأنها
لم تتبأ بالمستقبل ولم تزد على أن تشاجرت وفقدت كل شيء . لماذا نزول

ونخلي مكاننا للآخرين بينما نحن نستطيع أن نحتفظ بمكاننا في الطليعة على رأس المجتمع ؟ لكن تقديمين فبقى نحن الأوائل • فلنصبح خداماً لنكون نحن الأعلى •

وهم فجأة أن ينهض عن مقعده ، لكن الشيخ العجوز ظل ممسكاً به يحدّق إليه بعينين يزداد قلقهما لحظة بعد لحظة •

- اسمعوا ! أنا أعرف أن الكلام لا ينفع • وأن الأفضل أن ندعو الى الخير بالقوة والعمل ••• ولقد بدأت •• و •• و ••• هل يمكن حقاً أن يكون المرء شقياً ؟ أوه ! •• ما قيمة حزني وشقائي اذا كنت أحسن أننى أملك القدرة على أن أكون سعيداً ؟ اعلّموا اننى لا أفهم أن يمرّ امرؤ بشجرة دون أن يشعر لمرآها بالسعادة ، أو أن يكلم انساناً دون أن يسعد بحبه ••• أوه ! ان الكلمات تعوزني للتعبير عن هذا ••• ولكن ما أكثر الأشياء الجميلة التى نراها عند كل خطوة نخطوها ، والتى يحس بجمالها كل انسان مهما يكن متديناً ! انظروا الى الطفل ، انظروا الى فجر الاله الخالق ، انظروا الى العشب الذى ينبت فى الأرض ، انظروا الى الأعين التى تتأملكم وتحبكم •••

فى أثناء هذا الخطاب الطويل كان الأمير قد نهض وهو يتكلم • وكان الشيخ الصغير يتابعه بنظراته مرتاعاً • ولوّحت اليزابت بروكوفينا بذراعيها وصاحت تقول : « آ ••• رياه ! ••• » • كانت قد حزرت ما يجرى ، قبل سائر الحضور • وهرعت آجلايا نحو الأمير فأمكنها أن تصل اليه فى اللحظة المناسبة لتتلقى سقوطه بذراعيها • كانت الفتاة مصعوقة من الرعب ، منقلبة السحنة من الحزن ، وقد سمعت العويل الوحشى « للروح التى رنّحت الشاب المسكين وطرحته أرضاً » • ان الأمير يسجد الآن على السجادة وقد أسرع أحدهم قدس تحت رأسه وسادة • لم يكن أحد يتوقع هذه الخاتمة • وحاول الأمير « ن » وأوجين

بافلوفتش والشيخ الصغير ، بعد ربع ساعة ، أن يمدوا الى السهرة حياتها ونشاطها ، ولكن ما انقضى نصف ساعة حتى انفض المدعوون جميعاً دون أن يفوتهم طبعاً أن يعبروا عن مواساتهم وأسفهم ممزوجين بتعليقات على الحادث . قال ايفان بتروفتش فيما قال ان رأيه هو « أن الشاب متعصب للسلافية * ، أو هو يدين بشيء من هذا القليل ، ولكن حالته ليست خطرة » . ولم ينطق الشيخ المعجوز بكلمة واحدة . صحيح أن الجميع قد زعلوا كثيراً أو قليلاً في غد أو في غداة غد . حتى ان ايفان بتروفتش شعر بأن كرامته قد أهنت ، ولو اهانة يسيرة . ورئيس ايفان فيدوروفتش أظهر لمرموسه شيئاً من الجفاء مدةً من الوقت . و « الموظف الكبير » ، « حامى » أسرة ايباتشين أصدر هو أيضاً ، من جهته ، ملاحظات متفخمة عن رب الأسرة ، ولكنه أضاف إليها عبارات لطيفة أنه شديد الاهتمام بمصير آجلایا . الواقع أنه رجل لا يخلو من طيبة ، ولكن من الأسباب التي أثارته اهتمامه بالأمير في ذلك المساء ، ما كان قد سمعه عن قصة العلاقات السابقة التي قامت بين الأمير وبين ناستاسيا فيليوفنا . ان الأشياء القليلة التي سمعها عن هذا الأمر قد حيرته حيرة شديدة ، وكان يود لو يلقى أسئلة حول هذا الموضوع .

قالت الأميرة بيلوكونسكايا لاليزابت بروكوفينا بعد السهرة ، لحظة الانصراف :

— ما عسى أقول لك ؟ انه حسن وانه سيء . واذا أردت معرفة رأيي صريحاً قلت لك انه الى السوء أقرب . انك لترين بنفسك ما نوعه رجلاً : انه مريض !

قررت اليزابت بروكوفينا في قرارة نفسها أن الأمير « لا يمكن » أن يكون لابنتها خطيئاً . وفي الليل حلفت لنفسها أنه « لن يتزوج آجلایا ما بقيت هي على قيد الحياة » . وقد استيقظت في الصباح على هذه الحال

نفسها وهذا العزم نفسه • ولكنها وقعت في تناقض واضح عند الغداء بعد الظهر بقليل •

ذلك أن آجلايا قد أجابت عن سؤال ألقته عليها أختها (بكثير من اللباقة والكياسة في الواقع) ، فقالت بلهجة باردة لكنها متعطرة :
 - أنا لم أقطع له عهداً قط ، ولا عدته خطيبي في يوم من الأيام •

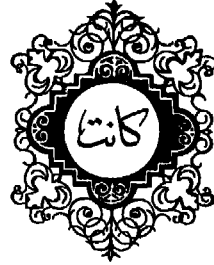
اننى لا أكثر به أكثر مما أكثر بأى شخص •

فما كان من اليزابت بروكوفينا الا أن ابترت تقول بلهجة حزن :

- لم أكن أتوقع منك لغة كهذه اللغة ! أنا أعلم أنه لا يصلح لك زوجاً ، والحمد لله على أن الأمر انتهى هذه النهاية ! ولكننى ما كنت لأصدق أن يصدر عنك كلام مثل هذا الكلام ! كانت فكرتى عنك مختلفة عما أراه الآن فيك كل الاختلاف • أنا من جهتى كان يمكننى أن أطرد جميع ضيوف الأمس ولا أحتفظ بأحد غيره • ذلك هو رأى فيه !...•

قالت اليزابت بروكوفينا ذلك وصمتت فجأة كالمرتاغة مما قالت •
 آه ... ليتها علمت كم كانت ظالمة لايتها في تلك اللحظة ! كان كل شيء قد تقرر في ذهن آجلايا • ان آجلايا أيضاً كانت تنتظر ساعتها ، ساعتها الحاسمة ؟ وكان كل تلميح طائش أو الماع متهور يحدث في قلبها جرحاً عميقاً •

الفصل الثامن



بداية ذلك الصباح متأثرة لدى الأمير أيضاً
 باحساسات أليمة • ولقد كان يمكن تفسير تلك
 الاحساسات بحالته المرضية • غير أن حزنه كان
 يخالطه شيء يبلغ من صعوبة التحديد أن ذلك
 بعينه كان سبب عذابه • صحيح أنه كان ازاء وقائع محسوسة ملموسة ،
 دقيقة دقة أليمة مشجية ، لكن حزنه يمتد الى أبعد من كل ما كان
 يتذكره أو يتخيله • وكان يدرك أنه لن يستطيع وحده أن يهدئ قلقه •
 وشيئاً فشيئاً ترسخ في نفسه انتظار حادث خارق حاسم سيقع له في ذلك
 اليوم ذاته • ان النوبة التي اعترته في الليلة البارحة أخرى أن تُعدّ نوبة
 بسيطة ؛ حتى انها لم تخلف من الاضطرابات غير نوع من السوידاء ،
 وشيء من الثقل في الرأس ، وآلام في الأعضاء • وكان ذهنه صافياً ، رغم
 أن نفسه كانت مثقلة • لقد صحا من نومه في ساعة متأخرة ، فسرعان
 ما عاودته ذكرى السهرة الماضية واضحة وضوحاً تاماً • حتى لقد وعى
 أنه نُقل الى منزله بعد النوبة بنصف ساعة •

وعلم أن أسرة ايبانتشين أرسلت تسأل عن صحته • ثم أرسلت
 تسأل عن صحته مرة ثانية في الساعة الحادية عشرة والنصف • فأبهبه
 ذلك • وكانت فيرا ليديفا من أوائل الأشخاص الذين زاروه وقدموا له
 خدماتهم • لقد أجهشت تبكي فجأة منذ رآته • ولكنها أخذت تضحك
 حين هدأ الأمير روعها • وتأثر هو تأثراً قوياً بهذا العطف الذي أظهرته

له الفتاة فتناول يدها وقبلها ، فاحمرت الفتاة وهفت تقول مروعة وهي تسحب يدها بسرعة :

— آه ... ماذا تفعل ؟ ماذا تفعل ؟

ولم تلبث أن غادرت الغرفة مضطربة اضطراباً خاصاً ، ولكن وقتها قد اتسع لأن تروى للأمير أن أباهما أسرع في الصباح المبكر الى بيت « المتوفى » (بذلك سمّت الجنرال ايفولجين) ، ليسأل هل مات في الليل . وأضافت أن الرأي مجمع على أن المريض لن يعيش مدة طويلة .

وحين عاد ليديف الى داره قبل الظهر ، جاء الى الأمير بنفسه ، قائلاً انه « لن يمكث الا دقيقة واحدة » ، وانه لا يريد الا أن يطمئن عن صحة الأمير « انغالية » ، النخ . هذا عدا أنه يريد أن يزور « خزائنه الصغيرة » . وكان لا يتوقف عن الشكوى والأين واطلاق الصيحات تلو الصيحات ، فلم يلبث الأمير أن طرده ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يتجرأ فيلقى أسئلة عن النوبة التي اعترت الأمير في الليلة البارحة ، رغم أنه كان واضحاً أنه يعرف الأمر بأدق تفاصيله .

وبعد ليديف وصل كوليا مسرعاً ، وقال هو أيضاً انه لا يريد أن يمكث الا دقيقة واحدة . ولكن كوليا كان صادقاً حقاً ، وكان يستبد به اضطراب عارم وقلق قائم . وقد بدأ كلامه بأن سأل الأمير صريحاً جازماً ملحاً أن يوضح له كل ما كانوا يخفونه عنه ، وأضاف أنهم قد أعلموه بالأمس كل شيء تقريباً . لقد كان انفعاله عنيفاً عميقاً .

أطلعته الأمير على حقيقة الأمر بكل ما يحمله قلبه من مودة ويضمرة من محبة . عرض عليه الوقائع بدقة تامة . فكان وقعها على الفتى المسكين كوقع الصاعقة ، فلم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة ، وطفق يبكي صامتاً . وأحس الأمير أن هذا انطباع من الانطباعات التي لا تمحى من النفس في

يوم من الايام ، والتي لا بد أن تكون منعطفًا حاسمًا في حياة مراقق •
وأُسرع يطلعه على الطريقة التي سيعالج بها الأمر ، مضيًا الى قوله أن
موت المجوز ، في رأيه ، ربما كان يرجع خاصةً الى الارتياح الذي
خلّفه في قلبه العمل السيء الذي اقترفه ، وأن هذا التأثير قد لا يقدر عليه
سائر الناس •

سقطت عينا كوليا حين أنهى الأمير كلامه ، وقال :

— ما أحقر جانبا وفاريا وبتسين ! لن أشاجرهم ، لكن كلاً منا
سيسير بعد اليوم في طريقه ! آه يا أمير ، لقد شعرت منذ أمس بعواطف
جديدة كثيرة • هذا درس لى ! اننى أرى الآن أن على أن أكفل معيشة
أمى وأن أمى لها ما تحتاج اليه • انها على كونها فى منجى من العوز عند
فاريا ، فليس ...

وتذكر كوليا أنهم ينتظرونه فأُسرع ينهض ؛ ثم سأل الأمير عن
صحته متعجلاً ، فلما أجابه الأمير عن سؤاله قال له بحرارة :

— أليس هناك شيء آخر ؟ لقد سمعت أنه بالأمس ... (على اننى
لا شأن لى أنا بهذا) ... ولكن اذا احتجت فى أى يوم من الأيام الى
خادم وفى مخلص ، لأى أمر من الأمور ، فان هذا الخادم واقف الآن
أمامك • يخيّل الى أننا لسنا سعيدين ، لا أنت ولا أنا ، أليس كذلك ؟
ولكن ... ولكنى لا أسألك ... لا أسألك ...

وحين انصرف كوليا غرق الأمير فى أفكاره مزيداً من الفرق
العميق • ان صحبه كافة يتبأون له بالشقاء ؛ انهم جميعاً قد خلصوا الى
تائجهم ؛ هم جميعاً يلوح عليهم أنهم يعرفون شيئاً يجعله هو • ليديف
يلقى أسئلة مستخفية ؛ كوليا يلمّح تلميحات مباشرة ، فيرا تبكى • وحرك

الأمير يده أخيراً بإشارة غضب قائلاً لنفسه : « لعن الله سوء الظن » انه مرض ! » •

وفى نحو الساعة الثانية ، استرد وجهه هدوء حين رأى السيدات ايباتشين يجئن اليه زائرات « مدة دقيقة واحدة » • ان زيارة دقيقة واحدة هي التي جاءت بهن فعلاً • لقد أعلنت اليزابت بروكوفينا بعد الغداء رأساً ، أنهم سيخرجون لنزهة يشتركون فيها جميعاً • قالت ذلك بلهجة آمرة ، قاطعة ، جافة ، دون شرح أو تعليل • وخرج الجميع ، أى الأم والآسات والأمير « شتت • • • » • وسرعان ما سارت اليزابت بروكوفينا فى اتجاه هو عكس الاتجاه الذى يسرون فيه كل يوم • فأدرك الجميع ما تنبؤ ، لكنهم لزموا الصمت مخافة أن يثيروا غضب ماما التى كانت تمشى فى طبيعتهم دون أن تلتفت ، كأنها تريد أن تتحاشى اللوم أو الاعتراض • ونبّهتها أدبلايد أخيراً الى أنه ليس من الضرورى أن يركضوا هذا الركض كله للقيام بنزهة ، وأنهم عاجزون عن مجاراتها فى السير بهذه العجلة •

قالت اليزابت بروكوفينا وهى تلتفت الى وراء :

— بالنسبة : نحن الآن قريبون من بيته • وهو قريبنا على كل حال ، مهما يكن رأى آجلايا ، ومهما يحدث من بعد ؛ لا سيما وأنه الآن شقى ومريض • أنا على الأقل سوف أزوره حتماً • فمن شاء صحبنى ، ومن شاء أكمل نزهته •

دخل الجميع طبعاً • وبادر الأمير يعتذر مرة أخرى عن كسر الاناء الذى تهشم بالأمس • • • وعن الفضيحة التى وقعت • • • فأجابت اليزابت ألكسندروفنا تقول :

— دعك من هذا • لم يحدث شيء ذو بال • ليس تحطم الاناء هو

ما يؤلنى ، وانما تؤلنى حالتك أنت • انك تعترف الآن اذن بأن فضيحة قد وقعت : لا يدرك المرء ما حدث الا فى الغداة !... على أن هذا نفسه لا قيمة له ، لأن كل واحد يرى الآن أنك غير مسئول • هيّا ، الى اللقاء ! اذا شعرت بقدرة على القيام بنزهة فافعل ، ثم نم قليلاً مرة أخرى • هذه نصيحتى لك • واذا بدا لك أن تزورنا كما كنت تزورنا فى الماضى فلا تحجم • عليك أن تثق الى الأبد بأنك ستظل صديق أسرتنا أو صديقى أنا على الأقل ، مهما يحدث من أمر ، ومهما ينتج من نتائج • أنا أضمن نفسى على الأقل ...

وبادر الجميع يشنون عواطف الزبابت بروكوفينا ، ويشنون عليها • ثم خرجوا ينصرفون • غير انهم باستعجالهم الساذج فى قول كلام يلاطف المسكين ويواسيه ويقوى عزيمته قد ارتكبوا قسوة لم تستطع الزبابت بروكوفينا حتى أن تفتن اليها • ان دعوته الى أن يزورهم « كما كان يزورهم فى الماضى » ، وكذلك قصر صداقته عليها هى (« صديقى أنا على الأقل ») ، ان ذلك كان بمثابة تنيه •

ولقد تذكر الأمير وضع آجلایا • صحيح أنها ابتسمت له ابتسامة أخاذة حين دخلت وحين خرجت ، ولكنها لم تنطق بكلمة واحدة ، حتى حين أكد الآخرون صداقتهم • ومع ذلك تبّنت نظرها عليه مرتين • كان وجهها أشد شحوباً مما عهد فيه من شحوب ، كأنها قضت ليلة مسهّدة • وقرر الأمير أن يزورهم حتماً فى مساء ذلك اليوم نفسه « كما كان يزورهم فى الماضى » • ونظر الى ساعته محمواً •

بعد خروج آل ايباتشين بثلاث دقائق ، دخلت فيرا • وقالت له :

— ليون نيقولايفتش ، عهدت الى آجلایا ايقانونفا منذ هنيهة بأن أنقل اليك رسالة سرية •

انفعل الأمير انفعلاً بلغ من القوة أنه أخذ يرتجف • وقال يسألها :

- رسالة مكتوبة ؟

- لا ، ان وقتها لم يكده يتسع لأن تحملنى الكلمات التى أقولها لك : انها ترجوك ملحةً أن لا تغيب عن بيتك طوال النهار دقيقة واحدة ، الى الساعة السابعة أو حتى الساعة التاسعة • انتى لم أسمع كلامها دقيقاً واضحاً فى هذه النقطة •

- ولكن لمَ هذا ؟ ما معناه ؟

- لا أدرى • لكنها كلفتنى أن أنقل اليك هذه الرسالة أمرةً أمراً صارماً ؟

- أهى استعملت تعبير « الأمر الصارم » ؟

- لا ، لم يكن تعبيرها واضحاً هذا الوضوح كله • ان وقتها لم يكده يتسع لأن تكلمنى ملتفتة • من حسن الحظ انتى دنوت منها • ولكن المرء يقرأ فى وجهها أنها تأمر أمراً ، سواء أكان الأمر صارماً أم لم يكن كذلك • لقد ألفت على نظرة انخلع لها قلبى •••

ألقي الأمير سؤالين أو ثلاثة أسئلة أخرى ، لكنه لم يعلم أكثر مما علم • وفى مقابل ذلك اشتد قلقه • حتى اذا خلا الى نفسه تمدد على الديوان وعاد الى تخميناته : « قد يكون عندهم أحد قبل الساعة التاسعة ، فهى تخشى أن أقارف شذوذاً آخر وأن أمير فضيحة جديدة أمام الزوار » كذلك قال لنفسه أخيراً وعاد ينتظر حلول المساء نافذ الصبر ناظراً فى ساعته •

لكن حل اللغز قد جاءه قبل حلول المساء بمدة طويلة ، جاءه فى صورة زيارة جديدة بل فى صورة لغز ثانٍ لا يقل عن الأول اقلاقاً : فبعد انصراف آل ايباتشين بنصف ساعة تماماً حضر اليه هيو ليت •

كان هيبوليت متعباً مرهقاً مهدّماً ، فلم يستطع أن يقول كلمة واحدة بل تهاوى على أحد المقاعد تهاوياً كمن أغمى عليه ، واعتزته نوبة سعال رهية أخذت تهزّه هزّاً قوياً ، وكان السعال مصحوباً ببصقات دم . ان عينيه تلتصمان ، وان بقعاً حمراً تظهر على خديه . دمدم له الأمير بضع كلمات لم يجب عنها ، مقتصراً أثناء مدة طويلة على تحريك يده بإشارة معناها أن يُترك مرتاحاً . حتى اذا استرد شيئاً من قوته ، قال بجهد ظاهر وصوت أبع :

– أنا ذاهب !

فقال الأمير يسأله وهو ينهض :

– أتريد أن أصحبك ؟...

لكنه توقف فجأة اذ تذكر أنه مُنع من الخروج منذ قليل .

فأخذ هيبوليت يضحك . وتابع يقول بذلك الصوت المحشرج المختنق نفسه :

– لست ذاهباً من عندك . بالعكس : لقد رأيت من اللازم أن أجيء اليك لأحدثك فى أمر من الأمور . . . ولولا ذلك ما أزعجتك . أنا ذاهب من عندهم . وأحسب أن المسألة فى هذه المرة جد لا هزل . انتهى كل شئ . لا أقول هذا التماساً للشفقة ، أؤكد لك . . . حتى لقد استلقت هذا الصباح على فراشى مقررأ. أن لا أغادره قبل حلول « تلك اللحظة » لكنى عدلت عن ذلك الرأى ونهضت مرة أخرى لأجىء اليك . معنى ذلك أن مجيئى كان لا بد منه .

– منظرِكَ مؤلم . كان أحرى بك أن تستدعيتى لأن تحمّل نفسك عناء المجيء .

– طيب . كفى هذا الآن . لقد رثيتَ لخالى ، فقمّت بما توجهه آداب

المجتمع ، ومقتضيات الكياسة والذوق والتهديب • آ ••• نسيت : كيف
صحتك أنت ؟

- صحتي الآن حسنة • ولم تكن أمس كذلك ••• تماماً !

- أعرف • ذُكر لك هذا • وكان انا الحزف الصيني هو الضحية •
خسارة أنتي لم أكن هناك ! ولكن فلنصل الى الأمر الذي أريد الكلام فيه •
أولاً : لقد سعدت اليوم برؤية جبريل آرداليونوفتش يوافي آجلايا
ايفانوفتش في موعد مضروب قرب الدكة الخضراء ••• وأعجبت أعظم
الاعجاب بمدى ما يمكن أن يظهر في هيئة انسان من حماقة وغباء • وقد
ذكرت هذه الملاحظة لآجلايا ايفانوفنا نفسها بعد انصراف جبريل
آرداليونوفتش •••

ثم أضاف هينوليت يقول وهو ينظر مرتاباً الى وجه محدثه الذي
لم يكن يعبر عن شيء :

- أظن أنك أنت لا يدعشك شيء يا أمير • يقال ان من علامات قوة
الفكر أن لا يدعش المرء شيء • أما أنا ففي رأيي أن ذلك يمكن أن
يكون علامة غباء عميق أيضاً !••• على كل حال ، لست أعنيك أنت حين
أقول هذا الكلام ••• معذرة ••• انني اليوم غير موفق في اختيار
تعبيري •

بدأ الأمير يتكلم فقال :

- كنت أعلم منذ أمس أن جبريل آرداليونوفتش •••
لكنه لم يلبث أن صمت فجأة وقد اضطرب اضطراباً واضحاً مع أن
هينوليت قد ساءت قلة انفعاله •

- كنت تعلم ذلك ؟ هذا نبأ حقاً !••• على كل حال ، لا تكلف
نفسك عناء أن تحكي لي ••• ألم تشهد لقاء اليوم أيضاً ؟•••

— لا بد أنك تعرف الجواب ، ما دمت قد حضرت اللقاء !
— لملك اختبأت وراء دغل • على كل حال ، أنا مسرور لك طبعاً ،
لأننى كنت أظن فى السابق أن جبريل آرداليونوفتش قد حلَّ عندها
• محلك •

— أرجوك أن لا تكلمنى فى هذا الأمر يا هيوليت ، خاصةً بهذه
• اللهجة •

— لا سيما وأنت تعرف كل شيء •
— أنت مخطيء • لم أطلع على شيء تقريباً ؛ وإن آجلأيا إيفانوفنا
لتعلم حتماً اننى غير مطلع على شيء • كنت أجهل حتى أمر ذلك الموعد •
نقول ان لقاءً قد تم بينهما على موعد مضروب ، أليس كذلك ؟ طيب •••
دعنا من هذا •••

— ولكن كيف يستطيع المرء أن يفهم عنك ؟ تارةً تقول انك كنت
تعلم ، وتارةً أنك لم تكن تعلم ، ثم تضيف : « طيب ••• دعنا من
هذا ••• » • ولكن لا ، حذار من فرط الثقة ! لا سيما اذا كنت لا تعلم
شيئاً • وإن فرط ثقتك انما مرده الى أنك لا تعلم شيئاً • هل تعرف
حسابات ذبلك الشخصين : الأخ واخته ؟••• ربما كنت تشبهه فيها
وتصورها ، هه ؟

ولاحظ هيوليت حركة تمليل من الأمير فأسرع يضيف قوله :

— طيب ، طيب ••• انا انما جئت الى هنا لأمر شخصى أريد أن •••
أوضحه ! شيطان يأخذنى ••• رهيبٌ عدد الايضاحات التى يجب على
أن أقدمها ! هل تريد أن تصنى الى ؟

— تكلم ، اننى أصغى اليك •

— لكننى أغير رأيى مرة أخرى : سوف أبدأ مع ذلك بالكلام على

جانيا • هل تتخيل هذا ؟ لقد ضُرب لي موعد قرب الدكة الحُضراء ، أنا أيضاً ! على أننى لا أريد أن أكذب : يجب أن أذكر أننى أنا الذى أُلححت على أن تحدد لي هذا الموعد واعداً بالكشف عن سر • لا أدري هل وصلت قبل الأوان (أظن اننى سبقت الساعة فعلاً) ، ولكننى ما ان جلست الى جانب آجلایا ایفانوفنا حتى رأيت جبریل آرداليونوفتش وفاريا آرداليونوفتش مقبلين وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر كأنهما يقومان بنزهة • فلما رأيانى شدّها بل وارتبكّا ، لأنهما كانا لا يتوقّنان أن أكون هناك • واحمرت آجلایا ، بل صدقنى اذا قلت لك انها اضطربت وفقدت سيطرتها على نفسها قليلاً ، سواء أكان ذلك لوجودى أنا أم لمجرد أنها رأت جبریل آرداليونوفتش الذى كان فى غاية الجمال حقاً • المهم أنها احمرت احمراراً شديداً ، وختمت الموقف بأن غمزت بعينها غمزة مضحكة ، ونهضت نصف نهوض ، وردت على تحية جبریل آرداليونوفتش وعلى ابتسامة اللطافة والمداراة التى ابتسمتها باربارا آرداليونوفنا ، ثم قالت لهما بلهجة مفاجئة حاسمة : « انما أردت أن أعبر لكما شخصياً عن سرورى بصدق عواطفكما • فكونا على ثقة باننى متى احتجت الى هذه العواطف لن يفوتنى أن أُلجأ اليها وأعتمد عليها • » • قالت لهما ذلك ثم صرفتهما بإشارة من رأسها ، فانصرفا لا أدري أمهزومين أم متصرّين • • أما جانيا فلا شك أنه كان غيباً كل الغباء • انه لم يفهم شيئاً ، واصطبغ وجهه بحمرة قانية (ان سخنته تكتسى فى بعض الأحيان تعبيراً غريباً) • وأما باربارا آرداليونوفنا فأظن أنها أدركت أن عليها أن تتسل بأقصى سرعة وأن آجلایا لا يمكن أن يطلب منها أكثر من ذلك • فافتادت أخاها • انها أعقل منه ، وانى لمقتنع بأنها الآن تحقق انتصاراً • وأما أنا فقد جثت لأتفاهم مع آجلایا على موضوع لقائنا المزمع مع ناستاسيا فيليوفنا •

صاح الأمير يسأل :

— مع ناستاسيا فيليوفا ؟

— على مهلك ، على مهلك ! يبدو لى أنك فقدت هدوءك فبدأت تتدهش ، هه ؟ يسرنى أن أرى أنك تريد أن تشبه الرجال ؟ ولسوف أسلّيك فى مقابل ذلك • انظر كم يريح المرء حين يخدم ويعاون آفات شابات نيلات • لقد تلقيت منها اليوم صفقة !

— صفقة مغنوية طبعاً ؟

كذلك سأله الأمير بغير ارادة •

— نعم ، صفقة مغنوية لا مادية • أظن أنه ما من يدٍ يمكن أن ترتفع على انسان فى مثل حالتي ، ولو كانت يد امرأة • حتى جانيا لا يمكن أن يضربنى • ومع ذلك فقد اعتقدت أمس فى لحظة من اللحظات أنه سيرتقى علىّ ليشبعنى ضرباً ••• آ ••• يمينا اننى أحزر الآن ما يجول فى ذهنك • انك تقول لنفسك : « طيب • يجب أن لا يُضرب • ولكن من الممكن فى مقابل ذلك بل ومن الواجب أن يُخنق أثناء نومه بوسادة أو بغطاء مبتل ••• » • اننى أقرأ الآن هذا الحاطر فى وجهك •

قال الأمير محتجاً باشمئزاز :

— لا أدرى •• ولكننى حلمت هذه الليلة أن شخصاً يخنقنى بغطاء مبتل ••• وسأقول لك من هو ذلك الشخص : تصور أنه روجويين ! ما رأيك ؟ هل يمكن خنق انسان بغطاء مبتل ؟

— لا أدرى •••

— سمعت أن الأمر ممكن • طيب • طيب • دعنا من هذا ، ولا نتكلمن فيه • والآن أريد أن ألقى هذا السؤال : لماذا أعدت أنا نماماً ؟ لماذا وصفتنى هى اليوم بأننى نمام ؟ لاحظ أنها لم تفعل ذلك الا بعد أن أصغت الى كلامى حتى آخر كلمة ، وبعد أن ألفت علىّ أسئلة •• كذلك

هنّ النساء ! من أجّلها هي انما كنت على علاقة بروجوين (وهو شخص طريف شائق على كل حال) • ومن أجّلها انما هيأت لها لقاءً مع ناستاسيا فيليوفنا • أتراني جرحت شعورها وأسأت الى كبرياتها حين أسمعها أنها تريد أن تستفيد من « بقايا » ناستاسيا فيليوفنا ؟ أنا لا أنكر هذه الحقيقة • وقد رددت لها ذلك الكلام مراراً • لكنني انما فعلت ما فعلت من أجّلها وفي سبيل مصلحتها • كتبت لها رسالتين بهذا المعنى وبهذه اللهجة ، وعبرت عن رأيي بهذا الأسلوب أثناء لقائنا اليوم أيضاً ••• وفي مرة أخيرة رأيت من واجبي أن أقول لها ان هذا يشتمل على مذلة لها • ثم ان كلمة « بقايا » هذه ليست اختراعاً مني ، وانما أنا استعرتها من غيري ، وجميع من في بيت جانيا يستعملونها على الأقل • وقد أيدت هي نفسها ذلك • فلماذا وصفتني اذن باتي نمام ؟ رأيت ، رأيت : ان رغبة محمومة في الضحك علىّ تستمر بها الآن نفسك ؟ واني لأراهن أنك تطبّق على حالتني هذه الأبيات السخيفة :

وفي يوم نهايتي الحزينة
قد يسطع الحب على شفتي

بابتسامة وداع *

ها ها ها !

كذلك صاح يضحك ضحكاً تشنجياً أعقبته نوبة سعال •

ثم أضاف يقول بصوت محشرج :

– لاحظ مدى تناقض جانيا : انه يتكلم عن بقايا ؟ أفليس يسعى هو

نفسه الى الاستفادة من « بقايا » ؟

لبث الأمير صامتاً برهةً طويلة • كان مصعوقاً •

وتتمم أخيراً يقول :

— ذكرتَ لقاءَ مع ناستاسيا فيليوفا ، أليس كذلك ؟

— دعك من هذا الكلام ، هل يمكن أن تجهل حقاً أن لقاءَ سيتم اليوم بين آجلايا ايفانوفنا وناستاسيا فيليوفا ؟ بفضل المساعي التي قمت بها أنا ، فقد تولى روجويين ، تلبيةً لطلب من آجلايا ايفانوفنا ، دعوة ناستاسيا فيليوفا الى المجيء من بطرسبرج خصيصاً ، وهى الآن فى صحبة روجويين ، بالقرب من مسكنك ، فى البيت الذى سبق أن أقامت فيه ، عند داريا ألكسيفنا . . . صديقتها ذات السمعة المشبوهة . . . فالى ذلك البيت المشبوه انما ستذهب اليوم آجلايا ايفانوفنا لاجراء حديث ودى مع ناستاسيا فيليوفا ، ولحل مشكلات مختلفة . انهما تريدان أن تتكلما بلغة الرياضيات . اكنث لا تعرف هذا ؟ بشرفك ؟

— غير معقول !

— هذا أحسن ! ولكن أين لك أن تعرف بالأمر ؟ ومع ذلك ، فى جحر كالجحر الذى نعيش فيه ، لا يمكن أن تطير ذبابة الا ويبلغ نبالها طيرانها جميع الناس ! الخلاصة . . . لقد نبهتك ، وفى امكانك أن تكون لى شاكراً ممتناً . هياً ، الى اللقاء ! ربما فى الحياة الآخرة ! فى العالم الثانى ! كلمة أخرى : اذا كنت قد تصرفت معك تصرفاً وضيعاً دنيئاً ، فذلك . . . لأننى ليس نمة سبب يدعونى الى أن أضحي فى سبيلك بمصالحى . قل لى من فضلك : لماذا عسانى أؤثر مصالحك على مصالحى ؟ اليها انما أهديتُ أنا « اعترافى » (اكنث لا تعرف ذلك ؟) ، فسرعان ما قبلت هديتى راضية ! هى هى ! لكننى تصرفت معها هى تصرفاً لا وضاعة فيه ولا دناءة . لم أرتكب أى خطأ فى حقها . بل هى التى دبّرت لى « مقلباً » ووضعتنى فى موضع حرج . . على اننى لم اقترف ذنباً حتى فى حقلك أنت . ولئن أبحت لنفسى تجاهها أن ألمح ذلك التلميح الى « البقايا » والى أشياء أخرى من هذا القبيل ، فأننى فى مقابل هذا أحدد لك يوم الموعد

وساعته ومكانه ، فأكشف لك الأوراق كلها !... صحيح أتى أفعل هذا
عن غضب وحقد ، لا عن نبل وشهامة • استودعك الله ! اننى ثرثار ثرثرة
انسان عيَّ اللسان أو مسلول الصدر • افتح عينيك ، اتخذ اجراءاتك ،
تصرف بأقصى سرعة ، اذا كنت جديراً بأن تسمى رجلاً • سيتم اللقاء
هذا المساء • ذلك أمر مؤكد محقق •

اتجه هيوليت نحو الباب ، لكنه وقد ناداه الأمير وقف فى العتبة •
سأله الأمير :

— فى اعتقادك اذن أن آجلانيا ايفانوفنا ستذهب اليوم الى ناستاسيا
فيليوفا بشخصها ؟

كانت بقع حمر تصبغ خديه وجبينه •

أجابه هيوليت وهو يلقى نظرة وراه :

— لا أعرف تماماً • ولكن ذلك جائز • على أن الأمر لا يمكن أن
يكون غير هذا • فان ناستاسيا فيليوفا لن تذهب اليها ، أليس كذلك ؟
والحديث لا يمكن أن يجرى عند أهل جانيا حيث يُحتضر الجنرال •
ما قولك فى الجنرال ؟

قال الأمير معترضاً :

— اسمع • يكفى هذا السبب وحده حتى يكون الأمر مستحيلاً ،
كيف يمكنها أن تخرج ولو أرادت ؟ انك لا تعرف عادات... هذا
المنزل ؟ انها لا تستطيع أن تذهب الى ناستاسيا فيليوفا وحيدة • تلك
مزحة !

— سأقول لك شيئاً يا أمير : لا أحد يقفز من النافذة • ولكن حين
يشب حريق فان أحسن رجل مهذب وأرقى سيدة مرموقة لا يترددان عن
القفز من النافذة • اذا مسَّت الحاجة فستكون آنستنا مضطرة أن تسلك

هذا السيل ، وأن تذهب الى ناستاسيا فيليوفنا • ولكن قل لى : هل
الأنسات ايباتشين لا يُسمح لهن فى دارهن أن يذهبن الى أى مكان ؟

— ليس هذا ما أردت أن أقوله ...

— طيب • اذا لم يكن الأمر كذلك ، فسوف يكفيها أن تهبط درجات
المدخل ، وأن تسير قُدُماً ، ولو ترتب على ذلك أن لا تعود الى الدار فى
يوم من الأيام • هناك ظروف يحرق فيها الانسان سفنه ويمتتع حتى عن
العودة الى منزل أبويه • ليست الحياة وجبات غداء ووجبات عشاء وأمرأة
أسماءهم • شئت • • • • • فحسب ! • • • • • يبدو لى أنك تنظر الى آجلايا
ايفانوفنا نظرتك الى صبية صغيرة أو تلميذة فى مدرسة داخلية • لقد قلت
لها أنا هذا ، وأحسب أنها وافقتنى على رأيى • انتظر الساعة السابعة أو
الثامنة • • • لو كنت فى مكانك لأوفدت شخصاً يرقبها فيعرف لحظة خروجها
من الدار • فى وسعك أن ترسل كولييا على الأقل • ثق أنه سيسره أن
يعمل جاسوساً ، فى سيل مصلحتك طبعاً • • • • • هذه أمور نسبية جداً • • • • •
ها ها ! • • • • •

قال هيوليت ذلك وخرج • لم يكن ثمة سبب يدعو الأمير الى
تكليف أى انسان بأن يتجسس له ، حتى ولو كان يرضى لنفسه استعمال
مثل هذه الوسيلة • لقد أدرك الآن بعض الادراك لماذا أمرته آجلايا بأن
لا يفادر بيته • لعلها تتنوى أى تجيء اليه ؟ أو لعلها أرادت أن تجسسه فى
البيت حتى لا يجيء بينما هى على ميعاد • نعم ربما كان هذا هو الأمر •
شعر الأمير بدوار ، وبدا له أنه يرى الغرفة كلها ترقص من حوله •
استلقى على الديوان وأغمض عينيه •

ان القضية تجرى مجرى حاسماً نهائياً ، بطريقة أو بأخرى • لا ،
انه لا ينظر الى آجلايا نظرتة الى صبية صغيرة أو الى تلميذة فى مدرسة

داخلية • انه يدرك الأمر الآن : لقد طالما شعر بخوف ، وان شيئاً من هذا النوع هو ما كان يخشاه فعلاً • ولكن لماذا تريد أجلايا أن تراه ؟ سرت عدة في جسمه كله • واعترفته حمى شديدة من جديد •

لا ، انه لا يعدها طفلة ! في الآونة الأخيرة كانت لها آراء وأقوال روّعته • وفي مرات أخرى ، كان يلوح له أنها تبذل جهداً فوق طاقة الانسان في سبيل أن تسيطر على نفسها ، في سبيل أن تكبح اندفاعاتها ؛ وانه ليتذكر الآن أن ذلك كان يملؤه رعباً • صحيح أنه جهد في هذه الأيام الأخيرة أن لا يوقظ تلك الذكريات ، وأن يطرد الأفكار السوداء • ولكن ماذا كان يخفى في قرارة تلك النفس ؟ هذا سؤال عذّبه مدة طويلة ، رغم كل ما كان يشعر به نحو أجلايا من ثقة • على كل حال ، سوف ينحل كل شيء ويتضح كل شيء في هذا المساء نفسه ! فكرة فظيعة ! مرة أخرى « تلك المرأة » ! لماذا بدا له دائماً أن تلك المرأة سوف تظهر في آخر لحظة فتحطم مصيره كما يُقطع خيط مهترى • ؟ أما أن هذا التوجس لم يبارحه في يوم من الأيام فذلك أمر لا يتردد اليوم في أن يؤكد حالفاً أغلظ الإيمان • لئن حاول أن ينساها في الآونة الأخيرة ، فما ذلك الا لأنه كان يخشاها • ماذا اذن ؟ أهو يحبها أم هو يكرهها ؟ انه لم يلق على نفسه هذا السؤال مرة واحدة أثناء النهار • كان قلبه من هذه الناحية نقياً : كان يعرف من ذا يجب • • ليس لقاؤهما هو ما يخيفه ، لا ولا وجه الغرابة في هذا الموعد ، ولا الأسباب الداعية اليه ، المجهولة لديه ، ولا النهاية التي سينتهى اليها هذا الاجتماع أية كانت تلك النهاية وانما هو يخشى ناستاسيا فيليوفنا نفسها • لقد تذكّر بعد بضعة أيام أنه أثناء تلك الساعات من الحمى ، كان يلوح له دائماً أنه يرى عينيها ونظرتها ، وأنه يسمع صوتها ، صوتها الذي يلفظ أقوالاً غريبة ، ولكن لم يبق في ذاكرته الا أشياء قليلة بعد تلك اللحظات من الحمى والقلق والخوف • لقد

احتفظ باحساس غامض بأن فيرا جاءت بهشائه ، وأنه أكل الطعام الذى
جاءته به ، ولكنه لا يتذكر أنام بعد ذلك أم لا . كل ما يعلمه أن وضوح
الادراكات لم يعاوده فى ذلك المساء الا حين ظهرت آجلايا فجأة فى
الشرقة . فنهض عن ديوانه واثباً ، وهباً يستقبلها فى وسط الغرفة .
كانت الساعة هى السابعة والربع . لقد جاءت آجلايا وحيدة . وهى تلبس
ثياباً بسيطة كأنما ارتدتها متعجلة وخلعت عليها برنساً خفيفاً . وكان
وجهها شاحباً شحوبه أثناء لقائهما الأخير ، ولكن عينيها تسطعان ببريق
قوى بارد . انه لم يلاحظ فى نظرتها تعبيراً كهذا التعبير فى يوم من
الأيام .

تفرست فيه بانتباه . ثم قالت له بصوت خافت ولهجة تبدو هادئة :
- أنت متأهب كل التأهب ، قد ارتديت ثيابك وحملت قبعتك
بيدك . اننى استتج من ذلك أنك قد أبلغت . أعرف من الذى أبلغك :
هو هيووليت ، أليس كذلك !

تمتم الأمير يقول وهو الى الموت أقرب منه الى الحياة :

- نعم ... حدثنى ...

- طيب ... فلنذهب : انك لتعلم حق العلم أن عليك أن تصحبنى
حتماً . أظن أنك تقوى على الخروج .

- أقوى ... نعم ... ولكن .. هل هذا ممكن ؟

وسكت فجأة ، وأصبح لا يستطيع أن ينطق بكلمة واحدة . تلك
هى المحاولة الوحيدة التى قام بها لصدّ هذه الطائشة وثنيها عن عزمها .
ثم تبعها بعد ذلك كما يتبع عبدٌ سيّدَه . انه رغم كل ما كان عليه فكره
من اضطراب وتشوش وبلبل قد أدرك أنها ستذهب « الى هناك » ، ولو لم

يصحبها ، فالأولى اذن أن يصحبها • لقد أدرك قوة التصميم والعزم لدى الفتاة ، وأحس أنه غير قادر على أن يوقف هذه الاندفاع الوحشية • سارا صامتين ، ولم يكادا يتبادلان كلمة واحدة طوال الطريق • ولكنه لاحظ أنها تعرف الطريق معرفة جيدة ، فلما اقترح عليها أن يسلكا شارعاً صغيراً بعيداً بعض البعد لكنه غير مطروق كثيراً أصغت الى كلامه وبدأ عليها أنها تزن ما للاقتراح وما عليه ، ثم أجابت باقتضاب : « الأمران واحد ! »

حتى اذا صارا قرب منزل داريا ألكسيفنا (وهو مبنى كبير عتيق من خشب) ، رأيا سيدة مرتدية ثياباً فضمة تخرج منه في صحبة فتاة ، ورأيا المرأتين تركبان عربية رائئة كانتت تنتظرهما أمام درجات المدخل • كانتا تضحكان وتتحدثان في صخب ، ولم تنظرا الى القادمين الجديدين فكأنهما لم ترياهما • فما ان ابتعدت العربية حتى فُتِح الباب من جديد ، وظهر روجويين الذى كان ينتظرهما فأدخلهما ثم أغلق الباب وراءهما •

قال روجويين بصوت عال وهو يلقي على الأمير نظرة غريبة :

— ليس فى الدار كلها الآن أحد غيرنا نحن الأربعة !

كانت ناستاسيا فيليوفا تنتظرهما فى الحجرة الأولى • وكانت هى أيضاً تلبس ثياباً بسيطة جداً ، سوداء جميعاً • ونهضت لتستقبلهما ، لكنها لم تبسم ولم تعدد يدها للأمير ، وثبتت نظرتها القلقة على آجلايا نافذة الصبر • جلست المرأتان مبتائيتين : فأما آجلايا فقد جلست على الديوان بركن من الغرفة وأما ناستاسيا فيليوفا فقد جلست قرب النافذة • ولبث الأمير وروجويين واقفين ؛ وما دعاهما أحد الى الجلوس على كل حال • ونظر الأمير الى روجويين مرة أخرى بارتباك وحيرة يمازجهما ألم

ويخالطهما عذاب ، ولكن روجوين احتفظت شفتاه بابتسامة واحدة لم
تتغير •

وأخيراً طافت بوجه ناستاسيا فيليوفنا سحابة مشومة : ان نظرتها
التي ما تزال محدقة الى الزائرة ثابتة عليها قد اتخذت الآن تعبيراً عن
عناد ، وقسوة ، وعن كره وبغض تقريباً . وكانت آجلايا ظاهرة الاضطراب
ولكن على غير تهيب أو رهبة • انها حين دخلت لم تكذب تلقى نظرة على
منافستها ، وكانت مُسبلة جفניה على وضع الانتظار وكأنها تفكر • مرة
أو مرتين أجالت بصرها على الغرفة ، كأنها عرضاً بغير عمد ، فعبّر وجهها
عندئذ عن الاشمئزاز كأنها تخشى أن تتسخ في مكان كهذا المكان • ليس
مؤكدأ أنها كانت شاعرة بكل حركاتها ، ولكن اذا كانت هذه الحركات
قد صدرت عنها عفواً فذلك أدعى الى ايلذاء الشعور وجرح الكرامة •
وأخيراً عزمّت أمرها على أن تواجه بشت وقوة تلك النظرة الساطعة التي
كانت تلقيها عليها ناستاسيا فيليوفنا والتي لم تلبث أن قرأت فيها كره
المنافسة واضحاً جلياً على الفور • لقد فهمت المرأة المرأة • فارتعدت •

وقالت بعد لحظة ، لكن بصوت خافت جداً ، حتى أنها توقفت عن
الكلام مرتين أثناء النطق بهذه الجملة القصيرة :

— لا شك أنك تعرفين السبب الذي حملنى الى استدعائك •

فأجابتها ناستاسيا فيليوفنا بلهجة جافة قاطعة :

— لا ، لا أعرفه •

فاحمرت آجلايا • لعلها قد بدا لها فجأة أن وجودها الآن قرب
هذه المرأة ، في بيت « تلك المخلوقة » ، أمرٌ مذهل لا يصدق العقل ،
ولعلها كانت تشعر بالحاجة الى سماع جواب ناستاسيا فيليوفنا • فما ان

سمعت أولى نبرات صوت ناستاسيا فيليوفنا حتى سرى فى جسهما كله نوع من رعدة • ولاحظت «الأخرى» ذلك كله طبعاً ، لم يفتها منه شىء • قالت آجلایا بفتة وهى تطرق محدقة الا الأرض بنظرة متجهة كالحة ، قالت بصوت يكاد يكون خافتاً :

– أنت تفهمين كل شىء ••• ولكنك تتظاهرين بأنك لا تفهمين • فأجابت ناستاسيا فيليوفنا وهى تبتسم ابتسامة لا تكاد تدرك :

– لماذا عسانى أظاهر هذا التظاهر ؟

قالت آجلایا بخراقة تكاد تكون مضحكة :

– تستغلين وضعى •• لأننى فى بيتك ••• تحت سقفك •••

هتفت ناستاسيا فيليوفنا تقول بحدة وقوة :

– أنت المسئولة عن هذا الوضع ، فأنا لم أستدعك ، وانما انت التى دعوتنى الى هذا اللقاء الذى ما زلت أجهل سببه •

رفعت آجلایا رأسها فى استعلاء وغطرسة • وقالت :

– صونى لسانك • أنا ما جئت الى هنا لأقاتلك بهذا السلاح الذى

هو سلاحك •••

– ها ••• اذن لقد جئت الى هنا لثقتالى على كل حال ! ••• تصورى

أننى كنت أتحيلك ••• أصفى روحاً ! •••

وتبادلت المرأتان نظرة لم تحاولا أن تخفيا ما فيها من بغض • ومع

ذلك كانت احدى هاتين المرأتين هى تلك المرأة نفسها التى بعثت الى الأخرى برسائل تشتمل على ذلك التأثير كله وتلك العاطفة كلها • لقد تبددت تلك المودة كلها فى أول لقاء ، منذ أولى الكلمات • فكيف نفسر

هذا ؟ وكان أحداً الأشخاص الأربعة الموجودين فى تلك الغرفة لم يخطر بباله أن يعجب لهذا الأمر • فالأمير الذى كان بالأمس لا يصدق أن يكون حدوث هذا المشهد ممكناً ولو فى الحلم ، يراه الآن وكأنه قد تنبأ به منذ زمن طويل • ان الحلم العجيب الشاذ قد اكسى على حين فجأة صورة واقع محسوس ملموس • وكانت احدى المرأتين فى تلك اللحظة تشعر نحو غريمتها باحتقار يبلغ من القوة وبرغبة فى اظهار هذا الاحتقار تبلغ من العنف (ولعلها لم تحب الا لهذا الغرض ، كما زعم ذلك روجوين فى الغد) أن الأخرى ما كان لها فيما يظهر أن تستطيع التزام أى موقف عقدت عليه عزمها من قبل أو أن تحافظ على أية فكرة انطوت عليها نفسها ، رغم كل مافيه من غرابة الطبع واضطراب الفكر ومرض النفس ، مادامت غريمتها تواجهها بهذا الاحتقار المسموم • وأيقن الأمير بأن ناستاسيا فيليبوفنا لن تكون هى البادئة فى الاتيان على ذكر الرسائل • لقد أدرك من الشرر الذى كان يخرج من عينها أن أمر هذه الرسائل يؤلمها الآن أشد الايلام • ولكنه كان مستعداً لأن يدفع نصف حياته ثمناً لاغفال آجلها أمر الالام الى هذه الرسائل أيضاً •

غير أن آجلها بدا عليها فجأة أنها ثابت الى رشدها واستردت سيطرتها على نفسها • قالت :

— لم تفهمى عنى • أنا لم أجب الى هنا • • • لأشجرك ، رغم أننى لا أحبك كثيراً • وانما جئت • • • لأكلمك بطريقة انسانية • اننى حين دعوتك الى هذا اللقاء ، كنت قد حددت موضوعه ، ولن اتشئ عن عزمى ولو لم تفهمينى البتة • واذا لم تفهمينى فذلك يضيرك أنت ولا يضيرنى أنا • لقد أردت أن أجيب عن مضمون الرسائل التى بعثت بها الى ، وأن يكون جوابى كلاماً لا كتابةً فذلك فى رأى أنسب • فاسمعى اذن جوابى على رسائلك • لقد أخذتنى بالأمير ليون نيقولايفتش شفقة منذ

اليوم الأول الذى عرفته فيه ، وقويت هذه العاطفة فى نفسى حين علمت بكل ما جرى أثناء سهرتك • أخذتنى به شفقة لأنه انسان يبلغ من بساطة الفكر أنه ظن أن فى وسعه أن يكون سعيداً ••• مع امرأة ••• لها مثل هذا الطبع وهذا الخلق • وقد وقع ما كنت أخشى منه عليه : لم تستطعى أن تحبيه ، وسببت له عذاباً كثيراً ، ثم هجرته • ولئن لم تستطعى أن تحبيه فإن مرد ذلك الى فرط زهوك ••• لا ••• لقد أخطأت التعبير ••• فما ينبغى أن أقول الزهو •• بل الغرور •• وحتى كلمة الغرور ليست هى الكلمة المناسبة ، فانما الأخرى أن أقول الأناية • أنك أناية الى حد •• الجنون • وان الرسائل التى بعثت بها الى تهمض دليلاً على ذلك • لم يكن فى امكانك أن تحبى انساناً يبلغ مبلغه من البساطة • حتى ان من الجائز أن تكونى فى قرارة نفسك قد احتقرته وهزئت به وضحكت عليه • كنت لا تستطيعين أن تحبى الا عارك والا الفكرة الثابتة التى استبدت بنفسك وهى أنك قد دُنست وأُهنت • فلو أنك لم تسقطى ذلك السقوط كله ، أو لو أنك لم تسقطى البتة ، لما زادك ذلك الا شقاء •••

نطقت آجلايا هذه الكلمات بنوع من التلذذ ، وكانت تتدفق فى الكلام تدفقاً سريعاً ، ولكنها تستعمل تعابير سبق أن تصورتها واجترتها منذ أن كانت لا تصدق ، حتى فى الحلم ، امكان حدوث هذا اللقاء • وكانت تراقب بنظرة كارهة مبغضة ما تحدث أقوالها من أثر فى وجه ناستاسيا فيليوفنا الذى اضطرب وانقلب •

تابعت آجلايا كلامها تقول :

— هل تذكرين رسالةً كتبها الىّ وقال لى فيها انك تعرفينها بل وانك قرأتها ؟ اننى حين قرأت تلك الرسالة انما فهمت كل شيء ، وأدركت كل شيء حق الادراك • وقد أيدّ هو نفسه ، فى الآونة الأخيرة ، كل

كلمة من الكلمات التي أقولها لك الآن • وانتظرت بعد تلك الرسالة •
 حذرت أنك ستضطرين أن تجيئي الى هنا ، لأنك لن تستطيعي الاستغناء
 عن بطرسبرج : انك ما تزالين أصغر سنًا وأبرع جمالاً من أن تطيقي
 الحياة في الأقاليم ...

وأضافت تقول بينما كان وجهها يحمر احمراراً شديداً (ولم يفارق
 هذا الاحمرار وجهها طوال مدة كلامها بعد ذلك) :

— ليست هذه الكلمات كلماتي أنا على كل حال ! • • • وحين التقيت
 بالأمر من جديد تأملت له ألماً قوياً وأحسست أنه أهين • لا تضحكى •
 وإذا ضحكت كان ذلك دليلاً على أنك غير جديرة بأن تفهمي هذا • • •
 ردت نامتاسيا فيليوفا تقول بلهجة حزينة قاسية :

— انك لترين بعينيك اننى لا أضحك •

— لست اكبرث على كل حال • اضحكى ما شئت أن تضحكى •
 وحين سألته بنفسى قال لى انه أصبح لا يحبك منذ مدة طويلة حتى ان
 ذكراك وحدها أصبحت تؤلمه ، ولكنه يرثى لحالك ، واذا فكر فيك شعر
 بأن قلبه قد « طعن الى الأبد » • يجب أن أضيف أيضاً أننى لم ألاحظ
 طوال حياتى رجلاً يضارعه فيما تتصف به نفسه من بساطة نبيلة وفيما
 يزخر به قلبه من ثقة لا حدود لها • فبعد أن سمعت كلامه ، أدركت أن
 فى امكان أى انسان أن يخدعه اذا أراد ، وأن من يخدعه يمكن أن
 يطمئن كل الإطمئنان الى أنه سيففر له ويصفح عنه • لذلك أحبيته • •

صمتت آجلايا مصعوقة ، وهى تتساءل كيف أمكنها أن تتطرق هذه
 الكلمة • لكن كبرياء قوية سطعت فى نظرتها فى الوقت نفسه • وبدا عليها
 أنها لن تكثرث بشئ بعد الآن ، ولو أخذت « هذه المرأة » تضحك منها
 للاعتراف الذى أفلت من لسانها • قالت :

- هذا كل شيء قد قلته لك ؟ ولا شك أنك تدركين الآن ما أنتظرنه منك ، هه ؟

أجابت ناستاسيا فيليوفا بهدوء ورفق :

- ربما كنت أدركه • لكننى أحب أن أسمع منك •

فاشتعل وجه آجلایا غضباً ، وقالت بلهجة جازمة وهى تقطع كلماتها :

- أردت أن أسألك بأى حق أجزت لنفسك أن تتدخل فى عواطفه نحوى ؟ بأى حق تجرأت أن تكتبى لى تلك الرسائل ؟ بأى حق تصرحين له فى كل لحظة ، له ولى أنا ، بأنك تحبينه ، بعد أن هجرتِه وقررتِ منه ذلك الفرار المهيئ •• والمشين أيضاً ؟

أجابت ناستاسيا فيليوفا تقول مكدودة مجهدة :

- أنا لم أصرح بأننى أحبه ، لا لك ولا له ، ولكن ••• ولكنك على حق ••• لقد فررت منه •

وقد أضافت ناستاسيا فيليوفا هذه الجملة الأخيرة بصوت يكاد يكون منطقتاً •

صاحت آجلایا تسألها :

- كيف ؟ لم تصرحى بأنه تحبينه ، « لا لى ولا له » ؟ ورسائلك ؟ من ذا الذى رجاك أن تكونى سمسارة زواج ، وأن تحصينى على تزوجه ؟ أليس هذا تصريحاً بحب ؟ لماذا تضعين نفسك بيننا ؟ لقد اعتقدت فى أول الأمر أنك انما تريدین أن تحملىنى على كرهه والغفور منه بتدخلك فى شئوننا بغية أن أقطع صلتى به • ثم لم أفهم حقيقة تفكيرك الا بعد ذلك : فأنت انما تخيلت أن تحققى عملاً باهراً باللجوء الى تلك الأساليب

من الرياء والنفاق ... أكنت قادرة على أن تحبيه ، أنت يا من تحين غرورك ذلك الحب كله لماذا لم ترحلي من هنا وكفى ، بدلاً من كتابة تلك الرسائل الى ؟ لماذا لا تتزوجين الآن هذا الرجل الشريف الذي يحبك كثيراً ، والذي شرفك بأن قدم اليك يده خائفاً ؟ ان السبب واضح كل الوضوح : فلو تزوجت روجوين لما استطعت بعد ذلك أن تصطنعي دور المرأة المطعونة ، ولما بقي لديك ما تسوغين به حقدك . بالعكس : ان تزوجك روجوين يمكن أن يكون لك مدعاة فخر ! لقد قال عنك أوجين بافلوفتش انك قد قرأت شعراً كثيراً ؟ وانك قد حصلت من الثقافة فوق ما يتناسب مع ... وضعك ؟ وانك تؤثرين أن تقرئي على أن تعملي ؟ فاذا أضفنا الى هذا ما يعمل في نفسك من غرور أحصينا بذلك جميع البواعث والأسباب ...

— وأنت ، ألسنت عاطلة عن العمل أيضاً ؟

كانت الأمور قد أسرعرت تجري مجرى غير متوقع ، وتسير سيراً لم يكن في الحسبان . لم يكن في الحسبان ، لأن ناستاسيا فيليوفا ، حين جاءت الى بافلوفسك ، كانت ما تزال تراودها أحلام ، وكانت ما تزال تعلق نفسها ببعض الأوهام ، رغم أنها كانت تتوقع الشر أكثر مما تتوقع الخير طبعاً . ولكن آجلايا قد انجرفت فوراً كمن ينحدر من أعلى الجبل ، ولم تستطع أن تقاوم ما في الانتقام من اغراء فطيع . حتى لقد دُهِشت ناستاسيا فيليوفا من رؤيتها على هذه الحال . فكانت وقد تحيرت وارتبكت منذ أول لحظة تنظر اليها ولا تصدق عينها . أم هي امرأة أسرفت في قراءة قصائد الشعر كما افترض أوجين بافلوفتش ، أم هي امرأة فقدت صوابها وكفى ، كما أيقن الأمير بذلك ؟ مهما يكن من أمر فان ناستاسيا فيليوفا رغم كل ما تحرص على ابدائه من استهتار وقع في بعض الأحيان ، كانت أكثر حياء ، وأكثر رقة ، وأكثر ثقة مما يمكن أن يظن المرء . صحيح أن

نفسها كانت تنطوى على كثير من صور الخيال وتهاويل الوهم بولكن المرء يجد فيها عواطف قوية عميقة الى جانب ما يجد من حب النزوة والميل الى الجموح . ولقد أدرك الأمير ذلك : ان تعبيراً عن ألم شديد يرتسم الآن في وجهها . ولاحظت أجلايا هذا فاختلجت كرهاً ومقتاً . وانبرت تقول بغطرسة لا توصف ، جواباً على الملاحظة التى أبدتها ناستاسيا فيليوفنا :

– كيف تجسرين أن تكلمينى بهذه اللهجة ؟

فأجابت ناستاسيا فيليوفنا مدهوشة :

– لعلك لم تسمعينى سماعاً واضحاً . ما اللهجة التى كلمتك بها ؟

فاذا بأجلايا تقذفها فجأة بهذا الكلام :

– لو أنك أردت أن تكونى امرأة شريفة فلماذا لم تعمدى بكل بساطة الى قطع صلتك بالرجل الذى أغواك ، توتسكى ، مستفينةً عن هذه الأوضاع المسرحية كلها ؟

فأجابتها ناستاسيا فيليوفنا وقد أخذت ترتجف ارتجافاً شديداً ، واصفر لونها اصفراراً رهيباً :

– ماذا تعلمين عن وضعى حتى تسمحى لنفسك بأن تحكمى علىّ ؟

– أعلم أنك بدلاً من أن تلتسى عملاً تجنين منه رزقك ، قد هربت مع روجوبين الثرى الواسع الثراء ، لتصطنعى بعد ذلك دور ملاك سقط . ليس يدهشنى أن توتسكى قد أوشتك أن يتحرر بسبب هذا الملاك الساقط !

قالت ناستاسيا فيليوفنا باللهجة الاشمئزاز والألم :

– حسبك ! انك تفهمينى على نحو ما فهمتى خادمة داريا ألكسييفنا التى ذهبت فى هذه الأيام الأخيرة الى محكمة الصلح تقاضى خطيبها . ان خادمة داريا ألكسييفنا قادرة على أن تفهمك أنت فهماً أصحّ ...

— أظن أنها فتاة شريفة تعيش من عملها • لماذا تتكلمين عن خادمة بهذا الاحتقار ؟

— أنا لا أحتقر الذين يعملون ، وإنما أحتقرك أنت حين تتحدثين عن العمل !

— لو أنك أردت أن تكوني شريفة لعملت غسالة •
ونهضت المرأتان شاحبتين شحوباً شديداً ، ورازت كل منها الأخرى
بنظرها ازدراءً •

صاح الأمير يقول مصعوقاً :

— هدئي نفسك يا آجلایا • هذا ظلم !
وكان روجوبين قد كفّ عن الابتسام ، لكنه كان يصغى زاماً
شفتيه ، عاقداً على صدره ذراعيه •

قالت ناستاسيا فيليوفا وهي ترتعش غضباً :

— انظر ! انظر اليها ! انظر الى هذه الآمنة ! ما كان أعباني ! لقد
كنت أتصورها ملاكاً ! أجئت الى هنا دون أن تصطحبي مربيتك يا آجلایا
ایفانوفنا ؟ ••• هل تريدین ••• هل تريدین أن أقول
لك على الفور ، بصراحة ، دون لف أو دوران ، لماذا جئت الى ؟ لقد
كنت خائفة • ذلك هو سبب مجيئك !

— خائفة منك أنت ؟

كذلك سألتها آجلایا خارجةً عن طورها ، وقد شدها شدهاً ساذجاً
وقبحاً أن ترى غريمتها تجرؤ أن تقول لها هذا الكلام •

أجابت ناستاسيا فيليوفا :

— نعم ، خائفة مني أنا ! لكن جئت الى هنا فلأنك كنت خائفة مني •
المرء لا يحقر من يخشاه • ما كان أضلّني حين أمكنني أن أحترمك ،

حتى الى هذه اللحظة ؟ لقد أردت أن تعرفى بنفسك من منا يحبها أكثر
مما يحب الأخرى • ذلك أنك غيرة غيرة فطبعة ، رهبة ...

تمتت آجلايا تقول زافرة :

- سبق أن قال لى انه يكرهك ...

- جائر • جائر أن لا أكون جديرة به ... لكننى أعتقد أنك
كذبت ! لا يمكن أن يكرهنى ، ولا يمكن أن يكون قد قال لك هذا الكلام!
على أننى مستعدة لأن أغفر لك ... مراعاةً لوضعك ... رغم أننى كنت
أرى فيك رأياً أفضل ! .. كنت أظنك أذكى وأجمل ! يميناً كنت أظن
ذلك ! ... على كل حال ، خذى كنزك ... خذيه .. انظرى ..
انه يتأملك مقتوناً غائباً عن نفسه .. خذيه ، ولكن على شرط : اخرجى
من هنا فوراً ! اخرجى فى هذه اللحظة نفسها ! ...

قالت ناستاسيا فيليوفا ذلك وتهالكت على مقعد وأجهشت باكية •
لكن عينيها ما لبثتا أن سطعتا فجأةً ببريق جديد ، قها هى ذى تنظر الى
آجلايا محدقةً ، ثم تنهض قائلة لها :

- وهل تريدین أن آمره ... فى هذه اللحظة نفسها ... أن آمره
... هل تسمعين ... أن آمره بأن يهجرک فوراً وأن يبقى معى الى
الأبد وأن يتزوجنى ؟ يكفى أن آمره بهذا حتى يذعن للأمر • أما أنت
فترجعين الى دارك راکضة وحيدة • هل تريدین أن أفعل هذا ؟
هل تريدین ؟

كذلك قالت ناستاسيا فيليوفا صارخةً كالمجنونة ، ربما دون أن
تصدق أنها قادرة على النطق بمثل هذه الأقوال •

وكانت آجلايا قد اندفعت نحو الباب مذعورة ، ولكنها توقفت فى
العتبة جامدةً تصنى • وثابتت ناستاسيا فيليوفا كلامها تقول :

— هل تريد أن أطرد روجوين ؟ أكنت تظنين أنني سأتزوج روجوين ارضاءً لك ؟ لسوف أصرخ أمامك قائلة : « ارحل يا روجوين ! » ، وسوف أقول للأمير : « هل تذكر وعدك ؟ » ، رباه ! لماذا هوئت شأني وحقرت قيمتي في نظرهم ؟ أنت يا أمير ، ألم تؤكد لي أنك ستبغني حينما أذهب وأنتك لن تهجرني في يوم من الأيام مهما يحدث لي ؟ ألم تؤكد أنك تحبني وأنتك سوف تغفر لي ، وأنتك تحترمني . . . نعم . . . لقد قلتَ هذا أيضاً ؟ وأنا التي فررت منك ، لا شيء إلا أن أدعك حراً طليقاً . ولكنني عدلت الآن عن هذا . لماذا عاملتني كما تعامل امرأة داعر ؟ أسأل روجوين هل أنا امرأة داعر ؟ أسأله فيقول لك ! . . . أبعد أن جللتني الآن بالعار ، على مرأى منك ومسمع ، تشيح وجهك عني وتمضى معها متأبطاً ذراعها ؟ ألا فلتنصبّ عليك اللعنة اذا فعلت ذلك ، لأنك الرجل الوحيد الذي محضته تقى .

ثم هتفت تقول باندفاعه جنون :

— اذهب يا روجوين !

كانت الكلمات تخرج من صدرها بكثير من المشقة والعناء ، وقد تشوهت ملامح وجهها وبست شفتاها : واضح أنها كانت لا تصدق كلمة واحدة من هذا الكلام الذي اطلقته في نوبة افتخار ، ولكنها كانت تريد أن تطيل الوهم برهة أخرى . لقد بلغت التوبة من القوة والعنف أنها كان يمكن أن تمتها ، في تقدير الأمير على الأقل .

وصرخت تقول لأجلالها أخيراً وهي تومئ الى الأمير بإشارة من يدها :

— هذا هو . انظري اليه : ان لم يجيء الى فوراً ، ان لم يرض أن يتركك من أجلي ، فما عليك الا أن تأخذه . اني أتنازل عنه ، فلا أريده بعد الآن ! . . .

لبث المرأتان ساكنتين جامدتين كأنما تنتظران جواب الأمير الذى كانتا تنظران اليه زائغتي الهيئة • ولكن لعله • هو • لم يدرك كل ما كان فى ذلك التحدى من عنف ؛ بل انه لم يدركه حتماً • فمن ينظر اليه يتحقق من ذلك • كان لا يميّز أمامه الا ذلك الوجه الذى يلوح فيه اليأس والجنون والذى كان منظره • قد طعن قلبه الى الأبد • ، كما سبق أن قال ذلك يوماً لأجلاليا • ثم لم يطق احتمال رؤية هذا المشهد أكثر من ذلك • فهاهو ذا يلتفت الى آجلاليا • فيسألها بلهجة الرجاء والعتب مشيراً الى ناستاسيا فيليوفنا :

— أهذا جائز ؟ ألا ترين كم هى بائسة شقية ؟

ولم يستطع أن يقول أكثر من ذلك • فان نظرة ألقتهما عليه آجلاليا قد عقلت لسانه • ورأى فى هذه النظرة ألماً يبلغ من الشدة • ورأى فيها كرهاً يبلغ من القوة أنه ضمّ يديه احدهما الى الأخرى • وأطلق صرخة • وهرع نحو الفتاة • ولكن كان قد فات الأوان • انها لم تطق أن ترد ولو ثانية واحدة • فغطت وجهها بيديها • وانطلقت تخرج من الغرفة صائحة : « آه • • • ربا • ! » • وكان روجوين قد تبعها ليفتح لها الباب •

وهرع الأمير وراءها أيضاً • غير أن ذراعين قد احتضنتاه عند العتبة • كانت ناستاسيا فيليوفنا تحدى فيه منقبة السحنة مكفهرة الوجه • وتمتمت شفتاها المزرقّتان تقولان له :

— أتركض وراءها ؟ وراءها ؟

وسقطت فى ذراعيه مغشياً عليها • فأنهضها وحملها الى الغرفة ووضعها على مقعد من المقاعد • ولبت مائلاً عليها منتظراً مشدوهاً • وكان يوجد على مائدة صغيرة كأس ماء • فتناول روجوين حين عاد • ورش شئاً من مائه على وجه المرأة الشابة • ففتحت عينيها • وظلت خلال دقيقة

لا تعنى شيئاً ، لكنها لم تلبث أن استردت شعورها فجأة ، فارتعشت ، وأسرعت الى الأمير تصيح قائلة له :

- أنت لى ، لى أنا ! هل انصرفت الآنسة المتكبرة ؟ ها ها ها !

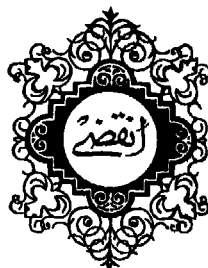
كذلك قهقهت فى نوبة ضحك تشنجى ، وتابت ضحكها وكلامها :

- ها ها ها ... كنت قد تنازلت عنه لتلك الآنسة ! لماذا فعلت ذلك ؟

لماذا ؟ كنت مجنونة ! ... يا روجوين ، امض فى سبيلك ... اذهب !
ها ها ها ! ...

وبعد عشر دقائق كان الأمير جالساً قرب فاستاسيا فيليوفنا يحضنها بعينيه ، ويمسح وجهها وشعرها بيديه فى رفق كما يفعل المرء بطفل . وكان يضحك ضحكاً مجلجلاً حين يسمعها تضحك ، وكان يوشك أن يجهش باكياً اذا رآها تبكى . وكان لا يقول شيئاً ، وانما يتنبه الى تمتتها المحمومة المفككة التى لا يفهم منها شيئاً البتة ، ولكنه يصفى اليها مبتسماً ابتسامة رقيقة لطيفة . حتى اذا لاحظ بزوغ نوبة جديدة من الحزن والدموع واللوم والتشكى ، عاد يلعب شعرها ويمسح خديها بحنان ، ويحاول أن يواسيها وأن يعقلها كبنية صغيرة .

الفصل التاسع



اسبوعان على الأحداث التي رويناهما في الفصل السابق • وقد تغيرت أحوال شخصيات قصتنا أثناء تلك المدة تغيراً كبيراً جداً ، حتى ليصعب أن نمضي في الطريق الى آخره دون الدخول في بعض التفسيرات • ولكننا نشعر نحن أنفسنا بأن من العسير علينا في كثير من الحالات أن نعلل هذه الأحداث •

أغلب الظن أن مثل هذا التنبيه سيدو للقارئ غريباً وغير مفهوم في آن واحد : فكيف يمكن أن يسرد المرء أحداثاً ليس في ذهنه فكرة واضحة عنها ، وليس له رأى شخصي فيها ؟ فمن أجل أن لا نضع أنفسنا في موضع أدعى الى شبهة الضلال والزيف أيضاً ، سنحاول أن نوضح فكرتنا بمثال ، آملي أن نجعل القارئ السمع يفهم المأزق الذي نجد أنفسنا أمامه ؛ وسيكون لهذا مزية ، هي أن المثال الذي اخترناه لن يكون استطراداً وخروجاً عن الموضوع ، بل سيكون التتمة المباشرة للقصّة •

فبعد خمسة عشر يوماً ، أى في مطلع شهو تموز - يولييه (بل وأثناء هذين الأسبوعين) ، اتخذت قصة بطلنا ، ولا سيما حدثها الأخير ، اتخذت في ألسن الناس صورة عجيبة كان يسليهم جداً أن يتناقضوها • قصّة لا يكاد يصدقها العقل ، ولكنها لا تكاد توضع موضع شك ، انتشرت شيئاً فشيئاً في جميع الشوارع التي تجاور فيلات ليديف وبتسين وداريا ألكسييفا وآل ايباتشين ، أى في المدينة كلها تقريباً ، بل وفيما حولها

أيضاً • ان المجتمع كلّه ، أو كلّه على وجه التقريب (أهل البلدة أو سكان الفيللات أو الوافدين من المدينة لسماع الموسيقى) قد أشاعوا القصة نفسها بألف شكل وشكل ؛ ومن تلك الأشكال كلها يخرج أن أميراً قد قام بفضيحة في أسرة محترمة معروفة ، فترك آنسة من تلك الأسرة رغم أنه كان قد أتمّ خطبته لها ، ومضى يتشبث بأذيال امرأة خليعة • لقد قطع جميع صلاته ، واستخف بجميع التهديدات ، ولم يكثر اى اكترات باستياء الناس وامتعاضهم ، فأعلن - على خلاف ما توجهه أبسط مبادئ اللباقة الاجتماعية - أنه يتنوى أن يتزوج تلك المرأة الضائعة ، ببلدة بافلوفسك نفسها ، على مرأى ومسمع من جميع الملأ ، رافعاً رأسه ، شامخاً بأنفه ، محدقاً الى البشر فى أعينهم بغير مبالاة •

لقد زُيِّنَت هذه القصة بتفاصيل فاضحة كثيرة • وأتّحم فيها أفراد معروفون محترمون ، وصُبغت بألوان تضىف عليها حالة من الخيال والسحر والسر ، ودُعمت من جهة أخرى بوقائع ثابتة لا سبيل الى جحودها ، فلا غرابة أن أيقظت اهتماماً عاماً وأثارت لغطاً كثيراً •

وقد قيل فى تأويل الحادث كلام كثير ، ولكن التأويل المرفه البارع أكثر من سائر التأويلات (وهو فى الوقت نفسه أقربها الى التصديق) هو ذلك الذين أشاعته تقوُّلات بعض أولئك الأفراد الرصينين العقلاء الذين نراهم فى كل طبقة من طبقات المجتمع والذين لا يعدمون أن يجدوا وسيلة لتأويل حادث من الحوادث للآخرين ، فهذه هى رسالتهم فى الحياة بل هذا هو عزائهم وتلك هى سلواهم فى كثير من الأحيان •

ففى رواية هؤلاء أن الشاب ينتمى الى أسرة كريمة المحتد ، فهو أمير ، وهو غنى تقريباً ، وهو محدود الفكر ، ولكنه ديموقراطى ومتشيع لذلك المذهب العدمى المعاصر الذى أوضحه السيد تورجنيف • فهذا

الشاب الذى لا يكاد يحسن التكلم بالروسية قد وقع فى غرام ابنة الجنرال ايباتشين ، وظفر بأن يجعل الأسرة تستقبله فى بيتها استقبالا خطيب + ولكنه قد خدع هذه الأسرة بأسلوب يذكر بأسلوب ذلك الشاب الفرنسى ، طالب اللاهوت ، الذى نُشرت مغامرته منذ مدة قصيرة + ان طالب اللاهوت هذا قد طلب عند تخرجه أن يُنصَّب كاهناً ، وكان يبيِّت نية معينة ، فبعد أن قام بجميع الطقوس والشعائر ، وتلا جميع الأدعية والصلوات ، وحلف جميع الأيمان ، وتم تنصيبه كاهناً ، نشر فى الغداة رسالةً مفتوحة الى أسقفه يعلن فيها على رموس الأَشهاد أنه لا يؤمن بالله ، وأنه يرى أن من الحيلة والدعاة من جانبه أن يخدع الشعب وأن يستغله ويعيش عالةً عليه ، فهو لذلك ينكل عما فعله بالأمس ، وينشر رسالته هذه فى الجرائد اللبرالية .

فعلى غرار ما فعله ذلك الملحد ، انتظر الأمير سهرةً فخمة أقامها أهل القنّاة ، وقدموه أثناءها الى كثير من الشخصيات البارزة المرموقة ، فأعلن أفكاره صراحةً أمام جميع الناس ، وأهان عدداً من وجوه القوم وصفوة رجال المجتمع ، وطرده خطيبته على مرأى ومسمع من الملأ بطريقة مهينة مشينة + وحين كَلَّف الخدم باخراجه من المنزل راح يقاومهم مقاومة عنيفة فهشم أثناء ذلك اناءً رائعاً من خزف صينى .

وهناك سمة بارزة من سمات الأخلاق السائدة فى عصرنا تضاف الى هذه القصة ، هى أن ذلك الشاب الطائش كان يحب خطيبته ابنة الجنرال حباً صادقاً ، ولكنه قطع صلته بها لا لسبب آخر غير اشهار تشيعه للمذهب العدمى + وهو من أجل أن يجعل الفضيحة أبهر للأبصار تحدى الناس فتزوج امرأة ضائعة ليبرهن بذلك على اعتقاده الراسخ بأنه ليس ثمة نساء ساقطات ونساء فاضلات ، وانما هنالك المرأة المتحررة فحسب . فهو لا يؤمن بالتصنيفات البالية التى يأخذ بها المجتمع الراقى ، وانما يؤمن

« بقضية المرأة » وحدها دون سواها ؛ بل هو يزعم أن للمرأة الساقطة في نظره قيمة أكبر من قيمة المرأة التي لم تسقط .

لقد بدا هذا التأويل معقولاً جداً ، محتملاً كل الاحتمال ، وأخذ به أكثر المصطفين في بافلوفسك . ومما يسّر عليهم ذلك مزيداً من التيسير أن الوقائع اليومية كانت تأتي مصدقة له . صحيح أن كثيراً من التفاصيل ظلت أموراً لا سبيل إلى فهمها . لقد كان يُقال إن الفتاة المسكينة قد بلغت من حب خطيئها (وكان بعضهم يسميه « مغويها ») أنها هرعت إليه غداة تركها ولحقت به في بيت عشيقته . وذهب بعض آخر إلى غير هذا فقالوا إنه استدرجها إلى بيت تلك المرأة متمعداً ، بدافع العدمية وحدها ، أي ليجللها بالعار وليلطخها بالدنس .

مهما يكن من أمر فإن الاهتمام الذي أثاره هذا الحادث كان يشتد يوماً بعد يوم ، لا سيما وأنه لم يبق أي شك في أن ذلك الزواج المشين قد أصبح وشيكاً .

والآن ، إذا سألنا أحدً ايضاحات أو تفسيرات (لا عملاً يتصف به الحادث من أنه ينتمي إلى المذهب العدمي ، لا ...) ، وانما عن مدى انطباق هذا الزواج على رغبات الأمير ، وعما كان الأمير يرغب فيه حقاً ، وعن حالته النفسية في تلك الآونة ، وعن أمور أخرى من هذا النوع ، لوجدنا أنفسنا مرتبكين في الاجابة أشد الارتباك ، يجب أن نعترف بذلك . ولكننا نعلم أن الزواج قد تقرر فعلاً ، وأن الأمير قد كلّف لبيديف وكيلر وصديقاً للبيديف قدّم إليه وعُرف به في هذه المناسبة ، كلفهم بأن يتخذوا جميع التدابير وأن يعدوا جميع الاجراءات في الكنيسة وفي البيت معاً ، وأمرهم بأن لا يحفلوا بالنفقات وأن لا يبالوها . وقد أُلح ناستاسيا فيليوفنا على أن يتم الزفاف في أقرب وقت . وألحّ كيلر على أن يجعله الأمير قتي الشرف في عرسه ، فلبى الأمير طلبه ، ووقع اختيار

ناستاسيا فيليوفا على بوردوفسكى فتىً من جهتها ، فارتضى بوردوفسكى هذا الاختيار متحمساً • وحدّد أول تموز - يولييه موعداً لحفلة الزفاف •

وعدا هذه الوقائع الدقيقة الصحيحة كل الصحة ، فمن نعلم كذلك تفاصيل تحيّرننا أشد الحيرة لأنها تناقض ما سبق • لهذا يحق أن نقدّر أن الأمير ما ان كلّف ليديف والآخرين باعداد كل الترتيبات حتى نسي أن هناك زواجا وزفافاً وعريساً وفتيان شرف وما الى ذلك ! ولعله لم يسرع الى تكليف غيره بهذه الأمور الا ليكفّ هو عن التفكير فيها والانشغال بها ، وربما ليمحوها من ذاكرته محوآ تماماً •

ولكن اذا صدق هذا ففي أى شيء كان يفكر ؟ ما هو الشيء الذى كان يريد أن يحتفظ بذكره ؟ ماذا كانت نيته ؟ لا شك فى أن الأمير لم يتعرض لأى ضغط أو اكراه (من جانب ناستاسيا فيليوفا مثلاً) • صحيح أن ناستاسيا فيليوفا هى التى أرادت تمجيل الزفاف ؛ وأنها هى التى تخيلت هذا الزواج ، لا الأمير ؛ ولكن الأمير قد وافق موافقة حرة لم يجبره عليها أحد ، حتى انه وافق وهو ذاهل الهيئة كأن الأمر أمر عادى ليس على شيء من خطورة الشأن •

اننا نعرف عدداً كبيراً من وقائع لا تقل غرابة عن ذلك ، ولكننا نرى أن تلك الوقائع لن تساهم فى ايضاح الحادث بل ستزيده بتراكبها غموضاً على غموض • ولنضرب مع ذلك مثلاً آخر •

نحن نعلم علم اليقين أن الأمير قد قضى فى أثناء هذين الأسبوعين أياماً وسهرات كاملة مع ناستاسيا فيليوفا وأنه كان يصحبها فى نزاهاتها ويرافقها لسماع الموسيقى • كان يخرج معها كل يوم فى عربة • واذا انقضت ساعة دون أن يراها أخذ يقلق عليها (كانت كل المظاهر تدل اذن على أنه يحبها حباً صادقا) • كان يبقى الى جانبها ساعات طوالاً يصنى

اليها وهى تتكلم بابتسامة رقيقة عذبة أياً كان الموضوع الذى تتكلم فيه •
وكان هو يصمت طول الوقت تقريباً •

ولكننا نعلم أيضاً أنه فى تلك الأيام نفسها قد ذهب عدة مرات ، بل مراراً كثيرة ، الى منزل آل ايباتشين على حين فجأة ، دون أن يكتم ذلك عن ناستاسيا فيليوفنا التى كانت تلك الزيارات تهوى بها الى حضيض الكمد والكرب واليأس • ونحن نعلم أن آل ايباتشين قد رفضوا استقباله الى آخر يوم من أيام اقامتهم فى بافلوفسك ، وأنهم اعترضوا دائماً على أن يتم لقاء بينه وبين آجلايا • فكان ينصرف دون أن يقول كلمة واحدة ، ثم يعود فى الغد وكأنه نسى رفض الأمس ، ثم يُرفض مرة أخرى طبعاً •

ونحن نعرف أيضاً أن الأمير ، بعد هرب آجلايا من بيت ناستاسيا فيليوفنا بساعة أو بأقل من ساعة ، قد مضى الى منزل أسرة ايباتشين معتقداً أنه سيلقى الفتاة هناك • فما كان أشد الذعر الذى أحدثه فى المنزل وصوله ، لأن آجلايا لم تكن قد رجعت بعد ، وعلم أهل الدار منه أول نبأ عن الزيارة التى قامت بها آجلايا فى صحبته لناستاسيا فيليوفنا • وقد حكى بعد ذلك أن الزبابت بروكوفينا وبتيتها وحتى الأمير « شتف •• » ، قد عاملوه بقسوة وخشونة وعداوة ، وأعلنوا له بألفاظ غاضبة انهم لا يريدون أن يعاشروه بعد الآن ولا أن يعرفوه ، لا سيما حين وصلت باربارا آرداليونوفنا تبلغ الزبابت بروكوفينا فجأة أن آجلايا موجودة عندها منذ ساعة وأنها فى حالة رهبة وأنها لا تريد الرجوع الى البيت فيما يبدو •

وقد ثبت صدق هذا النبأ الأخير الذى بثَّ الاضطراب فى نفس الزبابت بروكوفينا أكثر من أى شئ آخر • والواقع أن آجلايا حين خرجت من عند ناستاسيا فيليوفنا كانت تؤثر أن تموت على أن تظهر أمام أنظار أهلها من جديد • لذلك لجأت الى نينا الكسندروفنا • ورأت باربارا

آرداليونوفنا من جهتها أن من الواجب أن تبادر الى ابلاغ اليزابت بروكوفينا كلَّ ما جرى بغير ابطاء + فهرعت الأم وابنتها فوراً الى عند نينا ألكسندروفنا ، ولحق بهنَّ الأب ، ايفان فيدوروفتش ، الى هناك منذ عاد الى البيت + وركض الأمير ليون نيقولايفتش وراء السيدات ايبانتشين رغم أنهن صرفنه ورغم أنهن وجهن اليه كلمات جارحة + ولكن باربارا آرداليونوفنا أمرت هناك بمنعه من الوصول الى آجلايا +

وقد انتهت القضية على النحو التالى : حين رأت آجلايا أمها وأختها يبكين بسببها ولكنهن لا يوجَّهن اليها أى لوم ، ارتمت فى أحضانهن ورجعت معهن الى البيت فوراً +

وحكى أيضاً - غير أن هذه الشائعة ظلت غير واضحة - أن جبريل آرداليونوفتش قد مئى بسوء الحظ مرة أخرى : فانه حين خلا الى آجلايا أثناء ذهاب باربارا آرداليونوفنا الى اليزابت بروكوفينا ، ظن أن عليه أن يتنهر هذه الفرصة ليحدث آجلايا عن حبه + فلما سمعته آجلايا نسيت حزنها ودموعها وانطلقت تضحك فى قهقهة مجلجلة ، ثم ألقت عليه السؤال التالى : أهو مستعد ، فى سبيل البرهان على حبه ، لأن يحرق اصبعه على لهب شمعة ؟ ويبدو أن جبريل آرداليونوفتش قد تحبَّر وشُدَّه وصعق لهذا الاقتراح ، فلما رأت آجلايا ما تعبر عنه هيئته من هذا كله ، اعترتها نوبة ضحك فظيع ، وهربت الى الطابق الأعلى ، الى عند نينا ألكسندروفنا ، حيث وجدها أهلها بعد ذلك بقليل +

وقد نقل هيوليت هذه الواقعة الى الأمير فى الغد + ان هيوليت الذى أصبح لا يستطيع أن يترك مرقده قد استدعى الأمير خصيصاً لينقل اليه تلك الواقعة + لا نعرف كيف اطلع هو عليها + ولكننا نعرف أن الأمير حين سمع حكاية الأصبع والشمعة قد أخذ يضحك ضحكاً بلغ من الشدة

أن هيوليت نفسه تحير تحيراً كبيراً • غير أن الأمير لم يلبث أن أخذ يرتجف ، وأجهش باكياً •••

ولقد كان الأمير خلال تلك الأيام ، على وجه العموم ، فريسة قلق شديد واضطراب خارق وخوف غامض • حتى ان هيوليت أعلن صراحةً أن الأمير يُشعره بأنه رجل أصابه اختلال عقلي • على أن هذا الظن كان يصعب بناؤه على أساس محسوس حتى ذلك الحين •

اننا ، حين نعرض هذه الوقائع جميعها ونرفض أن نفسرها ، لا نهدف الى أن نبين صفحة بطلنا وأن نبرئ ساحته وأن نسوِّغ سلوكه في نظر القارىء • بالعكس : نحن مستعدون لأن نشارك في هذا الاستياء الذى أثاره سلوك الأمير حتى فى نفوس اصدقائه • ان فيرا ليديفا نفسها قد أحتقها هذا السلوك مدةً من الوقت • وان كولييا وكيللر قد أظهرهما امتعاضهما كذلك • ولم يغيّر كيللر رأيه الا حين اختاره الأمير فتى الشرف لزوجته • أما ليديف فقد بلغ استياءه من الصدق أنه دفعه الى أن يدبر للأمير مكيده ستحدث عنها فيما بعد •

اننا من حيث المبدأ نؤيد بلا تحفظ بعض الأقوال التى تتصف بالشدة والصرامة بل وتتصف كذلك بعمق النفاذ السيكولوجى ، أعنى الأقوال التى وجهها أوجين بافلوفتش الى الأمير بغير لف أو دوران ، أثناء حديث ودى قام بينه وبينه بعد انقضاء ستة أيام أو سبعة على الحادث الذى وقع عند ناستاسيا فيليوفا • يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أن الأشخاص الذين تربطهم بأسرة ايبانتشين صلات مباشرة أو غير مباشرة قد اعتقدوا أن من واجبهم أن يشاركوا الأسرة فى قطع أى صلة بالأمير • فالأمير «شتنب» مثلاً قد أشاح عنه وجهه حين لقيه ، ولم يردد تحيته • ومع ذلك لم يخش أوجين بافلوفتش أن يتعرض لشر اذا هو زار الأمير ، رغم أنه قد استأنف

تردده على آل ايباتشين كل يوم ، وأن الأسرة استقبلته بمودة ظاهرة واضحة •

ففى غداة اليوم الذى غادر فيه آل ايباتشين بافلوفسك، ذهب أوجين بافلوفتش الى الأمير • وكان حين دخوله عليه عالماً بالأفاويل التى كانت تروج فى المدينة ؛ بل لعله كان قد أسهم من جهته فى نشرها • وقد سُرَّ الأمير برؤيته سروراً عظيماً ، وسرعان ما أدار الحديث على آل ايباتشين • فكان من شأن هذا الدخول فى الموضوع على نحو صريح مباشر أن حلَّ عقدة لسان أوجين بافلوفتش وأتاح له أن يمضى الى هدفه رأساً •

كان الأمير ما يزال يجهل رحيل آل ايباتشين • فحين أنبأه أوجين بافلوفتش بذلك تجمد دهشةً وامتنع لونه • ولكنه بعد دقيقة ، هزَّ رأسه مضطرب الهيئة شارد الفكر وقال مسلماً مدعناً : « لم يكن من ذلك بد » ؟ ثم أسرع يسأل عن « محل إقامتهم الجديد » •

وكان أوجين بافلوفتش أثناء ذلك يرقبه بانتباه ، فأدهشه أن رأى الأمير يسرع فى سؤاله هذا الاسراع ، وأدهشه ما رآه من سذاجة فى الأسئلة التى يلقبها عليه ، وما لاحظته فيه من اضطراب ، وما لاح له فى كلامه من نبرة صدق غريب ، وما كان يظهر عليه من قلق واضطراب وعصية • ومع ذلك أطلع الأمير على تفاصيل جميع الأحداث بكثير من الكياسة والبشاشة واللطافة • لقد أعلمه أشياء كثيرة ، وكان أول من يحمل اليه الأنباء من عند آل ايباتشين •

أكد له أوجين بافلوفتش أن آجلايا قد مرضت فعلاً ، وأنها قضت ثلاث ليال فى حمى وأرق ، وأن صحتها الآن قد تحسنت فنجت من الخطر ، ولكنها ما تزال فى حالة شديدة من حالات فرط الاحتياج • • • وأضاف : « من حسن الحظ على كل حال أن سلاماً تاماً يسود جوَّ المنزل ! انهم يحاولون أن لا يتكلموا عن الماضى ، لا بحضور آجلايا فحسب ، بل

حتى فى غيابها • والأبوان يزيدان أن تقوم الأسرة فى الحريف برحلة الى الخارج ، بعد زواج آديلايد رأساً • وقد استقبلت آجلالا أولى التلميحات الى هذا المشروع صامتة فلم تعقب عليه بشئ • •
أما هو ، أوجين بافلوفتش ، فقد يسافر الى الخارج أيضاً • وحتى الأمير « شتش • • » قد يقرر أن يغيب مع آديلايد شهراً أو شهرين ، اذا سمحت له أعماله بذلك • فلا يبقى عندئذ الا الجنرال • والأسرة كلها تقيم الآن فى كولينو ، على مسافة عشرين فرسخاً من بطرسبرج ، بمنزل ريفى واسع فى احدى الأراضى التى تملكها • ولم تكن الأميرة بيلوكوتسكايا قد سافرت بعد الى موسكو ، ويظهر أنها تأخرت متمردة • لقد الحت الزابت بروكوفينا الحاحاً شديداً على استحالة البقاء فى بافلوفسك بعد كل ما حدث • وكان أوجين بافلوفتش ينقل اليها الشائعات التى تسرى فى المدينة ، يوماً يوماً • وأعتقد آل ايباتشين أن الذهاب الى فيللا ايلاجين مستحيل أيضاً •

أضاف أوجين بافلوفتش يقول :

— لا شك أنك تسلّم يا أمير بأن الوضع قد أصبح لا يطاق • • •
ولا سيما عند من يعرف ما يجرى فى بيتك كل ساعة ، وبعد زيارتك اليومية « هناك » ، رغم الاصرار على رفض استقبالك •

أجاب الأمير وقد يهز رأسه :

— نعم ، نعم ، أنت على حق • كنت أريد أن أرى آجلالا ايفانوفنا •

فصاح أوجين بافلوفتش يقول فجأة بلمهجة مؤثرة حزينة :

— آه يا عزيزى الأمير ! كيف أمكنك أن تسمح اذن بحدوث كل ما حدث ؟ صحيح أن الأمر كان لك مفاجأة غير متوقعة • • • فانا أسلمم بأنك لم يكن فى وسعك الا أن يطيش صوابك ، ولم يكن فى وسعك أن تصد تلك الفتاة عن الانقياد لنوبة الجنون التى اعترتها ، فذلك كله فوق

طاقتك ! ولكن كان عليك أن تدرك مدى خطورة وقوة العاطفة ... التي كانت تدفع تلك الفتاة اليك ! انها لم تشأ أن يشاركها أحد فيك ، وأنت .. أنت تركت هذا الكنز وحطمته .

قال الأمير وقد أرهقه الحزن :

- نعم ، نعم ، أنت على حق . اسمع : ان آجاليا كانت هي الانسان الوحيد الذى ينظر الى ناستاسيا فيليوفنا هذه النظرة !... ما من أحد غيرها كان يرى فيها هذا الرأى ، ويحكم عليها هذا الحكم ... هتف أوجين بافلوفتش يقول باندفاع :

- ولكن هذا بعينه هو ما يثير الحنق : أن الأمر كله لم يكن فيه شيء من جد . معذرة يا أمير ... لكننى ... لكننى فكرت فى المسألة، فكرت فيها ملياً . وأنا أعرف جميع المقدمات . أعرف كل ما حدث قبل ستة أشهر . لم يكن فى الأمر كله شيء من جد ، لم يكن ثمة الا فكر يعبت وخيال يهوى ، ووهم ، ودخان .. والغيرة المروعة ، الغيرة التى عصفت بقلب فتاة غير ذات تجربة ، هى التى استطاعت وحدها أن تجعلها تأخذ الأمر مأخذ الجد ومأخذ المساة !

وهنا شعر أوجين بافلوفتش بارتياح كامل ، فأطلق لسانه حراً يعبر عن استيائه بغير تحفظ . فإذا هو يرسم للأمير صورة للعلاقات بينه وبين ناستاسيا فيليوفنا بأقوال ذكية واضحة ، وبنفاذ سيكولوجى عميق ، كما أسلفنا من قبل . ان أوجين بافلوفتش قد أوتى موهبة الكلام فكانت هذه الموهبة تلاحظ فيه دائماً ، ولكنه ارتقى هذه المرة الى مرتبة البلاغة النادرة . قال :

- لقد كان فيك منذ البداية شيء من كذب . ومن كان الكذب بدايته فلا بد أن يكون الكذب نهايته . ذلك قانون من قوانين الطبيعة . اننى

لا أرى رأى أولئك الذين يعدونك أبله • حتى اننى استاء حين أسمع كلامهم • انك أذكى من أن توصف بهذه الصفة • ولكن لا بد أنك منسّم أنت نفسك بأن فيك غرابةٌ تميزك عن الناس كافة • لقد خلصت أنا الى هذه النتيجة : أن سبب كل ما جرى يكمن قبل كل شيء فيما أسميه « اللابخيرة الفطرية » (لاحظ تعبير « الفطرية » يا أمير) ، وفيما تصف به من سذاجة شاذة غير سوية • واني لأضيف الى ذلك أنك يعوزك حس الاعتدال عوزاً خارقاً (تلك آفة فيك كثيراً ما اعترفت بها أنت نفسك) ؛ وينبغى أن نذكر أخيراً ذلك السيل المتدفق من المعاني المجردة المكتسبة التي يمتلئ بها دماغك والتي حسبتها باخلاصك وبراءتك آراء أصيلة حقيقية صادقة طبيعية مباشرة ! عليك أن تعترف، أنت نفسك يا أمير بأن علاقتك مع ناستاسيا فيليوفنا قد قامت منذ البداية على فكرة « الديمقراطية الاصلاحية » (استعمل هذا التعبير للايجاز) وتأثرت بما تصف به « قضية المرأة » من فتنة وسحر (أقول هذا لمزيد من الاجاز أيضاً) • اعلم اننى مطلع على جميع تفاصيل الحادث الغريب الفاضح الذي جرى فى بيت ناستاسيا فيليوفنا حين جاء روجوين بأمواله • سأحاول ، اذا شئت ، أن أحللك وأن أظهرك على صورتك كأنك تراها فى مرآة • فالى هذه الدرجة من الدقة أعرف حقيقة القضية والسبب الذى جعلها تجرى هذا المجرى ! حين كنت شاباً تعيش فى سويسرا ، كان بك حين الى وطنك ، وكانت روسيا تجذبك كأنها بلد مجهول ، كأنها أرض موعودة • وقد قرأت حيثنذ كتباً كثيرة عن روسيا • ولعلها كانت كتباً ممتازة ، لكنها قد أضرت بك • فلما عدت الى الأرض التى ولدت فيها كنت منمكاً بالحماسة ظامئاً الى النشاط • فارتيمت على العمل ارتماءً ان صح التعبير • وهأت ذا ، منذ وصولك أول يوم ، تحكى لك حكاية حزينة مؤلة هي حكاية انسان أهين وأوذى • لقد حكيت هذه الحكاية لك أنت ، أنت

الرجل العفّ الطاهر الذى يتصف بروح الفروسية ، والانسان الذى قُصّت عليك قصته الأليمة تلك ، كان امرأة ! وفى ذلك اليوم نفسه ترى تلك المرأة نفسها ، فيسحرك جمالها ، جمالها الحارق الشيطاني (هانت ذا ترى اننى أعترف بجمالها) • أضف الى ذلك حالة أعصابك ، ومرض الصرع ، وما يحدثه ذوبان الثلج ببطرسبرج من أثر حزين فى النفس • أضف الى ذلك أيضاً أنك أثناء ذلك النهار الأول الذى قضيته فى مدينة مجهولة شبه أسطورية فى نظرك ، قد شهدت مشاهد عدة ولقيت ناساً كثيرين • لقد تعرفت ، على نحو لم يكن فى الحسبان قط ، بثلاث جيالات، الآسات ايبانتشين ، ومنهن آجلابا • أضف الى ذلك أيضاً ما كنت فيه من تعب ، وأضف اليه الدوار ، وأضف اليه صالون ناستاسيا فيليوفا والجوّ الذى كان يسوده ، و ... فماذا يمكن أن تتوقع من نفسك فى تلك اللحظة ؟ هلاًّ قلت لى ، من فضلك ...

قال الأمير هازاً رأسه وقد أخذ وجهه يحمر :

— نعم ، نعم ، تكاد تكون على حق • فعلاً ، لم أكن قد نمت فى الليلة السابقة بالقطار ، ولا فى الليلة التى قبلها ... وكنت أشعر أننى فى غير حالتي الطبيعية ...

تابع أوجين بافلوفتش كلامه قائلاً :

— فهذا بعينه ما أردت أن أخلص اليه • واضح أنك ، وقد أسكرتك الحماسة ، ارتفعت على هذه الفرصة ارتماء لتبرز عظمة نفسك أمام الناس معلناً على رموس الأشهاد أنك على كونك أميراً بالولادة ، وعلى كونك رجلاً طاهراً ، لا ترى أن أى عارٍ قد لحق بامرأة لم تُسقطها خطيئتها هى بل أسقطتها خطيئة رجلٍ منحل كزبه من أبناء المجتمع الراقى • أمر مفهوم جداً ! ولكن ليست هذه هى المسألة يا عزيزى الأمير • ان الشيء

الذى يجب أن نعرفه هو : أكانت عاطفتك حقيقية ، صادقة ، طبيعية ، أم كانت ناشئة عن حماسة دماغية ؟ ما رأيك ؟ لئن غُفر فى المبد لمرأة من هذا النوع ، فما من أحد قال لها انها أحسنت صنماً ، ولا انها تستحق جميع الأمجاد وجميع أنواع الاحترام ! ألم تَرَ أن عقلك قد أرجع الأمور الى نصابها من تلقاء نفسه بعد ثلاثة أشهر ؟ لنسلم بأنها بريئة (هذه مسألة لا أريد أن ألج عليها) • هل ينفى هذا أن أعمالها لا تسوِّغ أى تسويغ ما يراه المرء فيها من عُجْب لا يطاق وزهو شيطاني لا يغتفر، ووقاحة شديدة ، وأنانية مفرطة لا يرتوى لها ظمأ • معذرةً يا أمير ، اذا أنا اندفعت واسترسلت ، ولكن ...

تمتم الأمير يقول من جديد :

- نعم ، ذلك كله ممكن • جائز أنك على حق ... انها فى حالة شديدة من حالات فرط الاحتياج فعلاً • وأنت على حق يقيناً ، ولكن ...
- أتريد أن تقول انها تستحق الشفقة يا أميرى الطيب ؟ ولكن هل من حَقك ، شفقةً بها وارضاءً لها ، أن تجلج بالعار فتاة أخرى كريمة المحتد طاهرة ، وأن تذللها أمام « تينك » العينين اللتين تفيضان احتقاراً وكرهاً ؟ فأين تقف الشفقة بعد هذا ؟ أليس ههنا غلوٌ لا يصدقه العقل ؟ حين يجب المرء فتاةً فهل يستطيع أن يحقّر شأنها ذلك التحقير أمام غريمتها ، وأن يهجرها فى سبيل أخرى على مرأى من هذه الأخرى ، بعد أن خطبها خطبةً شريفة ؟ ... ذلك أنك خطبتها وأعلنت خطبتها بحضور أبويها وأختيها ! أيمكن بعد هذا أن توصف بأنك رجل شريف يا أمير ؟ ثم ... ألم تتخدع فتاة تستحق العبادة حين أكدت لها أنك تحبها ؟

جمعهم الأمير يقول بحزن لا يغال :
- نعم ، نعم ، أنت على حق • آه ... أنا أشعر بأننى آثم !

هتف أوجين بافلوفتش يقول مستاءً :

- ولكن هل يكفي هذا ؟ هل يكفي أن تصيح قائلاً : « آ ... أنا آثم ! » . أنت آثم ، ولكنك مستمر في أخطائك وذنوبك . أين كان اذن قلبك ، قلبك « المسيحي » ؟ لقد رأيت وجهها في تلك اللحظة : فهل كان يعبر عن الألم أقل من وجه « الأخرى » ، وجه « صاحبك » التي تبث البلبلة والاضطراب ؟ فكيف ، وقد رأيت هذا المنظر ، سمحت بحدوث ما حدث ، كيف ؟

تمتم الأمير المسكين يقول :

- ولكن ... ولكنني لم أسمح بشيء ...

- كيف لم تسمح بشيء !

- يميناً لم أسمح بشيء ! ... وما زلت حتى الآن لا أفهم كيف حدث ذلك كله ... لقد ركضت عندئذ وراء آجلايا ايفانوفنا ، ولكن أغمى في تلك اللحظة على ناستاسيا فيلييوفنا ، ومنذ ذلك الحين لم يبيحوا لي أن اقترب من آجلايا ايفانوفنا .

- كان يجب عليك أن تركض وراء آجلايا وأن تترك الأخرى مغنى عليها !

. - نعم ، نعم ، كان يجب على ... كانت سموت من ذلك ! كانت ستتحرر ، انك لا تعرفها . . . و . . على كل حال . . مهما يكن من أمر . . . كنت سأقص كل شيء بعد ذلك على آجلايا ايفانوفنا ، و . . اسمع يا أوجين بافلوفتش : يلوح لي أنك لست على علم بكل شيء . هـلاً قلت لي لماذا لا يبيحون لي الاقتراب من آجلايا ؟ لو سمحوا لي أن أفعل ، لشرحت لها كل شيء . . أعلم هذه الحقيقة : هما كلتاها لم تتكلما عندئذ عما كان ينبغي الكلام عليه ، وذلك هو السبب في أن الأمور جرت بينهما هذا المجرى .

يستحيل على استحالته المطلقة أن أشرح لك هذا شرحاً واضحاً ، ولكن قد أفلح في شرحه لآجلها . آه ... رباة ! رباة ! انك تكلمنى عن وجهها فى تلك اللحظة كيف كان ، هربت ... آه ... يا رب ! انتى أتذكر كيف كان وجهها فى تلك اللحظة ! ... قم بنا ... قم بنا ...

كان الأمير قد قام بقتة وهو يحاول أن يجبر أوجين بافلوفش من كفه .

— الى أين ؟

— الى عند آجلها ايفانوفنا . لنذهب اليها فوراً ! ...

— ولكننى قلت لك انهم رحلوا عن بافلوفسك . ثم ... ما عسانا فاعلين عندها ؟

دمدم الأمير يقول ضاماً يديه بحركة التوسل والضراعة :

— انها سوف تفهم ، سوف تفهم ! سوف تفهم أن الأمر ليس « هذا » بل هو شيء آخر تماماً !

— كيف يكون شيئاً آخر تماماً ؟ انك سوف تتزوج مع ذلك ! ماتزال اذن تعاند ... ألسنت مقبلاً على زواج ؟

— بلى ... سأتزوج ... سأتزوج ! ...

— فكيف تقول اذن ان الأمر ليس « هذا » ؟

— لا ، ليس الأمر هذا ، ليس الأمر هذا ... ليس هاماً أن أتزوج ... ما زواجى بشيء ! ...

— كيف يمكنك أن تقول ان زواجك ليس هاماً ؟ ما زواجك مزاحة على كل حال ! انك تتزوج امرأة تحبها ، من أجل أن تحقق سعادتها . وآجلها ترى هذا وتعرفه . أهذا أمر لا قيمة له ولا شأن ؟

- سعادتها ؟ لا ، لا . اننى أتزوج هكذا أتزوج وكفى .
 هى تحرص على أن أتزوجها . وما قيمة أن أتزوج ؟ اننى . . . هذا كله
 لا شأن له عندي . لو فعلت غير ما فعلت لماتت حتماً . اننى أرى الآن أن
 فكرة زواجها بروجويين كانت جنوناً . الآن فهمت ما لم أكن أفهمه من
 قبل . اسمع ما سأقوله لك : اننى حين اشتجرتا لم أستطع أن أتحمّل رؤية
 وجه ناستاسيا فيليوفنا .

ثم أضاف الأمير قائلاً وهو يخفض صوته كأنه يفيض بسر :

- أنت لا تعلم يا أوجين بافلوفتش اننى لم أقل هذا لأحد في
 يوم من الأيام ، أبداً ، أبداً ، لم أقله حتى لآجلايا . . ولكن الحقيقة هى
 أننى لم أطق أن أحمّل رؤية وجه ناستاسيا فيليوفنا انك منذ قليل
 قد أجدت أيما إجادة وصف السهرة التى تمت فى بيتها . غير أن هناك
 أمراً تفصيلياً غاب عنك لأنك كنت تجهله : هو أننى نظرت الى «وجهها» .
 وقبل ذلك ، فى الصباح ، حين رأيت صورتها لم أستطع أيضاً أن أحمّل
 تعبير هذا الوجه انظر الى وجه فيرا ، بنت ليديف : ان لها عينين
 مختلفتين عن عيني ناستاسيا فيليوفنا كل الاختلاف . اننى اننى أخاف
 من وجه ناستاسيا فيليوفنا .

أضاف الأمير هذه الجملة الأخيرة بلهجة تدل على أكبر الرعب .

سأله أوجين بافلوفتش :

- تخاف من وجهها ؟

فأجاب الأمير قائلاً بهمس وقد امتقع لونه :

- نعم . انها مجنونة .

فسأله أوجين بافلوفتش وقد لاحت فى وجهه حيرة شديدة :

- أأنت متأكد من هذا ؟

– نعم ، متأكد . الآن أنا متأكد . لقد افتتحت بهذا افتتاحاً راسخاً
فى هذه الأيام الأخيرة .

فصاح أوجين بافلوفتش يقول مرتاعاً :

– فماذا تفعل اذن أيها الشقي ؟ أنت تتزوج اذن بتأثير نوع من
الخوف ؟ ذلك أمر لا يفهم المرء منه شيئاً ... وربما كنت لا تحبها أيضاً ؟
– بلى بلى ! اننى أحبها بكل نفسى ! ما هذا الكلام الذى تقول !..
انها طفلة . هى الآن أشبه بطفلة تماماً ! آه .. انك لا تعلم شيئاً !

– وفى الوقت نفسه أكدت لأجلأيا حبك ؟

– نعم ... نعم !...

– كيف تفسر هذا ؟ أتزعّم اذن أنك تحبهما كليهما فى آن واحد ؟

– نعم ... نعم !...

– فكّر فيما تقول يا أمير !

– بدون آجلأيا سوف يوافينى ... يجب أن أراها حتماً . سوف
يوافينى الموت وأنا نائم بعد حين ... لقد قدّرت أن أموت هذه الليلة
أثناء النوم . آه ... ليت آجلأيا تعلم ، لينها تعلم كل شيء ... أقصد
أن تعلم كل شيء تماماً ! ذلك أن الأمر الأساسى هنا هو أن يعرف المرء
كل شيء ! لماذا لم يكتب لنا قط أن نعلم « كل شيء » عن شخص آخر
حين يكون هذا لازماً ، اذا ارتكب هذا الشخص الآخر ذنباً !... على
كل حال ، أصبحت لا أعرف ماذا أقول ، لقد اختلطت فى عقلى الأمور .
انك ألقيتنى فى اضطراب رهيب ... هل يمكن أن تكون محتفظة الى
الآن بذلك التعبير الذى رأيته فى وجهها حين هربت ؟ آه ... نعم ...
أنا آثم ! الأرجح أن جميع الأخطاء قد صدرت عنى أنا . اننى لا أعرف
ماذا كانت تلك الأخطاء على وجه التحديد ، ولكننى مشغول !... هنالك

شئ لن أستطيع أن أشرحه لك يا أوجين بافلوفتش ، لأننى لا أملك
الألفاظ التى يمكن أن تعبر عنه • ولكن +++ آجلايا ايفانوفنا ستفهم !
نعم ، لقد قدّرتُ دائماً أنها سوف تفهم +++

– لا يا أمير ، لن تفهم ! ان آجلايا ايفانوفنا قد أحبتك حباً انسانياً ،
كما تحب امرأة +++ لا كما يحب روح صرف • هل تريد أن أقول لك
يا أميرى المسكين : أغلب الظن أنك ما أحبيت واحدة منهما أبداً لا الأولى
ولا الثانية !

– لا أدرى +++ جائز +++ جائز !••• انك على حق فى نقاط كثيرة
يا أوجين بافلوفتش • انك ذكى ذكاء متفوقاً يا أوجين بافلوفتش • آه ••
هذا رأى قد عاوده الصداق • لنذهب اليها • لنذهب اليها • ناشدتك الله
+++ ناشدتك الله !

– ولكننى قلت لك انها غادرت بافلوفسك ! هى الآن فى كولينو •
فلنذهب الى كولينو • لنسافر حالاً !

– مسه ••• ت ••• حيل !

كذلك قال أوجين بافلوفتش بصوت ممطوط • ونهض •
قال له الأمير :

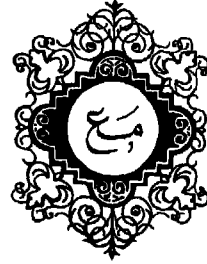
– اسمع • سأكتب رسالةً تحملها أنت اليها !

– لا يا أمير ، لا ! اعفى من مثل هذه المهمات • لا أستطيع أن أتولى
حمل الرسالة •
وافترقا •

مضى أوجين بافلوفتش وهو يحمل احساساً غريباً • لقد وصل الى
اقتناع راسخ بأن الأمير مختل العقل قليلاً • « ما معنى هذا الكلام عن

« وجه » يخشاه كل هذه الخشية ويحبه كل هذا الحب ؟ وليس مستحيلاً
في الوقت نفسه أن يموت لفراق آجلا يا فعلاً ، فلا تعرف الفتاة مدى
ما كان يحمله لها من حب • ها ها !... وكيف يمكنه أن يحب امرأتين؟
وأن يحب كلاهما حباً يختلف عن حبه للأخرى ؟ ذلك هو الشيء
الطريف •• يا للأبله المسكين ! ما عسى يصير إليه الآن ؟ •• ، •

الفصل العاشر



ذلك لم يمت الأمير قبل زواجه لا في حالة القفلة ولا « أثناء النوم » كما تنبأ بذلك لأوجين بافلوفتش . لعله كان ينام نوماً غير هادئ ولعله كان يرى أحلاماً سيئة . ولكنه أثناء النهار ، في معاشرته الناس ، كان يبدو حسن الصحة بل وراضى النفس . وإذا بدا في وجهه كثير من الاستغراق أحياناً فإن ذلك يحدث له حين يكون وحيداً .

لقد استعجلت اعدادات الزواج الذي كان سيتم بعد زيارة أوجين بافلوفتش بشمائية أيام . فكان يستحيل على أصدقاء الأمير الخُلص ، اذا كان له اصدقاء خُلص ، كان يستحيل عليهم وهم يرون ذلك الاستعجال كله الا أن يعدلوا عن الأمل في أن تصل جهودهم الى « انقاذ » المجنون المسكين مما عقد العزم عليه . وسرت شائعة تقول ان زيارة أوجين بافلوفتش انما تمت بايحاء من الجنرال ايفان فيدوروفتش وزوجته الزبابت بروكوفيتنا . ولكن لئن دفعهما فرط طيبتها كليهما الى أن يتنبا «انقاذ» المختل المسكين من الوحدة التي وقع فيها ، فلقد اضطررا أن يقتصر على تلك المحاولة الوحيدة الوجلة ، فلا وضعهما ولا عواطفهما ، في أغلب الظن (وذلك أمر طبيعي) ، تسمح لهما بأن يبذلا جهوداً أكبر . وقد سبق أن قلنا ان المحيطين بالأمير عارضوه هم أنفسهم . واكتفت فيرا ليديفا

بأن تسكب الدموع حين تخلو الى نفسها • ثم انها كانت تمكث في البيت أكثر الوقت ، فقلت زيارتها للأمير •

وفي تلك الأثناء كان كوليا يقوم بأخر واجباته تجاه أبيه • لقد مات أبوه بنوبة جديدة وافته بعد التوبة الأولى بنحو ثمانية أيام • وشارك الأمير مشاركة كبيرة في حداد الأسرة • ففضى في الأيام الأولى ساعات كاملة قرب نينا الكسندروفنا • وسار في الجنازة وشهد الدفن وحضر القداس الذي أقيم على روح الفقيد في الكنيسة • وقد لاحظ أشخاص كثيرون أن وصوله الى الكنيسة وانصرافه منها قد أثارا همسات تبادلها الناس في الحفل على غير ارادة منهم ، وحدث مثل هذا في الشارع وفي الحديقة العامة • فكان الناس ، اذا مرَّ الأمير سائراً على قدميه أو راكباً عربة ، تنتعش الأحاديث بينهم ويدل بعضهم بعضاً عليه ، وينطقون اسمه وينطقون اسم ناستاسيا فيليوفنا • وقد بحثوا عن ناستاسيا فيليوفنا في جنازة الجنرال ، لكنهم لم يجدوها • ولم تشارك « أرملة الكاتب » في الجنازة ، فقد استطاع ليديف أن يصدّها عن الخروج من البيت • وأحدث صلاة الجنازة في نفس الأمير أثراً أليماً قوياً • فلما سأله ليديف عن ذلك أجاب بصوت خافت انه لأول مرة يشهد دفناً على الطقوس الروسية ، باستثناء احتفال مماثل يذكر أنه رآه أثناء طفولته في كنيسة قرية •

قال ليديف هامساً :

- كيف يصدق المرء أن الرجل الراقد في هذا التابوت هو ذلك الرجل نفسه الذي انتخبناه رئيساً منذ مدة قصيرة ؟ هل تتذكر ؟ ولكن عمن تبحث ؟

- لا أبحث عن أحد ، ولكن خيّل الى أتى ...

- أترك تبحث عن روجوين ؟

- أهو هنا ؟

- هو فى الكنيسة •

- خبِّل الىَّ فعلاً أننى رأيت عينيه ، ولكن كيف ... ماذا جاء به

الى هنا ؟ هل دعوه ؟

كذلك سأل الأمير مدمماً وقد لاح الاضطراب فى وجهه • فأجابه

ليديف :

- لم يخطر ببال أحد أن يدعوه • ثم ان الأسرة لا تعرفه • كل

انسان يستطيع أن يدخل الكنيسة • لماذا دهشت هذه الدهشة كلها ؟

اننى ألقاه فى هذه الأيام كثيراً • فى الأسبوع الماضى رأيته أربع مرات ،

هنا فى بافلوفسك •

تمتم الأمير قائلاً :

- لم أره حتى الآن مرة واحدة ... منذ ذلك اليوم •

واذ أن ناستاسيا لم تقبل للأمير يوماً انها لقيت روجويين مرة واحدة

« منذ ذلك اليوم » ، فقد استتج الأمير من ذلك أن روجويين قد غاب

واختفى عامداً • وبدا الأمير مشغول البال غارقاً فى التفكير طوال ذلك

انتهار • ولا كذلك ناستاسيا فيليوفا فقد كانت مرحة مرحاً غير مألوف ،

مرحاً امتدَّ طوال السهرة •

وكان كولييا قد تصالح مع الأمير قبل موت أبيه ، واقترح عليه أن

يتخذ كلاً من كيللر وبوردوفسكى فتى شرف لحفلة الزفاف (فالأمر هام

ومستعجل لا يحتمل أى تأخير) • فأما عن كيللر فقد ضمن كولييا حسن

سلوكه وأضاف الى ذلك أنه ربما كان « مفيداً » • وأما عن بوردوفسكى

فلا حاجة الى أى تزكية له ، لأنه رجل « هادى ومتواضع » • وقد قام

ليديف ونيينا الكسندروفنا بتنييه الأمير الى أنه ، اذا كان قد عزم أمره على

على الزواج فلا يمكن ثنيه عنه ، يستطيع على الأقل أن يعفى نفسه من الاحتفال به هنا بـ بافلوفسك ، فى هذا الفصل الذى يكثر فيه توافد أبناء المجتمع الراقى الى بافلوفسك • أليس الأفضل أن يتم الاحتفال بالزفاف فى بطرسبرج ، بل وفى البيت أيضاً ؟ ولم يفك الأمير أن يدرك السبب الذى يكمن وراء هذه المخاوف ، ولكنه اقتصر على أن أجابها موجزاً بأن ناستاسيا فيليوفنا ترغب فى إقامة الحفلة هنا قطعاً •

حين علم كيللر فى الغداة أنه اختير فتى شرف لحفلة الزفاف جاء يمثل أمام الأمير • توقف أولاً فى العتبة ، فما ان أبصر الأمير حتى رفع يده اليمنى ونصب ابهامه فى الهواء ، وهتف يقول بصوت من يحلف يميناً ويقطع على نفسه عهداً :

— لن أشرب قط !

ثم دنا من الأمير وشدَّ على يديه كليهما وهو يهزهما هزاً قوياً ، وقال انه فى حقيقة الأمر قد غضب فى البداية حين علم بما حدث ، حتى لقد أعلن غضبه أثناء لعبة بلياردو ؛ ولكن هذا الغضب انما يرجع الى أن ما يحمله للأمير من صداقة تتصف بنفاد الصبر واستعجال الأمر كان يجعله يتمنى أن يرى الأمير يتزوج أميرة من أسرة روهان أو من أسرة شابو على الأقل • ولكنه أدرك الآن أن أفكار الأمير أنبل اثنتى عشرة مرة على الأقل من أفكار جميع من يحيطون به « جملة واحدة » ! لأن ما يسعى اليه الأمير ليس هو الشهرة ولا هو الفنى حتى ولا هو المجد ، وانما هو الحقيقة • ان ميول الشخصيات السامية معروفة ، وان للأمير من سعة ثقافته ما يجعله شخصية من تلك الشخصيات السامية ، بوجه عام • « ولكن الأوباش والأوغاد لهم رأى آخر يختلف عن هذا الرأى كل الاختلاف • فى المدينة ، فى البيوت ، فى الاجتماعات ، فى الفيلات ، فى حفلات الموسيقى ، فى الحانات ، فى صالات البلياردو ، لا يتكلم الناس ولا يثرثرون

الا عن الحدث المقبل ، حتى لقد سمعت أنهم يهيئون لك زينة موسيقية
قيحة تحت نوافذك ، وذلك في الليلة الأولى !... فاذا كنت ، يا أمير في
حاجة الى مسدس رجل شريف فأنا مستعد لأن أبادل مبادلةً نبيلة نصف
دسته من طلقات النار قبل أن تغادر مضجع عرسك في صباح الغد » • حتى
لقد نصح كيللر الأمير بأعداد مضخة من مضخات اطفاء الحريق في فناء
البيت، كندير وفائي ضدّ الجمهور الفضولي عند العودة من الكنيسة. ولكن
ليديف اعترض على هذا الاقتراح قائلاً ان يته سيهدم من أساسه اذا
استعملت هذه المضخة •

قال كيللر :

- أؤكد لك يا أمير أن ليديف هذا يدبر لك مؤامرات • انهم
يريدون أن يحجزوا عليك ويجعلوك تحت وصاية • هل تستطيع أن
تتخيل هذا ؟ سوف يحرمونك من ممارسة حريتك واستعمال مالك ، أى
من الشيشين الذين يميّزانا جميعاً عن الدواب ! لقد سمعت ذلك ، سمعته
تماماً ! هذه هي الحقيقة خالصة !

تذكر الأمير تذكراً غامضاً أنه سبق أن سمع شيئاً من هذا القيل ،
ولكنه لم يلق اليه بالآبطبيعة الحال • ولم يزد الآن على أن ضحك للملاحظة
كيللر ، ثم سرعان ما نسيها فوراً •

وواقع الأمر أن ليديف كان يتحرك ويسعى هنا وهناك منذ مدة •
ان خطط هذا الرجل تنشأ في نفسه دائماً بنوع من الوحي والالهام ،
ولكنه من فرط حرارته واندفاعه في انفاذها يعثر جهوده في كل اتجاه ،
ويتعد عن الهدف الذي يكون قد رسمه لنفسه في البداية • لذلك لم
ينجح في حياته كثيراً • وقد جاء يعترف للأمير فيما بعد ، يوم الزواج
تقريباً (لقد كان هوساً عنده أن يأتي الى من تأمر عليهم ، فيعبر لهم عن

ندمه وتوبته ، لا سيما حين تخفق مؤامراته) ، فأعلن له أولاً أنه قد خُلِق ليكون تاليران ، ولكنه لتعثر حظه تعثراً لا يُفسَّر قد بقي ليديف لا أكثر ، ثم كشف له عن تفاصيل مكيدته التي أثارَت اهتمام الأمير وشاقته كثيراً . قال انه بدأ يبحث في أول الأمر عن حُماة يستند اليهم ويعتمد عليهم عند الحاجة ، فذهب لهذا الغرض الى الجنرال ايفسان فيدوروفتش . فبدأ على الجنرال الارتباك ، ثم قال له انه « رغم ما يتمناه للشباب من خير كثير ، ومهما تكن رغبته في انقاذه قوية ، فانه لا يستطيع أن يتدخل ، لأن الأعراف لا تسمح له بذلك . » . ولم تشأ الزبابت أن تراه ولا أن تسمع عنه . أما أوجين بافلوفتش والأمير « شتد . . » فقد رفضا هما أيضاً . ولكنه ، هو ليديف ، لم يفقد شجاعته ولا خارت عزيمته : كان قد استشار رجلاً خبيراً من رجال القانون هو شيخ محترم كان صديقاً حميماً له ، بل وكان يدين له بعض المنة . فانهى رجل القانون هذا الى أن الحجر على الأمير ممكن تماماً ، بشرط أن يشهد شهود اكفاء بأن عقله مختل ، وأن جنونه كامل ؛ والمهم على كل حال أن يكون هنالك اشخاص من أصحاب النفوذ يمكن الاتكال على نفوذهم . ولم يفقد ليديف صبره ، حتى لقد جاء الى بيت الأمير في ذات يوم بطبيب . كان الطبيب هو أيضاً شيخاً محترماً يصطاف في بافلوفسك ، ويحمل وسام القديسة حنة . لقد جاء به تحت ستار أنه يريد أن يريه منزله ، متفقاً معه على أن يدرس حالة المريض وأن يطلعه على النتائج التي يصل اليها لا بصفة رسمية بل بصفة ودية مؤقتاً .

لقد تذكر الأمير زيارة الطبيب تلك . تذكر أن ليديف قد ألحَّ عليه بالأمس ليقضه بأنه مريض ، فبعد أن رفض الأمير رفضاً قاطعاً أن يستعين بالطب ، رأى ليديف يدخل عليه بصحبة طبيب ، مدعياً أنهما قادمان من عند السيد تيرتيف الذي ساءت حالته كثيراً ، وأن الطبيب يريد

أن يقول للأمير شيئاً في موضوع المريض • وقد أثنى الأمير على ليديف، واستقبل الطبيب استقبالاً يبلغ غاية المودة والبشاشة • وسرعان ما أخذوا يتكلمون عن هيووليت • فطلب اليه الطبيب أن يقص عليه مشهد الانتحار تفصيلاً • فتكلم الأمير ففتن الطبيب بوصفه للحادث وتأويله إياه • ثم دار الحديث على طقس بطرسبرج، ومرض الأمير، وسويسرا، وشنايدر • فبلغ الطبيب من شغفه بما ذكر الأمير عن طريقة شنابير في المعالجة أنه بقي معه قرابة ساعتين، مدخناً أثناء ذلك لفائف سيجار الأمير الممتازة، ومحتسباً ما قدمه اليه ليديف من شراب طيب جاءت به فيرا • ولم يفت الطبيب في هذه المناسبة، رغم أنه متزوج ورب أسرة، أن يقدق الثناء على فيرا اغداً بلغ من الجرأة أن الفتاة استاءت استياء عميقاً • وافترق الطبيب والأمير صديقين •

قال الطبيب لليديف وهو يخرج : « اذا أردنا أن نضع تحت الوصاية أناساً كالأمير فمن هم الذين يمكن أن نجعلهم أوصياء ؟ » • فلما عرض له ليديف جانب المأساة في الحادث الذي يوشك أن يقع، هزّ الطبيب رأسه بمكر وخبت، وقال : « يجب أن ندع للناس أن يتزوجوا كما يشاؤون ! ثم ان المرأة التي تتحدث عنها ليست جميلة جمالاً لا يضارع فحسب - وذلك وحده سبب كاف لأن يدير رأس رجل غنى - وانما هي تملك عدا ذلك، فيما سمعت، أموالاً طائلة آلت اليها من توتسكى وروجوين، وتملك عقود لؤلؤ، وجواهر ماس، وشالات ثمينة ورباشاً فاخرة • وهذا كله يشهد بأن الأمير، اذ يختارها، ليس رجلاً ضعيف العقل غريب الأطوار بل هو على عكس ذلك فتي حصيف الرأي، له ذكاء رجل من أبناء المجتمع الراقى، يعرف مصلحته ويجيد الحساب أيما اجادة ! » • اعتقد الطبيب اذن أن من حقه أن يستخرج من ذلك كله تشخيصاً يشهد للأمير لا عليه، ويزكيه تركية تامة +++

وقد أحدثت هذه النتيجة في ليديف تأثيراً قوياً • وها هو ذا الآن يختم اعترافه للأمير قائلاً : « لن تجدني بعد الآن الا رجلاً مخلصاً لك ، متفانياً في سبيلك ، مستعداً لأن يسفح دمه من أجلك • فلكي أقول لك هذا الكلام انما جئت اليك • • »

وكان الأمير خلال هذه الأيام الأخيرة مشغولاً كذلك بهيوليت • كان هيوليت يستدعيه كثيراً • ان أسرة هيوليت تسكن في بُيْت صغير غير بعيد من بيته • فالأولاد (أى أخو هيوليت وأخته) يتمتعون هنا بلذة الحياة في الريف ، وفي وسعهم أن يهربوا من المريض بالنزول الى الحديقة على الأقل • ولا كذلك أمه ، « أرملة الكابتن » المسكينة ، فلقد كانت أسيرة ارادته وضحية عسفه وطفئانه • فكان الأمير يقضى وقته في التوفيق بينهما وردّ الصلح الى علاقتهما • وقد استمر المريض ينادى الأمير باسم « نونو » ، مع عجزه عن منع نفسه من احتقاره لقيامه بدور الوسيط المصلح • وكان غاضباً على كوليلاً غضباً شديداً ، لأن كوليلاً انقطع عن زيارته انقطاعاً يكاد يكون تاماً ، للملازمة أباه حين كان على فراش الموت أولاً ، وللملازمة أمه الأرملة بعد ذلك • وقد أخذ هيوليت يصب مزاحاته أخيراً على زواج الأمير وناستاسيا فيليوفنا في القريب • فاستاء الأمير وغضب غضباً قوياً وانقطع عن زيارته • وبعد ذلك بيومين جاءت « أرملة الكابتن » في الصباح المبكر ممثلة العينين بالدموع ، جاءت تترجو الأمير أن يأتي اليهم ، والا فان ابنها سيشرب دمها • وأضافت أن هيوليت يرغب في أن يكشف له عن سر كبير • فأذعن الأمير • فأعرب له هيوليت عن رغبته في أن يتصالحا ، حتى لقد أجهدش باكياً وهو يقول ذلك الكلام • ولكن ما ان جفت دموعه حتى عاد أشد شراسة مما كان ، دون أن يرخي العنان لفضبه مع ذلك • كانت صحته سيئة جداً ، وكان كل شيء يدل على أنه لن يلبث أن يموت • ولم يكن لديه أي سر يكشف عنه ، ولكن طفق

يلح في « تحذير الأمير من روجويين » بانفعال لعله كان مصطنعاً . قال يصف روجويين : « هذا رجل لا يتخلى عما يملك . انه ليس من طينتنا نحن يا أمير . اذا أراد شيئاً فليس يزعه وازع ولا يردعه رادع ، الخ . أخذ الأمير يلقي عليه أسئلة مفصلة ليستخرج منه وقائع محدّدة . ولكن هيوليت لم يذكر أى دليل غير احساساته أو انطباعاته الشخصية . وقد أرضاه كثيراً في النهاية أن ألقى في نفس الأمير رعباً شديداً . كان الأمير في البداية يتحاشى الاجابة عن بعض الأسئلة الخاصة التي يلقيها عليه هيوليت ، وكان يقتصر على الابتسام حين يسدى اليه هيوليت نصائح كهذه النصائح : « اهرب ولو الى الخارج . سوف تجد في كل مكان كهنة أرثوذكسين . في وسعك أن تتزوج هناك أيضاً ، . ولكن هيوليت خلص بعد برهة الى هذه الفكرة : « الحق أنني أخشى خاصة على آجلايا ايفانوفنا . ان روجويين يعرف مدى ما تحمل لها من حب . العين بالعين ، والسن بالسن ، والحب بالحب . لقد انتزعت منه ناستاسيا فيليوفنا فسيقول هو آجلايا ايفانوفنا . ورغم أن آجلايا ايفانوفنا لن تمت اليك بسبب بعد اليوم ، فسوف يؤلمك مقتلها كثيراً ، أليس كذلك ؟ » . حقق هيوليت هدفه وبلغ مأربه : لقد خرج الأمير من عنده مضطرباً أشد الاضطراب .

هذه التحذيرات من روجويين حدثت عشية الزواج . وفي ذلك المساء لقي الأمير ناستاسيا فيليوفنا آخر لقاء قبل حفلة الزفاف . أصبحت المرأة الشابة لا تستطيع أن تهدئه . انها في هذه الآونة الأخيرة لا تفصح الا في مفارقة اضطرابه . كانت قبل ذلك ببضعة أيام ، أثناء خلوة بينهما ، قد روّعها ما رأيته في وجهه من حزن . فبذلت جميع ما تملك من جهود لتفرحه وتبهجه . حتى لقد حاولت أن تسرّي عنه بالفناء . كانت في أكرر الأحيان تبحث في ذاكرتها عما يمكن أن يسليّه . وكان الأمير يتظاهر في جميع الأوقات تقريباً بأنه يتنهج كثيراً . حتى انه كان يندفع أحياناً في ضحك

صادق تجره اليه قوة الفكاهة وحلاوة النكتة لدى المرأة الشابة حين تقص ما تقصه متوقدة القريحة ، وذلك ما يحدث كثيراً . فكانت اذا رأت ضحكته تُسرُّ سروراً عظيماً وتشعر بافتخار واعتزاز بنفسها لأنها استطاعت أن تحدث فيه أثراً طيباً . ولكنها تصبح الآن أشد حزناً وأكثر وجوماً وهماً ، ساعةً بعد ساعة . وكان الأمير قد كوّن لنفسه رأياً نهائياً فيها ، فلولا ذلك لبدأ له كل شيء فيها اليوم لغزاً لا سبيل الى فهمه قطعاً . ولكنه ظل مقتنعاً اقتناعاً قوياً بأنها قد تبعت بعثاً جديداً . لقد كان على حق حين قال لأوجين بافلوفتش انه يحبها حباً صادقاً عميقاً . والواقع أن حبه هذا كان يشتمل على شيء من اندفاعه الحثان التي يشعر بها المرء نحو طفل ضعيف هزيل مريض يصعب بل يستحيل تركه وشأنه . ولم يشرح الأمير لأحد عواطفه نحوها في يوم من الأيام ، وكان يكره أن يتكلم في هذا الموضوع حين يستحيل تحاشيه . وكانا اذا أحدهما الى الآخر لا يتكلمان في « العواطف » ، فكأنهما قد تعاهدا على ذلك ؛ وكان جميع الناس يستطيعون أن يشاركوها فيما يجرى بينهما من حديث هو في العادة مرح زاخر بالنشاط . لقد روت داريا ألكسينا فيما بعد أنها لم تشعر وهي تراهما خلال تلك الأيام الا بالمسرة والفرح والافتتان .

وكان الرأي الذي قام في ذهن الأمير عن الحالة النفسية والعقلية لئاستاسيا فيليوفنا ، يعنى فكره من كثير من أنواع الحيرة والبلبلة الى حد ما . انها الآن امرأة مختلفة كل الاختلاف عن التي عرفها منذ نحو ثلاثة أشهر . أصبح لا يدهشه أن يراها تلج على استعجال الزفاف بعد أن رفضت في الماضي فكرة الزواج باكية لاعنة شاكية لائمة . انه يقول لنفسه : « اذن لقد أصبحت لا تخشى أن تسبب لى الشقاء بالزواج كما كانت تخشى ذلك في الماضي . » . فكانت هذه السرعة في استرداد الثقة بالنفس تبدو له غير طبيعية . ان ناستاسيا فيليوفنا لم تستمد هذه الثقة من

كرهها لآجلآيا فحسب ، لأنها قادرة على الشعور بعواطف أعمق ؛ لا ولا هي استمدتها من خشية الحياة مع روجويين • صحيح أن أشال هذه العوامل وغيرها يمكن أن يكون لها أثر ووزن ؛ ولكن الأمير يرى أن السبب الأوضح في هذا الانقلاب الذى حدث لناستاسيا فيليوفنا انما هو السبب الذى اشتبه فيه منذ مدة طويلة : وهو أن هذه النفس المسكينة المريضة لم تستطع أن تتحمل المحنة •

ورغم أن هذا التفسير قد أعفى الأمير من كثير من أنواع الحيرة والبلبلة ، ولو الى حد ما ، فانه لم يوفر له أثناء ذلك الوقت كله شيئاً من راحة أو هدوء • وكان في بعض الأحيان يحاول أن لا يفكر فى شيء • أما الزواج فكان يبدو فعلاً أن الأمير يقبل عليه اقباله على أمر شكلى لا قيمة له • ان مصير الأمير أهون شأنًا فى نظر نفسه من أن يفكر غير هذا التفكير • وأما الاعتراضات والمناقشات التى تشبه تلك التى أثارها أوجين بافلوفتش ، فما كان فى وسع الأمير أن يجد لها أى جواب ، لأنه كان يشعر بأنه عاجز فى هذا المضمار كل العجز ، لذلك كان يتحاشى أى حديث من هذا النوع •

ثم انه قد لاحظ أن ناستاسيا فيليوفنا كانت تعرف حق المعرفة وتدرك كل الادراك مكانة آجلآيا فى نفسه • انها لا تتكلم فى هذا الأمر ، لكنه قد قرأ فى « وجهها » حين باعته مراراً (فى الأيام الأولى) وهو يتهاى للذهاب الى آل ايباتشين • وحين سافرت أسرة ايباتشين صفا مزاجها وأشرق ميحاًها • انه مهما يكن ضعيف الملاحظة قليل الذكاء ، قد خطر بباله أن ناستاسيا فيليوفنا ربما قررت أن تعتمد الى القيام بفضيحة بغية أن تحمل آجلآيا على ترك بافلوفسك ، فأقلقت هذه الفكرة وعذبت • ولا شك فى أن الشائعات التى سرت فى الفيلاطات عن الزواج قد ساهمت ناستاسيا فيليوفنا فى ترويجها من أجل أن تحقق غريمتها • واذا كان من الصعب

لقاء آل ايباتشين فقد أركبت الأمير في عربتها ذات يوم ، وأمرت الحوذي بأن يمرّ بهما تحت نوافذ بيتهم . فكان هذا مفاجأة للأمير رهية . لقد أحس ذلك بعد فوات الأوان ، كالعادة ، أى بعد أن تجاوزت المركبة المنزل . ولم يقل شيئاً ، ولكنه بعد ذلك الحادث لبث مريضاً يومين ، وقد حاذرت ناستاسيا فيليوفنا أن تكرر التجربة .

وخلال الأيام التى سبقت الزواج أصبحت كثيرة الوجوم والتفكير . صحيح أنها كانت تفلح دائماً فى نفخ حزنها واسترداد مرحها ، لكن هذا المرح غدا أكثر رصانة وأقل تعبيراً عن نفسه وأضال اشعاعاً واشراقاً . وضاعف الأمير اهتمامه بها ورعايته لها . وقد حثّره أنه أصبح لا يسمعها تأتي على ذكر روجوين فى لحظة من اللحظات . مرة واحدة ، قبل الزواج بنحو خمسة أيام ، أرسلت إليه داريا ألكسيفنا من يقول له أن يأتي فوراً لأن حالة ناستاسيا فيليوفنا سيئة جداً . فلما وصل وجدها فى حالة تشبه الجنون : كانت تصرخ وترتجف وتصيح قائلة ان روجوين مختبئ فى الحديقة المجاورة للفيللا ، وانها رأيته منذ هنيهة ، وانه سيقتلها فى الليل . . . سيقتلها بالسكين ! ثم لم تسترد هدوءها طوال النهار . ولكن الأمير علم من « أرملة الكابتن » التى كانت عائدة من بطرسبرج بعد أن قامت فيها ببعض الأعمال الصغيرة ، علم منها حين مضى يزور هيبوليت لحظة ، أن روجوين قد زارها بطرسبرج وسألها عن بافلوفسك . فلما سألها عن الوقت الذى زارها فيه روجوين حددت له ساعة هى على وجه التقريب الساعة التى خيل لناستاسيا فيليوفنا فيها أنها ترى روجوين فى الحديقة . فما من شك اذن فى أن المرأة الشابة كانت رأت سراً لا أكثر ! . . . وحين ذهبت ناستاسيا فيليوفنا بنفسها الى « أرملة الكابتن » لتسألها مزيداً من التفاصيل ، حصلت منها على وقائع دقيقة مطمئنة الى أبعد الحدود .

في عشية يوم الزواج ترك الأمير ناستاسيا فيليوفنا وهي على أحسن حال من الحماسة الشديدة : كانت قد تلقت من خياطتها ببطرسبرج ما ستزين به غداً في حفلة الزفاف ، وهو ثوب العرس ، وطرحة الرأس وما الى ذلك . لم يكن الأمير يتوقع أن يراها تتحسس لزيبتها هذا التحسس كله . وقد أطرى كل ما اشتملت عليه هذه الزينة ، فازدادت سعادة المرأة الشابة . لكنها لم تفلح في اخفاء ما كان يدور في ذهنها : كانت قد سمعت أن سكان بافلوفسك مستأوون وأن عدداً من الحليين يهينون لها زينة تصاحبها موسيقى مع سماع قصيدة من الشعر نُظمت لهذه المناسبة . وكانت هذه الاعدادات كلها قد أيدها باقي الناس وحبذوها . ومن أجل هذا بعينه انما كانت تريد أن ترفع رأسها وأن تبهر الملأ كافة بما في زيبتها من ذوق وأبهة وفخامة . « فليصرخوا ، وليصفروا ، اذا تجرأوا ! » . كانت عيناها تقدح شرراً من مجرد خطوط هذه الفكرة بالها . وكانت عدا ذلك تمنى نفسها بأمل تتحاشى أن تفضح عنه . كانت تتصور أن آجلانيا ، أو شخصاً ترسله آجلانيا ، سيكون مع الحفل في الكنيسة متخفياً يفحصها . ومن ثم كانت تتأهب ذلك التأهب كله .

تلکم هي الخواطر التي كانت تملأ رأسها في الساعة الحادية عشرة من المساء ، حين تركها الأمير . ولكن لم تكن الساعة قد بلغت الثانية عشرة حين هرع من عند داريا ألكسيفنا من يدعو الأمير أن يجيء . « بأقصى سرعة لأن الحالة سيئة جداً » . فوجد الأمير خطيبته غارقة في دموعها . كانت قد أوصدت على نفسها الباب ، واستولى عليها بأس شديد واعترتها نوبة عصبية قوية . حتى لقد لبثت مدة طويلة لا تسمع شيئاً مما كان يقال لها من خلال الباب الموحد . وفتحت أخيراً ، ولم تدع لأحد غير الأمير أن يدخل ، وأسرعت تغلق الباب ثانية على الفور ، ثم سقطت جاثية على

ركبتها أمام الأمير • (تلکم هي على الأقل الرواية التي أوردتها فيما بعد داريا ألكسيفنا التي استطاعت أن تلمح جزءاً من المشهد) •
كانت ناستاسيا فيليوفا تصيح قائلةً وهي تقبل قدميه في تشنج :
— ما هذا الذي أصنعه بك ؟ ما هذا الذي أصنعه بك ؟

بقى الأمير الى جانبها ساعةً كاملة • اننا نجهل ما تبادلناه من كلام • ولكن داريا ألكسيفنا روت أنهما قد افترقا في نهاية تلك الساعة هادئين سعيدين ، وأن الأمير أرسل من يسأل عن أنباء خطيبته مرة أخرى في الليل ، غير أن ناستاسيا فيليوفا كانت قد نامت • وفي الصباح ، قبل أن تستيقظ ، جاء الى داريا ألكسيفنا من عند الأمير رسولان آخران • وأعقبهما ثالث كلّف بأن ينقل الى الأمير ما يلي : « ان ناستاسيا فيليوفا محاطة الآن بحشد من الحياطات والمزينين وفدوا من بطرسبرج خصيصاً ، وانها قد برئت من النوبة التي اعترتها في الليلة البارحة ، وانها مشغولة بزيئتها كما تشغل بزيئتها لزواجها امرأةً جميلة هذا الجمال ، وانها في هذه اللحظة بعينها عاقدةً اجتماعاً للتشاور فيما يجب أن تختاره لزيئتها من جواهر الماس ، وفيما يجب أن تتبعه من أسلوب في تصفيف هذه الجواهر عليها وترتيبها » • فاطمأن الأمير كل الاطمئنان •

ان كل ما سبلى سرده من تنمة قصة الزواج هذه انما نقله أشخاص مطلعون • ويبدو أن ما ذكروه صحيح • قالوا :

كان يجب أن يتم الزفاف في الساعة الثامنة من المساء • وقد أكملت ناستاسيا فيليوفا استعدادها منذ الساعة السابعة • وكانت أفواج من العاطلين التسكعين قد أخذت تتجمع حول فيلا ليديف ثم قرب منزل داريا ألكسيفنا منذ الساعة السادسة • وحوالي الساعة السابعة أخذت تمتلئ الكنيسة أيضاً • ان مخاوف شديدة قد استولت على فيرا ليديفا

وعلى كولا • انهما خائفان على الأمير • غير أن هناك أعمالاً كثيرة يجب أن ينجزها في البيت • فقد كُتِّفَ بترتيب شقة الأمير استعداداً للاستقبال والمأدبة ، رغم انه ليس مقررأ أن تقام حفلة بمعنى الكلمة بعد الاحتفال الدينى فى الكنيسة • كان ليديف قد دعا ، عدا الأشخاص الذين كان حضورهم الزواج أمراً لا بد منه ، كان قد دعا بتسين وزوجته ، وجانيا ، والطبيب الذى يحمل وسام القديسة حنة ، وداريا ألكسيفنا • وحين استغرب الأمير دعوة الطبيب فسأل ليديف عن السبب الذى حمله على دعوته أجاب هذا معجباً بنفسه راضياً عن تصرفه : « وسام فى العنق ، شخصية محترمة ، زينة للحفلة » ، فضحك الأمير •

وقد ارتدى كل من كيلر وبوردوفسكى رداء « فراك » ، فكان مظهرهما لاثقالاً جداً • ان كيلر وحده ما يزال يوقظ فى نفس الأمير والذين حوله شيئاً من الحنسة ، لما يتصف به مزاجه من حب للعراك ظاهر • وكان كيلر ينظر بكثير من العدا الى المتسكمين الذين كانوا يتجمعون حول المنزل •

وأخيراً ، فى الساعة السابعة والنصف ، مضى الأمير فى عربة الى الكنيسة • يجب أن نذكر فى هذه المناسبة أنه كان قد حرص على أن لا يهمل أية عادة من العادات التقليدية • كان كل شئ يتم على مرأى من الجميع « بالطريقة اللازمة » • استطاع الأمير أن يشق لنفسه ممراً فى الجمهور المزدحم ، وسط وشوشات وهمسات وصيحات تعجب متكررة • كان يسير أمامه كيلر ، ملقياً نظرات تهديد على يمينه وعلى شماله • وانسحب الأمير الى ما وراء الهيكل مؤقتاً ، ومضى الملاك ليحى بالعروس • فلما صار هذا أمام بيت داريا ألكسيفنا رأى جمهوراً اكثف مرتين أو ثلاثاً وربما أوقع مرتين أو ثلاثاً من الجمهور الذى كان يربط حول فيلا الأمير • وحين صعد درجات المدخل سمع صيحات من نوع

جمله لا يستطيع أن يكظم غيظه فأوشك أن يوجه الى الجمهور تقريراً مناسباً ، لولا أن صدّه عن ذلك ، لحسن الخط ، بوردوفسكى وداريا ألكسيفنا نفسها التى كانت قد هرعت تستقبله على درجات المدخل • أمسك به الاثنان واقتاده الى داخل المنزل • وكان مهتاجاً احتياجاً شديداً ، فاستعجل الذهاب ، فقامت ناستاسيا فيليوفنا ، وألقت على المرأة نظرة أخيرة فلاحظت وقد تفصلت شفتاها فى «ضحكة» ، أنها كانت « صفراء كميته » • ثم انحنت أمام الأيقونة فى تقى وورع ، وخرجت فصارت على درجات الباب • فحيّاً الجمهور ظهورها بضوضاء • الحق أن ما سُمع فى أول الأمر كان ضحكاً وتصفيقاً ساخراً وربما صغيراً • ولكن صيحات أخرى انطلقت بعد لحظة :

— ما أجملها امرأة !

— ما هى بالأولى ولا بالأخيرة !

— الزواج يستر كل شيء ، يا حمقى !

— هاتوا جملاً كهذا الجمال ان استطعتم • مرحى !

بهذا الكلام الأخير كان يصيح القريبون منها •

وهتف موظف فى موظفى المكاتب يقول :

— أميرة ! ألا انتى مستعد لأن أبيع نفسى فى سبيل أميرة كهذه

الأميرة !

— أبيع حياتى بلبلة واحدة !... *

تقدمت ناستاسيا فيليوفنا • كان وجهها شاحباً شحوباً رهيباً ، لكن عينيها ترميان الفضولين بنظرات محرقة كأنها الجمر • لم يستطع الجمهور أن يحتمل هذه النظرات • وحلّت محلّ الاستياء صيحات حماسية • وكان باب العربّة مفتوحاً ، وكان كيللر مدّ ذراعه الى العروس ليساعدها

فى الركوب ، فاذا بالعروس تطلق صرخةً على حين فجأة ، وتبارح درجات المدخل ، وتمضى تقتحم الجمهور قدماً • تجمّد الموكب ذهولاً • وابتعد الناس من أمامها • وظهر روجوين بفتهً على مسافة خمس خطوات أو ست من درجات المدخل • لقد لمحت ناستاسيا فيليوفنا نظرتة بين هذا الحشد الكبير كله • فركضت اليه كالمجنونة وأمسكت يديه وقالت له :

— أنقذنى ! خذنى ! خذنى الى حيث تشاء ! حالاً ! •••

فاختطفها روجوين حاملاً اياها بذراعيه تقريباً ، وطار بها نحو عربتها طيراناً ان صح التعبير • وفى مثل لمح البصر سرعةً ، أخرج من محفظته ورقة مائة روبل ومدّها الى الحوذى قائلاً له :

— الى المحطة ! فاذا وصلت قبل سفر القطار نقدتك مائة روبل أخرى !

ونفّز الى العربّة قرب ناستاسيا فيليوفنا ، وأغلق باب العربّة • وبدون أى تردد ، ضرب الحوذى الخيل بسوطه فجرت العربّة سريعة •

فيما بعد ، حين روى كيللر الحادث اعتذر عن أنه ذهل عن نفسه وأمكن أن يؤخذ بفتهً ، وقال : « لو أمهلت ثانية واحدة ، لعدت الى صوابى ، ولما سمحت بأن يقع ما وقع ! » • وقد أوشك هو وبوردوفسكى أن يركبا عربّة أخرى كانت واقفة هناك ، ليندفا فى ملاحقة الهارين ، ولكنهما لم يلبثا أن عدلا عن ذلك ، بحجة أنه « قد فات الأوان ، ولا مجال لاعادتها بالقوة » •

قال بوردوفسكى يحسم الأمر مضطرباً كل الاضطراب :

— ثم ان الأمير لن يريدنا بعد الآن !

وصل روجويين وناستاسيا فيليوفا الى المحطة فى الوقت المناسب • وبعد أن نرلا من العربة ، فى اللحظة التى همّا فيها أن يركبا القطار استوقف روجويين بسرعة فتاة كانت مارة وكانت تضع على رأسها منديلاً وترتدى خماراً قائم اللون بالياً بعض البلى لكنه ما يزال لائقاً ، وقال لها وهو يمد اليها خمسين روبلاً :

— هل تبيعين خمارك هذا بخمسين روبلاً ؟

وقبل أن تفيق من ذهولها وتفهم ماذا يُراد منها ، كان روجويين قد دسّ المال فى يديها ونضا الخمار والمنديل عن كفتيها ورأسها وألقاهما على كفى ناستاسيا ورأسها • فلولا أن فعل روجويين هذا لكان من شأن الثياب الفخمة التى كانت ترتديها ناستاسيا فيليوفا أن تلفت الأنظار فى المحطة وأن تحدث بلبلة • ولم تفهم الفتاة السبب الذى حمل هذا الرجل على أن يشتري منها بهذا الثمن الباهظ خرقاً لا قيمة لها ، الا فيما بعد • وصلت أنباء الحادثة الى الكنيسة بسرعة لا يصدقها العقل • فحين شق كيللر لنفسه ممراً الى الأمير استوقفه عدد كبير من الناس الذين لا يعرفهم البتة ، استوقفوه ليسألوه عما حدث • كانوا يتكلمون بصوت عال ، ويهزون رؤوسهم بل ويضحكون • ولم يشأ أحد أن يخرج من الكنيسة • كانوا جميعاً يريدون أن يروا كيف سيستقبل الخطيب النبأ •

اصغى الأمير ، ولكنه استقبل النبأ بهدوء ، قائلاً بصوت لا يكاد يُسمع : « كنت خائفاً ، ولكننى لم أكن أتوقع هذا مع ذلك • • • » • ثم أضاف يقول بعد لحظة صمت : « على كل حال • • • اذا نظرنا الى حالتها كان ذلك كله طبيعياً لا غرابة فيه • • » • ان كيللر سيصف هذه النتيجة التى خلص اليها الأمير بأنها « فلسفة لا نظير لها » •

غادر الأمير الكنيسة دون أن يخرج عن هدوئه ورباطة جأشه :

ان كثيراً من الناس على الأقل قد لاحظوا ذلك وعلقوا بعدئذ عليه • وكان يبدو على الأمير أنه يرغب رغبة قوية فى العودة الى بيته والخلو الى نفسه بأقصى سرعة ممكنة • ولكنه لم 'يُمكنْ من ذلك • ان كثيراً من المدعوين قد تبعوه الى غرفته ، فمن هؤلاء بتسين وجبريل آرداليونوفتش والطبيب الذى نوى مثل غيره أن لا يذهب • يضاف الى ذلك أن المنزل كله قد هاجمه المتسكعون يريدون اقتحامه فعلاً • ها هو ذا الأمير يسمع كيللر وليديف فى مناقشة حامية مع أشخاص مجهولين تماماً يريدون غزو الشرفة عنوة • ان هيباتهم تدل على أنهم من الموظفين فى دوائر الدولة • اقترب الأمير وسأل عن الأمر ، ثم أبعد ليديف وكيللر برفق وأدب ، وتكلم بلهجة ملؤها الكياسة والتهديب ، متجهاً الى سيد من المتجمهرين سمى الجسم شائب الشعر كان قد صعد درجات سلم المدخل على رأس مجموعة من الغزاة المحتلين ، فرجاه أن يشرفه بزيارته • فخجل الرجل ولكنه قبل الدعوة ، وجاء بعده ثان فثالث • وانفصل عن الجمهور سبعة أفراد آخرين أو ثمانية ، فدخلوا كذلك وهم يحاولون أن يصطنعوا هيئة عدم التخرج • ولم يقتد بهم الآخرون • وما لبث المتسكعون أن سمعوا يلومون أولئك الدخلاء •

قُدِّمَت للقادمين الجدد مقاعد يجلسون عليها ، وبدأ الحديث ، وصُبَّ الشاي • وحدث ذلك كله بتواضع وبشاشة ، ولكن بطريقة لائقة جداً ، فلم يملك هؤلاء الضيوف الطائرون الا أن يدهشوا • وقد قامت محاولات عدة لجعل الحديث مرحاً ، ولتوجيهه نحو الموضوع « المنشود » ، وألقيت أسئلة فيها شيء من عدم التحفظ ، وقيلت ملاحظات فيها شيء من « خبث ومكر » ، فكان الأمير يجيب جميع الناس ببساطة كبيرة وطيبة عظيمة ، وكانت أجوبته فى الوقت نفسه تشتمل على وقار وعلى

ثقة بحسن نية سامعيه فلم تلبث الأسئلة الناشئة أن اختفت من تلقاء ذاتها • وشيئاً فشيئاً أخذ الحديث يدور على أمور هامة • فهاهو ذا واحد كثير الكلام منهم ، يتهمز فرصة كلمة قيت فيحلف فجأةً باستياء شديد ، أنه لن يبيع أرضه في يوم من الأيام مهما يحدث من أمر ، وأنه سيصبر وسيصمد الى النهاية ، وأن « كل استثمار خير من أى مال » « ذلك هو مذهبى الاقتصادى يا سيدى ان شئت أن تعرفه » • واذ كان يخاطب بكلامه الأمير فقد أيدته هذه بحرارة ، دون أن يعباً بليديف الذى كان يهمس فى أذنه أن هذا السيد لا يملك مالاً ولا عقاراً ، وأنه لم يملك أرضاً فى يوم من الأيام قط •

انقضى ما يقرب من ساعة • كان الضيوف قد فرغوا من احتساء الشاي ، وصاروا يشعرون بحرج من البقاء مدةً أطول • وجّه الطبيب والرجل الشائب الى الأمير كلمات وداع مؤثرة • واستأذن الباقون بالانصراف وودعوه بحرارة وصخب ، وأعربوا له عن تمنيات وآراء من النوع التالى : « ليس لك أن تحزن ، عسى أن تكثرها شيئاً وهو خير لكم ، الخ الخ » • صحيح أنه وجد بينهم أناس تجرأوا فطلبوا شمانياً ، ولكن سرعان ما ردّهم الى الصواب وذكّرهم بقواعد الكياسة أولئك الذين كانوا أكبر سنّاً منهم •

حتى اذا انصرف الجميع مال كيللر على ليديف وقال له :

— لو ترك الأمر لنا نحن ، أنا وأنت ، لصرخنا وشتنا ، وخضنا معركة ، وجللنا أنفسنا بالحزى والعار ، وجاءتنا الشرطة • أما هو فانه لم يلبث أن كسب أصدقاء جدداً ، ويا لهم من أصدقاء ! اننى أعرفهم !

فقال ليديف متتهداً وكان قد سكر :

— ان ما أخفى عن الحكماء والأذكياء قد كُشف عنه للأطفال • ذلك

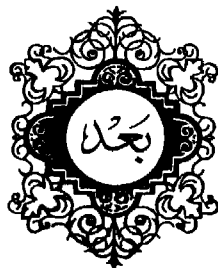
قول أدركت منذ مدة طويلة أنه يصدق عليه ، ولكننى أضيف اليه الآن
أن الله وجميع القديسين قد حموا الطفل نفسه فى هذه المرة وأنقذوه
من الهوة !

وفى نحو الساعة العاشرة والتصف ترك الأمير لِيخلو الى نفسه
أخيراً • انصرف كوليا آخر المنصرفين ، بعد أن ساعد الأمير فى خلع
ملابسه ، ملابس العريس • وافترقا بوداع حار • لم يتلبث كوليا على
الحادث الذى وقع فى ذلك اليوم ، لكنه وعد بأن يعود فى ساعة مبكرة من
صباح الغد • وقد أكد فيما بعد أن الأمير لم يثبث بشئ • وأنه تركه
جاهلاً ببنائه حين ودعه • وما انقضت برهة قصيرة حتى كاد يخلو البيت
خلواً تاماً : ذهب بوردوفسكى الى عند هيبوليت ، ومضى كيللر وليديف
لا يدرى أحد الى أين • ولم يبق غير فيرا ليديفا التى أخذت تمسك
الى البيت ترتيبه المألوف • وقبل أن تنصرف ، مضت تنظر ماذا يفعل
الأمير • فرأته جالساً الى مائدته ، مسنداً عليها كوعيه ، مخفياً رأسه بيديه •
فاقتربت منه برفق ، ولمست كتفه • فنظر اليها مستغرباً ، ولم يستطع أن
يجمع شتات ذكرياته الا بعد قرابة دقيقة • فلما تاب الى نفسه وفهم كل
شئ ، ظهر عليه انفعال مفاجئ • حاد • ورجاها أخيراً ، بالحاح شديد ،
أن تحبب فقرع بابه صباح غداً فى الساعة السابعة ، موعد أول قطار •
فوعده الفتاة بأن تفعل • فاستحلفها عندئذ أن لا تكلم فى هذا الأمر أحداً ،
فوعده أيضاً • وأخيراً ، حين فتحت الباب وهمت أن تنصرف ، احتجزها
مرة ثالثة ، وتناول يديها فقبلهما ثم قبلها هى نفسها على جبينها وقال لها
بلهجة غير مألوفة « الى الغدا ! » • ذلك هو على الأقل ما روته فيرا • وقد
خرجت من عنده خائفة عليه خوفاً شديداً • ولكنها اطمأنت فى الغد بعض
الاطمئنان حين جاءت تقرر بابه بعد الساعة قليلاً لتنبه الى أن قطار
بترسبرج سيسافر بعد ربع ساعة ، كما اتفقا على ذلك ، فبدا لها وهى

تفتح الباب أنه مرتاح بل وأنه يتسّم • انه لم يكّد يخلع ثيابه للنوم ،
ولكنه نام مع ذلك •

قال انه يقدّر أن يعود في هذا اليوم نفسه • ان كل شيء يحمل على
الاعتقاد بأن فيرا هي الشخص الوحيد الذي رأى الأمير أن من الممكن
ومن الضروري أن يطلعه على أنه ينوى السفر الى بطرسبرج •

الفصل الحادي عشر



ساعة كان الأمير قد وصل الى بطرسبرج ؟ وبين الساعة التاسعة والساعة العاشرة كان يقرع جرس منزل روجوين • لقد دخل من الباب الرئيسى ، وانقضت برهة طويلة قبل أن يجيئه أحد • وأخيراً شقَّ باب بيت العجوز ، أم روجوين ، وظهرت خادم مسنة مهية المظهر ، فقالت دون أن تفتح الباب فتحةً كاملاً :

– ليس بارفيون سيمونوفتش فى بيته • من ذا تريد ؟

– بارفيون سيمونوفتش •

– ليس فى البيت •

وتفرست الخادم فى الأمير باستطلاع غريب •

– هل تستطيعين أن تقولى لى على الأقل أهو قضى الليلة هنا أم لا ؟

و ••• هل عاد أمس وحده ؟

ظلت الخادم تحديق اليه ، ولم تجب بشئ •

– هل كانت ناستاسيا فيليوفنا معه هنا أمس •• أمس مساء ؟ •••

– ولكن اسمح لى على الأقل أن أسألك أولاً من أنت ؟

– الأمير ليون نيقولايفتش ميشكين • أعرف بارفيون ويعرفنى •

– ما هو فى البيت •

وخفضت الخادم عينها •

- وناستاسيا فيليوفنا ؟
— لا أدري •
— انتظري • اسمعى ! متى يعود ؟
— لا أدري أيضاً •
وأغلق الباب • قرر الأمير أن يرجع بعد ساعة • ألقى نظرة على
فناء المنزل ، والتقى بالبواب •
— هل بارفيون سيمونوفتش فى بيته ؟
— نعم •
— فكيف قيل لى منذ لحظة انه غائب ؟
— قيل لك ذلك فى شقته ؟
— لا • ان خادمة أمه هى التى قالت لى ذلك • ولكننى قرعت باب
بارفيون سيمونوفتش أيضاً فلم يفتح لى أحد •
قال البواب :
— جائز أن يكون قد خرج • فهو لا ينبىء أحداً بغيابه حين يغيب •
حتى لقد يخرج بالمفتاح أحياناً ، فتبقى الشقة مغلقة ثلاثة أيام متتالية •
— أأنت واثق أنه عاد أمس الى بيته ؟
— نعم • يحدث أحياناً أن يدخل من السلم الكبير فلا أراه •
— هل كانت ناستاسيا فيليوفنا أمس معه ؟
— لا أدري • انها لا تحب الا فى النادر القليل • فلو أنها جاءت
لكان من الجائز أن نلاحظ ذلك •
خرج الأمير ، وراح يذرع الرصيف متحيراً • ان نوافذ شقة
روجوبين مغلقة كلها ، وان نوافذ الشقة التى تشغلها أمه مفتوحة كلها

تقريباً • النهار مضى دافئ • عبر الأمير الشارع ووقف على الرصيف المقابل ينظر الى زجاج النوافذ مرةً أخرى • لم تكن النوافذ مغلقةً فحسب ، بل كانت الستائر البيضاء مسدلةً جميعها تقريباً •

لبث هنالك قرابة دقيقة • شيء غريب : خيّل اليه أنه يرى أسفل إحدى الستائر يرتفع فيظهر وراءه وجه روجوين ثم ما لبث أن يغيب • انتظر الأمير قليلاً ، وهمّ أن يصعد وأن يقرع جرس الباب من جديد ، لكنه عدل عن رأيه وقرر أن يعود بعد ساعة • « من يدري ؟ لعل ذلك لم يكن الا وهماً ؟ » •

ان الأمر الأساسي في نظره الآن هو أن يسرع الى حي اسماعيلوفسكى ، الى آخر عنوان لئاستاسيا فيليوفنا • انه يعلم أن ناستاسيا فيليوفنا ، حين رجاها أن تترك بافلوفسك قبل ثلاثة أسابيع ، قد نزلت في هذا الحي عند إحدى صديقاتها ، وهى أرملة معلم مدرسة • ان هذه المرأة ربة أسرة محترمة ، تؤجر شقة مفروشة جميلة وتجنّب من كرائها القسط الأكبر من رزقها • فمن الجائز أن تكون ناستاسيا فيليوفنا حين عادت تقيم في بافلوفسك قد احتفظت لنفسها بذلك المسكن • ومن الجائز خاصة أن تكون قد قصّت ليلتها فيها بعد أن صحبها روجوين اليها في أغلب الظن • ركب الأمير عربة • وحدث نفسه أثناء الطريق بأنه كان ينبغي له أن يبدأ تحرياته هناك ، اذ ليس محتملاً أن تكون المرأة الشابة قد ذهبت الى منزل روجوين في الليل رأساً • وتذكر عندئذ أن البواب قال انها في الأوقات العادية لا تجيء الا في القليل النادر • فاذا كانت في الأوقات العادية لا تجيء الا نادراً ، فلماذا يجب أن تكون الآن عنده ؟ ولكن الأمير ، رغم جميع هذه الاستدلالات المعزية المشجعة التي حاول بها أن يقوى نفسه ، قد وصل الى حي اسماعيلوفسكى وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة •

وهناك أذهله أن يعلم أن أرملة معلم المدرسة لم يلفها شيء من أنباء

ناستاسيا فيليوفنا ، لا اليوم ولا أمس . أكثر من ذلك : لقد هرعت الأسرة كلها لثراء كأنه انسان عجيب ، فجميع الأولاد ، وهم بنات ، تقع أعمارهن بين السابعة والخامسة عشرة ، ولا يفصل بين واحدة وواحدة منهن في العمر الا سنة واحدة قد جئن في اثر أمهن وأحطن بالأمير ينظرن اليه فافرات الأفواه من الدهشة . وبعدهن جاءت خالة نحيلة صفراء ، تضع على رأسها منديلاً أسود ، ثم جاءت جدة الأسرة وهي سيدة طاعنة في السن جداً على عينيها نظارتان .

ألحت أرملة معلم المدرسة على الأمير راجيةً منه أن يدخل وأن يجلس . ففعل . وأدرك فوراً أن جميع هؤلاء الأشخاص يعرفونه معرفة تامة ، ويعلمون أنه كان يجب أن يتزوج أمس . وأدرك أنهم يحترقون رغبةً في سؤاله عن ذلك الزواج ، وعن المعجزة التي وقعت فجعلته يجيء اليهن ليسألهن عن امرأة كان ينبغي في هذه اللحظة أن تكون معه في بافلوفسك ، ولكنهن يمتنعن عن سؤاله ذوقاً وأدباً .

وقد أرضى شوقهن الى الاطلاع ببضع كلمات قالها لهن عن ذلك الزواج . فكان من شأن صيحات الدهشة والاستغراب والتعجب التي رحن يطلقنها أنه اضطر أن يروي لهن الخطوط الكبرى من كل ماحدث . واستقر رأى هذا المجلس من السيدات المليئات بالحكمة والعاطفة على أن عليه ، مهما كلف الأمر وقبل كل شيء ، أن يذهب مرة أخرى الى منزل روجويين فما يزال يقرع الجرس حتى يفتح له فيحصل من روجويين على جميع الايضاحات . فاذا كان روجويين غائباً بالفعل (وهذا ما يجب التأكد منه) أو اذا هو رفض أن يتكلم ، كان على الأمير عندئذ أن يذهب الى حي سيمينوفسكى ، فيمضى هنالك الى بيت سيدة ألمانية تعيش عند أمها وهي صديقة لناستاسيا فيليوفنا ؛ فلعل الهاربة ، وقد عصفت بها الانفعال وأرادت أن تختبئ عن أعين الناس ، قد ذهبت تبيت عند هاتين السيدتين .

كان الأمير مهذباً حين نهض ، وكان « شاحباً شحوباً رهيباً » كما ذكرت هاته السيدات فيما بعد . كانت ساقاه تلتويان تحته . واستطاع أن يفهم أخيراً من خلال كلامهن الكثير أنهن يعرضن عليه أن يساعدهن في البحث ، وأنهن يسألنه عن عنوانه بالمدينة . واذ لم يكن له بالمدينة عنوان فقد نصحنه بأن يستأجر غرفة في فندق . ففكر الأمير لحظة ثم ذكر لهن عنوان الفندق الذي سبق أن سكنه وأصيب فيه بنوبة .

ومضى متجهاً الى منزل روجوين .

في هذه المرة أيضاً لم يفتح له الباب ، حتى ان باب مسكن العجوز ظل مغلقاً كذلك . نزل الأمير الى الفناء وأخذ يبحث عن البواب الى أن عثر عليه بعد عناء . كان البواب منصرفاً الى عمله فنظر اليه بغير اكتراث ولم يكذب عليه عن أسئلته ، غير أنه أفهمه على نحو قاطع أن باريقون سيميونوفتش قد « سافر في الصباح المبكر الى بافلوفسك وأنه قد لا يرجع منها طوال النهار » .

قال الأمير :

— سأنتظر . أتراه يعود في المساء ؟

— قد لا يعود قبل أسبوع . من يدري ؟

— لكنه قضى الليلة هنا على كل حال ، أليس كذلك ؟

— هذا ... نعم ! ...

ذلك كله مشبوه غامض . جائز جداً أن يكون البواب قد تلقى في هذه الفترة أوامر جديدة . كان منذ قليل كبير الكلام ، وهو الآن لا يكاد يفتح فمه . مع هذا قرر الأمير أن يعود مرة أخرى بعد ساعتين ، وأن يربط أمام المنزل اذا اقتضى الأمر ذلك . أما الآن فلا يزال عليه أن

يذهب الى الألمانية يسألها فسى أن يعرف منها شيئاً • وها هو ذا يسرع الى حى سيمونوفسكى •

ولكنه لم يفلح هنالك حتى فى أن يفهم الألمانية شيئاً • وأدرك من بضع كلمات أفلتت منها أنها قد حدث شقاق بينها وبين ناستاسيا فيليوفا قبل خمسة عشر يوماً ، فلم يمكنها أن تعرف عنها شيئاً منذ ذلك الحين ؛ وهى تعلن الآن جهاراً أنها أصبحت لا تهتم بها أى اهتمام ، « ولو تزوجت جميع أمراء العالم » •

أسرع الأمير يودعها • وخطر بباله أن من الجائز أن تكون المرأة الشابة قد سافرت الى موسكو ، كما فعلت ذلك من قبل ، وأن يكون روجوين قد تبعها ، هذا اذا لم يكن قد صحبها • « ليتنا نستطيع على الأقل أن نهتدى الى أى أثر ... » •

وتذكر أثناء ذلك أن عليه أن يحجز غرفة فى فندق • فأسرع الى شارع ليتايايا • فحُجزت له غرفة على الفور • وسأله خادم الطابق هل يريد أن يصيب وجبة خفيفة • فاذا هو من ذهوله يجيبه قائلاً « نعم » ، ولكنه ما ان تاب اليه وعيه حتى غضب من نفسه غضباً شديداً ، لأنه يتناول هذه الوجبة قد ضيَّع نصف ساعة سدى ؛ ولم يدرك الا فيما بعد أنه ما من شيء كان يجبره على أن يتناول الطعام الذى جاء به الخادم • وقد شعر وهو يتنفس الهواء الخانق فى ذلك الممر المظلم أن احساساً غريباً مقلقاً يغزو نفسه ويجنح الى أن يصير فكرة • ولكن الأمير لم يستطع أن يتيسر تلك الفكرة • وخرج من الفندق وهو فريسة اضطراب عميق وبليلة شديدة • كان رأسه يدور • الى أين يجب أن يذهب ؟ وأسرع مرةً أخرى الى منزل روجوين •

لم يكن روجوين قد عاد • قرع الأمير جرس الشقة مدة طويلة ، فلم يجب أحد • فقرع عندئذ جرس شقة العجوز • ففتُح الباب ، وقيل

له مرةً أخرى ان بارفيون سيميونوفتش غائب ، وانه قد لا يرجع الا بعد ثلاثة أيام . وشعر الأمير بحرج وضيق لأنه لاحظ أن النظرة اليه تشتمل على استطلاع غريب غير مألوف . وظل البواب في هذه المرة محتفياً لا سبيل الى العثور عليه .

انتقل الأمير الى الرصيف المقابل كما فعل في المرة الماضية ، وأخذ يذرعه مدة نصف ساعة أو أكثر ، في ذلك الحر الحائق ، مثبتاً نظره على النوافذ . لم يتحرك في هذه المرة شيء : بقيت النوافذ مغلقة ، والستائر البيضاء ساكنة . اقتنع الأمير اقتناعاً حاسماً بأنه قد توهّم في المرة الأولى توهماً . ثم ان الزجاج متسخ اتساخاً شديداً ، ولم يُغسل منذ مدة طويلة ، فلا يمكن أن يرى أحد من ورائه شيئاً ، هذا اذا كان وراءه أحد . اشتدت عزيمة الأمير بهذه الفكرة ، فعاد الى بيت أرملة معلم المدرسة في حي اسماعيلوفسكى . وكان ينتظره هناك . لقد ذهبت هذه السيدة الى ثلاثة أماكن أو أربعة ، ذهبت حتى الى منزل روجويين ، ولكنها لم تظفر بأية نتيجة . أصغى الأمير الى كلامها صامتاً ، ودخل الى الغرفة ، وجلس على الأريكة ، وأخذ ينظر فيما حوله نظرة مَنْ لا يفهم ماذا يُقال . شحذاً قوياً ، وتكون تارةً أخرى ذاهلةً ذهولاً شديداً لا يُصدّق . لقد أكدت الأسرة كلها فيما بعد أن الأمير أدهشها يومئذ بغرابة حالته . له . هناك ظاهرة غريبة : ان ملكة الملاحظة عنده تكون تارة مشحودة « لعل اختلاله العقلي قد أخذ يظهر منذ ذلك الوقت » . ونهض أخيراً ، وطلب أن يرى الغرف التي كانت تشغلها ناستاسيا فيليوفنا . هما حجرتان عاليتان مضطّتان ، مؤثنتان تأثناً جميلاً ، فلا شك أنها كانت تدفع كراءهما غالياً . وقد روت سيدات هذا البيت فيما بعد أن الأمير أنعم النظر في كل شيء من الأشياء التي رآها في الشقة . فلما لمح على منضدة صغيرة رواية فرنسية هي رواية « مدام بوفارى » التي كانت ناستاسيا فيليوفنا قد

استعارتها من قاعة مطالعة كفاً زاوية الصفحة التي كان الكتاب مفتوحاً عليها ، واستأذن في أن يأخذ الكتاب ، ثم وضعه في جيبه رغم أنه قيل له ان الكتاب مستعار . وجلس قرب نافذة مفتوحة . فلما رأى على مائدة لعب ارقاماً مدونة بالطباشير سأل عمّن كان يلعب هنا . فأُجيب بأن ناستاسيا فيليوفا كانت تلعب مرةً كلَّ مساء مع روجوين . فهما يلعبان تارةً لعبة « المعتوه » ، وتارةً لعبة الويست ، وتارةً لعبة « الشبيه » ، أي كانا يلعبان كل اللّعب ، وهما انما ألفا هذه العادة في الآونة الأخيرة ، بعد مفادرة ناستاسيا فيليوفا ضاحيةً بافلوفسك للإقامة بطرسبرج . لقد شكت ناستاسيا فيليوفا مرةً من السّأم لأن روجوين كان يقضى سهرات كاملة دون أن يقول كلمة واحدة ، فليس عنده موضوع يدير عليه الحديث ، وكانت هي تبكي في كثير من الأحيان . فلما جاء في الغد استل من جيبه ورق لعب فجأةً ، فانطلقت ناستاسيا فيليوفا تضحك ، وأخذها يلعبان . سأل الأمير أين الورق الذي كانا يلعبان به . فلم تستطع السيدات أن تريه ذلك الورق ، لأن روجوين كان عند انصرافه كلَّ يوم يحمل الورق القديم ويحجى في اليوم التالي بورق جديد دائماً .

نصحت السيدات الأمير بأن يعود الى منزل روجوين مرةً أخرى ، وأن يقرع الباب قرعاً أشد . ولكن « في المساء ، لا الآن ، فلعل شيئاً يكون قد عُرف قبل حلول المساء » . وقد عرضت أرملة معلم المدرسة أن تذهب في النهار بنفسها الى بافلوفسك لترى داريا ألكسيفنا ، فلعلهم قد علموا هناك شيئاً . ودعى الأمير أن يعود في نحو الساعة العاشرة من المساء ، ولو لوضع خطة عمل مشتركة يتعاونون على تنفيذها في الغد .

كان يأس كامل يجتاح نفس الأمير رغم جميع هذه التشجيعات . وها هو ذا يعود الى فندقه سيراً على الأقدام وقد أرقه حزن لا سبيل الى مغالته . كان يحس كأنه مسحوق بين فكي كلابة في بطرسبرج هذه

التي كان جوها خائفاً وكان هواؤها مثقلاً بالغبار في الصيف • اصطدم أثناء سيره بأناس أفظاظ أو سكارى • وكان يتفرس في المارة لا يدري لماذا • لعله مشى خطى كثيرة لا فائدة منها ، ولعله لف ودار في غير طائل • فلما وصل غرفته كان المساء يوشك أن يهبط على المدينة • قرر أن يرتاح قليلاً ، ليعود بعد ذلك الى روجوين كما نُصح • فجلس على أريكة ، ووضع كوعيه على مائدة ، وغرق في خواطره وتأملاته •

لا يدري الا الله كم قضى من الوقت وهو على هذا الوضع ، ولا ماذا دار في رأسه من أفكار • كان خائفاً من أشياء كثيرة ، وكان يشعر بتفاقم هذا الخوف ، فيعاني من ذلك ألماً ممضاً وقلقاً شديداً • فكّر في فيرا ليديفا ، ثم تسائل ألا يمكن أن يكون ليديف قد بلغ الى علمه شيء عن هذا الأمر • وقال لنفسه : حتى لو كان لا يعلم شيئاً فإنه أقدر مني على أن يحصل على بعض المعلومات بسرعة وسهولة • ثم وافته صورة هبوليت فتذكر أن ليديف سيمضى يزوره • ثم تذكر أخيراً روجوين نفسه : كان قد رآه في الآونة الأخيرة ، مرة في الجنّازة ، ومرة في الحديقة العامة ؛ وراه مرة كذلك قرب غرفته ، في ذلك الممر المظلم ، حيث تربص به مختبئاً في ركن ممسكاً بيده سكيناً • تذكر عينيه ، عينيه اللتين كانتا تحدقان اليه في الظلمات • ارتعش : ان الفكرة التي كانت ترسم في ذهنه غامضة منذ قليل ، تظهر الآن له واضحة بنية •

كانت تلك الفكرة هي التالية تقريباً : اذا كان روجوين في بطرسبرج فإنه مهما يختبئ زمناً طويلاً أو قصيراً ، لا بد أن يعود باحثاً عنه ساعياً اليه ، سواء أكانت نيته حسنة أم كانت نيته سيئة ، وربما عاد اليه وهو على تلك الحالة النفسية ذاتها التي كان عليها في المرة الأولى • وفي أقل تقدير ، اذا ارتأى روجوين لسبب من الأسباب أن يبحث عنه فسوف

يبحث عنه هنا طبعاً ، فى هذا المر نفسه • « فانه ، وهو لا يعرف لى
عنواناً ، سوف يفترض أننى نزلت نفس الفندق الذى نزلته من قبل •
ومهما يكن من أمر ، فسوف يبحث عنى هنا ••• اذا شعر بحاجة قوية
الى رؤيتى • ومن يدرى ؟ لعله يشعر بهذه الحاجة القوية أشد ما يكون
الشعور ••• » •

كذلك كان يفكر الأمير ؟ وكان هذا التفكير يبدو له محتملاً •
لو سألته أن يحلل تفكيره لما استطاع أن يشرح لك مثلاً لماذا يرى أن
روجوين سيُشعر بمثل هذه الحاجة القوية اليه على حين فجأة ، أو لماذا
يستحيل أن يفترض أنهما لن يلتقيا بعد اليوم أبداً • غير أن الفكرة كانت
أليمة • كان الأمير يقول لنفسه : « اذا كان سعيداً فلن يأتى • وانما يأتى
اذا كان شقيماً • وهو شقى حتماً ••• » •

وما دام اقتاعه هو هذا فقد كان ينبغي له أن ينتظر روجوين فى
الفندق ، فى غرفته • ولكنه كان كمن لا يستطيع احتمال فكرته الجديدة
هذه ، فها هو ذا يندفع فيتناول قبعته ويخرج مسرعاً •

الظلام فى الدهليز أوشك أن يصبح حالكاً • فلما صار الأمير قرب
ذلك المكان المشئوم الذى سبق أن رأى فيه روجوين مشهوراً سكينه ،
قال يحدث نفسه : « ماذا لو ظهر من ذلك الركن فجأة وأوقفنى فى
السلم ؟ » • ولكن لم يظهر أحد • وتجاوز الباب ، ومضى الى الرصيف ،
ونظر مدهوشاً الى ازدحام الناس فى الشوارع لحظة مغيب الشمس
(وهذا منظر مألوف ببطرسبرج فى أيام القيظ) ثم اتجه نحو شارع
جوروخوفايا • حتى اذا صار على مسافة خمسين خطوة من الفندق ، عند
أول مفرق ، شعر بأحد يلمس كوعه ، وسمع صوتاً يقول له . هامساً
قرب أذنه :

– ليون نيقولايفتش ، اتبعنى يا أخى ، يجب أن تتبعنى •

• انه روجوين

شيء غريب : لقد أخذ الأمير يروى له على الفور ، فرحاً مرحاً متدفقاً فى الكلام حتى ليكاد لا يتم النطق بألفاظه ، كيف انتظره منذ لحظة فى دهليز الفندق •

فقال له روجوين فجأة :

– كنت هناك فعلاً • هلم بنا !

فدُهِش الأمير من هذا الجواب ، غير أن دقيقتين على الأقل قد انقضتا بين اللحظة التى فهم فيها الجواب واللحظة التى دُهِش فيها من هذا الجواب • وشعر عندئذ بخوف وأخذ يلاحظ روجوين • كان روجوين يتقدمه نصف خطوة قريباً • وكان ينظر الى أمام ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا ينتبه الى المارّة أى انتباه ، فاذا اقترب من أحدهم تحاشاه بحركة آلية على غير شعور •

سأله الأمير فجأة :

– لماذا لم تسأل عنى فى الفندق ما دمت قد ذهبت اليه ؟

فتوقف روجوين ، ونظر اليه ، وفكّر ، ثم قال وكأنه لم يدرك السؤال ادراكاً واضحاً :

– اسمع يا ليون نيقولايفتش • سِرُّ أُمَامى قدماً الى أن تبلغ منزلى ، أتعرفه ؟ أما أنا فأسير فى الجهة الأخرى من الشارع • ولكن احرص على أن نمضى معاً ••••• انتبه !

قال هذا وعبر الشارع منتقلاً الى الرصيف الآخر ، متبهاً مع ذلك الى الأمير ليرى هل سار كما أمره • فلما لاحظ أن الأمير واقف ينظر اليه

محملقاً دلّه بيده على اتجاه شارع جوروخوفايا ، ثم استأنف سيرة متلفتاً
بغير انقطاع ليراقب الأمير ويحضه على أن يتبعه • حتى اذا تأكد من أن
ليون نيقولايفتش قد فهم عنه وأنه لا يعبر الشارع ليلحق به عادت اليه
طمأنيته • وقد خطر ببال الأمير أن روجوين يترصد مرور أحد وأنه
انتقل الى الرصيف الثانى حتى لا يفلت منه ، فساءل : « ولكن لماذا لم
يحدد الشخص الذى يجب ترصده ؟ » • وسارا على هذا النحو قرابة
خمسائة خطوة ، فاذا بالأمير يأخذ يرتعش ارتعاشاً قوياً دون أن يعرف
لماذا يرتعش • وكان روجوين ما يزال يلتفت اليه ولكنه لا يلتفت اليه
الآن الا من حين الى حين • ونفذ صبر الأمير فحرك يده يستوقف صاحبه
ويدعوه اليه • فسرعان ما عبر روجوين الشارع قادماً نحوه •
سأله الأمير :

— هل ناستاسيا فيليوفا عندك فى البيت ؟

— نعم •

— وهل أنت الذى نظرت الى من وراء ستارة النافذة ؟

— نعم ...

— آف ... أفانت ...

ولكن الأمير لم يعرف كيف يكمل جملة ، ولا ماذا يلقي من
سؤال • وكان قلبه عداً ذلك يخفق خفقاناً بلغ من القوة أن الكلام أصبح
يشق عليه •

صمت روجوين هو أيضاً ، ونظر اليه نظرة من يحلم ، كما فعل
منذ قليل ... ثم قال فجأة وهو يتهاى لعبور الشارع :

— هيساً بنا • انا ذاهب الى هناك • اسبقنى انت • لنمش منفصلين ••

ذلك أفضل ... يمشى كل واحد فى جهة ... سوف ترى •

فلما دخلا شارع جوروخوقايا أخيراً ، واقتربا من منزل روجويين
شعر الأمير مرةً أخرى بأن ساقيه تتشيان تحته حتى ليكاد يعجز عن
السير • كانت الساعة قريبة من العاشرة مساءً • وكانت نوافذ الجناح الذى
تقيم فيه العجوز ما تزال مفتوحة • وكان كل شيء فى بيت روجويين
مغلقاً ، وكانت الستائر المسدلة تبدو فى ضوء النسخ أشد بياضاً •

ووصل الأمير الى مستوى المنزل وهو ما يزال على الرصيف المقابل •
فلما رأى روجويين يصعد درجات المدخل ويشير اليه أن يأتى بادر الى
اللاحاق به وأدركه •

همس روجويين قائلاً له وهو يتبسم ابتسامةً فيها مكر ويكاد يكون
فيها رضى :

– البواب لا يعلم اننى عدت • قلت له منذ فترة اننى ذاهب الى
بافلوفسك ، وقلت هذا الكلام نفسه لخادمة أُمى • سوف تدخل دون أن
يسمعنا أحد •

وكان قد أخرج المفتاح فهو الآن فى يده • وحين صعد السلم
التفت نحو الأمير وأشار يأمره بأن يمشى بمزيد من الهدوء والرفق •
وفتح باب شقته دون ضوضاء ، وأدخل الأمير ، وتبعه محترساً ، فأغلق
الباب ثانية ووضع المفتاح فى جيبه •
قال بصوت خافت :

– هلمَّ !

كان يهمس همساً منذ أن أخذ يكلم الأمير على رصيف شارع
ليتائنيا • ان المرء يدرك أن نفسه مضطربة اضطراباً عميقاً رغم هدوئه
الظاهر • وحين دخلا الصالة التى تقع قبل حجرة المكتب أقرب من
النافذة ، ودعا الأمير اليه وقد لاح فى وجهه معنى السر • ثم قال :

- اسمع • حين قرعت بابي في هذا الصباح ، كنت أنا هنا ، وسرعان ما حزوت أن القارع هو أنت • اقتربت من الباب ماشياً على رءوس الأصابع ، وسمعتك تكلم بافتونينا • وكنت قد أمرتها منذ مطلع الصباح أن لا تجيب أى انسان يقرع جرس بابي ، أياً كان العذر الذى يتعلل به ، سواء أكان القارع أنت أم كان شخصاً آتياً من عندك ، أم كان أى شخص آخر • وكان الأمر الذى أصدرته إليها يستهدفك أنت خاصة ، اذا بدا لك أن تجيء بنفسك سائلاً عنى ، وقد سميتك لها • فلما خرجت ، خطر ببالي أنك ربما رحت ترابط فى الشارع مترصداً مترقباً • فدنوت من هذه النافذة فأزحت ستارتي لألقى نظرة ، فرأيتك واقفاً هناك تنظر الى فعلاً • هكذا جرت الأمور •••

قال الأمير بصوت مختق :

- ف ••• فأين ناستاسيا فيليوفنا ؟

أجاب روجوين ببطء بعد تردد قصير :

- هى ••• هنا •

- أين ؟

فرفع روجوين عينيه الى الأمير ، وتفرس فيه محدقاً • ثم قال له :

- هيّا • تعال •

انه ما يزال يتكلم هامساً ، بطيئاً ، ذاهلاً ذلك الدهول نفسه • حتى حين روى كيف أزاح الستارة كان رغم ما باح به ، يبدو عليه أنه يريد أن يتكلم عن شىء غير هذا تماماً •

ودخلا حجرة المكتب • لقد أٌجريت فيها تغييرات منذ الزيارة الأخيرة التى قام بها الأمير • ان ستارة من قماش البروكار تشطر الغرفة الآن شطرين ، فتفصل حجرة المكتب بمعنى الكلمة عن نخذع النوم الذى

يوجد فيه سرير روجويين • ان الظلام حالك فى الغرفة • ان لىالى
بطرسبرج « البيضاء » هى الآن فى نهايتها ، فلولا أن القمر كان بدرأ ،
لما كان فى وسع المرء أن يميز أى شىء فى هذه الشقة التى كانت ستائرهما
المسدلة تزيدها ظلاماً • الحق أنه ما يزال فى امكان المرء أن يرى
الوجوه ، ولو رؤية غامضة • كان وجه روجويين أصفر كما عهد •
وكانت عيناه ترسلان الى الأمير نظرة ثابتة لكنها جامدة •

قال الأمير :

- ينبغى أن تشعل شمعة •

فأجابه روجويين وقد أمسكه من يده وأجبره على الجلوس :

- لا ، لا ينبغى •••

وجلس هو أمامه • ان كرسيه يبلغ من القرب أن ركبتيه وركبتي
الأمير تكاد تتلامس • وكانت توجد بينهما منضدة صغيرة مدوورة
الى جانب •

قال وكأنه يشجعه على البقاء :

- اجلس • لنسترح هنا لحظة •

وخيم الصمت دقيقة • ثم أضاف يقول بلهجة يصطنعها المرء حين
يجرى الحديث على تفاصيل تافهة فراراً من مواجهة المسألة الأساسية :

- قدّرت أنك قد تنزل ذلك الفندق نفسه • وحين ولجت الدهليز
قلت لنفسى : من يدري ؟ لعله هو أيضاً ينتظرني فى هذه اللحظة هنا كما
انتظره ! هل ذهبت الى أرملة معلم المدرسة ؟

قال الامير بمشقة كبيرة بينما قلبه يكاد ينفجر من شدة الحفقان :

- نعم •••

- قدّرت ذلك أيضاً • قلت لنفسي : سيكون هذا مبعث هذر أيضاً
... ثم خطر ببالي أن أجيء بك الى هنا لتقضى هذه الليلة معاً ...
- روجويين ، أين ناستاسيا فيليبوفنا ؟
بذلك دمدم الأمير فجأة وهو ينهض • كانت أعضاؤه كلها ترتعش •
ينهض روجويين هو أيضاً • وقال مومئاً برأسه الى الستارة :
- هي هناك •
فهمس الأمير سائلاً :
- أهى نائمة ؟
- هيه ... هيّا بنا الى هناك ... ولكنك ... بل هيّا بنا ...
وأزاح الستارة ، وتوقف ، والتفت نحو الأمير • وقال له أخيراً
وهو يدعوّه بإشارة أن يتقدم :
- ادخل !
قال الأمير :
- الظلام دامس •
فقال روجويين مجمّجماً :
- لكنك تستطيع أن ترى •
- لا أكاد أميّز الا ... السرير •
قال روجويين بصوت خافت :
- اقترب أكثر •
فتقدم الأمير خطوة ، ثم تقدم خطوة أخرى ثم توقف • لبث دقيقة
أو دقيقتين جامداً لا يتحرك ، محاولاً أن يثقب بنظره الظلام • لم يقل
أحد من الرجلين كلمة واحدة طوال المدة التي بقيا خلالها قرب السرير •

كان قلب الأمير يخفق خفقاناً يبلغ من القوة أن دقاته تكاد تُسمع في صمت الموت الذي يخيّم على الغرفة • حتى إذا ألفت عيناه الظلمة أمكنه أن يميز السرير • كان أحد ينام على السرير ساكناً سكوتاً مطلقاً • لا صوت يُسمع ، لا نسمة ! كان النائم مغطى من الرأس الى القدمين بلاءة بيضاء ، لكن أعضائه لا ترسم الا ارتساماً غامضاً • كل ما يراه المرء من تنوءات الملاءة أنه جسم انسان مسجى تحتها • وفي كل جهة من حوله : على السرير ، في أسفل السرير ، فوق المقعد المقابل ، وحتى على أرض الغرفة ، بُشرت ثيابٌ متناثرة على غير نظام : فستان فخم من حرير أبيض ، أزهار ، أشرطة • وعلى منضدة صغيرة قرب السرير تلتصع جواهر ماسٍ وُضعت هنالك باهمال • وفي آخر السرير كتلة من تطريزات يخرج منها طرف قدمٍ عارية كأنها منحوتة من مرمر ، قدم جامدة جموداً رهيباً مرعباً •

كلما أمعن الأمير النظر ، بدا له صمت هذه الغرفة أعمق وأدلّ على الموت • واستيقظت ذبابة على حين فجأة وطفقت تدندن ، وحوّمت فوق السرير ، ثم حطت على المنضدة الصغيرة الى جانبه • سرت في جسم الأمير رعدة •

قال له روجوين وهو يلمس ذراعه :

• فلنخرج •

خرجا من مخدع النوم ، وعادا يجلسان على مقعديهما متقابلين كما كانا • ان الأمير يرتجف مزيداً من الارتجاف لحظةً بعد لحظة ، ولا يحوّل نظره المستفهمة عن وجه روجوين •

قال روجوين أخيراً :

• أرى يا ليون نيقولا يفتش أنك ترتجف ارتجافك عند دنوّ نوبة

مرضك • هل تتذكر كيف كان يحدث هذا بموسكو ؟ أو كيف حدث هذا مرة قبل موافاة النوبة ؟ اننى أَسْأَلُ ما عسائى أَفْعَلُ بك اذا وقع لك شئ من ذلك ***

كان الأمير يصغى اليه بانتباه ، جاهدأ أن يفهم عنه ، مستمراً على مساءلته بعينه •

وقال يسأله أخيراً وهو يومئ الى جهة الحاجز بإمالة من رأسه :
- أأنت فعلت هذا ؟

فهمس روجوبين خافضاً رأسه :

- نعم أنا •

ولبثا خمس دقائق لا يتبادلان كلمة •

ثم عاد روجوبين الى فكرته كأن سؤال روجوبين لم يقاطعه فيصرفه عما كان بسيله ؟ قال يتابع كلامه السابق :

- اذا وافقت الآن نوبة ، فان صراخك سيُسمع فى الشارع أو فى فناء المنزل ، فيدرك السامعون أن فى الشقة ناساً ، فيجئون يقتحمون الباب ويدخلون •• لأنهم جميعاً يظنون أننى غائب • اذا كنت لم أشعل شمعة ، فمن أجل أن لا يرى أحد من الشارع أو من فناء البيت شيئاً • اننى حين أتغيب ، أحمل مفاتيحي فلا يدخل أحد الى هنا خلال ثلاثة أيام أو أربعة ولو لترتيب الشقة • تلك هى القاعدة التى وضعتها • فيجب أن تدبّر أمرنا بحيث لا يعلم أحد أننا نبيت الليلة ***

قال الأمير :

- انتظر • اننى سألت البواب والحادمة العجور أَلَمْ تجيء ناستاسيا فيليوفنا لتبيت هنا ••• فهما اذن يعرفان أنها جاءت •

- لا أجهل هذا • لقد قلت للخادمة بافوتيفا ان ناستاسيا فيليوفا جاءت الى هنا أمس ثم سافرت ثانية الى بافلوفسك بعد عشر دقائق • لا يعرف أحد أنها باتت هنا • ولقد دخلت معها بالأمس خلصة كما دخلت معك اليوم • كنت أقدر ونحن في الطريق أنها لن تحب أن تدخل ، لكنني أخطأت التقدير ! كانت تتكلم همساً ، وتسير على رؤوس الأصابع ، وتشمر فستانها من حولها حتى لا يُسمع له خفيف ، حتى لقد فرضت عليّ الصمت بإشارة من يدها حين كنا على السلم • منك أنت انما كانت ما تزال خائفة • حين كنا في القطار كان خوفها جنوناً مطبقاً • وهى التى طلبت أن تبيت هنا • كانت فكرتى الأولى أن أصحبها الى عند أرملة معلم المدرسة ، ولكنني لم أفلح فى حملها على ذلك • قالت : « اذا ذهبت الى هناك فسيهتدى الى الأمير فى الفجر • خبثتي عندك • وغداً أفرّ الى موسكو متى طلع الصبح ! » • وكانت تنوى أن تذهب من موسكو الى أوريل • لقد اضطجعت على السرير وهى تكرر أننا سنمضى الى أوريل ••

- انتظر : ماذا تنوى أن تفعل الآن يا بارفيون ؟

- عجيب أمرك ! انك بهذا الارتعاد المستمر ترعبنى ! سنبت الليلة هنا معاً • ليس عندى سرير الا ذلك السرير • ولكنني دبّرت الأمر على هذا النحو : نأخذ وسائل الأريكتين فنجعل منها سريراً على الأرض قرب السبادة لى ولك ، وهكذا ينام أحدها الى جانب الآخر • حتى اذا جاءوا وفتشوا الغرفة ، عثروا عليها وحملوها • وسيسألوننى عما حدث فأقول لهم اننى انا الفاعل ، فيقتادوننى فوراً • أما الآن ، فلتترقد الآن قريّة منا ، قريّة منك ومنى معاً !•••

قال الأمير مجبّذاً بحرارة :

« نعم ، نعم !

– يجب اذن أن لا نتعرف وأن لا ندع لأحد أن يأخذها •

قال الأمير :

– أبداً ! بحال من الأحوال ! لا ، لا ، لا !!!

– ذلك ما عقدت عليه عزمي يا بني ••• لن نتيح لأحد أن ينتزعها
منا بحال من الأحوال ، مهما كلف الأمر • سنقضى هذه الليلة بهدوء •
لقد ظلمت بقربها النهار كله ، لم أخرج الا ساعة واحدة في الصباح ، ثم
خرجت في المساء لأبحث عنك وأجيبك • هناك شيء أخشاه : هو أن
تنتشر من الجثمان رائحة بسبب هذا الحر الحاقق • هل تشم شيئاً ؟

– جائز • لست متأكداً • ولكن الرائحة ستشتد في الصباح حتماً •
– لقد غطيتها بقماش مشمّع ، قماش مشمّع أمريكي ممتاز ،
وفرشت الملاءة فوق ذلك الغطاء • وحولها وضعت أربع زجاجات مفتوحة
من سائل جدانوف ؟ وما تزال الزجاجات في موضعها •••

– نعم ••• كما فعلوا هناك ••• في موسكو ••

– بسبب الرائحة يا عزيزي • لينك ترى كيف ترقد ! • غداً في
الصباح ، حين يطلع النهار ، انظر اليها • هيه ، ماذا ؟ أصبحت لا تستطيع
النهوض ؟

قال روجوين ذلك مدهوشاً خائفاً حين رأى الأمير يرتعد ارتعاداً
يبلغ من الشدة أنه أصبح لا يستطيع النهوض على قدميه •

دمدم الأمير يقول :

– ساقاني لا تطاوعان ••• مرد هذا الى الرعب ••• أنا أعرف
ذلك • فمتى زال الرعب أمكنني أن أنهض •••

– انتظر .. سأصنع سريرنا ، فستمدد .. وأتمدد أنا بقربك ...
ونصفي ... لأننى يا صديقى .. لا أعرف .. يا صديقى .. لا أعرف
الآن كل شيء بعد' ... لذلك ألفت نظرك ... حتى تعرف أنت ...
سلفاً ..

كان روجويين وهو يتمم بهذه الأقوال المضطربة المفككة قد أخذ
يهيم السرير . واضح أنه ربما كان منذ الصباح يفكر فى طريقة ترتيب
الوسائد ليجعل منها سريراً . لقد قضى الليلة البارحة راقداً على الديوان .
ولكن الديوان لا يتسع لشخصين ، وهو يحرص حرصاً مطلقاً على أن يرقداً
معاً . لذلك أخذ ينتزع عن الديوانين جميع وسائدهما المختلفة الأحجام ،
ويجرها من أول الغرفة الى آخرها بكثير من العناء ، ليصنع منها سريراً
أمام الستارة . حتى اذا فرغ من ذلك كيفما اتفق ، اقترب من الأمير
بخنان وحماسة فأمسكه من تحت ذراعيه وأنهضه وساعده على الوصول
الى ذلك السرير . فلاحظ عندئذ أن الأمير كان قد استرد قدرته على
السير وحده ، فقال لنفسه : « انقضى اذن رعبه » . ولكن الأمير كان
ما يزال يرتعد .

أرقده روجويين على الوسادة اليسرى ، أفضل الوسادتين ، ورقده
هو على الوسادة اليمنى مرتدياً جميع ملابسه عاقداً يديه وراء عنقه .

واستأنف كلامه قائلاً على حين فجأة :

– الجو حار حقاً يا صديقى ، وسوف تنتشر الرائحة لا محالة ...
اتنى أخشى أن أفتح النوافذ . عند أمى أصص أزهار كثيرة ، عندها
أزهار كثيرة عطرة عبقة . خطر ببالى أن آتى بها الى هنا . لكن ذلك
يمكن أن ينبّه بافوتيفنا ، فهى شديدة حب الاطلاع .

قال الأمير مؤيداً :

- هي شديدة حب الاطلاع •
- كان يمكن شراء باقات أزهار ... واحاطتها بها احاطة تامة •
- لكنني قدّرت يا صديقي أنه أمر يمزّق القلب تمزيقاً ... أن تُرى
مغطاة بالأزهار هكذا !! ...
- قل لي ...
- كذلك بدأ الأمير يسأله مرتبكاً ، كإنسان يبحث في ذاكرته عن شيء
يريد أن يسأل عنه ولكنه لا يكاد يتذكره حتى ينسأه •
- قل لي ... بأي شيء فعلت ؟ بسكين ؟ بتلك السكين نفسها ؟
- نعم بتلك السكين نفسها •
- انتظر أيضاً ! أريد أن أسألك يا بارفيون ... هناك أسئلة كثيرة
أريد أن ألقها عليك ... أسئلة عن أمور كثيرة ... ولكن قل لي أولاً
لأعرف : هل كنت تنوى أن تقتلها قبل زواجنا ، بطعنة سكين ، على عتبة
الكنيسة ؟ أنعم أم لا ؟
- أجاب روجوين بخشونة ، مدهوشاً من السؤال ، حتى لكأنه لم
يدركه :
- لا أعرف أكنت أنوى ذلك أم لا ...
- ألم تصطحب سكينك أبداً حين جئت الى بافلوفسك ؟
- لم أصطحبها أبداً •
- وأضاف يقول بعد لحظة صمت :
- عن هذه السكين ، اليك كل ما أستطيع أن أقوله لك يا ليون
نقولاً يفتش : لقد تناولتها في هذا الصباح من درجٍ مقفل بالفتاح ، لأن
كل شيء قد تم بين الساعة الثالثة والساعة الرابعة • كنت أحتفظ بها دائماً
بين صفحات كتاب ... و ... و ... اليك شيئاً آخر أدهشني : لقد نفذت

السكين تحت الثدي الأيسر ، الى عمق سبعة سنتيمترات تقريباً ... فلم يكذب ينسكب دم • لم ينسكب من الدم أكثر من نصف ملعقة ...

قال الأمير وهو ينصب قامته بتأثير انفعال فظيع رهيب :

- هذا أعرفه ... أعرف هذا ... قرأت عنه ... ذلك ما يسمى نزيفاً داخلياً ... حتى ليتفق أن لا تنسكب قطرة دم واحدة • يحدث هذا حين تنفذ الطعنة الى القلب مستقيمة ...

قاطعته روجويين يقول فجأة وهو يجلس على مضجعه مذعوراً :

- صه ! هل تسمع ؟ هل تسمع ؟

أجابه الأمير وهو ينظر اليه ، قائلاً بلهجة الذعر تلك نفسها :

- لا ! !

- صوت مشى ! هل تسمع ؟ فى الصالة ...

أصاخ الاثنان بسمعيهما •

وقال الأمير بثقة :

- سمعت !

- صوت مشى !

- هل يجب اقفال الباب ؟

- نعم ...

أحكما وضع المزلاج ، وعادا يرقدان • وأعقب ذلك صمت طويل •

وفجأة عاد الأمير يهمس بلهجة التعجل والاضطراب تلك نفسها ، كأنه وقد استرد تسلسل تفكيره كان يخشى أن يضيعه من جديد • قال وهو يشب عن مضجعه :

- ها ... نعم ... أردت أن أطلب منك ورق اللعب ! ورق اللعب
... قيل لى انك كنت تلاعبها بالورق .

قال روجوين بعد لحظة :

- نعم *

فسأله الأمير :

- فأين هو ... ذلك الورق ؟

قال روجوين بعد صمت أطول :

- هو ذا ... خذ ...

قال ذلك ، وأخرج من جيبه ورق لعب ملفوفاً بغلاف ، ومستعملاً
من قبل ، ومدّه الى الأمير . فتناوله الأمير ، ولكن دون أن يبدو عليه أنه
يدرك ما يفعل . ان شعوراً أليماً بالحزن قد عاد يخنق صدره ويهصر
قلبه . وأدرك أنه فى هذه اللحظة ومنذ مدة غير قصيرة كان يقول ويفعل
غير ما كان ينبغى أن يقول وما ينبغى أن يفعل . مثال ذلك أن ورق اللعب
هذا الذى يمسكه الآن بيديه والذى أسعده كثيراً أن يحصل عليه لن
ينفعه بعد اليوم فى شيء . وها هو ذا ينهض ويضم يديه أحداها الى
الأخرى بحركة تدل على لوعة لا حدود لها . وكان روجوين مضطجماً
جامداً فلم يبد عليه أنه أبصر هذه الحركة ، غير أن عينيه الثابتين
المحملتين كانتا تتقدان فى الظلام . جلس الأمير على كرسى ونظر الى
رفيقه مرتاعاً . واثمضى على هذا نصف ساعة . وفجأة قال روجوين وهو
ينفجر فى ضحك صاخب ، ناسياً أن عليه أن يتكلم بصوت خافت :

- الضابط ... هل تتذكر ذلك الضابط ...؟ هل تتذكر كيف

جلدته بالسوط فى حفلة الموسيقى ؟ ها ها ها ... هل تتذكر ؟ وطالب
كلية الحربية ... طالب الكلية الحربية ... الذى وثب ...

اتنفّض الأمير وقد اعتراه رعب جديد • وهذا روجوين فجأة ،
فمال نحوه برفق ، وجلس الى جانبه ، وأخذ يلاحظه • كان قلبه يدق
دقاً قوياً ، وكان يتنفس بمشقة وعناء •

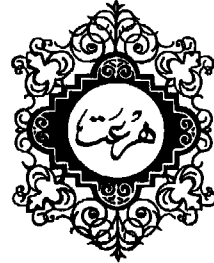
كف روجوين عن الالتفات اليه ، حتى لكأنه نسيه • لكن الأمير
ظل يرمقه منتظراً • وكان الوقت يمضي ، وأقبل الصبح • كان روجوين
يأخذ يدمدم بين الفينة والفينة على حين فجأة ، فيقول بصوت ثاقب كلمات
مفككة ، ويطلق صرخات تتخللها ضحكات : فكان الأمير عندئذ يبسط
عليه يده المرتعشة ، فيمسح له رأسه برفق ، ويلعب بأصابعه شعره
وخديه !... ذلك كل ما كان يستطيع أن يفعله • وكانت تعاوده
الرعدات التي تسرى في جسمه • ومرة أخرى أصبحت ساقاه تتشبان
تحتّه • ان احساساً جديداً كل الجدة كان قد غزا قلبه ، وملأ نفسه بقلق
غير ذي نهاية •

وطلع النهار أثناء ذلك • اضطجع الأمير أخيراً على مرقده ، وقد
هدّء التعب وأنهكه الألم ، وأطبق بوجهه على وجه روجوين الشاحب
الجامد • وسالت دموع من عينيه على خدي روجوين ، ولكن لعله كان
لا يحسن انسكابها بل ولا يشعر بها •••

المهم على كل حال أنه حين فُتح الباب بعد بضع ساعات وُجد القاتل
هاذياً مغمى عليه ، ووُجد الأمير جالساً بقربه ، جامداً صامتاً على مضجعه :
فكلما صرخ المريض أو هذى أسرع الأمير يمسح يده المرتعشة شعره
وخديه ملاطفاً مهدئاً • ولكن الأمير كان قد أصبح منذ ذلك الحين لا يفهم
شيئاً من الأسئلة التي أُلقيت عليه ولا يتعرف الناس الذي دخلوا وأحاطوا
به • فلو جاء شنايدر في تلك اللحظة من سويسرا ليرى المريض الذي
كان يعالجه في الماضي لتذكر الحالة التي كان عليها هذا المريض في السنة
الأولى من معالجه بسويسرا ، ولقال بحركة تنم على اليأس كما فعل
حينذاك : « أبله ! » •

الفصل الثاني عشر

خاتمة



أرملة معلم المدرسة الى بافلوفسك ومضت رأساً الى بيت داريا الكسييفا التي كانت ما تزال مشدوهة منذ الليلة البارحة • فقصت عليها كل ما كانت تعرفه ، وألقتها بذلك الى رعب لم يستطع شيء أن يهدئه • وقررت المراتان فوراً أن تقابلا ليديف الذي اضطرب هو أيضاً من جهتين ، جهة أنه صديق للأمير ، وجهة أنه مالك للشقة التي يسكنها الأمير • وارتأتى ثلاثة أشخاص هم داريا الكسييفا وفيرا وليديف (بنصيحة من ليديف) أن يسافروا الى بطرسبرج لينموا بأقصى سرعة ممكنة « ما قد يحدث فعلاً » • وهكذا فتحت الشرطة باب بيت روجويين منذ الغداة فى الساعة الحادية عشرة من الضحى ، بحضور ليديف والسيدات وأخى روجويين ، سيميون سيميونوفتش ، الذى يقيم فى الجناح الآخر من المنزل • ومما شجع على اتخاذ هذه المبادرة أكثر من أى شيء آخر ما ذكره البواب من أنه رأى بارفيون سيميونوفتش يرجع الى البيت متسللاً بخطى كخطى الذئب ، من جهة سلم الباب ، فى صحبة رفيق • فلم يبق عندئذ أى تردد ، فافتُح باب الدخول الذى طالما قُرع جرسه بالأمس فى غير طائل •

أُرقد روجويين مدة شهرين مصاباً باحتقان دماغى • فلما شُفى حَقَّق معه وحُكِم عليه • وقد جاءت أقواله فى التحقيق صادقة كل

الصدق دقيقة كل الدقة مقنعة كل الاقناع ، فأخرج الأمير من القضية منذ البداية • أما في المحاكمة فقد كان صامتاً طول الوقت • لم يعارض المحامي البارع البليغ المكلف بالدفاع عنه حين برهن بكثير من الوضوح ومن المنطق في آن واحد على أن الجريمة انما ارتكبت على أثر نوبة حمى دماغية سبقت بداياتها وقوع الكارثة بمدة طويلة ، وليست تلك الحمى الا نتيجة للأحزان والأشجان التي زخر بها قلب المتهم • ولكن روجويين لم يصف شيئاً لتدعيم هذا الرأي ، واقتصر - كما فعل في التحقيق - على أن يبسط تفاصيل الحادث بوضوح وجلاء ودقة وتحديد •

استفاد روجويين من الظروف المخففة فحكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً في سيريرا • وقد سمع الحكم دون أن يهتز أو يتأثر ، وكان شارد الفكر « حالم » الهيئة • وآلت ثروته الضخمة الى أخيه ، الا جزءاً يسيراً كان قد بدّده في مجون الآونة الأولى • وقد سراً أخوه سيميون سيميونوفتش بذلك سروراً عظيماً •

ان أمه العجوز ماتزال حية ، ويبدو أنها تتذكر ابنها الحبيب بارفيون سيميونوفتش في بعض الأحيان ، ولو تذكرت غامضاً مبهمًا • لقد صان الله فكرها وقلبها من ادراك النازلة الفظيعة التي زارت بيتها •

وليديف وكيلر وجانيا وبتسين وآخرون كثيرون من أشخاص روايتنا ، ظلوا يعيشون كما كان يعيشون في الماضي • انهم لم يتغيروا كثيراً ، فلا نكاد نجد ما نقوله عنهم • ومات هيبوليت وهو في حالة اضطراب شديد واهتياج رهيب ، قبل الموعد الذي كان يتوقعه بقليل ، بعد نحو خمسة عشر يوماً من مقتل ناستاسيا فيليوفنا • وتأثر كولا بهذه الأحداث كلها تأثراً عميقاً • فاقرب من أمه اقتراباً حاسماً • ان نينا ألكسندروفنا قلقة عليه ، فهي تجده مسرفاً في التأمل والتفكير بالقياس الى سنه • ومن يدري ؟ قد يصبح في المستقبل رجلاً ذا شأن • يجب أن

نذكر في هذه المناسبة أنه هو الذي عُنِيَ بترتيب الاجراءات التي حددت
مصير الأمير في المستقبل . كان منذ مدة طويلة قد ميَّز أوجين بافلوفتش
رادومسكى على جميع الناس الذين عرفهم في الآونة الأخيرة . فكان أول
من ذهب اليه فقصَّ عليه كل ما يصرفه عن الحوادث وعن حالة الأمير
الراهنَة . ولم يخطئ ظنه : فقد أظهر أوجين بافلوفتش اهتماماً كبيراً
وعناية حارة بمصير « الأبله » المسكين ؛ وبفضل جهوده ومساعدته وضع
الأمير مرة أخرى في معهد شنيدر بسويسرا .

وسافر أوجين بافلوفتش هو نفسه الى الخارج متوتراً أن يقيم في
أوروبا مدةً طويلة . كان ينعت نفسه ، مخلصاً كل الاخلاص ، بأنه
« رجل لا تحتاج اليه روسيا » . وكان يزور صديقه المريض عند
شنيدر في أحيان كثيرة ، مرةً كل بضعة أشهر على الأقل . ولكن
شنيدر يبدو أكثر همّاً وغماً في كل مرة ، فهو يهز رأسه ، ويفهم
الزائر أن أعضاء التفكير عند مريضه معطلة تعطلاً كاملاً ، وأنه اذا كان
لا يقطع بأن حالة المريض لا يمكن أن تشفى ، فهو متشائم في تخميناته
أشد التشاؤم . فكان أوجين بافلوفتش يبدو متأثراً تأثراً شديداً ، لأنه
رجل ذو قلب حساس . وقد برهن على ذلك اذ قبل أن يكتب اليه كوليا ،
واذ كان يجيب على رسائله أحياناً .

وقد ظهرت في هذه المناسبة احدى صفات طبعه . ونحن نسمح
لأنفسنا بأن نشير اليها لأنها صفة حسنة . ان أوجين بافلوفتش ، بعد كل
زيارة من زيارته لمعهد شنيدر ، كان - عدا ما يكتبه الى كوليا - يرسل
الى شخص آخر بطرسبرج رسالةً تشرح حالة الأمير الصحية شرحاً
مفصلاً ولطيفاً الى أبعد الحدود . وكانت مراسلاته هذه - الى جانب
ما تشتمل عليه من احترام - تعبر (بحرية متزايدة) عن بعض الآراء
ببسطها بصراحة وعن بعض الأفكار وبعض العواطف يعرضها بصدق .

فذلك اذن أول مظهر لشيء يمكن أن يشبه علاقة صداقة حميمة . والشخص الذى كان يبعث اليه أوجين بافلوفتش بتلك الرسائل (وان تكن قليلة متباعدة) ، ويستحق منه كل هذا الاهتمام وكل هذا الاحترام لم يكن الا فيرا ، بنت ليديف . لا نعرف على وجه الدقة كيف اعتقدت هذه الصلات . لا شك فى أن منشأها هو كارثة الأمير التى حزنّت لها فيرا حزناً سقطت بسببه مريضة . أما الظروف الأخرى التى لا بدت انعقاد تلك الصلة فنحن نجهلها .

واذا كنا قد تكلمنا عن تلك المراسلات فلأنها قد نقلت فى بعض الأحيان أنباء عن أسرة ايباتشين ، ولا سيما عن آجلايا ايفانوفنا . ففى رسالة مكتوبة بباريس ، غامضة بعض الغموض ، يذكر أوجين بافلوفتش أن آجلايا ايفانوفنا قد عصفت بها غرام قوى فتزوجت رجلاً بولندياً مهاجراً ، رغم ارادة أهلها ، وأن أهلها لم يوافقوا على هذا الزواج أخيراً الا لاقاء فضيحة ضخمة . وبعد صمت دام ستة أشهر ، بعث أوجين بافلوفتش الى فيرا رسالة ملأى بالتفاصيل يذكر فيها أنه أثناء زيارته الأخيرة للبروفسور شنيدر فى سويسرا ، التقى بأسرة ايباتشين ، (عدا ايفان فيدوروفتش طبعاً ، لأن أعماله تحتجزه فى بطرسبرج) ، والتقى كذلك بالأمير « شتش . . . » ؛ وأن لقاءهم هذا كان غريباً : لقد استقبلوه جميعاً بحماسة ، حتى ان آديلايد وألكسندرا وجدتا أنه يقع على عاتقهما أن تشكرا له « اهتمامه الملائكى بالأمير المسكين » . أما اليزابت بروكوفيتسا فانها حين رأت الأمير مريضاً مذللاً هذا الاذلال قد طفقت تبكى من كل قلبها . لقد زال حقدّها عليه زوالاً تاماً . وأما الأمير « شتش . . . » فقد قال فى هذه المناسبة آراء صادقة وعبر عن حقائق وُفقّ فيها كل التوفيق فجاء كلامه زاخراً بسلامة الحس وحسن الفهم . وقد بدا لأوجين بافلوفتش أنه لم يقم بين

الأمير « شتت » وبين آديلايد اتفاق تام حتى الآن • ولكن بدا له في الوقت نفسه أنه لا بد أن يأتي يوم نرى فيه آديلايد الحارة المندفمة تذعن بارادتها اذعاناً صادقاً أمام ذكاء الأمير « شتت » وتجربته وخبرته • ثم ان المحن التي ألمت بالأسرة قد أثرت فيها تأثيراً كبيراً ولقنتها دروساً كثيرة ، ولا سيما مغامرة آجلاليا مع الكونت البولندي المهاجر • ان ما كانت الأسرة ترتجف خوفاً منه حين رضى أن تزوجه آجلاليا قد تحقق في ستة أشهر ، مع مفاجآت ما كان لأحد أن يتجرأ فيصورها أو تخطر له ببال • لقد اتضح أن هذا الكونت ليس « كوتاً » • وإذا كان مهاجراً فإنه لم يهاجر الا في أعقاب قصة مشبوهة غامضة • لقد استطاع أن يستولى على آجلاليا بالنبل العظيم الذي تتصف به نفسه الممزقة ألماً على وطنه ؟ وبلغ من استيلائه على الفتاة أنها حتى قبل الزواج قد أصبحت عضواً في لجنة من المهاجرين أنشئت في الخارج لاصلاح بولنده • وعدا ذلك أصبحت مريدة من مريدات كاهن كاثوليكي شهير استولى على قلبها وفكرها حتى ملأها بالاندفاع والتعصب • أما الثروة الضخمة التي يملكها « الكونت » ، والتي قدم لأليزابت بروكوفينا والأمير « شتت » • براهين على وجودها تكاد تكون قاطعة ، فقد تبين أنها لم توجد في يوم من الأيام • أكثر من ذلك أن الكونت وصديقه الكاهن الشهير ، قد أقبلحا ، بعد زواج آجلاليا بستة أشهر لا أكثر ، أن يفسدا علاقات آجلاليا بأعضاء أسرتها افساداً كاملاً ، فهم الآن لم يروها منذ عدة أشهر ! • • •

الخلاصة : هناك أشياء كثيرة يمكن أن تروى ، ولكن اليزابت بروكوفينا وبنيتها والأمير « شتت » • كانوا قد بلغوا جميعاً من شدة الارتياح لهذا « الهول » الرهيب أنهم خشوا حتى من الاماع الى بعض الأسور في حديثهم مع أوجين بافلوفتش ، مع علمهم بأن أوجين بافلوفتش كان ، دون أن يحدثوه بشيء ، مطلعاً اطلاعاً تاماً على آخر ما وصلت اليه آجلاليا

باندفاعات هواها • ان اليزابت بروكوفينا المسكينة تود لو ترجع الى روسيا • يقول أوجين بافلوفتش انها قد انتقدت بمرارة وحدة وتحيز كل ما هو أجنبي • « انهم فى أى مكان هنا لا يعرفون كيف يجب أن يُخبز الخبز • وهم فى الشتاء يتجمدون كالقشران فى قبو • على الأقل أتيح لى الآن أن أبكى على هذا الشاب المسكين كما يبكى الروس ، • كذلك قالت اليزابت بروكوفينا متأثرةً وهى تومىء الى الأمير الذى لم يعرفها • ثم ختمت كلامها شبهً غاضبةً وهى تودع أوجين بافلوفتش : • كفى حماسات سخيقة ! آنا لنا أن نسمع صوت العقل ! كل هذا ، كل هذه البلاد الأجنبية التى تشيدون بها ، كل أوروبا هذه التى تعظمونها ، كل هذا ليس الا سراباً ••• ونحن أنفسنا لسنا فى البلاد الأجنبية الا سراباً ••• تذكروا ما أقوله لكم ••• ولسوف ترون بأعينكم ! •••

حواش

الصفحة

- ٩ ★ « مصرف لومبارد » : هو المؤسسة الحكومية التي كانت صندوق ادخار واقراض ثم توقفت عن العمل حين ظهرت البنوك الحديثة .
- ١٨ ★ واحدة من الجزر التي يشكلها فرعاً نهر نيفا ، وفيها قصر من القصور الامبراطورية . وكان في تلك الجزيرة فيلات كثيرة لموظفين يمنعهم عملهم من الابتعاد عن بطرسبرج .
- ٢٠ ★ كانت توجد في بافلوفسك قاعة كبيرة تجاور المعطة ، وكانت توجد حديقة عامة . والقاعة والقصر يتبعان أملاك الدوق الكبير قسطنطين ، ولكن القاعة والحديقة مفتوحتان للجمهور تقام فيهما أثناء الصيف حفلات موسيقية سمفونية ذات شهرة كبيرة .
- ٢٣ ★ في رسالة كتبها دوستويفسكي الى ن. ن. ستراخوف في ٥ نيسان - أبريل ١٨٧٠ ، يعبر عن مثل هذا الرأي بصدد لومونوسوف وبوشكين ، وينكر على تولوستوي حق أن يقارن بهما .
- ٢٤ ★ « فاموسوف » : شخصية من شخصيات مسرحية جريبويدوف الهزلية « كثير من الذكاء ضرر » .
- ٤٢ ★ « وحيدين » : بالفرنسية في الأصل
- ٥٣ ★ بالفرنسية في الأصل
- ٦١ ★ جرح بوشكين في مبارزته مع دانتييس يوم ٢٧ كانون الثاني

الصفحة

- (يناير) ١٨٣٧ ؛ ومات يوم ٢٩ فى الساعة الثالثة بعد الظهر .
• ان رصاصة خصمه قد ثقت أحشاءه .
- ٩٢ ★ يجرى المشهد فى فترة « الليالى البيضاء » بمدينة بطرسبرج .
- ٩٢ ★ ذكرى بيت من الشعر ورد فى « فارست » جوته .
- ١٠٠ ★ ان حصار كارس ، أثناء حرب ١٨٤٥ - ١٨٥٥ قد انتهى بتسليم القلعة للجنرال مورافيف فى ٦ تشرين الثانى (نوفمبر) ، لأن الذخائر والمؤن قد نفذت عند المحاصرين نفادا تاما .
- ١٠٥ ★ ربما كانت هذه الفكاهة تقوم على الصلة اللفظية التى لا تمكن ترجمتها ، بين كلمة بوروك الروسية (ومعناها الرذيلة) ، وكلمة بوروكهود (ومعناها السفينة البخارية) .
- ١١٧ ★ بالفرنسية فى الأصل
- ١٢٣ ★ أغلب الظن أنه الدكتور بوتكين ، طبيب الاسكندر الثانى .
- ١٣١ ★ قطع ذهبية قيمة الواحدة منها عشرة روبلات .
- ١٤٩ ★ «جبل العصافير» : تل صغير فى ضاحية بجنوب شرق موسكو، منه تأمل نابوليون وأركان حربه المدينة فى اليوم الحادى عشر من شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٨١٢ ؛ وفى ذلك التل كان يجمع المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة قبل ترحيلهم الى سيبيريا .
ان هذا التل هو اليوم مرتع نزهة ورياضة ، ويسمى « جبل لينين » .
- ١٥٧ ★ « قومى طليثا » انجيل مرقس ، الاصحاح الخامس ، ٤١
- ١٥٧ ★ « اخرج لعازر » : انجيل يوحنا ، الاصحاح الحادى عشر ، ٤٣
- ١٨١ ★ واضح أن أوجين بافلوفتش يرجع هنا الى « شرح » هيبوليت (صفحة ١٦٣ سطر ١٠) ولكن يجب أن نذكر أنه يستعمل هنا كلمة Chfouka التى تعنى « مقلبا » ، فى حين أن هيبوليت

الصفحة

كان قد استعمل كلمة Choutka التي تعنى مزاحا • فنشابه
اللفظين يبعث المرء على أن يقدر أن الناشر ارتكب خطأ مطبعيا •
فلعل المؤلف إنما استعمل كلمة واحدة •

٢٥١ * « بودكوليوسين » : بطل مسرحية جوجول الهزلية «زواج» •
انه نموذج الطبع الضعيف ، مع انتفاضات استقلالية : لقد قفز
من النافذة في لحظة الزواج •

٢٥٢ * بالفرنسية في الاصل •

٢٥٤ * « بيروجوف » : شخصية رئيسية في قصة عنوانها « شارع
نفسكي » •

٢٧٣ * « نوزديروف » : شخصية مضحكة هزلية من شخصيات رواية
جوجول « النفوس الميتة » : نموذج بوهيمي ، متشدد ، شرير •

٢٨١ * « ياروشكا » : تصغير اسم ياروم ، وهو من يسمى بالفرنسية
جيروم •

٢٨١ * « كابيتوشكا » : تصغير اسم كابيتون •

٣١٤ * صاحبة من ضواحي موسكو

٣١٦ * « الأرشييف الروسي » : مجلة تاريخية أسسها سنة ١٨٦٣ ،
ب • بارتنييف • ورغم أن عدد النسخ التي كان يطبع منها
ضئيل ، فقد كانت تعد على الدوام أفضل نشرة من هذا النوع •

٣٢٢ * هو كتاب « تاريخ حملة ١٨١٥ ، واترلو » ، تأليف الليوننان
كولونيل شاراس ؛ صدر الكتاب بباريس سنة ١٨٦٤

٣٢٤ * بالفرنسية في الاصل :

٣٢٥ * بالفرنسية في الاصل

٣٢٦ * بالفرنسية في الاصل

٣٢٧ * بالفرنسية في الاصل

الصفحة

- ★ ٣٢٧ « هي اذن بنت صغيرة » : بالفرنسية في الأصل
- ★ ٣٢٧ « اياك والكذب ، صديقك المخلص نابوليون » بالفرنسية في الأصل .
- ★ ٣٣٠ « لأن يكون المرء مع نساء ، خير من أن يخطب هنا وهناك خبط عشواء » : يستغل الجنرال في هذه العبارة جناسا لفظيا بين كلمة bobami وكلمة babami (ومعناها : نساء) .
- ★ ٣٣١ « جريشا » : تصغير جريجورى
- ★ ٣٣٢ « ملك روما » بالفرنسية في الأصل
- ★ ٣٣٨ « كامنى أوستروف » : جزيرة فى نهر نيفا شمال بطرسبرج .
- ★ ٣٣٨ « حاميتها » : بالفرنسية فى الأصل .
- ★ ٣٤٠ « بعد كل ما جرى » : بالفرنسية فى الأصل .
- ★ ٣٤١ فريدريك شلوسر (١٧٧٦ - ١٨٦٠) : مؤرخ المانى وضع كتابا بعنوان « التاريخ العام » .
- ★ ٣٤٧ « جلاشا » تصغير آجلايا
- ★ ٣٦٢ ان جلييوف ، عشيق المرأة التى طردها بطرس الأكبر ، واسمها أودوكسيا ، قد اشترك فى الثورة التى أقامها رجال الكهنوت على هذه الأميرة وابنها الكسى . وقد حوكم جلييوف سنة ١٧١٨ فى كينين ، وحكم عليه بالخازوق .
- ★ ٣٦٣ أندره ايفانوفتش أوسترمان (١٦٨٦ - ١٧٤٧) ، ابن قسيس من فستفاليا ، جاء الى روسيا فى السنة الثامنة عشرة من عمره . وقد ألحقه بطرس الأكبر بوزارة الخارجية . فاشترك فى مباحثات صلح نيستاد سنة ١٧٢١ ومعاهدة ١٧٢٣ مع ايران . وقد ترأس الحزب الالماني فى عهد آنا ايفانوفنا ، ونال لقب كونت ورتبة مستشار . ونفى الى سيبيريا بعد أن تم اسقاط ايفان الرابع على يد اليزابث بتروفنا .

الصفحة

- ٣٧٧ ★ يقال ان توماس موروس الذى حكم عليه بالاعدام قد تضرع الى الجلاذ أن لا ينال لحيته بسوء ، قائلا له : « ليس يهمنى كثيرا أن يصيب لحيتى أذى ، ولكن يهمنى أنت أن يقول الناس عنك انك تجيد مهنتك اعادة تامة ، لأن القرار ينص على أن عليك أن تقطع رأسى لا لحيتى » .
- ٣٧٧ ★ « هذا ذنبى » : بالفرنسية فى الأصل .
- ٤٠٠ ★ باللاتينية فى الأصل .
- ٤٠٤ ★ « الخليلين » Khlistes : ملة يرجع عهدها الى نهاية القرن الثامن عشر ، وفى عقيدتها يمتزج نوع من التصوف المسف والانحلال الجنسى .
- ٤١٣ ★ « دعوه يتكلم » : بالفرنسية فى الأصل .
- ٤١٨ ★ ان الدعوة السلافية التى كان ينتمى اليها دوستويفسكى لا تقتصر على أن تكون مذهبا يهدف الى الانبعاث السياسى لجميع السلافيين، بل كان كذلك فلسفة قومية تتضمن حلا روسيا للمشكلات الاجتماعية والأخلاقية .
- ٤٣١ ★ « هذه الأبيات السخيفة » : ان هذه الأبيات جزء من قصيدة بوشكين التى عنوانها « انطفاء فرح الأيام المجتونة » ، والتى تعد من أجمل القصائد الغنائية . فلعل الفتى هيبوليت متأثر هنا بالتيار النقدى الأدبى الذى طلع فى ذلك الزمان والذى يمثلته بيسارييف وأمثاله الذين كانوا يسفهون بوشكين .
- ٤٨٦ ★ «أبيع حياتى بليلة واحدة» : بيت من قصيدة للشاعر بوشكين: « ليالى مصر » .

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كائناً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المبائين "فاذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن الواقعية الخيالية التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما سبراً عمقاً أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

ألكسندر ف. سرلوفيف